

مناهج التحليل النحوي منذ عصر الخليل بن احمد الفراهيدي وحتى نهاية العصر العباسي

رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه

في قسم اللغة العربية والفارسية

إعداد

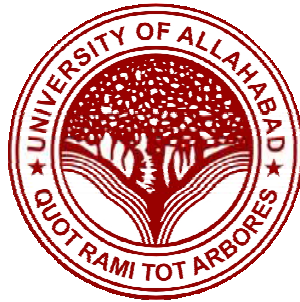
محمد عبد الكريم ياسين

تحت إشراف

البرفسور عبدالقادر الجعفري

رئيس قسم اللغة العربية والفارسية

بجامعة الله آباد - الهند



قسم اللغة العربية والفارسية بجامعة الله آباد

الله آباد - الهند

۲۰۱۵

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تصريح الطالب بأصالة الأطروحة

أؤيد أن هذا البحث هو بحث أصيل ولم يسبق لي نشره في أي مجلة أو كتاب ولم يقدم للحصول على أية شهادة أكاديمية من أي جامعة أو معهد تعليمي آخر، وأنه غير مقتبس من أحد.

الباحث

(محمد عبد الكريم ياسين)



University of Allahabad
ALLAHABAD – 211002

Date: /2015

This is to certify that present thesis entitled “***GRAMMAR ANALYSIS
METHODS SINCE THE TIME OF KHALIL BIN AHMED TO THE
END OF THE ABBASID PERIOD
(FROM 132-556 A.H)***”

submitted by Mohammad Abul Kareem Yaseen for D.Phil
Degree to University of Allahabad is based on his original
research and the candidate has completed his work under my
supervision. The thesis or any part of it has not been submitted to
this University or any other University to the best of my
knowledge.

(Professor, A. Q. JAFARI)

Supervisor

الإهداء

أهدي هذا الجهد المتواضع إلى الذين هم في
أعماق قلبي مع خالص حبي لهم وصدق عواطفني
تجاههم

فهم أهلاً لذلك

.....

.....

....

..

.

شكر وعرفان

إلى أساتذتي الفضلاء الذين رافقوني في مسيرة البحث لهم مني كل
الامتنان والتقدير.....

إلى الذين هم في أعماق قلبي الذين آزروني في مشوار العمل والذين
أكنُّ لهم مشاعر الحب والاحترام....

إلى من كانا سر وجودي في هذه الحياة أُمِّي وأبي لكما مني كل
مشاعر الصدق والوفاء.....

إلى رفيقة دربي وحبوبة عمري ولولاها لما وصلت إلى ما وصلت إليه
زوجتي الحبيبة أم مريم لك مني خالص الحب والامتنان
إلى كل هؤلاء....

انحني لكم بكل إجلال واحترام وفخر فانتم أهل لذلك....

.....

.....

.....

....

...

..

.

محتويات البحث

المحتويات	رقم الصفحة
مقدمة	١٠
مدخل	١٧
المبحث الاول :- التحليل النحوي في الدرس اللغوي العربي القديم	١٨
المبحث الثاني:- الخليل بن احمد الفراهيدي (عبقرى اللغة)	٣٨
الفصل الاول : الاطر النظرية لمنهج التحليل النحو	٤٧
المبحث الاول: ضبط المفاهيم...	٤٧
المبحث الثاني: مرتكزات التحليل النحوي	٦٤
المبحث الثالث : ادلة التحليل النحوي	٨٣
الفصل الثاني: المبحث الأول : التحليل الصرفي عند الخليل بن احمد	٩٩
ومن تبعه من نحاة المدارس النحوية المختلفة ...	
المبحث الثاني : التحليل الإعرابي عند الخليل بن احمد ومن تبعه من	١٥٦
نحاة المدارس النحوية المختلفة ...	
المبحث الثالث : تحليل معاني الأدوات عند الخليل وأسئلة سيبويه لمعلمه	١٧٣
في القضايا التحليلية ...	
المبحث الرابع : خصائص التحليل النحوي عند الخليل بن احمد عن غيره	٢١٧
من النحاة ...	
الفصل الثالث : الموازنة بين اراء الخليل بن احمد ومن تبعه من النحاة	٢٥١
من خلال استعراض الحقبة التاريخية التي مرت بها كل	
مدرسة مع ترجمة مختصرة لاشهر اعلام تلك المدارس	
ومناهجهم التحليلية النحوية	
المبحث الاول: المذهب النحوي في البصرة	٢٥٢
تطور النحو البصري عن الخليل	٢٦١

٢٧٣	خصائص التحليل النحوي في البصرة
٢٧٩	سيبويه : حياته، الكتاب، منهجه ومادته
٣٠١	المبرد : حياته،المقتضب، شهرته،
٣٠٦٨	منهج التحليل النحوي عند المبرد المتمثل في كتابه المقتضب

المبحث الثاني : المذهب النحوي في مدرسة الكوفة

٣٢٥	نشأة النحو الكوفي وأوائل رجاله
٣٢٩	أوائل النحاة
٣٤٤	خصائص التحليل النحوي الكوفي (مرحلة النمو والنضج)
٣٥٨	خصائص التحليل النحوي عند الكوفيين التي تميزوا بها عن البصريين في الاستدلال والجمع والتنظير

٣٦٦

المبحث الثالث : النحو في بغداد (التقاء المذهبين)

٣٧٠	التقاء المذهبين النحويين في بغداد (اتجاهات التحليل النحوي
٣٧٤	البغدادى بشكل عام)
٣٧٥	مدرسة بغداد النحوية
٣٨١	موقف القدماء
٣٩٥	موقف المعاصرين
٤٠٢	غلبة المذهب البصري
٤٠٤	أشهر الدارسين من البغداديين
٤٠٩	من ظل بصريا
٤٠٩	من ظل كوفيا
	من خلط المذهبين

المبحث الرابع : النحو في اقطار الوطن العربي

٤١٤	أ- خصائص التحليل النحوي عند مدرسة النحوية المصرية
٤٢١	منهج التحليل النحوي في المدرسة المصرية (الآراء العامة)
٤٢٩	مدرسة مصر النحوية
٤٣٥	أوائل النحاة المصريين
٤٤٤	ب- النحو في الاندلس

٤٥٠	اوائل النحاة
٤٥٦	خصائص منهج التحليل النحوي في الاندلس من وجهة نظر ابن مضاء الاندلسي في كتابه الرد على النحاة بشكل عام والبصريين والكوفيين بشكل خاص
٤٦٣	ج- النحو في بلاد الحجاز
٤٦٨	د- النحو في بلاد اليمن
٤٧٠	هـ - النحو في بلاد الشام: اشهر النحاة فيها
٤٧٤	قائمة المصادر والمراجع
٤٩١	النتائج والتوصيات
٤٩٤	الخاتمة

مُقَدِّمَةٌ

مقدمة

بسم الله والصلاة والسلام على خير البرية محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه
وسلم أما بعد.

فلا يخفى على احد ما لعلم النحو من دور مهم في علوم اللغة العربية فهو
الأساس في تلك العلوم واليه يعود الفضل في فهم الجملة من حيث التركيب
والإعراب والصرف والاستدلال والاستيضاح والفصل والوصل ومعاني الأدوات وقد
تطور علم النحو العربي إلى مراحل متقدمة بدأ من عصر الخليل بن احمد الفراهيدي
الذي كان ذا الفضل الأكبر على كثير من علوم العربية في تطويرها وابتداعها كعلم
العروض وعلم النقط والشكل وغيرها من العلوم ومرورا بتأسيس أشهر المدارس
النحوية كمدرسة الكوفة والبصرة ومصر وبغداد والتي قعدت لكثير من مسائل النحو
وفصلت وأصلت وحوّت واستوحت فجعلت لنحو أبواباً وفصولاً وفروعا إلى أن انتهى
هذا العلم إلى ما هو عليه في وقتنا الحاضر....

ومن أهم أصول علم النحو هو علم التحليل النحوي الذي كتب فيه الكثير من
النحاة غير أن كثيرا منهم لم يعط هذا العلم القدر الوفير من الوقت والاهتمام، أو
تكلم فيه عن قلة دراية وضعف تمحيص فوصلنا هذا الفن متناثرا في طيات أمهات
كتب النحو من غير تقنين ولا تهذيب ونحن نسعى في بحثنا هذا أن نظهر الجوانب
المثلى لهذا الفن النحوي وان نستنبط المناهج النحوية التي اعتمدها النحاة في
التحليل والاستنباط والتفسير والإيضاح ووجهة نظر كل واحد منهم على حداً من

خلال التحليل لأرائهم والتمحيص لما اعتمدوا عليه من أدلة وقرائن ومزاعم وشواهد ونكتٍ وطرائف حتى يستوضح عندنا كل مشكلٍ ومبهم ...

ونستطيع أن نفهم من خلال المقارنة بين جميع تلك الآراء، الأصول النحوية التي اعتمدتها تلك المدارس في النظر للقضايا النحوية والمسائل اللغوية من زاويتها الخاصة فيسهل علينا الفهم وينجلي عنا الوهم فلا نقع في مشكلٍ ويهتُ علينا كل معضل فلا نزدري رأي عالم ولا نوقر جهل جاهل ولا يأخذنا في الحق لومه لائم فنصل في بحثنا هذا إلى الغاية المنشودة والعبرة الواضحة الجلية للآفهام، إن موضوع التحليل النحوي عظيم الفائدة، يهدي إلى درك معان الكلام، وفقه أسرارهِ والكشف عن نظامهِ. وهو بهذا إجراء لا غنى للناظر في التركيب العربي عنه. والتحليل النحوي الذي نحن الآن بصدد ملامسة القول فيه هو ((تمييز العناصر اللفظية للعبارة وتحديد صيغها ووظائفها والعلاقات التركيبية بينها، بدلالة المقام والمقال))، وقد شدنا هذا الموضوع لما له من أهمية بالغة في مجال الدراسات النحوية فآثرنا بحثه ونحن نعلم مقدار الصعوبات الموجودة في طريق البحث وكثرة العقبات التي تنتظرنا فيه فعقدنا العزم متوكلين على الباري عز وجل في التيسير والتدبير فالله من وراء القصد وهو نعم المولى ونعم النصير.

وإذا أردت ذكر الدراسات السابقة التي تناولت موضوع التحليل النحوي فهي قليلة، ولم يأت منها بهذا العنوان تحديداً - في حدود اطلاعي - إلا كتابان التحليل النحوي عند الإمام الشاطبي في المقاصد الشافية في شرح خلاصة الكافية دراسة في المبادئ والأصول والمنهج لمحمد عدنان جبارين، ومقالان للباحث محمود حسن الجاسم الأول بعنوان أسباب التعدد في التحليل النحوية.

والثاني تعدد الأوجه في التحليل النحو»، ورسالتان مرقومتان الأولى رسالة دكتوراه بعنوان نظرية النحو العربي في ضوء تعدد أوجه التحليل النحو (لوليد حسين محمد عبد الله)، والثانية رسالة ماجستير بعنوان التحليل النحوي وتوجيه الدلالة قراءة في كتاب أمالي ابن الحاجب للزايدي بودرامة.

هذا مع ذكر الإبداع الموازن لمحمد حماسة عبد اللطيف، واللغة العربية معناها ومبناها لتمام حسان، وبالتحديد في فصل النظام النحوي، عند الحديث عن نظرية القرائن.

وقد انتهجت في معالجة هذا الموضوع الخطة التالية.. وهي مدخل فثلاث فصول فخاتمة.

أما المدخل فقد تضمن مبحثين اثنين، فكان المبحث الأول بعنوان.. تاريخ التحليل النحوي في الدرس اللغوي العربي القديم ذكرت فيه ارتباط التحليل النحوي بالنص القرآني، وأن أولهما وليد التدبر في الثاني ثم عرجت على ذكر أهم مظان الممارسات التحليلية. من كتب نحو وتفسير وإعراب قرآن كريم وحديث شريف، ثم ذكرت جملة من الخصائص التي اختصت بها هذه الممارسات. أما المبحث الثاني فقد خصصته للحديث عن حياة الخليل بن احمد الفراهيدي عبقرى اللغة وباقر علومها فذكرت له ترجمة موجزة، وجانباً من جهوده في علوم العربية، وصولاً إلى تعداد مؤلفاته وتحقيقاته.

ثم جاء الفصل الأول المعنون ((بالأطر النظرية لمنهج التحليل النحو)) ليتكفل بالحديث عن التحليل النحوي في شقه النظري عند الدارسين المحدثين وفي الدرس اللغوي الغربي بإيجاز، ليتم التوقف ملياً في الفصول الأخرى عند عصر الخليل بن احمد الفراهيدي وعلماء عصره ومن جاء بعده انتهاء بالعصور العباسية

المتعاقبة للفترة مابين عصر الخليل وحتى ٦٥٦ هجرية بسقوط بغداد على يد المغول

متناولا في ذلك أفضل وابرز ما كتب في علم التحليل النحوي في تلك العصور بالتحليل والمقارنة والتوضيح والوصف والتعليل واعتمدنا ابرز المصادر وأشهرها في ذلك الوقت وليس كلها فإدراك غاية العلم غاية لا تدرك كما قيل قديما، حيث بدأت الفصل بمبحث ضبطت فيه بعض المفاهيم الرئيسة، كمفهوم المنهج والتحليل النحوي.

ثم انتقلت إلى المبحث الثاني الموسوم ((بمركزات التحليل النحوي)) حيث وقفت على الأصول التي يقوم عليها التحليل النحوي، والتي توزعت في حقلين هما المعارف العامة والمعارف الخاصة، ثم ختمت البحث بذكر شروط النص المحلل. ثم جاء آخر مبحثان في الفصل الأول موسوما بأدلة التحليل النحوي، وقد تم فيه التعريف بأدلة التحليل النحوي، والتفريق بينها وبين الأصول، مع الحرص على تفريع الأدلة إلى أدلة تحليل إعرابي، وأدلة تحليل صرفي، وأدلة تحليل لمعاني الأدوات، مع ذكر النماذج الموضحة لكل مستوى. ثم لحقته المبحث بمصطلح وثيق الصلة بالأدلة ألا وهو مصطلح القرائن.

أما الفصل الثاني التطبيقي فقد جاء موسوما بالممارسات التحليلية وخصائصها عند الخليل بن احمد ومن تبعه في سالف العصور وفق منهج تاريخي منظم ، وقد توزع على أربعة مباحث، خصص الأول للتحليل الصرفي حيث أوردت فيه بعض النماذج التي حلها الخليل بن احمد ومن عاصره مرورا بمن جاء من بعدهم ، مع مناقشتها بالرجوع إلى كتب المتقدمين والمتأخرين، ممن تعرضوا لتلك النماذج بالتحليل .

ثم عرضت في المبحث الثاني المعنون ((بالتحليل الأعرابي عند الخليل ومن تبعه)) طائفة من الممارسات الإعرابية، مع مناقشتها أيضا، ورد الآراء والأقوال إلى أصولها، ثم ختمت الممارسة التحليلية بمبحث ثالث ،كان بعنوان ((تحليل معان الأدوات))، عرضت فيه بعض الحروف والأدوات، ضمن سياقاتها، ثم راقبت الخليل في تحليله لها، مع المناقشة والنقد والتقييم هذا لأحط الرجال عند مبحث رابع أخير موسوم ((بخصائص التحليل النحوي عند الخليل بن احمد))

ذكرت فيه ميزات وخصائص اختص بها منهجه من مرجعية تراثية عظيمة وغاية تيسيره كبرى مرورا بطبيعة الممارسة والتمثيل وغير ذلك مما دون في موضعه من هذا البحث ثم أنهيت البحث بخاتمة تضمنت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها .

وقد اتبعت في بحثي هذا المنهج الوصفي مع الإجراء التحليلي وذلك بوصف أقسام منهج التحليل النحوي، والآراء التي تضمنتها ، وعرضها في العصور المراد دراستها مناط البحث .

كما تجلت في مدونة البحث ثم التوجه إليها بعد ذلك بالتحليل والنقد والتقييم، كما تم اللجوء في بعض الأحيان الموازنة بين آراء الخليل بن احمد وغيره من الباحثين تتبعا تاريخيا نحويا مبني على أساس البحث العلمي الرصين بإبراز أهم ما ذكر في جوانب علم التحليل النحوي في عصور العباسية مناط البحث وكان هذا جلليا في طيات الفصل الثالث من الأطروحة وهو آخر فصولها.

ثم ختمت الرسالة بخاتمة تضمنت أهم النتائج والتوصيات والأعمال المستقبلية، وقد أحلت كثيرا من النصوص الداعمة للأقوال إلى الهامش، طلبا للاختصار ودفعاً للتشويش والاستطراد، كما ترجمت لبعض الأعلام ممن ظننت أنهم

غير معروفين وأوردت الآيات القرآنية جميعا بالرسم العثماني، برواية حفص عن عاصم، كما تعمدت التنويع في الأمثلة والنماذج الموضحة، حيث استهللتها من الكتب القديمة والحديثة على حد سواء.

هذا ولا أغادر هذه المقدمة حتى أسجل خالص تقديري وشكري وامتناني لكل من كانت له يد بيضاء على هذا البحث الضئيل .

والشكر موصول إلى أساتذتي الأفاضل وزملائي الأكارم ،كفاء ما أسدوه من صنائع المعروف ،ولا يسعني في آخر هذه المقدمة إلا أن أقول.. قد اجتهدت في انجاز هذا البحث وإخراجه على أحسن وجه، ولم آل جهدا في ذلك. فما كان فيه من خير وصواب فمن الله، وما كان فيه من خطأ وتقصير فمن نفسي ومن الشيطان.

وإذ الأمر على ما قال القائل

ومن له الحسنى فقط

من ذا الذي ما ساء قط

ومُبْلَغُ نَفْسٍ عُدْرَهَا مَثَلٌ مُنَجِّحٌ. والله ولي التوفيق..

مَذْخَل

مدخل:

المبحث الأول: التحليل النحوي في الدرس اللغوي^١ العربي القديم:

أ- التحليل النحوي والنص القرآني:

إن الناظر في تاريخ التحليل النحوي، وبوادره الأولى عند العرب لا يجد مناصاً من التوقف عند ظاهرة فريدة في الحياة الأدبية واللغوية، وهي نزول القرآن الكريم، واستقطابه لأنظار واهتمامات الناس إذ ذاك، فقد غدا - ومنذ بداية تنزله - موضوعاً للدرس والنظر، وما ذلك إلا لبديع لفظه، واتساق نظمته، فقد كان ديدنُ، العربي وهجَّيراهُ أن يتأمل هذا النظم بُغية فهم معانيه، واستكشاف أسرار ألفاظه وتراكيبه، تمهيداً للعمل به.

وقد كان من أشكال هذا النظر بعضُ التفسيرات اللغوية المرتكزة على المعرفة النحوية، فالقرآن عربي لا يُفهم إلا بامتلاك أدوات فهم العربية، وعلى رأسها علمُ النحو، أو المعرفة النحوية الفطرية في ذلك الزمن. فالتحليل النحوي - من غير كبير مبالغة - وليدُ التدبر والتأمل في النص القرآني، وهذا استناداً إلى شواهد وأدلة، سترد فيما يأتي حين الحديث عن مظان التحليل.

وليس التحليل النحوي في هذا بمنأى عن قانون نشأة العلوم والمعارف في تاريخ العرب، فقد كانت نشأة جُلِّ العلوم العربية وثيقة الصلة بالقرآن الكريم، فهماً وتدبراً وخدمةً له، وهذا الدرس النحوي النظري كما يرى كثير من الباحثين، قد تأسس

^١ - أثراً مصطلح اللغوي على النحوي، لأن التحليل لم يكن حكراً على النحويين، فقد ممارسه إلى جانب النحاة علماء من مختلف التخصصات، كشراح الشعر والمفسرين.

بنيانه هو أيضا على النظر في القرآن الكريم، وكان من أهم الغايات الدافعة على البحث فيه "الرغبة القومية في معرفة أسرار التركيب القرآني".^١

وهذا الذي ذهبنا إليه من ربط ظهور التحليل النحوي بالنص القرآني لا ينفي اهتمام العرب واحتفاءهم بالشعر، كيف ذلك وهو ديوانهم، ومَجْمَع أيامهم وعاداتهم وَحِكْمِهِمْ، فقد كانت لهم عليه تحاليل ذهنية، وتعليقات خاطفة موجزة، تكتفي بالإشارة والتلميح، وتبتعد عن التفسير والتعليل^٢، بيد أن هذه الممارسات التحليلية كانت أظهر وأغزر مع القرآن الكريم.

ب- أهم مظان الممارسات التحليلية:

سبق التنبيه إلى أن التحليل النحوي قد مارسه كثير من العلماء كالمفسرين وشرح الشعر فضلاً عن النحويين، فهو مُتَوَعِّلٌ في نسيج الثقافة العربية لا يكاد يخلو منه فرعٌ من الفروع، وسنحاول التوقف عند أهم الطوائف التي مارسته، لنرى ما لأصحابها من جهود ومشاركات في هذا الميدان، مُدَلِّلين على ذلك بأمثلة من كتبهم، نعرضها مع التعليق عليها، لِنَخْلُصَ إلى خصائص الممارسة التحليلية عندهم.

ب.١- المدونات النحوية وكتب الشواهد:

كانت المدونات النحوية القديمة تمرُّج بين التنظير والتطبيق في معالجة المسائل والأبواب النحوية، فتجد النحوي ينتقل من تقرير قاعدة إلى توضيح مصطلح إلى توجيه لفظ أشكل إعرابُهُ، تجد كل ذلك متداخلاً، يؤازر بعضه بعضاً وتوضح فيه معالجة الشاهد والمثال بالتحليل ما أريد من معنى أو قُرِّر من قاعدة.

^١ - محمد حماسة عبد اللطيف: النحوي والدلالة مدخل لدراسة المعنى النحوي - الدلالي، ط١، دار الشروق، القاهرة، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م، ص ٢٦.

^٢ - فخر الدين قباوة: التحليل النحوي أصوله وأدلتها، ط١، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونغمان، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص ٤٠.

وإن الناظر في كتب النحاة الأوائل يلحظ ما ذكرناه جليا واضحا، فسيبويه حين تحدث عن انتصاب بعض الأسماء بأفعال مضمرة، قال: "ومما ينتصب على إضمار الفعل المستعمل إظهاره،^١ أن ترى الرجل قد قَدِمَ من سفر فتقول: خيرَ مَقْدَمٍ. أو يقول الرجل: رأيت فيما يرى النائم كذا وكذا، فتقول: خيراً وما سَرَّ وخيرا لنا وشرا لعدونا. وإن شئت قلت: خيرَ مَقْدَمٍ وخيرَ لنا وشرَّ لعدونا.

أما النصب فكأنه بناه على قوله [أي القادم]: قَدِمْتُ، فقال: [أي الرائي]: قَدِمْتُ خيرَ مَقْدَمٍ، وإن لم يُسمع منه هذا اللفظ، فإن قدومه ورؤيته إياه بمنزلة قوله: قَدِمْتُ... وكذلك إذا قال: رأيتُ فيما يرى النائم كذا وكذا، فتقول: خيراً لنا وشراً لعدونا. فإذا نصبَ فعلى الفعل.

وأما الرفع فعلى أنه مبتدأ أو مبني على مبتدأ، ولم يرد أن يحمله على الفعل، ولكنه قال: هذا خيرَ مَقْدَمٍ، وهذا خيرَ لنا وشرَّ لعدونا، وهذا خيرَ وما سَرَّ".^٢ فسيبويه هنا يُقرّر قاعدةً، وهي جواز انتصاب الأسماء بأفعال مضمرة، لدلالة السياق عليها، وللتدليل على ذلك يسوق أمثلةً، ويحللها مبينا الأوجه الجائزة فيها من رفع ونصب. فإنه جاز لمن رأى شخصا قادما من سفر أن يقول: خيرَ مَقْدَمٍ، لأنه يضمّر في نفسه فعلا. وأصل التركيب: قَدِمْتُ خيرَ مَقْدَمٍ، فخير: مفعول به للفعل المِضْمَرِ قَدِمْتُ، ويجوز له الرفعُ بتقدير آخر.

ومن الكتب النحوية التي غُنيَت بالتحليل النحوي ما عُرِفَ بكتب شرح الشواهد وإعرابها، فبعد ظهور كتاب سيبويه واحتوائه على طائفة كبيرة من الشواهد الشعرية،

^١ - أي أن العرب تستعمل هذا الفعل ظاهرا في الكلام، وإنما جاز إضماره في بعض الحالات لدلالة السياق عليه، فيحذفونه في اللفظ ويبقون عمله، وهو نصبه للاسم الواقع عليه.

^٢ - سيبويه: الكتاب، ج ١، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، ط ٣، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص ٢٧٠-٢٧١.

قام جماعة من النحويين على هذه الشواهد شرحا وتفسيرا وإعرابا، ثم توالى التأليف في هذا الجانب من الدرس النحوي، حتى اجتمعت مكتبة ضخمة في كتب الشواهد، ومن هذه الكتب تمثلاً لا استقصاءً: شرح الأبيات المشكلة للإعراب لأبي علي الفارسي (ت ٣٧٧هـ)، المقاصد النحوية في شرح شواهد الألفية للعيني (ت ٨٥٥هـ)، شرح أبيات مغني اللبيب لعبد القادر البغدادي (ت ١٠٩٣هـ)، شرح شواهد ابن عقيل للجرجاوي (ت ١٢٧١هـ).^١

ومن أمثلة التحليل النحوي في كتب شرح الشواهد وإعرابها ما جاء في كتاب "شرح الأبيات المشكلة للإعراب" لأبي علي الفارسي، يقول في باب حذف خير المبتدأ: "قال الفرزدق:

وإني من قوم بهم يُتَّقَى العِدَى
ورأب النَّأْي والجانبُ المتخَوَّفُ

قوله: رأب النَّأْي لا يستقيم أن يُحْمَلَ على "يُتَّقَى"، فإذا لم يستقيم ذلك أضمرت له خبراً، وجعلته مبتدأً.

ولا يستقيم أن تُضْمَر "بهم" لِتَقْدُّمِ ذِكْرِ "بهم"، ولكن تُضْمَر "لهم"، فيكون: رأب النَّأْي لهم، ودلَّ على ذلك قوله: بهم يُتَّقَى العِدَى، لأن هذا الكلام يدل على: لهم البأس والنجدة، فأضمرت "لهم" لذلك.

فأما قوله: "والجانبُ المتخَوَّفُ" فيستقيم أن تحمله على "يُتَّقَى"، فيكون: بهم يُتَّقَى العِدَى والجانبُ المتخَوَّفُ.^٢

^١ - ينظر: حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، (دون تاريخ)، ج ١، ص ١٥٤ و ٦٠٣.

^٢ - أبو علي الفارسي: كتاب الشعر أو شرح الأبيات المشكلة للإعراب، تحقيق وشرح: الدكتور محمود محمد الطناحي، ط ١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م، ص ٢٧٥.

فالفارسي هنا في تعليقه على بيت الفرزدق يمارس تحليلاً نحوياً ظاهراً، فقد تحدّث في البداية عن الوظيفة النحوية لرأب الثأني، فامتناع حمله على يُنْقَى، أي جعله معطوفاً على نائب الفاعل (العَدَى)، لفساد المعنى يوجب جعله مبتدأً وتقدير خيراً له. ثم ذكر أن التقدير الأولي في الخبر أن يكون بلفظ: "لهم" لا "بهم" لتقدّم ذكرها، ولكون تقدير "لهم" أنسب وأوفق لسياق الكلام. وذلك بخلاف "الجانب المتخوف" فيجوز حمله على يُنْقَى كما هو ظاهر من كلام أبي علي.

ومما يُلحَظ على هذا التحليل ارتكازُهُ القويُّ على المعنى، فلا يمكن للفظ أن يتلبّس بوظيفة نحوية يَأْبها عليه معنى البيت، كما حدث مع "رأب الثأني"، وامتناع حمله على يُنْقَى.

وقد تتبّع حضورُ التحليل النحوي في المدونات النحوية وكتب الشواهد، غير أن حضوره كان في شكل معالجات تطبيقية تطوّل حيناً وتقصّر في أحيانٍ كثيرة، غُفلاً من التنظير، إن أن جاء ابنُ هشام الأنصاري في القرن الثامن الهجري وبسط القول في قضية التحليل النحوي تنظيراً وتطبيقاً في أبواب رائدة من كتابه "مغني اللبيب عن كتب الأعاريب"،^١ مثلُ باب "ذكر أحكامٍ يكثر دورها ويُقْبَحُ بالمعرب جهلُها وعدمُ معرفتها"، وباب "ذكر الجهات التي يدخل الاعتراضُ على المعرب من جهتها"، وباب "في ذكر أمور كلية يتخرج عليها ما لا ينحصر من الصور الجزئية"، وغيرها من الأبواب.

يذكر ابن هشام في باب الجهات التي يدخل الاعتراض على المعرب من

جهتها:

^١ - فخر الدين قباوة: التحليل النحوي أصوله وأدلتها، ص ٣.

" أن يُراعي المِعْرَبُ معنىً صحيحاً ولا ينظر في صحته في الصناعة، وذلك كقول بعضهم في الآية الكريمة ﴿وَتَمُودُ فَمَا أَبْقَى﴾ النجم: ٥١، إن تمود مفعول مقدّم، وهذا ممنتج، لأن لـ "ما" النافية الصدر، فلا يعمل ما بعدها فيما قبلها، وإنما هو معطوفٌ على عاداً، أو هو بتقدير: وأهلك تموداً".^١

فعلى الرغم من أن المعنى صحيح (ما أبقي تموداً أي أهلكهم) إلا أن الصناعة تأباه وتردّه، فلا يمكن لِمَا بعد "ما" أن يعمل فيما قبلها. فابن هشام هنا يُقدِّمُ أصلاً نظرياً، وهو ضرورة توافق المعنى مع ما تقتضيه الصناعة النحوية، وعدم اختلافهما، ثم يمثل له بمثال يُحلِّله ويبين موطن الشاهد فيه، جامعاً في ذلك بين التنظير والتطبيق.

ب. ٢ - كتب التفسير:

كان شغف الصحابة رضوان الله عليهم بالقرآن الكريم، ورغبتهم القوية في تفهم معانيه باعثة لهم على مدارس ألفاظه وتراكيبه، ومن ثَمَّ كانوا يُقبلون عليه، تدبراً وشرحاً وتفسيراً، يستندون في ذلك إلى بصيرة نافذة في لغتهم، ودراة مُوْغلة بأسباب نزول ذكرهم، وقد كانت تفسيراتهم اللغوية وتحاليلهم النحوية مُوجزة مقتضية، تكتفي بتوضيح المعنى وتجلية المغزي.

وكان من أوائل من أثرت عنهم بعض التحاليل عبد الله بن مسعود (ت ٣٢هـ) وعلي بن أبي طالب (ت ٤٠هـ) وعبد الله بن عباس (ت ٦٨هـ) وأبو الأسود الدؤلي (ت ٦٩هـ)، ثم من جاء بعدهم من التابعين،^٢ فَمِمَّا يُروى عن ابن مسعود وعلي بن

^١ - ابن هشام الأنصاري: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ج ٦، تحقيق وشرح: الدكتور عبد اللطيف محمد الخطيب، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، دون تاريخ، ص ٤٨. وسياق الآية قوله تعالى: وأنه أهلك عاداً الأولى (٥٠) وتموداً فما أبقي (٥١). النجم: ٥٠، ٥١.

^٢ - فخر الدين قباوة: التحليل النحوي أصوله وأدلتها، ص ١٠.

أبي طالب رضي الله عنهما عند قراءتهما للآية الكريمة: ﴿وَنَادُوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رِبِّكَ﴾ الزخرف: ٧٧ أنهما قرآها: يا مال، بحذف الكاف ترخيماً، وقد ردّ ابن عباس رضي الله عنهما على هذه القراءة قائلاً: ما أشغل أهل النار عن الترخيم.^١

وهذا عبدُ الله بن مسعود يُعلّق على الآيات الكريمة من سورة البروج: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ البروج: ١ و ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ البروج: ١٢ قائلاً: هذا قَسَمٌ على إن بطش ربك لشديد.^٢ وكثير من مثل هذه الروايات تُروى عن كبار الصحابة والتابعين.

إن المتأمل في هذه الروايات يلحظ حضور التحليل عملياً في تناولهم للآيات، وبمصطلحات قريبة مما هو متداول في ميدان التحليل النحوي، وإن كانت تحاليلهم تتسم بالجزئية وعدم الشمول.

ولما جاء عصر التدوين وجد أصحاب الكتب الأولى في التفسير، في هذه الروايات خيرَ معينٍ ينهلون منه، في تفسيرهم للآيات وتحليلهم لتراكيبها، فنمت هذه التحاليل واتسعت، وضُبطت بمصطلحات أكثر دقة لنضج علم النحو واستقراره على أيدي نخبة أفذاذ، فاستعان المفسرون الأوائل بما عند الفريقين، ما أثر عن الصحابة والتابعين، وما هو ماثوث في كُتب النحاة ومجالسهم.

ولعل خيرَ مثال على ما نحن بصدد ما حواه تفسيرُ ابن جرير الطبري من توجّهات لغوية وممارسات تحليلية، ففي تفسيره للآية الكريمة: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ البقرة: ١٨٥. يقول "وقد بيّنتُ فيما مضى أن "شهر" مرفوع على قوله :

^١ - الزمخشري: الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج ٥، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، وشارك في تحقيقه: فتحي عبد الرحمن أحمد حجازي، ط١، مكتبة العبيكان، السعودية، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ص ٤٥٦.

^٢ - فخر الدين قباوة: التحليل النحوي أصوله وأدلتها، ص ٤٢.

"أياماً معدودات"، هُنَّ شهرُ رمضان. وذلك في الآية التي قبلها، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة: ١٨٣-١٨٥].

وجائز أن يكون رفعه بمعنى: ذلك شهرُ رمضان، وبمعنى: كُتِبَ عليكم شهرُ رمضان. وقد قرأه بعضُ القراء "شهر رمضان" نصباً، بمعنى: كُتِبَ عليكم الصيامُ أن تصوموا شهرَ رمضان... وقد يجوز أيضاً نصبُهُ على وجه الأمر بصومه، كأنه قيل: شهرَ رمضان فصوموه.^١

فبعد أن شرح ابنُ جرير بعض المفردات، وبيّن المقصود من الآية، عرّج على ذكر الأوجه الإعرابية في لفظ "شهر"، وجواز الرفع والنصب على تقديرين مختلفين، يحتملهما المعنى المراد من الآيات.

ولم تتوقف الممارسات التحليلية عند هذا الحد بل أخذت تتوسع باتساع الدرس النحوي، إلى أن صارت منهجاً في التناول، ومهيئاً في التأليف، فيما يعرف بالتفسير النحوي للقرآن الكريم، كما استقر عند العلامة أبي حيان الأندلسي، في البحر المحيط، فقد أقام أبو حيان تفسيره كله على مسائل اللغة والنحو، يركز على القضايا النحوية واللغوية في شرح وتفسير الآيات، فجاء تفسيره عمدةً في بابهِ، حاوياً من النكات النحوية والبلاغية ما لا يُحصى.

يقول أبو حيان في التعليق على الآية الكريمة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ النحل: ٢٤: "وقرأ الجمهور برفع" "أساطير" فاحتمل أن يكون التقدير: المذكور أساطير، أو المنزّل أساطير، جعلوه [أي كفار قريش] منزلاً على

^١ - ابن جرير الطبري: تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج ٣، حققه وعلق حواشيه: محمود محمد شاكر - راجعه وخرج أحاديده: أحمد محمد شاكر، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، دون تاريخ، ص ٤٤٥.

سبيل الاستهزاء، وإن كانوا لا يؤمنون بذلك"^١. ويمكن توجيه الآية على أن كفار قريش برفعهم لكلمة "أساطير" قد فرّوا من النصب لأنهم لو قالوا: أساطير (بالنصب) لأقروا بالإنزال، لأن التقدير: أنزل أساطير، ومعلوم أنهم لا يؤمنون بذلك. أما في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا﴾ النحل: ٣٠، فيقول: "وقرأ الجمهور "خيراً" بالنصب، أي أنزل خيراً"^٢. وذلك أنه جواب المؤمنين الذين اتقوا ربهم، وآمنوا بإنزال القرآن من عند الله.

ففي هذا التفسير ما لا يخفى من التعويل على المعرفة النحوية في تجلية المعاني، والتفريق بين دلالات الآيات، فلرفع دلالة وللنصب دلالة مخالفة أيضاً، وفيه من التحليل النحوي ضميمه ولبّه منهجاً ومصطلحاً، فحقّ لهذا الكتاب أن يشكل قاعدةً في بناء التحليل النحوي للنصوص، يقتضي أثره من جاء بعده، واحداً تلو آخر.

ب. ٣- كتب إعراب القرآن الكريم:

إذا كان التحليل النحوي في كتب التفسير يأتي في ثنايا شرح وإيضاح معاني الآيات، غير مقصود لذاته، فإنه في كتب إعراب القرآن الكريم يُطلَب لذاته، فيمَحْضُ معربو القرآن مضامين كتبهم لتحليل الآيات، و"تخريج تراكيبها على القواعد النحوية المحررة"^٣.

^١ - أبو حيان الأندلسي: تفسير البحر المحيط، ج ٥، دراسة وتحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، شارك في تحقيقه: الدكتور: زكريا عبد المجيد النوتي والدكتور: أحمد أحمد النجولي الجمل، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م، ص ٤٧٠.

^٢ - نفسه، ص ٤٧٣.

^٣ - يوسف بن خلف العيساوي: علم إعراب القرآن الكريم تأصيل وبيان، ط ١، دار المصمعي، الرياض، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ص ٢٧. ويعرّف العيساوي علم إعراب القرآن الكريم قائلاً: "هو علم يَبْحَثُ في تخريج تراكيبه [أي تراكيب القرآن الكريم] على القواعد النحوية المحررة.

وقد عُرفَ درسُ إعراب القرآن الكريم منذ القرن الأول للهجرة، في شكل مجالس، فإنه يُروى أن أبا الأسود الدؤلي كان له مجلس لإعراب القرآن، وأنه أمضى أربعين سنة في إعراب القرآن الكريم مع الحرّ بن عبد الرحمن النحوي، ثم تجلّى الدرس الإعرابي التحليلي في نَقْط المصَحَف، نَقْط إعراب، على يد أبي الأسود الدؤلي.

ونصُّ رواية النقط مشهور، حين قال أبو الأسود لكاتبه: "خُذِ المِصْحَف، ولوناً يخالف لون المداد، فإذا فتحت شفتي فانقط واحدة فوق الحرف، وإذا ضممتها فاجعل النقطة إلى جانب الحرف، وإذا كسرتها فاجعل النقطة في أسفله. فإن أتبعت شيئاً من هذه الحركات غنة فانقط نقطتين".

ولا يخفى أن في هذا الفعل - ضبط أواخر الكلمات بالشكل - تحديداً لوظائفها النحوية من فاعلية ومفعولية وإضافة وغير ذلك، وتحديد الوظائف لا يتم إلا باستحضار معطيات السياق المقامي والمقال، وهذا هو جوهر التحليل النحوي.

ثم تنتقل الدرس الإعرابي مع بداية القرن الثالث إلى الكتب والمدونات، وجاء مضنتاً في كتب معاني القرآن، إلى أن جاء أبو جعفر النحاس (ت ٣٣٨هـ) ففصل بين المعاني والإعراب، في مؤلف له بعنوان "إعراب القرآن"،^٢ ثم تتابع التأليف في إعراب القرآن وكثر حتى إنك لتكاد تجد لكل عالم من علماء العربية المبرزين مشاركة في هذا الميدان، يجدهم في عملهم هذا إحلالهم للقرآن الكريم، وتقانيهم في خدمته، وطلبهم الزلفى عند الله عز وجل.

^١ - يوسف بن خلف العيساوي: علم إعراب القرآن تأصيل وبيان، ص ٤٢.

^٢ - نفسه، ص ٦٣.

ومن أشهر كتب إعراب القرآن الكريم المطبوعة: إعراب القرآن لأبي جعفر النحاس، إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم لابن خالويه (ت ٣٧٠هـ)، مشكل إعراب القرآن لمكي بن أبي طالب القيسي (ت ٤٣٧هـ) الملخص في إعراب القرآن للخطيب التبريزي (ت ٥٠٢هـ)، نكت الإعراب في غريب الإعراب في القرآن الكريم للزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، التبيان في إعراب القرآن للعكبري (ت ٦١٦هـ)، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي (ت ٧٥٦هـ).^١

ثم إن تصانيفهم تنوعت بين مختصر ومطول، وبين معربٍ للعران كله، ومعربٍ لما أشكل من ألفاظه فقط. وسُورِدَ هنا مثلين اثنين، أحدهما من كتاب مختصر هو "إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم" لابن خالويه، والآخر من كتاب مطوّل هو "الدر المصون في علوم الكتاب المكنون" للسمين الحلبي، تدليلاً على حضور التحليل النحوي وشيعوثته، ولنتبين من خلالهما بعدُ طبيعة التحليل في هذه المؤلفات.

يقول ابن خالويه في إعراب أوائل سورة الليل : "والليل جَرُّ بواو القسم، علامة جَرِّه كسرة آخره، وشَدَّدَت اللَّامُ لأنهما لآمان.

إذا يَغْشَى إذا حرفٌ وقتٍ غيرُ واجبٍ. ويغشى فعلٌ مضارع. والمصدرُ غَشْيٍ يَغْشَى غَشْيَاناً فهو غَاشٍ.

والنهار نسقٌ على الليل. فَمَنْ أَمالَ فَمِنْ أجل الرّاء، لأن الرّاءَ حرفٌ فيه تكريرٌ، فالرّاء مكسورةٌ بمنزلةِ حرفين مكسورَيْن، وَمَنْ فتَحَ و فَحَّمَ فعَلَى أصل الكلمة. إذا حرفٌ وقتٍ غيرُ واجبٍ.

^١ - حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج ١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، (د ت)، ص ١٢١.

تَجَلَّى فعلٌ ماضٍ. وهذه التاء تدخل في الماضي مثل تذكَّر وتَجَبَّر. والمصدر
تَجَلَّى يَتَجَلَّى تَجَلِّيًا فهو مُتَجَلِّلٌ^١.

فابن خالويه هنا يُحلِّل الآيات تحليلًا مختصرًا مُبسَّطًا، مع التنبيه على كيفية
تأدية الألفاظ صوتيًا، وكذا التنبيه على تصرف الأفعال، ومن هنا فمعالجة ابن
خالويه تمزج بين مستويات مختلفة، نحوية وصوتية وصرفية.

ويقول السمين الحلبي في تحليله للآية الكريمة: ﴿وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا
وَرَحْمَةً﴾ الأحقاف: ١٢: "العامَّة على كسر ميم "مَنْ" حرف جر. وهي مع مجرورها
خبرٌ مقدَّم. والجملة حاليةٌ أو خبرٌ مستأنفٌ.

وقرأ الكلبي بنصب "الكتاب" تقديره: وأنزل من قبله كتاب موسى. وقُرئ "وَمَنْ"
بفتح الميم "كتاب موسى" بالنصب على أن "مَنْ" موصولة، وهي مفعولٌ أولٌ لآتينَا
مقدَّرًا، وكتاب موسى مفعوله الثاني. أي: وآتينَا الذي قبله كتاب موسى.
قوله: "إِمَامًا وَرَحْمَةً" حالان مِنْ "كتاب موسى". وقيل منصوبان بمقدَّر أي:
أنزلناه إِمَامًا. ولا حاجة إليه. وعلى كونهما حالين هما منصوبان بما نُصِبَ به "مِنْ"
قبل "من الاستقرار"^٢.

فالسمين يذكر الإعراب الأشهر مقدَّمًا، ثم يتبعه بأقوال أخرى لبعض العلماء
في المرتبة الثانية مرجوحةً، بدليل تمييزها، بالنباء للمجهول: قيل وقُرئ.
فكلمة "كتاب" مثلاً عن عامَّة القراء مبتدأ مؤخَّر للخبر المحذوف المتعلق
بالجار والمجرور (مِنْ قَبْلِهِ)، وهي على قراءة الكلبي مفعولٌ به لفعل مقدَّر هو:

^١ - ابن خالويه: إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم، طبع تحت إدارة جمعية دائرة المعارف العثمانية
في عاصمة حيدرآباد الدكن، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٦٠هـ/١٩٤١م، ص ١٠٧.
^٢ - السمين الحلبي: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، ج ٩، تحقيق الدكتور: أحمد محمد الخراط،
دار القلم، دمشق، دون تاريخ، ص ٦٦٥.

أنزل، وكذلك "من" تحتل أن تكون حرفية جارة أو اسمية موصولة، وكذا الأمر في "إماماً ورحمة" فيحتملان الحالية من لفظ الاستقرار المتعلق بـ"من قبله"، ويحتملان النصب، بتقدير أنزلناه.

والتحليل النحوي عند السمين هنا تحليل مُطَوَّل، مبني على بسط الأقوال الراجحة والمرجوحة، مع نقدها والحكم عليها، ويتبدى نقده في تعليقه على من قال إن إماماً يجوز أن يكون منصوباً بأنزلناه مقدراً، قال السمين: ولا حاجة إليه، أي لا حاجة لهذا التقدير، مع إمكان عدم التقدير، فالقاعدة تقول: إذا استوى التقدير وعدم التقدير فعدم التقدير أولى.

ب. ٤ - كتب إعراب الحديث النبوي الشريف:

من المؤلفات التي غُنيت بالتحليل النحوي كتب إعراب الحديث الشريف، حيث ييم طائفة من علماء العربية شطر حديث رسول الله ﷺ، يُحلّلون تراكيبه ويوجّهون ما أشكل من إعراب ألفاظه، مساهمةً منهم في خدمة السنة النبوية، بعد أن تحمّل الرواة الأوائل عبء جمع الحديث النبوي وتدوينه، في كتب مستقلة، ثم انبرى له الفقهاء يستنبطون منه الأحكام والضوابط، فكان أن خُدم الحديث خدمةً جليّةً، كل جماعة من موقعها ومن جهة اختصاصها.

هذا، وإن كتب إعراب الحديث قد فارقت كتب إعراب القرآن - وإن مَحْضاً جهودهما لممارسة التحليل النحوي - في أمور أهمّها:

- قِلَّةُ كتب إعراب الحديث مقارنة بأعراب القرآن، فلا تكاد تُحصي منها في القديم إلا ثلاثة كتب: أولها: إعراب الحديث النبوي لأبي البقاء العكبري، وثانيها: شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح لابن مالك (ت

٦٧٢هـ)، وثالثها: عقود الزبرجد في إعراب الحديث النبوي للسيوطي (ت ٩١١هـ).^١

ويرجع ذلك عند بعض الدارسين كعبد الإله نبهان إلى كثرة الأحاديث وكتبتها، وتعدّد رواياتها، واختلاف النحاة حول الاستشهاد بالحديث،^٢ فكانت هذه الأمور حائلةً دون توجُّه العلماء نحو التأليف في إعراب الحديث.

- ومن الأمور التي تميزت بها كتب إعراب الحديث عدمُ شمول تحليلها كلّ الأحاديث، لِمَا أسلفنا من كثرتها وتعدّد رواياتها، خلافاً لأعراب القرآن، فقد وجدنا منها من أعرب القرآن كاملاً.

- وآخر ما افترقت فيه كتب إعراب الحديث عن كتب إعراب القرآن أنها كانت تُعنى بتوجيه الألفاظ المشكِلة إعرابياً فقط، لا تحليل الحديث كلّهِ. ولتأكيد ما سبق نورد مثالا لأبي البقاء في كتابه السالف الذكر. ولعل هذا المثال يُغني عن تتبع الكتابين الآخرين، لضيق مجال البحث، وتشابه إجراءات التحليل إلى حدٍّ بعيد.

يقول أبو البقاء في إعرابه لحديث "يَغْفِرُ اللهُ لِلْمُؤَدِّنِ مَدَّ صَوْتِهِ": الجيد عند أهل اللغة مَدَى صَوْتِهِ، وهو ظرف مكان، وأما (مَدَّ صَوْتِهِ) فله وجهٌ، وهو محتمل شيئين:

أحدهما: أن يكون تقديره: مسافةً مَدَّ صَوْتِهِ.

والثاني: أن يكون المصدر بمعنى المكان أي: مُمْتَدَّ صَوْتِهِ، وهو منصوب لا غير. وفي المعنى على هذا وجهان:

^١ - حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج ١، ص ١٢٣.
^٢ - أبو البقاء العكبري: إعراب الحديث النبوي، تحقيق: عبد الإله نبهان، ط ٢، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م، ص ٢٥.

أحدها معناه: لو كانت ذنوبه تملأ هذا المكان لَعَفَرْتُ لَهُ، وهو نظير قوله عليه السلام إخباراً عن الله تعالى: (لو جئنتي بقراب الأرض خطايا) أي ما يملؤها من الذنوب.

والثاني: معناه: يغفر له من الذنوب ما فعله في زمانٍ مقدَّرٍ بهذه المسافة".^١
والنَّاطِر في هذا التحليل يجد أن أبا البقاء ركَّز اهتمامه على لفظ واحد في الحديث هو "مَدَّ"، وذلك أنه اللفظُ المُشْكِلُ، أما بقية الألفاظ فلا إشكال ولا خفاء في إعرابها. ثم شرع في حلِّ الإشكال الواقع في هذا اللفظ فإن نصبه مُشْكِلٌ، ولم يسبقه ناصبٌ بيِّنُ العملِ فيما بعده، وهو ما يستدعي التقدير والتأويل، فإما أن يكون أصل التركيب: مسافة مَدَّ صَوْتِهِ، ثم حُذِفَ المضافُ (مسافة) وأُقيِمَ المضافُ إليه (مَدَّ) مُقَامَهُ، وانتصب انتصابه، وإما أن يكون المصدرُ (مَدَّ) مُؤَوَّلًا باسم المكان (مُمْتَدَّ)، ولكل وجهٍ معنى مقبولٌ في العربية مرضيٌّ.

ب. ٥ - كتب شرح الشعر:

تَبَوَّأ الشعر منزلةً رفيعةً في تاريخ العربية، فقد حاطه العلماء بالرعاية والاهتمام، جمعاً وروايةً وحفظاً وشرحاً، وكان من وجوه هذا الاهتمام ظهورُ تآليفٍ خاصةٍ، عُرِفَتْ بكتب شرح الشعر.

حيث عمد أصحاب هذه الكتب إلى دواوين الشعراء والمختارات الشعرية يشرحون ما في أبياتها من مفردات غريبة، ويوجهون ما في تراكيبها من ألفاظ مشكلة، ويوضحون ما فيها من أوجه جائزة أو ممنوعة، ويُبرزون ما في معانيها من إبداعاتٍ أو اقتباساتٍ أو سرقاتٍ.

^١ - المرجع السابق، ص ١٢٤-١٢٥.

وقد تفرّد في معالجاتهم للنصوص الشعرية احتفاؤهم بالجانب النحوي وتحويلهم عليه، فلا يكاد يمضي بيتٌ إلا وللشارح فيه تنبيهٌ على مسألة إعرابية أو صرفية. يُجَلِّي بها المعنى، ويتوصّل من خلالها إلى المعنى المقصود.

يقول محمود محمد الطناحي، في سياق حديثه عن الاهتمام بالنحو في القديم: "ثم تجلّى الاهتمام بالنحو أيضاً في شروح الشعر الجاهلي والإسلامي، وقد عُنيَت هذه الشروح عناية فائقة بالنحو، مثل شروح الأصمعي وأبي نصر الباهلي، وابن السكيت، وأبي العباس ثعلب، وأبي العباس الأحول، وأبي البركات الأنباري، وأبي سعيد السكري".^١

وللتدليل على ما سبق بيّأه، نورد نموذجاً تطبيقياً من كتاب "شرح ديوان الحماسة لأبي تمام" لأبي علي المرزوقي. يقول أبو علي في تحليله لبيت أبي الغول الطّهوي بعد أن شرح مفرداته: "قال أبو الغول الطّهوي:

فَوَارِسُ لَا يَمْلُونُ الْمَنَايَا إِذَا دَارَتْ رَحَى الْحَرْبِ الزَّبُونِ

يجوز الرفعُ في فوارسَ على أن يكون خبرَ ابتداءٍ مُضمَرٍ، كأنه قال: هُم فَوَارِسُ. ويجوز النصبُ فيه على أن يكونَ بدلاً من فوارسَ الأولى [وذلك قوله قبل هذا البيت:

فَدَتُ نَفْسِي وَمَا مَلَكَتْ يَمِينِي فَوَارِسَ صَدَّقُوا فِيهِمْ ظُنُونِي

ولا يَمْلُونُ في موضع الصفة للفوارس".^٢

^١ - محمود محمد الطناحي: مقالات العلامة الدكتور محمود محمد الطناحي صفحات في التراث والتراجم واللغة والأدب، ج ٢، ط ١، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، ص ٤٥١-٤٥٢.

^٢ - أبو علي المرزوقي: شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، علق عليه وكتب حواشيه: غريد الشيخ - وضع فهارسه العامة: إبراهيم شمس الدين، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص ٣٣.

فالمروزقي يذكر الأوجه الإعرابية الجائزة في لفظة "فوارس"، واحتمالها للخبرية والبدلية، ثم يبيّن الموقع الإعرابي للجملة "لا يملون المنايا"، وأنها في موقع صفة مرفوعة على الوجه الأول، أو منصوبة على الوجه الثاني، وفي هذا إعراب للمفردات والجمل.

ثم يُورد تحليلا صرفيا دقيقا لكلمة المنايا الواقعة في البيت قائلا: " مَنِئُهُ وَمَنَآيَا كَصَحِيفَةٍ وَصَحَائِفَ، والأصل مَنَائِي فاستثقلت الضمة في الياء فحذفت ثم فرّوا من الكسرة وبعدها ياءٌ إلى الفتحة فانقلبت الياء ألفاً فصار مَنَاءُ، فأبدلوا من الهمزة لِتَوْسُطِهَا أَلْفِينَ يَاءً فَصَارَ مَنَآيَا".^١

ومن خلال هذا النموذج في التعامل مع الشعر - وهو مُطَرِّدٌ على مَدِّ الكتاب، وفي عَظْمِ الشروح الأخرى - يَتَبَيَّنُ لنا مدى اهتمام شراح الشعر بالتحليل النحوي، وتعويلهم عليه في إبراز مكنون الشعر واستكناه حَقِيَّهِ.

ويبقى أن للتحليل النحوي في القديم حضوراً في ميادين غير التي ذكرنا، ككتب القراءات الصحيحة والشاذة، وكتب النقد والبلاغة، يَسْتَعْلِنُ عند طائفة من أرباب هذه التصانيف وَيَخْفُتُ عند بعضهم الآخر.

أما في العصر الحديث فقد استقل التأليف فيه، ورأينا كثيرا من الدارسين يُخَصِّصُونَ كتباً رأسها لبحث مسائله وقضاياها تنظيراً وتطبيقاً.^٢

^١ - المرجع السابق، ص ٣٣.

^٢ - ومما يلفت الانتباه هنا اهتمام الباحثين السوريين عموماً، والحلبيين خصوصاً بموضوع التحليل النحوي، وأعمال فخر الدين قباوة، ومحمود حسن الجاسم، والبحثة زهرة الشيخ عبود، في رسالتها للدكتوراه "التحليل النحوي للآيات الكريمة حتى نهاية القرن الثاني الهجري" خير دليل على ذلك.

وقد تشعبت بهم السُّبُلُ في اتجاهاتٍ شتى، فمن الدارسين من درَج على النهج الذي حَطَّه النحاة الأوائلُ مع شيء من التشذيب والتبويب والبسط في التنظير، ومنهم من طلب أدوات التحليل من الدرس اللساني الحديث، وتوسَّل بما عنده، تاركاً الدرس النحويَّ دَبرَ أُنْثِيهِ، فغدا تحليلُهُ كالذي يقوله المتنبي: غريب الوجه واليد واللسان.

ومنهم من حاول الجمع بين الاتجاهين، والاستفادة من الفريقين لتشكيل اتجاهٍ ثالثٍ معتدلٍ، يستفيد من التراث اللغوي الذي خلفه الأوائلُ، ولا يُفْرِطُ في الجديد النافع الذي تحويه اللسانياتُ الحديثة.

وقد آثرنا التوقف عند واحدٍ من هؤلاء الدارسين المحدثين، وهو الأستاذ فخر الدين قباوة، لنبحث قضية التحليل النحوي عنده، وكما تجلَّت في كتابه - مدوَّنة بحثنا - "التحليل النحوي أصوله وأدلته".

ج- خصائص التحليل النحوي في القديم:

أشرنا في تعليقنا على نماذج من الممارسات التحليلية إلى بعض الخصائص التي تميزت بها هذه الممارسات، إلا أنها جاءت متناثرة، لا تُعطي صورة واضحة المعالم، ولذا آثرنا أن نُفَرِّدَ لها حديثاً خاصاً يجمع شتاتها، ويضم مُتَقَرِّقَهَا.

والمأمل في هذه التحاليل النحوية يلحظ اتسامها بجملة من الخصائص، تكاد تشترك فيها كل المعالجات التطبيقية، سواء أكان التطبيق على النص القرآني أم على النص الشعري. وسنذكر أهم الخصائص المستخلصة من هذه النماذج التحليلية دون إعادة ذكر الأمثلة، فقد تقدم ذكرها، ثم إن ذلك من شأنه أن يؤدي إلى التطويل والإسهاب، والسياق سياق إيجاز.

فمن أهم هذه الخصائص ما يلي:

- التعليل الكبير على المعنى، مُنْطَلَقًا وغايةً، فقد لا حظنا أن المعربين لا يبدوون الإعراب إلا بعد فهم معنى ما يُعربون، ثم هم يبتغون بإعرابهم وتحليلهم للأبيات الشعرية أو الآيات القرآنية إيضاح المعاني وكشف الدلالات، فهذا ابن هشام الأنصاري يقول: "أول واجب على المعرب أن يفهم معنى ما يُعربه مفرداً ومركباً".^١

- التركيز على التوافق والانسجام بين المعنى وما تقتضيه الصناعة النحوية، فكم من إجراء تحليلي ملائم للمعنى إلا أنه يخالف الصناعة وبالعكس، وذلك أن الاسم المنصوب قبل "ما" النافية مثلاً يَصِحُّ معنى أن يكون مفعولاً مقدِّماً للفعل بعدها لكن الصناعة النحوية ترفضه، لأن ما بعد "ما" لا يعمل فيما قبلها، لذا وجب على المعرب أن يراعي الأمرين معاً. وقد وضح هذا الأمر ابن هشام ببيانٍ شافٍ، حين ذكر الجهات التي يَدْخُلُ الاعتراض على المعرب من جهتها، وساق أمثلةً وفيرةً على ذلك.^٢

- اتِّسَامُ تحاليلهم بالجزئية وعدم الشمول في الغالب، وهذا بيِّن واضح من خلال كثير من النماذج التطبيقية التي سقناها قبل، فإن المفسرين ومعربي القرآن الكريم وشرح الشعر، يوجهون في الغالب ما أشكل من ألفاظ الآيات والأبيات فقط، ولا يحللون الآيات والأبيات كلها.

- كانت تحاليلهم في أكثرها تمزج بين مستوياتٍ مختلفة، صوتيةٍ وصرفيةٍ ونحويةٍ ودلاليةٍ، فتوردها مُجْتَمِعَةً، لا فاصل بينهما، كما رأينا في تحليل ابن خالويه للآيات الأولى من سورة الليل، وهذه خاصية من خصائص الدرس

^١ - ابن هشام الأنصاري: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ج ٦، ص ٧.

^٢ - المرجع السابق، ص ٧، وينظر: السعيد شنوقة: دراسات في آليات التحليل وأصول اللغة والنحو، ط ١، عالم الكتب، القاهرة، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، ص ١٣١.

اللغوي القديم، فالناظر في كتب النحو الأولى يجدها محشوةً بالمسائل الصوتية والصرفية وحتى البلاغية.

- خلُوُ الكتب المتضمّنة للممارسة التحليلية من التنظير لِمَا سيُباشرونه عملياً، اللهم إلا ما صنعه ابن هشام في كتابه "مغني اللبيب عن كتب الأعاريب"، حيث إنه خصّص جانباً من كتابه هذا الأمور تنظيرية، وخاصةً الباب الذي عقده بعنوان: ذكرُ أمورٍ كليةٍ يتخرّجُ عليها ما لا ينحصرُ من الصُّور الجزئية.

ومما يُلحظُ على التحليل النحوي في القديم عدمُ اقترابه من النص النثري - دون الحديث عن القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف - فلم نجد من ألف كتاباً لتحليل الأمثال أو الخطب أو الرسائل مثلاً.

المبحث الثاني :

الخليل بن احمد الفراهيدي (عقري اللغة)

حياته وأعماله

الخليل بن أحمد الفراهيدي أستاذ عصره في اللغة العربية وأحد أهم علماء اللغة العربية، كما تميز الفراهيدي في علم الموسيقى، والرياضة والترجمة. تتلمذ على يد كبار العلماء وفي مقدمتهم أبو عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر الثقفي تلقى العلم على يديه العديد من علماء الذين أصبح لهم شأن عظيم في اللغة منهم سيبويه، والأصمعي، و الكسائي، والنضر بن شميل، وهارون بن موسى النحوي، ووهب بن جرير، وعلي بن نصر الجهضمي . وحدث عن أيوب السختياني، وعاصم الأحول، والعوام بن حوشب، وغالب القطان، وعبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي.

نسبه:

هو عربي من الأزد، ونسبه إلى فراهيد بن شبابه بن مالك بن فهم بن غنم بن دوس بن عدثان بن عبد الله بن زهران بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان .

مولده:

ولد في عمان عام ٧١٨ م الموافق ١٠٠ هجرية توجه إلى البصرة ليتلقى العلم هناك ولُقّب بالبصري.

شيوخ الخليل بن أحمد الفراهيدي:

كغيره من أقرانه وعلماء عصره، فقد أخذ الخليل وتلمذ على أكثر من شيخ وأستاذ، وكان منهم أيوب السختياني البصري، وقد فقه اللغة عليه، وأيضًا عاصم

الأحول بن النضر البصري، والعوام بن حوشب، وغالب بن خطاف القطان البصري، وكذلك أبو عمرو بن العلاء، وعثمان بن حاضر الأزدي، وغيرهم

تلامذة الخليل بن أحمد الفراهيدي:

كان تلاميذه -رحمه الله- من الكثرة والنجابة بمكان، وكان أبرزهم (سيبويه) النحوي البصري حُجَّةَ العربية، وعبد الملك بن قريب الأصمعي، وحماد بن يزيد، وأيوب بن المتوكل البصري القارئ، وبَدَل بن المحبَّر، وداود بن المحبر، وعلي بن نصر الجهضمي الكبير، وعون بن عمارة، والمُؤرَّج بن عمرو السدوسي، وموسى بن أيوب، والنضر بن شميل، وهارون بن موسى النحوي الأعور، ووهب بن جرير بن حازم، ويزيد بن مرة الذَّارِع، والليث بن المظفر.

وإذا كان من أكبر أسباب شهرة الخليل بن أحمد هو تلميذه سيبويه في مؤلفه الشهير (الكتاب)؛ إذ عامَّةُ الحكاية فيه عن الخليل، وكلما قال سيبويه في كتابه: "وسألتَه" من غير أن يذكر قائله، فإنما يعني بذلك الخليل

فضله وزهده:

رغم هذا العلم الغزير وتلك العقلية الخلاقة المبتكرة المتجاوزة حدود الزمان والمكان، ظل الفراهيدي زاهداً ورعاً واسع العلم، فلا يوجد عالم لغوي اتفق المؤرخون على نبل أخلاقه وسماحة روحه، كما اتفقوا على الخليل، فصار حقا ابن الأمة العربية التي أثر فيها فكراً وسلوكاً وخلقاً. فرغم غزارة علمه قد تميَّز الفراهيدي على سابقيه ولاحقيه وتفرَّد به بين أترابه ومعاصريه.

كان الخليل زاهداً ورعاً وقد نقل ابن خلكان عن تلميذ الخليل النضر بن شميل قوله: «أقام الخليل في خص له بالبصرة، لا يقدر على فلسين، وتلامذته يكسبون

بعلمه الأموال». كما نقل عن سفيان بن عيينة قوله: «من أحب أن ينظر إلى رجلٍ خلق من الذهب والمسك فلينظر إلى الخليل بن أحمد».

حينما أرسل إليه سليمان بن حبيب بن أبي صفرة والي فارس والأهواز رسولا يدعوه إليه، حيث كان سليمان يدفع له راتباً بسيطاً يعينه به على شؤون الحياة، فرفض القدوم إليه وقدم للرسول خبزاً يابساً مما عنده قائلاً مادمت أجده فلا حاجة بي إلى سليمان.

فكرة وضع علم العروض :

طرأت ببالي فكرة وضع علم العروض عندما كان يسير بسوق الصفارين، فكان لصوت دققت مطارقهم على نغم مميز ومنه طرأت ببالي فكرة العروض التي يعتمد عليها الشعر العربي. فكان يذهب إلى بيته ويتدلى إلى البئر ويبدأ بإصدار الأصوات بنغمات مختلفة ليستطيع تحديد النغم المناسب لكل قصيدة. عكف على قراءة أشعار العرب ودرس الإيقاع والنظم ثم قام بترتيب هذه الأشعار حسب أنغامها وجمع كل مجموعة متشابهة ووضعها معاً، فتمكن من ضبط أوزان خمسة عشر بحراً يقوم عليها النظم حتى الآن وهي ((الطويل-المديد البسيط)) وتعرف بالمرتجة، ((الوافر-الكامل-الهج-الرجز-الرملة-السريع-المنسرح-الخفيف-

المضارع-المقتضب)) وتسمى السباعية لأنها مركبة من أجزاء سباعية في أصل وضعها، وآخران هما ((المتقارب-المتدارك)) يعرفان بالخماسيين إلا أن واضع بحر المتدارك هو الأخفش الأوسط وهو سعيد بن مسعدة تلميذ سيبويه، فأصبح مؤسس علم العروض

ويعد الخليل بن أحمد شيخ علماء المدرسة البصرية وتنسب له كتب "معاني الحروف" وجملة آلات الحرب والعوامل والعروض والنقط، كما قام بتغيير رسم

الحركات إذ كانت التشكيلات على هيئة نقاط بلون مختلف عن لون الكتابة، وكان تنقيط الإعجام (التنقيط الخاص بالتمييز بين الحروف المختلفة كالجيم والحاء والحاء) قد شاع في عصره، بعد أن أضافه إلى الكتابة العربية تلميذا أبي الأسود نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر التابعي، فكان من الضروري تغيير رسم الحركات ليتمكن القارئ من التمييز بين تنقيط الحركات وتنقيط الإعجام. فجعل الفتحة ألفاً صغيرة مائلة فوق الحرف، والكسرة ياءً صغيرة تحت الحرف، والضمة واواً صغيرة فوقه. أما إذا كان الحرف منوناً كرر الحركة، ووضع شيئا غير منقوطة للتعبير عن الشدة ووضع رأس عين للتدليل على وجود الهمزة وغيرها من الحركات كالسكون وهمزة الوصل، وبهذا يكون النظام الذي اتخذه قريباً هو نواة النظام المتبع اليوم.

وكان له الفضل في كشف علم العروض كله عدا البحر المحدث واكتشفه

تلميذه

من مؤلفاته :

إن من أهم ما طيّر اسم الخليل وأذاع شهرته في الآفاق هو كتابه ومعجمه البكر من نوعه في مصنفات اللغة العربية: (كتاب العين)، ولم يكن (العين) هو مصنفه الوحيد، وإنما ذكرت كتب المراجع أن له أيضاً: كتاب (فائت العين)، وكتاب (العروض)، وكتاب (الشواهد)، وكتاب (النقط والشكل)، وكتاب (النغم)، وكتاب (في معنى الحروف)، وكتاب (في العوامل)، وكتاب (الإيقاع)، وكتاب (تصريف الفعل)، وكتاب (التقاحة في النحو)، وكتاب (جملة آلات الإعراب)، وكتاب (شرح صرف الخليل)، وكتاب (الجمال)، وكتاب (المعمى)، وغيرها

منهج الخليل بن أحمد الفراهيدي في كتاب العين

لقد رتَّب الخليل في (العين) الحروف العربية على مخارجها من الحلق على النظام التالي، كما جاء في مقدمته لكتاب العين: ع، ح، هـ، خ، غ، ق، ك، ج، ش، ض، ص، س، ز، ط، د، ت، ظ، ث، ذ، ر، ل، ن، ف، ب، م، و، ا، ي، همزة وإذا كان الخليل قد عدَّ العين أقصى الحروف مخرجًا، فإن سيبويه يذكر أن الهمزة أقصى الحروف مخرجًا. غير أن ابن كيسان يروي أنه سمع من يذكر عن الخليل أنه قال: "لم أبدأ بالهمزة لأنها يلحقها النقص والتغيير والحذف، ولا بالألف لأنها لا تكون في ابتداء الكلام ولا في اسم ولا فعل إلا زائدة أو مُبدَلة، ولا بالهاء لأنها مهموسة خفية لا صوت لها، فنزلتُ إلى الحيز الثاني وفيه العين والحاء فوجدتُ العين أنصع الحرفين؛ فابتدأتُ به ليكون أحسن في التأليف وقد بسط الخليل في العين الكلام في هذه الحروف ومخارجها، فعدها تسعة وعشرين حرفًا، جعل منها خمسة وعشرين حرفًا صحاحًا لها أحياز ومدارج، كما جعل منها أربعة هوائية. ولقد وسم الخليل كتابه المعجم هذا بأول حرف اعتمده، وهو العين.

ولما كان الخليل أول واضعٍ للكلم العربي في صورة معجمية، كان عليه بعد ذلك أن يستقصي الكلمات بعد أن اختار الترتيب، وكان اعتماده على ما ساقه الصرفيين - ممن سبقه - من حصرٍ لأبنية الكلمة، وجعلها إما ثنائية أو ثلاثية أو رباعية أو خماسية. وعلى هذا وجد الخليل أن مبلغ عدد أبنية كلام العرب المستعمل والمهمل على مراتبها الأربع من الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي من دون تكرار، اثنا عشر ألف وثلاثمائة ألف وخمسمائة ألف وأربعمائة واثنان عشر ١٢٣٠٥٤١٢

الثنائي: سبعمائة وست وخمسون ٧٥٦

الثلاثي: تسعة عشر ألفًا وستمائة وست وخمسون ١٩٦٥٦

الرباعي: خمسمائة ألف وأحد وتسعون ألفاً وأربعمائة ٥٩١٤٠٠

الخماسي: أحد عشر ألف ألف، وسبعمائة وثمانٍ وثلاثون ألفاً وستمائة

١١٧٣٨٦٠٠

اعتمد الخليل في هذا الإحصاء على تتقّل الحرف في بنيته من الكلمة، فالحرف في الكلمة الثنائية ينتج عن تنقله صورتان يكون أولاً ويكون ثانياً، والحرف في الكلمة الثلاثية ينتج عن تنقله صور ثلاث يكون أولاً وثانياً وثالثاً، والحرف في الكلمة الرباعية ينتج عن تنقله صور أربع، وفي الكلمة الخماسية صور خمس. ولا شك أن هذا الاستقصاء ثم الاستصفاء اقتضى من الخليل جهداً حثيثاً، وفكراً كبيراً.

آراء العلماء في الخليل بن أحمد الفراهيدي

إحقاقاً للحق، وامتناناً بالفضل، وعرفاناً بالسبق فقد أثنى كثير من علماء المسلمين على الخليل بن أحمد رحمه الله، وأنزلوه المكانة اللائقة به، حتى قال عنه حمزة بن الحسن الأصبهاني في كتاب (التنبيه على حدوث التصحيف): "وبعد، فإن دولة الإسلام لم تخرج أبدع للعلوم التي لم تكن لها أصول عند علماء العرب من الخليل، وليس على ذلك برهان أوضح من علم العروض الذي لا عن حكيم أخذه، ولا على مثال تقدّمه احتذاه، وإنما اخترعه من ممرّ له بالصّفّارين من وقع مطرقة على طست، ليس فيهما حجة ولا بيان يؤديان إلى غير حليتهما أو يفيدان عين جوهرهما، فلو كانت أيامه قديمة، ورسومه بعيدة لشكّ فيه بعض الأمم؛ لصنعت ما لم يضعه أحد منذ خلق الله الدنيا من اختراعه العلم الذي قدمت ذكره، ومن تأسيسه بناء كتاب (العين) الذي يحصر فيه لغة كل أمة من الأمم قاطبة، ثم من إمداده سيبويه في علم النحو بما صنّف كتابه الذي هو زينة لدولة الإسلام".

وقال عنه سفيان بن عُيَيْنَةَ رحمه الله: "من أحبَّ أن ينظرَ إلى رجلٍ خُلِقَ من الذهب والمسك، فلينظر إلى الخليل بن أحمد"

ويُروى عن تلميذه النضر بن شميل أنه قال: "كنا نُمَيِّل بين ابن عون والخليل بن أحمد أيهما نقدِّم في الزهد والعبادة، فلا ندري أيهما نقدِّم؟! " وكان يقول: "ما رأيت رجلاً أعلم بالسُّنَّة بعد ابن عونٍ من الخليل بن أحمد". وكان يقول: "أُكَلِّت الدنيا بأدب الخليل وكُتِبَ وهو في خُصٍّ لا يُشعر به. وكان يحج سنةً، ويغزو سنةً، وكان من الزُّهَّاد المنقطعين إلى الله تعالى"

وقال السيرافي: "كان الغاية في تصحيح القياس، واستخراج مسائل النحو وتعليقه". وقال إبراهيم بن إسحاق الحربي: "كان أهل البصرة -يعني أهل العربية- من أصحاب الأهواء إلا أربعة فإنهم كانوا أصحاب سُنَّة: أبو عمرو بن العلاء، والخليل بن أحمد، ويونس بن حبيب، والأصمعي". وقال عنه ابن حبان في كتاب الثقات: "كان (أي الخليل) من خيار عباد الله المتقشفين في العبادة" ٢٨.

وفاة الخليل بن أحمد الفراهيدي

كما كان الخليل عجباً في حياته، متفرداً بين بني جنسه، كانت وفاته أيضاً كذلك؛ فقد أراد أن يُقَرَّب نوعاً جديداً من الحساب تمضي به الجارية إلى البائع فلا يمكنه ظلمها، فدخل المسجد وهو يُعَمِّل فكره في ذلك،

ولكن أجله كان بالمرصاد، حيث صدمته سارية وهو غافل عنها بفكره، فانقلب على ظهره، فكانت سبب موته. وقيل: بل كان يقطِّع بحرًا من العروض، وكان ذلك بالبصرة سنة سبعين ومائة من الهجرة (١٧٠هـ) على المشهور، ودُفِن بها.



الفصل الأول

الفصل الأول:

الأطر النظرية لمنهج التحليل النحوي

توطئة :

يتناول هذا الفصل تقديم الأسس والمفاهيم النظرية التي يقوم عليها منهج التحليل النحوي، والأطر التي تحكمه، توضيحاً للرؤية وتمهيداً للولوج إلى عالم التطبيق بيسر ونجاح، وذلك عن طريق ضبط المفاهيم التي يركز عليها هذا المنهج، كالتحليل النحوي، وأصوله وأدلته، مع توضيح المصطلحات القريبة منها، زيادةً في البيان، ورفعاً للبس، وذلك كتوضيح المقصود بالإعراب والقرينة وغير ذلك.

المبحث الأول: ضبط المفاهيم:

أ- مفهوم المنهج:

أ. ١ - لغة:

يقال نهجت الطريق: أبنته وأوضحته، ونهجت الطريق سلكته. والنهج: الطريق المستقيم، وطريق نهج: بَيِّن واضح، ومنهج الطريق: وضحه، والمنهاج كالمنهج،^١ قال الله عز وجل: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾. المائدة: ٤٨ والمنهاج بمعنى الخطة المرسومة مُخَدَّنَةً، ومنه منهاج الدراسة والتعليم ونحوهما، والجمع مناهج.^١ فالمنهج لغة يدل على الطريق المستقيم والواضح البين.

^١ - ابن منظور: لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، دت، ص ٤٥٥٤.

أ. ٢ - اصطلاحاً:

أما اصطلاحاً فله عدة تعاريف، تختلف صياغاتها باختلاف واضعيها إلا أنها متقاربة في جوهرها إلى حد كبير، لا تكاد تختلف عن بعضها البعض إلا في جزئيات يسيرة. فمن تعاريفه أنه: "مجموعة من العمليات تنتظم في نسق متدرج يُفضي إلى نتيجة ما"،^٢ أو "هو الخطوات المحددة التي يجب أن تُتخذ ضمن نسق معين لتحقيق غاية معينة".^٣

ويُعرّفه المعجم الفلسفي الصادر عن مجمع اللغة العربية بالقاهرة بقوله:

- "بوجه عام: وسيلة محددة تُوصِل إلى غاية معينة.

- ثم ينعته بلفظ العلمي ويُعرّفه: المنهج العلمي: خطة منظمة لعدة عمليات

ذهنية أو حسية بُغية الوصول إلى كشف حقيقة أو البرهنة عليها".

نلاحظ أن هذه التعاريف وإن اختلفت صياغاتها إلا أنها تجتمع في النظر إلى

المنهج على أنه مجموعة من الخطوات أو العمليات المنظمة المتتابعة، والمحكومة

بنسق لكي تؤدي إلى نتيجة معينة. مع إضافة يسيرة يُوردها المعجم الفلسفي بقوله:

أو البرهنة عليها [على الحقيقة]، وإن كانت البرهنة تروم أيضاً الوصول إلى حقيقة

تطابق الأولى [المرهّن عليها] وتُشهد لها بالصحة.

ومن هنا فقوالم المنهج في هذه التعاريف: خطوات (عمليات) + نسق متدرج

← نتيجة معينة.

^١ - مجمع اللغة العربية بالقاهرة: المعجم الوسيط، ط٤، مكتبة الشروق الدولية، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م، ص ٩٥٧.

^٢ علاء نور الدين: عبد القاهر الجرجاني في قراءات البلاغيين المحدثين، منشأة المعارف، الإسكندرية، ٢٠٠٧، ص ٢٦.

^٣ - مجمع اللغة العربية بالقاهرة: الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، ص ١٩٥.

ب- مفهوم التحليل النحوي:

تفرض علينا الطبيعة التركيبية لهذا المصطلح - التحليل النحوي - أن نُقدّم بين يديه كلاماً عن مفهوم التحليل، ثم مفهوم النحو، لكي نخلص بعد إلى مفهومه مركّباً وصفيّاً.

ب. ١ - التحليل لغةً:

قال ابن فارس: "حلّ: الحاء واللام له فروع كثيرة ومسائل، وأصلها كلها عندي فتح الشيء، لا يشذ عنه شيء".^١

فيقال: حلّلت العقدة أحلها حلاً إذا فتحتها فانحلت،^٢ وحل العقدة نقضها. وكل جامد أذيب فقد حلّ. ومنه حلّ اليمين تحليلاً وتحلة وتحلاً كفرها.^٣

ثم استعيرت اللفظة وأطلقت على كل ما يكون فيه حلّ أي فتح وفكّ ونقض. فمن الاستعمالات المحدثة لهذا اللفظ (حلّ) حلّ الشيء: رجّعه إلى عناصره، حلّ الدم، حلّ البول، وحلّ نفسية فلان: درسها لكشف خباياها.^٤

ب. ٢ - التحليل اصطلاحاً:

أما في الاصطلاح فله معنى واسع فضفاض، باعتباره "منهجاً عاماً يُراد به تقسيم الكل إلى أجزائه، ورّد الشيء إلى عناصره"،^٥ ولا يستمد معناه الاصطلاحيّ

^١ - أحمد بن فارس: معجم مقاييس اللغة، ج ٢، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ص ٢٠

^٢ - الخليل بن أحمد الفراهيدي: كتاب العين، ج ٣، تحقيق الدكتور مهدي المخزومي والدكتور إبراهيم السامرائي، سلسلة المعاجم والفهارس، دت، ص ٢٧.

^٣ - الفيروزآبادي: القاموس المحيط وبمهامشه تعليقات وشرح، ج ٢، نسخة مصورة عن الطبعة الثالثة للمطبعة الأميرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م، ص ٣٤٩

^٤ - مجمع اللغة العربية بالقاهرة: المعجم الوسيط، ص ١٩٤.

^٥ - فخرالدين قباوة: التحليل النحوي أصوله وأدلته، ص ١٢.

الدقيق إلا بنسبته إلى مجال معرفي محدد، فنقول مثلاً: التحليل النحوي أو التحليل النفسي أو التحليل الرياضي أو التحليل الاقتصادي... إلى غير ذلك من التراكيب الوصفية.

ب. ٣ - النحو لغة:

أما النحو فهو لغة: القصدُ والطريقُ، يقال: نحوت نحوه قصدت قصده، ونحا الشيء: قصده.^١ ويطلق أيضاً ويراد به الجهة والمثل والنوع والمقدار والقسم.^٢ وقد أحصى بعضهم المعاني اللغوية لكلمة "نحو" فلغت عشرة معانٍ، قال:

وَجَانِبٌ، وَقَرِيبٌ، بَعْضٌ، مِقْدَارٌ	النَّحْوُ فِي لُغَةٍ قَصْدٌ، كَذَا مَثَلٌ
عَشْرُ مَعَانٍ لَهَا فِي الْكُلِّ أَسْرَارٌ ^٣	نَوْعٌ، وَمِثْلٌ، بَيَانٌ، بَعْدُ ذَا عَقَبُ

ب. ٤ - النحو اصطلاحاً:

أما اصطلاحاً فيُعرِّفه ابن جني بقوله: "هو انتحاء سمتِ كلام العرب، في تصرفه من إعراب وغيره، كالتثنية والجمع والتحقيق والتكسير والإضافة والنسب والتركيب وغير ذلك، ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة، فينطق بها وإن لم يكن منهم، وإن شذ بعضهم عنها رُدَّ به إليها".^٤

ويُعرِّفه ابن عصفور بقوله: "هو العلمُ المستخرجُ بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب، الموصلة إلى معرفة أحكام أحزائه التي انتلف منها".^٥

^١ - مجمع اللغة العربية بالقاهرة: المعجم الوسيط، ص ٩٠٨.

^٢ - الفيروزآبادي: القاموس المحيط، ج ٣، ص ٣٨٦.

^٣ - محمد بن الطبيب الفاسي: فيض نشر الانشراح من روض طي الاقتراح، ج ١، تحقيق وشرح: محمود يوسف فجال، ط ٢، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي، الإمارات العربية المتحدة، ص ٢٢٩.

^٤ - ابن جني: الخصائص، ج ١، تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة اللمية، دت، ص ٣٤.

^٥ - ابن عصفور: المقرَّب، ج ١، تحقيق: أحمد عبد الستار الجواري، وعبد الله الجبوري، ط ١، (دون ناشر)، ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م، ص ٤٥.

وكلا التعريفين يعبرُ عن النظرة الموسعة للنحو، وهي تَكْفُلُهُ بأحكام تركيب الكلام العربي، وتضمُّنه لعلم الصرف، وهي نظرة علماء العربية القدامى الذين كان الدرسُ النحويُّ عندهم مزيجاً من المسائل الإعرابية والصرفية.

أما بعض المتأخرين فقد ضيقوا واسعاً، حين جعلوا اهتمام النحو ينصب على أحوال أواخر الكلم فقط، واعتبارهم إيَّاه مرادفاً للإعراب الذي هو قسم الصرف. وعلى هذا فالنحو عندهم: "علم يُبَحِّثُ فيه عن أواخر الكلم إعراباً وبناءً".^١ فهذه النظرة، كما لا يخفى، قد ضيّقت مجاله وحرمته رحابة موضوعه، حين حصرته في أواخر الكلم. ويجدر بنا في هذا المقام، وقبل الانتقال إلى تبيان مفهوم التحليل النحوي أن نذكّر تصوّر فخر الدين قباوة لعلم النحو، وحدوده ومُتَضَمَّنَاتِهِ عنده، فإن هذا من شأنه أن يُجَلِّيَ مفهوم التحليل، ويوضح لنا حدود الممارسة التحليلية بعدُ.

يقول فخر الدين قباوة في سياق تحديده لمجال علم النحو، وبعد أن أورد التعريفين المذكورين سابقاً (تعريف ابن جني وتعريف ابن عصفور): "وإذا حللنا هذين المعنيين لمفهوم تبين لنا أنه يضم أحكام صيغ المفردات متميزة، وأحكام تركيبها في كلام، ما يعرف بالعلمين: الإعراب والصرف".^٢

ففخر الدين قباوة من خلال هذا القول يتبنى رؤية القدامى التي أشرنا إليها آنفاً، حين يجعل من النحو متضمناً لقسمين: الإعراب والصرف، وسيكون لهذا التصور أثره فيما بعدُ تنظيراً وممارسةً.

وبعد أن تعرفنا على مفهوم هذين المصطلحين - التحليل والنحو - نخرج على مفهوم التحليل النحوي.

^١ - محمد سمير نجيب اللبدي: معجم المصطلحات النحوية والصرفية، مؤسسة الرسالة، بيروت، دت، ص ٢١٨.

^٢ - فخر الدين قباوة: مشكلة العامل النحوي، ص ٣٣.

قدّمنا فيما سبق عند الحديث عن المعاني اللغوية للتحليل أنها تعود في معظمها إلى الفتح والفك والنقض، وأن اللفظ قد ارتحل إلى مختلف فروع المعرفة، حاملاً معه دلالاته اللغوية، ثم أسبغ عليه كلّ مجال من المجالات ما يتواءم وموضوعه، دون أن يمحو دلالاته الأولى ألا وهي الفتح والفك والنقض. وليس علم النحو بمنأى عن هذا، فقد احتضن اللفظ، وأشربه دلالة اصطلاحية موصولة بالمعنى اللغوي.

ويحسن بنا أيضاً، قبل أن نتبين مفهوم التحليل النحوي عند فخر الدين قباوة، أن نعرض على مفهومه عند بعض الدارسين المحدثين، ممن عُتُوا بهذا الموضوع، ثم نذكر مدلوله في الدرس اللغوي الغربي بإيجاز، أما علماء العربية القدامى فقد سلف الذكر في المدخل أنهم أغفلوا التنظير لهذا الميدان إلا شذراتٍ خاطفة كانت تأتي في ثنايا كتبهم وممارساتهم، ثم ما خطّه ابنُ هشام الأنصاري، في أبواب من كتابه الرائد "معني اللبيب عن كتب الأعراب".

ب. ٥ - التحليل النحوي عند الدارسين المحدثين:

لعل من أوائل من حدّد هذا المصطلح وعرّف به المعجم الوسيط، حيث أورد له بين ركّام المعاني اللغوية تعريفاً اصطلاحياً، فقال: " تحليل الجملة: بيان أجزائها ووظيفة كل منها " ^١.

وهذا التعريف عامٌّ مجمل يركز على الجانب الإعرابي بإبراز الوظائف النحوية التي تشغلها المفردات في التركيب، بعد تمييز أقسام الكلم بعضها من بعض، فهو إذا تعريف قاصر عن احتواء مدلولات هذا المصطلح.

^١ - مجمع اللغة العربية بالقاهرة: المعجم الوسيط، ص ١٩٤.

ثم كان لبعض الباحثين محاولات في هذا المجال - مجال التحليل النحوي -
بيد أن أكثرهم ركز جهوده على الجانب التطبيقي^١، ثم لم يحتشد أغلبهم أيضا لتقديم
مفهوم اصطلاحي دقيق لهذا التركيب الوصفي، فكانت تعاريفهم تقتقد الجمع والمنع
المطلوبين في الحدود النحوية.^٢

فالأستاذ تمام حسان يعرض لموضوع التحليل النحوي دون أن يخصه بتعريف
محدد^٣، وإذا أردنا أن نبرز مفهوم التحليل النحوي عنده فلا نملك إلا أن نستخرجه

^١ - فخر الدين قباوة: التحليل النحوي أصوله وأدلته، ص ٦.

^٢ - من الدراسات الحديثة التي حاولت تقديم تعاريف للتحليل النحوي دراسة الباحث وليد حسين محمد عبد الله،
المعنونة بـ "نظرية النحو العربي في ضوء تعدد أوجه التحليل النحوي"، حيث عرض الباحث لمفهوم التحليل
النحوي عند كل من تمام حسان في كتابه "اللغة العربية معناها ومبناها"، وفخر الدين قباوة في كتابه "المورد
النحوي الكبير" - وكان حقه أن يعرض التعريف الموجز المتضمن في كتاب "التحليل النحوي أصوله وأدلته"
لا التعريف الأول لقباوة - وعبد العليم إبراهيم في كتابه "النحو الوظيفي".
وبعد هذا العرض أورد الباحث مفهومه للتحليل النحوي، وهو يكاد يكون مطابقا للمفاهيم التي ساقها،
وبخاصة عند تمام حسان وفخر الدين قباوة. حيث ذهب وليد حسين محمد عبد الله إلى أن التحليل النحوي هو
"تجزئة النظام التركيبي لمعرفة دكتوراه)، كلية الدراسات العليا بالجامعة الأردنية، كانون الثاني، ٢٠٠٦م،
ص ٢٢.

أما الدراسة الثانية المعنونة بـ "التحليل النحوي وتوجيه الدلالة" فقد تبني صاحبها الزايدي بودرامة تعريف فخر
الدين قباوة - وسيأتي بعد - مع محاولة شرحه وتفسيره بما يراه كاشفا عن مكنونه. الزايدي بودرامة: التحليل
النحوي وتوجيه الدلالة قراءة في كتاب الأمالي لابن الحاجب (رسالة ماجستير)، كلية الآداب والعلوم
الإنسانية، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، ٢٠٠٧م، ص ٢٥.

وكذا الأمر عند الباحث محمد عدنان جبارين في دراسته "التحليل النحوي عند الإمام الشاطبي"، إذ أشار بدوره
إلى الدراسات التي عالجت موضوع التحليل النحوي في القديم والحديث، كابن هشام الأنصاري في "مغني
الليبيب عن كتب الأعراب"، وفخر الدين قباوة في "التحليل النحوي أصوله وأدلته"، وعبد العليم إبراهيم،
والزايدي بودرامة في الدراستين المذكورتين، وعبد الحميد مصطفى في مقال له بعنوان "التحليل النحوي عند
ابن هشام الأنصاري"، ثم مصطفى من بينها تعريف فخر الدين قباوة، واصفا إياه بالتعريف الدقيق. محمد عدنان
جبارين: التحليل النحوي عند الإمام الشاطبي في "المقاصد الشافية في شرح خلاصة الكافية" دراسة في
المبادئ والأصول والمنهج، ط ١، عالم الكتاب الحديث، الأردن، ١٤٣٢هـ / ٢٠١١م، ص ٣٨.

^٣ - تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها: ط ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٧٩م،
حيث يسميه أيضا: التحليل اللغوي، والإعراب.

من فحوى نصوصه، فنقول: إن التحليل النحوي عنده هو الكشف عن العلاقات السياقية في النص، بُغية فهمه فهماً جيّداً، استناداً إلى قرائن التعليق الحالية والمقالية.^١

وهذا التعريف وظيفي يُعرِّف التحليل النحوي انطلاقاً من الوظيفة المنوطة به، وهي الكشف عن العلاقات السياقية / التركيبية التي تربط بين مفردات النسيج اللغوي، المحلل لا يصل إلى غايته المنشودة - فهم النص - إلا بالكشف عن العلاقات السياقية، كالإسناد والتبعية والإضافة وغير ذلك. ولا يمكنه تحديد هذه العلاقات بدقة إلا إذا اتَّكأ على جملة من القرائن الحالية والمقالية، وسنأتي في المبحث الثالث من هذا الفصل على ذكرها.

وممن حاولوا تقديم تعريف للتحليل النحوي محمد حماسة عبد اللطيف، وهو يُطلق عليه مصطلح "التحليل النصي"، يقول: "التحليل هو عملية فك البناء لغويا وتركيبيا من أجل إعادة بنائه دلاليا، وهذا يستدعي ضرورة تحديد الأجزاء المراد تحليلها، وبيان دورها، وكشف العلاقات بينها".^٢

وما يُلاحظ على هذا التعريف أنه لا يختلف كثيرا عن تعريف تمام حسان، فهو أيضا يتوسل بالإجراءات السالفة الذكر، من كشف للعلاقات الرابطة بين المفردات، عن طريق تقسيم عبارات النص/ البناء اللغوي، وتحديد وظائف مفرداتها النحوية، إلا أن ما يجب ذكره في تعريف محمد حماسة عبد اللطيف هو اقتراب تحليله من التحليل

^١ - نفسه، ص ١٩٠، فالقارئ الحالية تعرف من المقام، أما المقالية فمنها المعنوية وهي: الإسناد، والتخصيص، والنسبة، والتبعية، والمخالفة، ومنها اللفظية وهي: الإعراب، والرتبة، والصيغة، والمطابقة، والربط، والتضام، والأداء، والتنغيم.

^٢ - محمد حماسة عبد اللطيف: الإبداع الموازي التحليل النصي للشعر، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠١م، ص ١٥.

الأسلوبية الصادر عن رؤية بنيوية، وهي النقطة التي يختلف فيها تحليل محمد حماسة عن تحليل تمام حسان، وعن تحليل قباوة، كما سنرى بعد^١، وذلك حين يدعو إلى عدم الالتفات إلى الغرض الذي أنشئت من أجله النصوص، وعدم التعويل على المناسبات التي قبلت فيها، وهو ما حاول تمثله وتطبيقه على طائفة من القصائد الحديثة.^٢

ب.٦ - التحليل النحوي في الدرس اللغوي الغربي:

التحليل النحوي (analyse grammatical) في الدرس اللغوي الغربي الكلاسيكي هو تحليل الجملة لاستكشاف طبيعة ووظائف المفردات المكونة لها.^٣ وهو بهذا لا يختلف كثيرا عن مفهوم التحليل في الدرس النحوي العربي.

فإذا جئنا إلى الجملة التالية : une voiture bleue démarre :

فالتحليل يكون كالتالي :

Voiture = nom/bleue = adjective qualificatif / démarre = verbe

هذا تبين لطبيعة هذا المفردات (la nature)، ثم تأتي المرحلة الثانية من التحليل بتحديد الوظائف التي تحتلها هذه المفردات والأدوار التي تقوم بها (les fonctions).

^١ - ومما يذكر أيضا من نقاط الاختلاف، أن التحليل النصي عند محمد حماسة عبد اللطيف خاص بالشعر، وذلك أنه يجوز لنا، حسب رأيه، أن نتوسل بالمناهج الغربية في تحليل الأجناس الأدبية غير الشعرية، لأنها متأصرة في نشأتها بالغرب، أما الشعر فهو عربي خالص، لا يستكشف أسرارها إلا المنهج العربي الذي يشترطه حماسة على نفسه، تأصيلا لمنهج عربي في تحليل النصوص.

^٢ - ينظر على سبيل المثال: قراءته النحوية في قصيدة "صلاة" للشاعر أمل دنقل، الإبداع الموازي، ص ٤٦ وما بعدها.

^٣ - 33 - dictionnaire de linguistique et des sciences du langage Jean Dubois et autres Larousse, p. 33

فتكون : voiture = sujet du verbe demarre / bleue = adjective epithet

/ demarre = verbe

ثم يأتي تقسيم الجملة الكبرى إلى جملة إسمية وجملة فعلية، فتكون : voiture

bleue = groupe sujet/demarre = groupe verbal

هذا هو مفهوم التحليل النحوي في الدرس اللغوي الغربي الكلاسيكي، بإيجاز شديد. وهناك مقاربات أفرزها الدرس اللساني الحديث الذي أسس بنيانه اللساني السويسري فردينان دو سوسير، كالتحليل البنيوي والتحويلي التوليدي وكتحليل الخطاب، وصولاً إلى الاتجاهات الحديثة في تحليل النصوص، في إطار ما يعرف بلسانيات النص. ومعظم هذه المقاربات تستند إلى النحو وتوظفه آليةً للتحليل مع آليات أخرى، يوفرها الدرس الصوتي والمعجمي والدلالي.

ب.٧- التحليل النحوي عند فخر الدين قباوة :

أما مفهوم التحليل النحوي عند فخر الدين قباوة فهو: "تميز العناصر اللفظية للعبارة، وتحديد صيغها ووظائفها والعلاقات التركيبية بينها بدلالة المقام والمقال". وهذا التعريف آخر ما وضعه فخر الدين قباوة، وكان قد حدّده في كتابه "المورد النحوي الكبير" بحدّ يتسم بالطول والتفريع، ثم شذبه وهذبه وأورده مركّزاً موجزاً، وهذا التعريف المطول كالتالي: "والتحليل النحوي الذي نريد هو تمييز العناصر اللفظية الدلالية والتشكيلية المكونة للعبارة، بعضها من بعض، بالاعتماد على أدلة المقام والمقال، وظواهر الصوت والشكل والتركيب، لدراسة تلك العناصر في إطار السياق المحيط بها، وتحديد أنساقها وأنماطها، وخصائصها ووظائفها، وما بينها من علاقات، وتبادل للمعاني الإعرابية والصرفية خاصة والنحوية عامة، وما فيها من تبدل في اللفظ والصيغة والدلالة والوظيفة... بغية كشف صورة النظم الذي يسودها،

والظائف التي تقوم بها، والدلالات التي تؤديها متعاونة، في حيز التركيب الصرفي، والتركيب الإعرابي، والسياق العام للتعبير".^١

وتعريف قباوة الذي أوردناه أولاً على وجازته دقيق مضبوط إلى حد بعيد، وليس ذلك تعصبا منا لصاحبه، بل مرده إلى أمور نراها موضوعية، تتلخص في كون فخر الدين قباوة قد عُنِيَ بهذا الموضوع ثلاثة عقود من الزمن، وفي تأليفه لعدة دراسات تطبيقية فيه، ثم كان أن تَوَجَّ هذه الدراسات بكتاب يجمع شتات القضية نظريتها وتطبيقاتها، فعنايته الكبيرة بالموضوع، وتقصيه لجوانبه وحواشيه، وتوغلُهُ في مباحثه جعله يضع تعريفا دقيقا له.^٢

وتدليلاً على هذا سنحاول تحليل تعريفه لنرى ما فيه من دقة وضبط، وما يعتريه من قصور هو لازمة كل حي.

فالتحليل النحوي عنده هو تمييز العناصر اللفظية للعبارة، أي تقسيم الجملة، وفرز الكلم بعضها من بعض أسماء وأفعالا وحروفا، وتحديد صيغها، أي تبيان وضبط أوزان أسمائها وأفعالها، والتنبيه على ما يعتورها من تغيرات وتبدلات، وهذا من قبيل التحليل الصرفي، وقد كنا أسلفنا أن فخر الدين قباوة مُتَّبِعٌ لنظرة القدامى، حين يجعلون من النحو مُتَضَمِّناً لعلم الصرف، ثم قال: وتحديد وظائفها، وذلك بالنص على الوظائف النحوية التي تتلبس بها المفردات في التركيب، من فاعلية ومفعولية وإضافة إلى غير ذلك، ثم قال: والعلاقات التركيبية بينها، أي النَّصِّ أيضا

^١ - فخر الدين قباوة: المورد النحوي الكبير نماذج من التحليل النحوي في الإعراب والأدوات والصرف، ص ٨-٩.

^٢ - ينظر: محمد عدنان جبارين: التحليل النحوي عند الإمام الشاطبي في المقاصد الشافية في شرح خلاصة الكافية: دراسة في المبادئ والأصول والمنهج، ص ٣٨.

على العلاقات المتعددة التي تربط بين أجزاء النظام اللغوي، كالإسناد والإضافة والتبعية، وبها يتحقق للنص ترابطه وانسجامه.

ثم قال: بدلالة المقام والمقال، أي أن كل هذه التحديدات إنما تتم في ضوء معطيات السياق اللغوي وغير اللغوي، وهو ما يصطلح عليه قباوة بمقتضى المقام والمقال. ثم إن إغفال أي معطي من معطيات السياق من شأنه أن يطبع التحليل بالقصور وعدم الدقة.

وما يُسجّل على هذا التعريف، وقد حاز قسطاً كبيراً من الدقة والضبط، إغفاله الحديث عن معاني الأدوات، وتحليل معاني الأدوات مستوى من مستويات التحليل النحوي، فلو أنه قال: ... وتحديد صيغها ووظائفها ومعاني أدواتها... " لبلغ التعريف الغاية دقة وضبطاً.

ج- بين التحليل النحوي والإعراب:

يُعدُّ مصطلح الإعراب من أقرب المصطلحات إلى مفهوم التحليل النحوي، حتى لقد يتبادر إلى الذهن سؤال، وهو لِمَ لَمْ يُسمَّ فخر الدين قباوة عمله هذا إعراباً؟، وهو يتناول تقسيم الجمل في النصوص الإبداعية، وتبيان الوظائف النحوية التي تشغلها المفردات، والعلاقات التركيبية بينها، وهو ما يتولاه الإعراب أيضاً.

ولكن قبل أن نجيب عن هذا السؤال، يجدر بنا أن نُعرِّج على مفهوم الإعراب لغةً واصطلاحاً، ففي هذا العمل توضيح وكشف لسر إطلاق التحليل النحوي دون الإعراب.

ج. ١- الإعراب لغة:

يقال: عَرَبَ فُصْحٌ بعد لُكْنَةٍ، وعرب الماء صفاً، ويقال: عَرَّبَ عرباً وعروبة وعراية وعروبية فصح، وأعرب الكلام بينه.^١

وقال الأزهري: الإعراب والتعريب معناهما واحد، وهو الإبانة، يقال: أعرب عنه لسانه وعَرَّبَ، أي أبان وأفصح، ومنه قوله ﷺ: "الشيء تعرب عن نفسها" أي تفصح، وعَرَّبَ منطقَه أي هذبه من اللحن.^٢

فالمعاني اللغوية للإعراب ترجع في مجملها إلى الإفصاح والإبانة والصفاء والتعذيب، وهذا دون الإشارة إلى معانٍ أخرى، تعمّدنا عدم ذكرها لبعدها عن المعنى الاصطلاحي للإعراب.

ج. ٢ - اصطلاحاً :

أما من حيث الاصطلاحُ فيعرفه بعضهم بقوله: "الإعراب أثر ظاهر أو مقدر يجلبه العامل"^٣، ويعرفه آخرون بالقول: "الإعراب هو تغيير أواخر الكلم لاختلاف العوامل الداخلة عليه لفظاً أو تقديراً".^٤

فالإعراب بلا خلاف يتناول أحوالَ أواخر الكلم، وتفسير ما يتناوب عليها من حالات إعرابية ضمن الأداء اللغوي، تاركاً أمر بنية المفردات وهيئتها لِقَسِيمه، علم الصرف، وقد تقدم أنهما مُتَضَمَّنَا علم النحو ودعامتاه الأساسيتان.

وهنا نكون قد وصلنا إلى الإجابة عما سقناه في أول هذا المطلب، وهو لِمَ لَمْ يُسَمَّ فخر الدين قباوة عمله إعراباً وسماه تحليلًا نحويًا؟.

^١ - مجمع اللغة العربية بالقاهرة: المعجم الوسيط، ص ٥٩٠ - ٥٩١.

^٢ - ابن منظور: لسان العرب، ص ٢٨٦٥.

^٣ - فخر الدين قباوة: وظيفة المصدر في الاشتقاق والإعراب بحث إحصائي المتأصيل، ص ١٤٧.

^٤ - محمد سمير نجيب اللبدي: معجم المصطلحات النحوية والصرفية، ص ١٤٩. وقد أشار إلى أنه نقل هذا التعريف عن كتاب التعريفات للشريف الجرجاني، والذي في التعريفات: "الإعراب هو اختلاف آخر الكلمة باختلاف العوامل لفظاً وتقديراً". الشريف الجرجاني: التعريفات، ص ٣١.

إذا كان التحليل النحوي عند قباوة هو "تمييز العناصر اللفظية للعبارة وتحديد صيغها ووظائفها والعلاقات التركيبية بينها بدلالة المقام والمقال" فإنه -وقد أسلفنا هذا- يتناول جانبي النحو معاً الأعراب والصرف، بتقسيم عناصر العبارة وتحديد صيغها، والنص على وظائفها النحوية والكشف عن العلاقات التركيبية بينها، وكان الإعراب على ما قدّمنا أيضاً يمثل جناحاً واحداً لعلم النحو فإنه أخص من التحليل النحوي، وأضيق مساحة منه، ومن ثمّ يكون إطلاق الإعراب على هذا العمل الموصع إطلاقاً غير دقيق، مُتَّسِماً بالقصور وعدم الشمول.

وهذا سر اتكاء لفظ الإعراب على ألفاظ أخرى حتى يعوض هذا النقص والضيق، فلخر الدين قباوة على سبيل المثل كتابان تتاولا التحليل النحوي ولكنه سمي الأول "الإعراب المفصل لكتاب الله المرتل"، والثاني "الإعراب المنهجي للقرآن الكريم سورتا الفاتحة والبقرة نموذجاً". فلكأنّ فخر الدين قباوة استشعر أن لفظ الإعراب لا يُعْطِي كل ما يَرُومُه من عمل فأردفه بالوصف: المفصل/ المنهجي، ليصير في رتبة التحليل النحوي.

د- التعريف بكتاب "التحليل النحوي أصوله وأدلته":

د. ١- موقع الكتاب من مؤلفات فخر الدين قباوة:

سبقت الإشارة عند الحديث عن مشروع قباوة " من الإعراب إلى التحليل النحوي" أن هذا الكتاب أصدره سنة ٢٠٠٢م بعد كتابين تطبيقين، هما المورد النحوي والمورد النحوي الكبير، فجاء هذا الكتاب على خلاف الأولين جامعاً بين التنظير والتطبيق، فكان أول كتاب يعرض فيه الأستاذ منهجه في التحليل النحوي بتوسع، بعد أكثر من ثلاثين سنة من الممارسة والتطبيق، إذ كان صدور أول كتاب له - المورد النحوي - سنة : ١٩٧١م.

د. ٢ - أسباب تأليف الكتاب :

يمكننا أن نجمل أسباب تأليفه لهذا الكتاب في ثلاثة أسباب رئيسة، أولها ينص عليه قباوة، أما الثاني والثالث فهما استنباط منا، ولم يذكرهما باللفظ الصريح، وإنما هُدينا إليهما بعد قراءة مباحث الكتاب.

الداعي الأول لتأليف هذا الكتاب هو سدُّ ثغرة في موضوع التحليل النحوي، وبخاصة في شقه النظري، فقد توالى ممارسات النحاة قديماً وحديثاً غُفلاً من أي تنظير سوى ما صنعه ابن هشام الأنصاري في أبواب من كتابه "مغني اللبيب عن كتب الأعاريب"، فكان هذا الإغفال دافعاً ومحركاً للمبحث والكتابة في هذا الموضوع. السبب الثاني الذي نُرجِّح أنه كان وراء تأليف قباوة لكتابه هذا هو ما رآه من سطوة المناهج الغريبة في تحليل النصوص على عقولنا، وافتتان الدارسين بها، فكان أن رام عرض منهج بديل، يقلص من سطوة هذه المناهج.

السبب الثالث هو الرد على كثير من الآراء الواردة في كتاب "اللغة العربية معناها ومبناها" لتمام حسان، فقد أكثر قباوة تَعَقُّبه والردَّ عليه، وهو ما جعلنا نرجح أن الرد على الأفكار الواردة في هذا الكتاب، وبالأخص ما تبع فيه تمام حسان الدراسات اللغوية العربية كان من أبرز الأسباب الداعية لتأليف هذا الكتاب، ثم إن هناك أمراً جديراً بالذكر، وهو أن للأستاذ قباوة في كتابه هذا اصطلاحاً خاصاً مطرداً على مدِّ الكتاب، فإذا قال: زعم بعض المعاصرين، أو قال بعض المعاصرين فإنه يعني تمام حسان تحديداً.^١

^١ - ينظر على سبيل المثال: ص ١٠٦، من "التحليل النحوي أصوله وأدلتها"، وما يحيل إليه الرقم ١٥٩ في هوامش الكتاب.

٣.د - خطة الكتاب:

اختبِط قباوة لكتابه خطة واضحة المعالم، ضمّت مقدمة وبابين وخاتمة، تضمن الباب الأول الذي هو بعنوان: التحليل النحوي وأصوله فصلين، الفصل الأول بعنوان: التحليل النحوي وبوادره، ضبط في الأستاذ ابتداءً المفهوم الاصطلاحي للتحليل، ثم تحدث عن طبيعة العمليات التحليلية، وخصائص التعبير التحليلي الدقيق، ثم ختم الفصل الأول بذكر نبذة تاريخية عن البدايات الأولى للتحليل النحوي عند العرب.

وفي الفصل الثاني المعنون ب: أصول التحليل النحوي تعرّض لمفهوم أصول التحليل النحوي، ثم بسط القول في المرتكزات المنهجية التي يتكئ عليها المحلل أثناء التحليل، وهو ما اصطلح عليه ب: المعارف الخاصة والمعارف العامة، ثم ختم الفصل بنموذج تطبيقي وضّح من خلاله ما تم سرّده من أمور نظرية.

أما الباب الثاني فقد مَحَضَهُ لأدلة التحليل النحوي، وجاء في ثلاثة فصول، الفصل الأول درس فيه أدلة التحليل الصرفي، وعدّد القرائن المعينة على تحديد أبنية ومعاني الصيغ الصرفية، مع نماذج من الاستدلال، وفي الفصل الثاني عرض المستوى الثاني من مستويات التحليل، وهو بعنوان: أدلة التحليل الإعرابي، وضّح فيه طبيعة هذا التحليل، وشموله المفردات والجمّل وأشباه الحمل والمصادر المؤولة، ثم عرّج على الأدلة والقرائن المساعدة على تحديد الوظائف النحوية والعلاقات التركيبية بين المفردات، وختم الفصل بنماذج توضيحية.

أما الفصل الثالث والأخير فقد كان بعنوان: أدلة التحليل لمعاني الأدوات، قدم له بتفريق دقيق بين الحرف والأداة، يزيل الخلط واللّبس الواقع فيهما في الدراسات

الحديث، ثم بسط منهجه في التحليل السياقي للأدوات، ليختمه بذكر الأدلة والقرائن المعينة على تحديد معاني الأدوات مع الاستشهاد والتمثيل.

أما الخاتمة فقد جاءت موجزة مقتضية، مُدَكِّرَةً بما تمت معالجته، وما رام الباحث تحقيقه.



المبحث الثاني:

مرتكزات التحليل النحوي

بعد أن وقفنا على مفهوم التحليل النحوي عند بعض الدارسين المحدثين، وعند فخر الدين قباوة تحديداً، نستكمل رحلة البحث مع الأصول والمركزات المنهجية لهذا التحليل، إذ لا يمكن لأي تحليل أن يَجني ثماره ويُؤتي أكله إلا إذا استند إلى جملة من الأصول اللغوية وغير اللغوية، يستمد منها الفهم والبيان والمقصود مما يروم تحليله.

يصطلح فخر الدين قباوة على تسمية هذه المرتكزات المنهجية التي يتكئ عليها المحلل ب: أصول التحليل النحوي، وسنسعى في هذا المبحث إلى التعرف على مفهوم هذه الأصول، وتبيان ما يندرج تحتها مع مناقشتها، وتوجيه بعض الأنظار إليها، تمحيصاً وإثراءً لها، مستعينين في ذلك بفكر وآراء لطائفة من الباحثين قديماً وحديثاً، ولجوا غمار هذا الميدان - ميدان التحليل النحوي - وكانت لهم فيه مساهمات نظرية أو تطبيقية.

أ- مفهوم أصول التحليل النحوي:

يحسن بنا قبل الشروع في تحديد أصول التحليل النحوي التعرف على دلالة مصطلح الأصل.

أ. ١ - الأصل لغة:

يقال: أَصْلُ أصالة: ثبت وقوي، وَأَصْلُ الرَّأْيِ جاد واستحكم،^١ والأصل أسفل الشيء وجمعه أصول،^٢ ويطلق الأصل على ما يُبْنَى عليه غيره، وستمى الأصول أيضا قواعدَ ومناهجَ وأعلاماً.^٣

أ. ٢ - الأصل اصطلاحاً:

أما في الاصطلاح، فالأصل هو القاعدة التي تُبْنَى عليها الأحكام، وأصول العلوم قواعدُها التي تُبْنَى عليها الأحكام.^٤

فكل علم له أصول أي قواعد وكلّيات ثابتة راسخة، تُبْنَى عليها أحكامه الجزئية، وتُخَرَّجُ عليها، ومن هنا فالأصول قواعدُ تقوم عليها الفروع، وأعلامٌ وضوئٌ تستهدي بها، وتسير على ضوئها.

وإذ قد عرفنا مفهوم الأصل عموماً، نأتي إلى مفهوم أصول التحليل النحوي، يقول فخر الدين قباوة: "أصول التحليل النحوي هي القواعد التي تُبْنَى عليها أحكام التحليل في الإعراب ومعاني الأدوات والصرف".^٥

فالأحكام الإعرابية والصرفية أحكام جزئية تصدر عن قواعد كلية تُسمّى أصولاً، وسنأتي إلى تفصيل القول فيها، عن طريق التعرف على طبيعة هذه القواعد وما تتضمنه فإنها - أي كلمة القواعد - لا تزال مبهمّة، مغلفة بمسحة من غموض.

^١ - مجمع اللغة العربية بالقاهرة: المعجم الوسيط، ص ٢٠.

^٢ - الفيروزآبادي: القاموس المحيط: ج ٣، ص ٣١٨.

^٣ - أبو البقاء الكفوي: الكلّيات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق: عدنان درويش - مجد المصري، ط ٢، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، لبنان، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م، ص ١٢٢.

^٤ - مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، ص ٢٠.

^٥ - فخر الدين قباوة: التحليل النحوي أصوله وأدلتها، ص ٥٥.

ويجدر التنبيه هنا إلى أن قباوة قد تفرد بهذا المفهوم "أصول التحليل النحوي"، والتقريب بينه وبين أدلة التحليل النحوي^١، فلم نجد من الدارسين الذين عُنُوا بهذا الموضوع من استعمله، وإنما يطلقون مصطلح أدلة وقرائن التحليل^٢، أو قرائن التوجيه^٣، لتجمع بين ما هو مُتضمَّن في أصول وأدلة التحليل النحوي عند فخر الدين قباوة.

ب- طبعة أصول التحليل النحوي:

أصول التحليل النحوي عند فخر الدين قباوة تتوزع على محورين اثنين، أو هي مكونة من دعامتين اثنتين هما المعارف العامة والمعارف الخاصة، ولا بد للمحل أن يستند إليهما قبل البدء في أي تحليل.

ب.١ - المعارف العامة:

وهي علوم وخبرات يجب على المحلل النحوي أن يكون عارفاً فيها، ضابطاً لها، كي يتسنى له السير في التحليل بنجاح، وتتمثل في إيطاطته بعلوم اللغة، من قواعد إعراب وصرف وعروض ومعجم وقواعد رسم وعلامات ترقيم، وإحاطة بعلوم الأدب والنقد والبلاغة.^٤

وسميت هذه المعارف عامة لأنها لا تختص بنص معين، بل يُشترط حصولها ابتداءً عند كل محل، وقبل أن يتعرض للنص بالتحليل، وهذا خلافاً للمعارف

^١ - نسجل هنا تفرد قباوة بهذا المصطلح "الأصول"، وإن كنا نرجح أن اتكأ في تصور هذا المبحث وضبطه على ما أورده ابن هشام في كتابه "معني اللبيب عن كتب الأعاريب"، وخاصة الباب الخامس، وهو في ذكر الجهات التي يدخل الاعتراض على المعرب من جهتها.

^٢ - ينظر: تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، ص ١٩١ وما بعدها.

^٣ - ينظر: نشأت علي محمود عبد الرحمن: التوجيه النحوي وأثره في دلالة الحديث النبوي الشريف دراسة في الصحيحين، ط١، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٣٢هـ / ٢٠١١م، ص ٣٨.

^٤ - فخر الدين قباوة: التحليل النحوي أصوله وأدلتها، ص ٧٠.

الخاصة التي سنتطرق إليها بعدُ، فإنها تختص بالنص المراد تحليله، وذلك بمعرفة سياقه، وحال مُنشئه ... إلى غير ذلك من المعارف الخاصة.

ثم إن هذه المعارف شروطٌ ينبغي للمحلل النحوي أن يتصف بها، ولا سبيل لدارس عَرِيٍّ منها أن يقترب من حَرَمِ النصوص، ولذا وجدنا العلماء قديماً وحديثاً يتورعون من القول في القرآن الكريم تفسيراً وإعراباً وبياناً أحكامٍ، ويُشددون النكير على من تصدر للقول في علومه، ومنها الإعرابُ، وهو لم يتأهل بعدُ، ولم يستجمع أدوات القول فيه، كالإحاطة بأسباب نزول الآيات، ومعرفة دلالات الألفاظ، إلى غير ذلك من المعارف اللازمة. فقد روي عن الإمام مالك أنه قال: "لا أُوتى برجل غير عالم بلغات العرب، يُفسرُ القرآن إلا جعلته نكالا".^١

ويقول فخر الدين قباوة متحدثاً عن متطلبات التحليل: "وعلى هذا فأنت مُطالبٌ طلاب إلزام أن تتقن علوم اللغة وأساليب القراءة والضبط والكتابة والفهم والوعي والتدبر لتتبصر في أبعاد النص، وتخلص منه بقول محمود في ميادين البحث والاستقصاء".^٢

وما ينبغي ذكره أيضاً والتنبية عليه في هذا السياق أن هذه الشروط شروط عامة من حيث المبدأ، ثم تشتد الحاجة إلى بعضها دون بعض بحسب النص المدروس، فمن تعرض لتحليل آيات القرآن الكريم مثلاً وجب عليه أن يجمع إلى تجرّبه في علوم العربية معرفة بعلوم القرآن الكريم، وفقها بالشريعة وأحكامها،^٣ ومن تصدى لتحليل أبيات شعرية أو مقطوعات أدبية توجب عليه أن يكون عارفاً بمذاهب الشعراء والأدباء، مُطَّلعاً على تقننهم في تأدية وجوه المعاني.

^١ - يوسف بن خلف العيساوي: علم إعراب القرآن تأصيل وبيان، ص ١٩١.

^٢ - فخر الدين قباوة: فتاوى في علوم العربية، ص ١٢.

^٣ - يوسف بن خلف العيساوي: علم إعراب القرآن تأصيل وبيان، ص ١٩٣ وما بعدها.

وسنسوق أمثلة موضحة ترفع الحُجُب عما تم إجماله، بذكر نماذج تطبيقية لطائفة من النحاة، توفرت فيهم هذه الشروط / الأصول فأمنتهم العِثار، ويسّرت لهم سبيل التحليل الدقيق والإجراء الناجح، وتتكّبها آخرون، وأغفلوا بعضها فجانبوا الصواب وحادوا عن الجادة في تحليلهم.

فهذا ابن هشام يَعِيبُ على بعض النحويين إعرابهم لكلمة "أعمالاً" في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ الكهف: ١٠٣ مفعولاً به، ثم ردّ عليهم مستنداً إلى قاعدة إعرابية، وهي أن اسم التفضيل لا ينصب المفعول به، فلفظ الأخسرين، وهو جمع أخسر (اسم تفضيل) لا يمكنه أن ينصب المفعول، والصواب أن أعمالاً تميز^١.

هذا في الجانب الإعرابي، ومثله يقع لمن غابت عنه قاعدة أو معرفة صرفية، كأن تلتبس عليه صيغة بأخرى، أو أن يجهل أصل الصيغة التي أمامه، فيبني حكماً على ظاهرها، والصواب خلافه، وذلك كمن يعتقد أن "تتري" صيغة فعلية، فيعرّبها فعلاً مضارعاً، والصواب أنها صيغة اسمية، فأصلها وتري، من المواترة وهي المتابعة، ثم قلبت الواو تاءً فصارت تتري، وهذا على غرار ثراث إذ أصلها وُراث، فقولنا: جاء القوم تتري، أي جاءوا متتابعين، فهي حال منصوبة، ودليل اسميتها قراءة ابن كثير وأبي عمرو لقوله تعالى: ﴿مُّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا﴾ المؤمنون: ٤٤، حيث قرأها بالتثوين (تتراً)، والأفعال لا يدخلها التثوين^٢.

أما علم العروض فمن أحاط به وبمباحثه فقد وُقِيَ شراً كثيراً، وسهّلت عليه كثير من الممارسات التحليلية، وخلافه بالعكس، فمن أخلّ به شقّ عليه التحليل،

^١ - ابن هشام الأنصاري: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ج ٦، ص ٦٩.

^٢ - محمود محمد الطناحي: مقالات العلامة الدكتور محمود محمد الطناحي صفحات في التراث والتراجم واللغة والأدب، ج ٢، ص ٥٥٦.

ووقع في مطالبات كثيرة، وسنضرب مثالا بتعقب العروضي الجزائري موسى الأحمد نويوات^١ للنحاة في استشهادهم، في باب الاسم الذي لا ينصرف، على صرف لفظ "دعد" ومنعه، في بيت واحد لجريـر.

فابنُ يعيش مثلاً بعد أن أورد قول الزمخشري في مفضّله: "وما فيه سببان^٢ من الثلاثي الساكن الحشو كنوح ولوط منصرف في اللغة الفصيحة التي عليها التنزيل لمقاومة السكون أحد السببين وقم يُجْزَوْنَه على القياس فلا يصرفونه وقد جمعها الشاعر [جريـر] في قوله:

لَمْ تَتَلَفَعْ بِفَضْلِ مِثْرِهِا دَعْدٌ وَلَمْ تُسَقِّ دَعْدُ فِي الْعَلْبِ"^٣

قال: [أي ابن يعيش] "اعلم أن ما كان ساكن الوسط من الثلاثي المؤنث إذا كان معرفة فالوجه منعه من الصرف لاجتماع السببين فيه وقد يصرفه بعضهم لخفته بسكون وسطه فكأن الخفة قاومت أحد السببين فبقي سبب واحد فانصرف عند هؤلاء وفيه رد إلى الأصل... والشاهد فيه صرف دعد وترك صرفها".^٤

فالزمخشري وابن يعيش، وبعض النحاة يرون أن الشاعر قد صرف دعدا الأولى، وترك صرف الثانية، والحقيقة أن هذا البيت يصح الاستشهاد به على منعهما من الصرف في الموضعين لأن الوزن يقبل ذلك، ولا يصح الاستشهاد به على صرف الأولى وترك الصرف في الثانية، لأن منعه في الثانية ضرورة، والشاعر غير

^١ - موسى الأحمد نويوات: شاعر ولغوي وعروضي جزائري، ولد بالمسيلة في ١٥ جانفي ١٩٠٠م، درس بالجامع الأخضر بقسنطينة، ثم بجامع الزيتونة، اشتغل بالتدريس مدة طويلة، وهو يعد من أبرز رجال جمعية العلماء المسلمين، توفي يوم ١٧ فيفري ١٩٩٩م، له ديوان شعري والعديد من الدراسات.

^٢ - والسببان هما: العَلَمِيَّة والتَأْنِيث.

^٣ - ابن يعيش: شرح المفصل، ج ١، إدارة الطباعة المنيرية، مصر، (د. ت)، ص ٧٠.

^٤ - نفسه، ص ٧٠.

مخير فيها، ومراد من أوردوا البيت شاهدا على ما ذهبوا إليه أن الشاعر صرف الأولى وكان مستطيعا أن يمنع الصرف، وهذا صحيح لأن الوزن يسمح به، ومنع الصرف في الثانية، وكان مستطيعا ألا يمنع، لأن الأمر جائز (جواز الصرف والمنع)، وهذا مردود، لأن الشاعر مضطر إلى المنع، وإلا اختل الوزن.^١

وتقطيع البيت كالتالي:

لم تتلف بفضل مئزرها دعد ولم تسق دعد في العلب
لم تتلف / فعفضل / مئزرها دعدن ولم / تسق دعد / فلعلبي
مستعلن / مفعلات / مفتعلن مستعلن / مفعلات / مفتعلن

والبيت من بحر المسرح.

وما يسجل بعد هذا المثال هو أن حنكة وخبرة العروضي موسى الأحمدى نويات جعلته يوفق في تحليله، غير منساق وراء الخطأ الذي وقع فيه بعض النحاة ممن استشهدوا بهذا البيت.

والأمر نفسه نلحظه في علم الرسم، فالتشبع به يعصم المحلل من السقوط في مزالق كثيرة، ومن غابت عنه بعض الأصول في هذا الباب، لا يؤمن أن يدخل عليه الخلل جملة واحدة.

ومثال ذلك أن بعض المحللين ذهب إلى أن "كالوهم" في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ المطففين: ٣، هي بمعنى: كالوا، يوقف عليه، ثم يكون ابتداءً: أي هم يخسرون، على أن "هم": مبتدأ، مفصول عما قبله، وفي هذا إغفال

^١ - نجيب بن خيرة: الأديب موسى الأحمدى نويات حياته وأثاره، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠٠٩م، ص ١٥٩، ١٦٠.

^٢ - منع دعد الثانية من الصرف ضرورة، لأن (دعد) تقابل (لاث) من مفعلات، ولا يمكن لمفعلات أن تصير مفعلاتن.

وذهول عن قاعدة أساسية في علم الرسم، وهي أن لو كان "كالوا"، و "هم" مفصولين لوجب دخول الألف على "كالوا"، وبما أنها لم ترسم مع واو الجماعة فهذا دليل على أنها متصلة بما بعدها، فكالوا: فعل ماضٍ، وهم: في محل نصبٍ مفعولٌ به، والتقدير: وإذا كالوا لهم أو وزنوا لهم يُخسرون.^١

ومن شروط المحلل المطلوبة كما أسلفنا المعرفة الواسعة بعلوم البلاغة، والإحاطة بضروب إيراد المعاني والألفاظ عند الأدباء، والتبحر في فهم مقاصدهم ومرامي عباراتهم، فالتأمل في بيت ابن الدُمَيْنَةِ الذي يقول فيه:

تَعَالَتِ، كِي أَشَجَى، وَمَا بِكَ عِلَّةٌ تُرِيدِينَ قَتْلِي، قَدْ ظَفَرْتَ بِذَلِكَ

يلحظ أن الشاعر قد قصد الفصل والاستئناف بين الجملتين الأخيرتين، "ليثبت التحقيق بقْد، وأن الجملة بعده حصلت فعلا، فهي استئنافية تفيد الخبر المؤكد، وليست حالية ذات اتصال تركيبى بالتى قبلها، ولو وصلت الكلام لضاع ذلك القصد المحقق".^٢

وبعدُ فهذه أمثلة يسيرة تشكل غيضا من فيض شروط غفيرة، ينبغي للمحلل أن يَمْتَلِئَ بها، أوردناها هنا تمثيلاً لا استقصاءً، وستأتي في غضون البحث أمثلة أخرى، تزيد الأمر وضوحاً.

^١ - يوسف بن خلف العيساوي، علم إعراب القرآن تأصيل وبيان، ص ١٥٠ و ٢٥١.

^٢ - فخر الدين قباوة: التحليل النحوي أصوله وأدلته، ص ٨٢.

ب. ٢ - المعارف الخاصة^١:

وهي الظروف المحيطة بالنص المدروس، والتي جعلته يخرج إلى حيز الوجود على شكل ونمط مخصوصين، وهو ما يُعرَفُ في البلاغة العربية بـ: مقتضى الحال، وهو "ما يستدعيه الأمر الواقع من مقاصد ومرام وأساليب وتراكيب تناسب المقامات المختلفة لصنع الكلام".^٢ ومقتضى الحال يتضمن أمرين هما: مقتضى المقام ومقتضى المقال.

فمقتضى المقام: يُقصد به أن لكل نص سيقا وظروفا مخصوصة، أوجبته مجيئه على نمط معين، وهذه الظروف أيضا تعرف بالسياق غير اللغوي، أو السياق الخارجي،^٣ كمناسبة إنشاء القصيدة أو مورد المثل أو سبب النزول أو سبب ورود الحديث، وكمعرفة حال المخاطب، والإلمام بخصوصية البيئة التاريخية والاجتماعية للنص وقت صناعته.^٤

أما مقتضى المقال فهو "لتعبير المسوق به النص المدروس"،^٥ أي الصورة اللفظية التي صُبَّت فيها معاني النص. فكما أن المحلل مطالب باستحضار سياقات النص المختلفة، يتوجب عليه أيضا فقه عبارات النص المحلل، وفهم مفرداته وتراكيبه.

^١ - سبق البيان أن هذه المعارف التي سنفصل القول فيها، إنما نعتت بالخاصة لأنها تختص بالنص المراد تحليله، فكل نص نروم تحليله ينبغي أن تكون لنا معارف محيطه عنه، كمناسبة إنشائه، وحال قائله وتلقيه، وأحوال البيئة التي أنشئ فيها، إلى غير ذلك مما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

^٢ - فخر الدين قباوة: التحليل النحوي أصوله وأدلتها، ص ٥٥.

^٣ - محمود حسن الجاسم: أسباب التعدد في التحليل النحوي، (مجلة مجمع اللغة الأردني)، العدد ٦٦، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م ص ٩٣-١٥٦. ويُعرَف محمود حسن الجاسم المقام أو السياق الخارجي بقوله:

"والمراد بالمقام جملة العناصر غير اللغوية المكونة للموقف الكلامي"، ص ١١٦.

^٤ - فخر الدين قباوة: التحليل النحوي أصوله وأدلتها، ص ٥٦.

^٥ - نفسه، ص ٦٣.

وسنورد هنا بعض التحاليل النحوية التي أجراها أو مفسرون أو شراح شعر، لنرى من خلالها كيف أن اعتمادهم على سياقات الآيات والأحاديث والأبيات الشعرية كان مُعينا لهم على إتمام التحليل بنجاح، والخروج منه برأي محمود وحكم سديد، وكيف أن مقتضيات المقام والمقال تساهم بأوفر نصيب في تحديد الوجه الإعرابي والصرفي، وفي معنى الأداة، وكيف تكون هذه المعطيات اللغوية وغير اللغوية مفاتيح في أيدي المحللين.

فعندما تصدى المفسرون لقوله تعالى: ﴿الْم (١) غَلَبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ الروم: ١-٣، اعتمدوا على اسباب نزول هذه الآيات ليحددوا الوظائف النحوية لمفرداتها، ومن ذلك أن الضمير (هم) في قوله "غَلَبَهُمْ" ضمير متصل مبني على السكون في محل نصبٍ مفعولٍ به، فالمصدر مضاف إلى مفعوله، والتقدير: من بعد أن غلبهم عدوهم، وهم فارس^١.

ومثله إجماعهم على أن الفعل "سَيَغْلِبُونَ" مبني للمعلوم، فالروم من بعد أن غلبتهم فارسٌ سيغلبون فارس، يقول السمين الحلبي: "والعامة - بل نقل بعضهم الإجماع - على سيغلبون مبنيا للفاعل... وروي عن ابن عمر أنه قرأ ببنائه للمفعول، وهذا مخالف لما ورد في سبب الآية وما ورد في الأحاديث"^٢.

^١ - السمين الحلبي: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، ج٩، ص٢٩. وقد ورد في أسباب نزول هذه الآية أن كسرى بعث جيشا إلى الروم وأمر عليهم رجلا... فسار إليهم بأهل فارس وظفر وقتل وخرب وقطع زيتونهم، وكان التقاؤهم بأذرعات وبصرى...، فشق ذلك على المسلمين لكونهم مع الروم أهل الكتاب، وفرح المشركون لكونهم مع المجوس ليسوا أهل كتاب... ونزلت أوائل الروم فصاح "أبو بكر" بها في نواحي مكة فرحا واستبشارا. ينظر: أبو حيان الأندلسي: تفسير البحر المحيط، ج٧، ص ١٥٦-١٥٧.

^٢ - المرجع السابق، ج ٩، ص ٣٠.

لأن قراءة ابن عمر تقتضي أنهم سيُغلبون في الوقعة الثانية بعد أن كانوا قد غلبوا في الوقعة الأولى، وذلك أنه قرأ "عَلَبَتْ" في أول السورة بالبناء للفاعل، وهذا مخالف لما ورد في سبب نزول الآيات من أن الروم غلبت من قبل فارس، ووعدهم الله بالانتصار بعد ذلك، كما هي قراءة الجمهور (العامة).

وقد استعان السمين الحلي على أسباب النزول أيضا ليرد عن قال إن "ال" في قوله تعالى "في أدنى الأرض" عَوْضٌ من الضمير، وأن أصل التركيب أدنى أرضهم [أي أرض الروم]، وذلك أنه ورد في أسباب النزول أنهم غلبوا في أذرعات وبصرى من أرض العرب، ومن هنا لا يصح جعل "ال" عوضا من الضمير، وإنما تكون عهدية، أي في الأرض التي عهدَ أنهم غلبوا فيها، وهي كما قدمنا أذرعات وبصرى.^١

وإذا كان الرجوع إلى أسباب النزول أمرا لازما في تحليل الآيات الكريمة، فإن الإحاطة بأسباب ورود الحديث أيضا حتم لازم، لتتم الإجراءات التحليلية على أكمل وجه وأدقه، وهذا ما نلاحظه في الحديث التالي، فعن سعيد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أعطى رهطا وسعدًا جالسًا فيهم، فقال سعد: فترك رسول الله ﷺ رجلا هو أعجبهم إليّ، فقلت: يا رسول الله، ما لك عن فلان، فوالله إني لأراه مؤمنا فقال: "أو مسلما".^٢

^١ - نفسه، ص ٢٩. وينظر: الزمخشري: الكشاف، ج ٤، ص ٥٦٣.

^٢ - وتتمة الحديث: "فسكت قليلا ثم غلبنى ما أعلم منه فعدت لمقاتلي فقلت: ما لك عن فلان، فوالله إني لأراه مؤمنا فقال: "أو مسلما"، ثم غلبنى ما أعلم منه فعدت لمقاتلي وعاد رسول الله ﷺ ثم قال: "يا سعد إني لأعطي الرجل وغيره أحب إليّ منه خشية أن يكبه الله في النار". ينظر: نشأت علي محمود عبد الرحمن: التوجيه النحوي وأثره في دلالة الحديث النبوي الشريف دراسة في الصحيحين، ص ١٥١.

ف "أو" في قوله ﷺ "أو مسلماً" للإضراب، وهي بمعنى "بل" ولكنه إضراب نهى
لا إضراب إنكار، فهو نهى عن القطع بالإيمان، إرشاداً لسعدٍ أنه لا يعلم بواطن
الأمر إلا الله، فعلى الإنسان أن يحكم بالظاهر على الرجل، وهو الإسلام، ويترك لله
ما بطن، وهو الإيمان.^١

والذي ساعد على تحديد معنى الأداة بدقة هو الوقوف على سبب ورود
الحديث، وحال قائله ومُتَلَقِّيه.

ولا يَتَيَسَّرُ أيضاً لمن أراد أن يتعرض للنصوص الإبداعية شعراً أو نثراً
بالتحليل، أي تحديد الوجه الإعرابي أو الصرفي الأدق أن يصل إلى مبتغاه فهماً
وإجراءً، إلا بعد أن يحيط بظروف إنشاء الكلام، كمناسبة القصيدة مثلاً، فإن للشعر
دوافع وبواعث كما يقول نُقَّادُهُ، والإلمام بها يُسهِّلُ الوصول إلى المقصود. فإذا جئنا
إلى قول المتنبي:

رُويَدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ الْجَلِيلُ تَأَنَّ وَعُدَّهُ مِمَّا تُنِيلُ

وَجُودَكَ بِالْمَقَامِ وَلَوْ قَلِيلاً فَمَا فِيمَا تَجُودُ بِهِ قَلِيلاً^٢

نجد أن مما يساعد على الوصول إلى حكم مرضي في تحديد الوظيفة النحوية
لقوله في أول البيت الثاني "وَجُودَكَ" معرفة سياق القصيدة، وذلك أن المتنبي قالها
عند تحرُّك سيف الدولة للرحيل عن أنطاكية، فهو يحاول أن يثنيه عن عزمه في
الرحيل، ويترجّاه للبقاء معهم، وعلى هذا يتخرج قوله وَجُودَكَ على أنه مفعول مطلق

^١ - نفسه، ص ١٥٣.

^٢ - ناصيف اليازجي: العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، ج ٢، دار صادر، بيروت، لبنان،
(دون تاريخ)، ص ١٦.

لفعل محذوف، والتقدير: وَجُدْ جُودَكَ بالإقامة معنا، فالواو استئنافية منفصلة عن المصدر، وجُودَكَ مفعول مطلق، وَلَا تُقْرَأُ (وَجُودَكَ) على أنها مبتدأ، كما قد يُتَوَهَّم.^١

ويؤيد هذا قوله بعد: "ولو قليلاً"، وهو ما يتوافق مع الطلب في أول البيت "جُدْ جُودَكَ". أي جد بالإقامة معنا ولو كانت مدتها قصيرة.

ومن أوجه الإحاطة بظروف القول معرفة حال المتكلم، ولعل خير مثال على ذلك ما أُثِرَ من تعليق ابن عباس على ابن مسعود وعلي ابن أبي طالب حين قرأ قوله تعالى: ﴿وَنَادُوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِيَ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ الزخرف: ٧٧، قرأه يا مالٍ على الترخيم في النداء، فردّ ابنُ عباس قائلاً: ما أشغل أهل النار عن الترخيم. فقد اعترض ابنُ عباس على قراءة المنادى بالتخيم مراعاةً لحال من حُكي القول على لسانهم، وهم أهل جهنم، فهم في هول تُنسيهم التأنق في العبارة.^٢

ومعرفة حال البيئة التاريخية والاجتماعية التي ولد فيها النصُّ أمرٌ ضروريٌّ في التحليل، فعندما تكون على دراية بمعطيات البيئة التي نزلت فيها الآية الكريمة: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ المنافقون: ٧، تعرف أن "حتى" في الآية تحليلية، لأن المنافقين يتظاهرون على المسلمين الضعفاء، ويقولون: "أمسكوا عنهم العون واحجبوه ليضطروا إلى الكفر والارتداد".^٣

هذا ما أحببنا الوقوف عنده من أمر مقتضيات المقام، ممثلين له بأمثلة مفردة، تبين مساعدة السياقات الخارجية للآيات والأحاديث والأبيات في توضيح المقصود وتسهيل الإجراءات التحليلية، لتنتقل بعد إلى ضرب المثال عن مساهمة مقتضيات المقال في إنجاح العمليات التحليلية.

^١ - نفسه، ١٦.

^٢ - الزمخشري: الكشاف، ج ٥، ص ٤٥٦.

^٣ - فخر الدين قباوة: التحليل النحوي أصوله وأدلتها، ص ٦٢.

وقد تقدم لنا قبلُ أن المقصود بمقتضى المقال أن لكل نص مفرداتٍ وتراكيبٍ يتألف منها، وصورةً من النظم مخصوصةً تجب مراعاتها، ويجب على المحلل فقه مفرداتٍ وتراكيبٍ هذا النظم، ليتم له التحليل على أكمل وجه، ومن أخلَّ بهذا دخل عليه الخطأ جملةً واحدةً.

يقول ابن هشام الأنصاري: "ولقد حكي لي أن بعض مشايخ الإقراء أعرب لتلميذ له بيت المفصل:

لَا يُبْعِدُ اللَّهُ التَّلَبُّبَ وَالْغَارَاتِ إِذْ قَالَ الْخَمِيسُ: نَعَمْ

فقال: "نَعَمْ" حرف جواب، ثم طلبا محلَّ الشاهد في البيت فلم يجدها... وإنما "نَعَمْ" هنا واحدُ الأنعام، وهو خبر لمحذوف، أي هذه نَعَمْ، وهو محل الشاهد".^١ والذي أوقع هذا الشيخ في الزلل هو عدم فقهه لمعاني البيت، أو كما قال ابن هشام في أول الباب: مراعاته لمقتضى الصناعة دون المعنى. فمعنى البيت لا يبعد الله لبس السلاح (التلَبُّب) والهجوم على الأعداء (الغارات) إذا قال الجيش (الخميس) هذه إبلٌ فأغبروا عليها.^٢

وعلى هذا أيضا لم يستطع ابنُ هشام أن يُعربَ كلمة "حَقَلَدٍ" في قول الشاعر:

تَقِي نَقِيٍّ لَمْ يُكْثِرْ غَنِيمَةً بِنَهْكَ ذِي قُرْبَى وَلَا بِحَقَلَدٍ

حتى عرف معناها وأثبتته. يقول ابنُ هشام: "وسألني أبو حيان - وقد عرض اجتماعنا - : علامَ عَطَفَ "بِحَقَلَدٍ"، فقلتُ: حتى أعرفَ ما الحَقَلَدُ، فنظرناه، فإذا هو السوءُ الخلق، فقلت: هو معطوفٌ على شيءٍ مُتَوَهَّمٍ، إذا المعنى: ليس بمكثر غيمةً".^٣

^١ - ابن هشام الأنصاري: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ج ٦، ص ٧-٨.

^٢ - نفسه، ج ٦، ص ٧-٨.

^٣ - نفسه، ج ٦، ص ٨-٩.

ولعلنا نكتفي بهذه الأمثلة، وإنه يكفي من القلادة ما أحاط بالعنق، فقد وَضَحَ المراد، وتبين خطرُ مقتضيات المقام والمقال في التحليل النحوي، وبأن شرفهما، وتجلت قيمتهما. ولهذا وجدنا تمام حسان يقول إن فكرتي المقام والمقال من أنبل ما وصل إليه علم اللغة الحديث، وأنبلُ منه تقطُنُ علماء البلاغة العرب لهما وربطهما بعبارتين شهيرتين هما: لكل مقام مقال، ولكل كلمة مع صاحبها مقام.^١

ج- شروط النص المحلّل:

من النقاط الوثيقة الصلة بما تم تبينه آنفاً، من شروط المحلّل النحوي (المعارف العامة)، ومُتَطَلِّبات التحليل من معارف خاصة الحديث عن شروط النص المحلّل، فليس كلُّ كلامٍ قابلاً للتحليل، وإنما تُشترطُ له شروط سنتاولها بالإيضاح والبيان.

وقد خصّ قباوة النص المحلل بالذكر، مُنبِّهاً على ضرورة حيازته جملةً من الخصائص، حتى تكتمل عملية التحليل وتسير في طريقها السليم.

وأوّل ما يشترطه قباوة في النصوص القرآنية أو الحديثية أو الإبداعية الأدبية والعلمية هو أن تكون حائزةً لمعنى مكتمل واضح، لكي يتمكن المحلّل من إقامة تصور جيد عن النص الذي يروم تحليله، وأكثر ما نجد هذا في النصوص الكاملة، أما الجمل الموجزة والأبيات المفردة المنتزعة من سياقها اللغوي، فإن التعامل معها محفوف بالمخاطر، ويوشك المحلّل، إن لم يحتطّ ويتحفّظ في إطلاق الأحكام، أن يقع في أخطاء جسيمة. وإذا كان قباوة قد تشدّد في ضرورة امتلاك الكلام لمعنى تام

^١ - تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، ص ٢٠.

واضح، فإنه سيرفض بالضرورة الأمثلة الهرائية غير الحاملة للمعاني البتة. يقول قباوة: "ولن يكون لشيء من اللفظ تحليلٌ نحويٌّ، إذا لم يقدم فائدة معنوية".^١ وقد قال علماء العربية الأوائل: الإعراب فرعُ المعنى، أي تابع له ومتفرع عنه. والنظرُ في كتاب سيبويه وبابه الشهير: باب الاستقامة من الكلام والإحالة،^٢ يُبرزُ شدة تمسك النحاة الأوائل بالمعنى واحتفاءهم به.

ولهذا رفض قباوة التحليل النحوي الذي قام به تمام حسان، حين طبقه على نسق نطقي هرائي، لا حظَّ له من العربية إلا رسمُ الحروف. وذلك حين صنع تما بيتاً من الشعر لا يمتلك معنى معجمياً، ثم أخذ في إعرابه، والبيت هو:

قاصّ التجينُ شحالةً بتريسه الـ فاخي فلم يستف بطاسية البرن^٣

^١ - فخر الدين قباوة: التحليل النحوي أصوله وأدلتها، ص ١١٢.

^٢ - سيبويه: الكتاب، ج ١، ص ٢٥. وذلك حين قال سيبويه: "هذا باب الاستقامة من الكلام والإحالة، فمنه مستقيم حسين، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم فبيح، وما هو محال كذب. فأما المستقيم الحسن فقولك: أتيتك أمس وسأتيك غداً. وأما المحال فإن تنقض أول كلامك بآخره فتقول: أتيتك غداً، وسأتيك أمس. وأما المستقيم الكذب فقولك: حملت الجبل، وشربت ماء البحر، ونحوه. وأما المستقيم القبيح فإن تضع اللفظ في غير موضعه، نحو قولك: قد زيدا رأيتُ، وكبي زيداً يأتيتك، وأشباه هذا. وأما المحال الكذب فإن تقول: سوف أشرب ماء البحر أمس". فسيبويه هنا حكم على جملة: أتيتك غداً مثلاً بالإحالة لفساد المعنى وتناقضه (آخره يناقض أوله) فما بالك بعدم وجود المعنى أصلاً، فهو مردود من باب أولى. وينظر: محمد حماسة عبد اللطيف: النحو والدلالة مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي، ص ٦٥ وما بعدها.

^٣ - تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، ص ١٨٣. وقد قال تمام حسان بعد أن ساق هذا البيت مباشرة: "إن من حسن الحظ أن ابن اسحق (كذا) (رضي الله عنه) لم يتأخر به زمانه حتى يقرأ ما يبدو هنا أنه أريد به أن يكون من قبيل الشعر، ولو قد حدث هذا لعدّه من شعر الجن أو لزعم أن آدم قاله قبل أن يعلمه الله الأسماء كلها ربما دون أن يردف ذلك بقوله: والله أعلم". وعلق قباوة على هذا بعد أن ساق عبارة تمام حسان بتمامها قائلاً: "هذه عبارته بحذافيرها، كما جاءت في كتابه، بما فيها من خلل وتسبيب وسخرية وخلل، فهو يريد عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي، ولكنه لا يعرف كيف ينقل كنيته، ويقول: "ربما دون" ومثل هذا التعبير لا يكون من عربي". التحليل النحوي أصوله وأدلتها، ٢٨٦.

وقد استند قباوة في رفضه هذا على أمور مُسلم بها عند النحاة قاطبةً، وهي ضرورة امتلاك النص المَحَلَّ للمعنى، مع صحة العلاقات التركيبية، ثم ضرورة فهم المَعْرِب لما يعربه، وقد عبر ابن هشام عن هذا قائلاً: "وأول واجب على المَعْرِب أن يفهم معنى ما يُعربه مفرداً ومركباً".^١

فإذا كانت العبارة لا تمتلك معنى، أو لم يخرج المَعْرِبُ بمعنى واضح بعد قراءتها، فلا سبيل إلى الحديث عن الإعراب، " ولن يكون للفظ وظيفة إعرابية أو صرفية، إذا لم يكن له معنى لغوي معروف".^٢

والذي نعتقده هنا أن مبالغة تمام حسان في إبراز قيمة المعنى الوظيفي، ودوره الكبير في التحليل النحوي، وأنه ثَمَرَةُ التعليق هو الذي أدَّاهُ إلى هذا القول النشاز في الدرس النحوي العربي، من أن حضور المعنى والوظيفي وحده في الجملة، دون المعنى المعجمي، ودون معطيات السياق كفيلاً بإجراء العمليات الإعرابية بنجاح.^٣

وما بقي تسجيله هنا أن تمام حسان ساق رأيه هذا في شكل فرض فرضه، حيث قال: " لو أبحنا لأنفسنا أن نتساهل قليلاً في أمر التمسك بالمعنى العجمي

والحقيقة أن تمام حسان لم يخطئ في نقل الكنية، فهو يريد محمد بن إسحاق بن يسار صاحب السير، وذلك أنه كان عالماً بالسير والمغازي، ولكنه نقل كثيراً من الأشعار التي لا أصل لها، وهو الذي يقول فيه ابن سلام الجمحي: "... فكتب في السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط، وأشعار النساء فضلاً عن الرجال، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود، فكتب لهم أشعاراً كثيرة...". محمد بن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء، ج ١، قرأه وشرحه: أبو فهر محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، مصر، دون تاريخ، ص ٧ و ٨. وسياق كلام تمام حسان يدل على أن المقصود هو ابن إسحاق صاحب السير لا عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي النحوي.

^١ - ابن هشام الأنصاري: مغني اللبيب عن كتب الأعريب، ج ٦، ص ٧.

^٢ - فخر الدين قباوة: التحليل النحوي أصوله وأدلتها، ص ١١١.

^٣ - تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، ص ١٨٢.

فكوتاً نسقا نطقيا من صور بنائية عربية لا معنى لها من الناحية المعجمية لأمكن لنا أن نعرب هذا النسق النطقي".^١

ويتعين بعد الذي ساقه تمام حسان أن "لو" في بداية قوله حرف امتناع لامتناع، إذا امتنع إمكان الإعراب لامتناع التساهل في أمر التمسك بالمعنى المعجمي، فالمعنى المعجمي حجر الأساس في العملية التحليلية، ومن دونه لا حديث عن التحليل.

أما التعليق الذي أوجده بين المفردات التي لا معنى لها، والذي أثمر معنى وظيفيا - في رأيه - فلا يعدو أن يكون عنصرا مساعدا في الإجراء الإعرابي، ويبقى محتاجا إلى مفردات حاملة لمعان معجمية، ثم صحة تعلق بعضها ببعض. وهذا ما يؤكد جاكبسون حين قرر أن الجملة التي تحترم العرف النحوي (قواعد التعليق) تبقى محتقظة بطبقة أولى من طبقات المعنى، لا المعنى التام الذي يتيح الإعراب.^٢

ومن الأمور المطلوبة في النص أيضا أن يكون نصاً أدبياً أو علمياً، ذا عبارة أنيقة، مقصودة، أما الكلام العادي أو العامي المبتذل فلا يدخل في إطار التحليل النحوي. يقول قباوة: "ويحسن بنا أيضا الإشارة إلى أن العمليات الإجرائية، في التحليل النحوي، ينحصر ميدانها في التعبيرين الأدبي والعلمي، أي: الكلام الذي فيه

^١ - المرجع السابق، ص ١٨٢.

^٢ - ينظر: محمد حماسة عبد اللطيف: النحو والدلالة مدخل لدراسة المعنى النحوي - الدلالي، ص ١٢. ويقول محمد حماسة عبد اللطيف في موضع آخر: "وكسر دلالة المفردات الأولية يؤدي إما إلى الخطأ الدلالي مع الصحة النحوية - والصحية النحوية تجريدية [لا حقيقية] - ولذلك لا يحكم على "الجملة" هنا بأنها من اللغة، فلا يقال هذه "الجملة" - وهي من تمثيل أستاذنا الدكتور تمام حسان - "حنكف المستعص بسقاحتها في الكمظ" إنها جملة لغوية صحيحة، لأن مفرداتها فقدت الدلالة الأولية للمفردات لهرائيتها وعدم استخدامها في اللغة". نفسه، ص ٥٨.

مقاصد إبداعية أو معلومات دقيقة... أما الأقوال اليومية العابرة فهي غنية عن هذه العمليات، لِمَا تُبنى عليه من البساطة أو العامية الهجينة".^١

وبقي أمر تجدر الإشارة إليه في سياق الحديث عن النص المَحَلَّل، وهو تعمُّدُ قباوة الإكثار من التطبيق على النصوص النبوية، تأييداً ونُصرةً لمذهبه في توظيف الحديث النبوي الشريف في الدراسات النحوية الأكاديمية. يقول قباوة في هذا الصدد:

"وقد ظهرت كفة النصوص النبوية هنا بحضور لامع، تحقيقاً لما دعوت إليه دائماً من توظيف السنة الشريفة في الدرس النحوي".^٢

^١ - فخر الدين قباوة: التحليل النحوي أصوله وأدلتها، ص ١٤ و ١٥.

^٢ - المرجع السابق، ص ٥.

المبحث الثالث:

أدلة التحليل النحوي:

سنسعى في هذا المبحث إلى تبين مفهوم الأدلة والقرائن، وضرب الأمثلة الموضحة لها، فعليها وعلى أصول التحليل النحوي مدارُ الحكم السديد والإجراء التحليلي الناجح. مع ذكر بعض الفروقات بينهما - أي بين أدلة التحليل النحوي وأصول التحليل النحوي - لنُعَرِّجَ بعد ذلك على ذكر القرائن وأنواعها إذ هي وثيقة الصلة بالأدلة، وقد استعملنا لمعنى واحد.

أ - مفهوم أدلة التحليل النحوي:

أ. ١ - الدليل لغة:

قال ابن فارس: دلّ: الدال واللام أصلان: أحدهما إبانة الشيء بأمانةٍ تتعلّمها، والآخر اضطرابٌ في الشيء. فالأول قولهم: دللتُ فلاناً على الطريق، والدليل الأمانة في الشيء.^١ ودلّهُ على الشيء يدُلُّهُ دَلًّا ودَلَالَةً فاندلَّ سَدَدُهُ إليه،^٢ والدليل المرشد، وما يُستدلُّ به، والجمع أدلّة،^٣ فالدليل لغة ما يُرشدك إلى شيء معين أيا كان هذا الدليل المرشدُ حسياً أو معنوياً.

أ. ٢ - الدليل اصطلاحاً:

أما الدليل في الاصطلاح فهو الذي يلزم من العلم به العلمُ بشيء آخر،^٤ وذلك كآثار الأقدام دليلاً على المسير،^١ والدخان دليلاً على النار، فالدليل علامة منصوبة لمعرفة المدلول.^٢

^١ - ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، ص ٢٥٩.

^٢ - ابن منظور: اللسان، ص ١٤١٣.

^٣ - مجمع اللغة العربية بالقاهرة: المعجم الوسيط، ص ٢٩٤.

^٤ - الشريف الجرجاني: التعريفات، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٥م، ص ١٠٩.

وإذ قد عرفنا مفهوم الدليل لغة واصطلاحاً فسيتيسر لنا إبراز مفهوم أدلة التحليل النحوي، فنقول إنها قرائن لفظية ومعنوية يستند إليها المحلل في الوصول إلى الحكم الإعرابي أو الصرفي السديد. وهي متنوعة بتنوع الخطابات، واسعة سعة اللغة العربية.

ومن هنا فكل ضابط نحوي، أو حركة أو كلمة أو ذكر أو حذف أو تقديم أو تأخير، أو نبر أو تنغيم أعانك على الوصول إلى الحكم الإعرابي فهو دليل. فالدليل - مثلاً - على أن كلمة "مَعَ" اسم، وهي ظرف لا حرف جرّ تنوينها، فالتنوين للأسماء دون الأفعال والحروف.

والدليل مثلاً على أن الفعل (لم يجر) محذوف حرف العلة وهو الباء الكسرة في آخره، فالكسرة دليل على الياء المحذوفة، كما أن الضمة في (لم يدع) دليل على الواو المحذوفة، والفتحة في (لم يبق) دليل على الألف المحذوفة.^٣ والجدير بالذكر هنا أن فخر الدين قباوة لم يَخَصَّ أدلة التحليل النحوي بتعريف خاص به، كما فعل مع مصطلح التحليل النحوي، وإنما عرّف بالدليل لغةً واصطلاحاً ثم عرف بالقرينة لغةً واصطلاحاً، ثم انطلق في إيراد الأمثلة، موزعةً على مستويات التحليل الثلاثة، التحليل الصرفي والتحليل الإعرابي وتحليل معاني الأدوات.

ثم تلزم الإشارة إلى أمر ثانٍ، وهو على الرغم من أن قباوة صرّح بوجود اختلاف بين الدليل والقرينة، وأنهما ليسا شيئاً واحداً،^٤ إلا أنه ظل يستعملهما على مَدِّ

^١ - فخر الدين قباوة: مشكلة العامل النحوي ونظرية الاقتضاء، ص ١١٩.

^٢ - أبو البقاء الكفوي: الكليات، ص ٤٣٩.

^٣ - محمد سمير نجيب اللبدي: معجم المصطلحات النحوية والصرفية، ص ٨٢ ص ٨٣.

^٤ - فخر الدين قباوة: التحليل النحوي أصوله وأدلتها، ص ١١٧. حيث يقول: "وقد تلتبس 'القرينة' بالدليل، مع أنها متميزة عنه".

كتابه مترادفين، يدلان على معنى واحد مشترك. فتحت مبحث الأدلة والقرائن في التحليل الإعرابي يقول قباوة: "وقد كنا، في الفصل الثاني من الباب الأول، عرضنا لكثير من الأدلة والقرائن العامة والخاصة، حين بسطنا الحديث عن أصول التحليل النحوي".^١

وقباوة هنا - بلا شك - يُحيلُ على المعارف العامة والمعارف الخاصة، وقد عدّها هناك أصولاً، وذكر أنها تختلف عن القرائن - وسيأتي بيانُ هذا في المبحث التالي: بين أدلة التحليل النحوي وأصوله - ثم يعود هنا ليسمي الأصول قرائنً، فيقع في اضطراب مصطلحي.

وأمر ثالث نُرجّحه وهو أن قباوة اعتمد مصطلح أدلة التحليل النحوي - وهو موجود في عبارة العنوان "التحليل النحوي أصوله وأدلته"، وهو أيضاً عنوان للباب الثاني: أدلة التحليل النحوي - وعدل عن مصطلح القرائن لا لشيء إلا لأن تمام حسان قد استعمله [أي استعمل مصطلح القرائن] واشتهر به، فلم يرد أن يتابع حسان فيما نهجه.^٢

ونختم هذا الوجه من القول بالإشارة إلى أن قباوة لم يخرج في تقسيمه لأدلة التحليل النحوي، عما سطره علماء العربية القدامى والمحدثين من انقسامها إلى لفظية ومعنوية، ويستضح هذا من خلال عرضنا للأدلة مع الأمثلة إن شاء الله تعالى.

^١ - نفسه، ص ١٧١ و ١٧٢.

^٢ - صحيح أن مصطلح القرائن معهود مبثوث في كتب علماء العربية الأوائل لكن سياق تأليف الكتاب، "التحليل النحوي أصوله وأدلته"، وقد ألف بعد كتاب تمام حسان، "اللغة العربية معناها ومبناها"، الذي اشتهر بهذه الفكرة، حتى اعتبره عديد الباحثين صاحب نظرية القرائن البديلة عن نظرية العامل في الدرس النحوي العربي، يرجح عندنا هذا. ينظر: خالد بن الكريم بسندي: نظرية القرائن في التحليل اللغوي، مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب، المجلد ٤، العدد ٢، ٢٠٠٧م، ص ٢١ و ٢٢.

وسنورد، في عُجالة، أدلة كل مستوى من مستويات التحليل، مع مثالٍ موضحٍ،
لنُفَسِّحَ المجالَ في الفصل الثاني التطبيقي لمناقشة النماذج التي أوردها فخر الدين
قباوة، واستكشاف خصائص الممارسة التحليلية ومميزات المنهج عنده.
ففي مستوى التحليل الصرفي نجد أن الأدلة والقرائن المعينة على تحديد
الصيغة الصرفية والتغيرات الطارئة عليها تتمثل في القرائن اللفظية والتركيبية، والحال
أو السياق، والمعنى المعجمي.

فمن الأدلة اللفظية المحددة لاسمية الكلمة تلَبُّسُها بصيغة من صيغ الأسماء
ودلالاتها على حدث مجرد من الزمان، أو ذات أو موصوف، ومن الأدلة التركيبية
قبولها الجرَّ والإسناد والنداء والتتوين والتعريف والإضافة، إلى غير ذلك من الأدلة
التركيبية، هذا بالإضافة إلى المعنى المعجمي ومعطيات السياق.^١

ومن الأدلة اللفظية على فعلية المفردة تَلَبُّسُها بصيغة من صيغ الأفعال
ودلالاتها على الحدث مع الزمان، وقبولها الإسنادَ إلى الاسم والاتصال بالضمائر،
إضافة إلى المعنى المعجمي والسياق المساعد.^٢

فإذا جئنا إلى الآية الكريمة: ﴿وَأَنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ ص: ٤٧
لننتبين طبيعة المفردة "المُصْطَفَيْنَ" فهي مثلى أم جمع مذكر سالم - بعد أن عرفنا
أنها اسم لتلبسها بصيغة الاسمية، وقبولها التعريف والجر والوصف وغير ذلك - كان
بين أيدينا قرينتان تركيبيتان هما وصف هذه الكلمة بالأخيار وهو جمع، والوصف
يطابق الموصوف، وكذا دخول من التبعية عليها، بالإضافة إلى دليل لفظي، وهو

^١ - فخر الدين قباوة: التحليل النحوي أصوله وأدلتها، ص ١٢٣.

^٢ - نفسه، ص ١٢٣.

حركة الفتحة على النون، فالفتحة لجمع المذكر السالم، والكسرة للمثنى، كما هو معلوم.^١

والدليل على أن كلمة تَنْضُب في قول الشاعر:

كَأَنَّ الْغُبَارَ الَّذِي غَادَرَتْ ضَحِيًّا، دَوَاخُنْ مِنْ تَنْضُبٍ

اسمٌ، وإن جاءت على صيغة الفعل المضارع معناها المعجمي، فالتنضب شجر ضخم. إضافة إلى دليل تركيبى، وهو دخول حرف الجر عليها.^٢

هذا في المستوى الصرفي، أما في مستوى التحليل الإعرابي فإننا نجد الأدلة والقرائن قد انقسمت عند فخر الدين قباوة إلى أدلة حالية ومعنوية وأدلة لفظية وتركيبية.

أما الأدلة الحالية فقد سبق القول فيها، عند الحديث عن مرتكزات التحليل النحوي، تحت مبحث مقتضى المقام، والأمر نفسه بالنسبة للأدلة المعنوية، فقد بُسِطَ القول فيها عند الحديث عن مقتضى المقال، وكيف أن معنى المفردات والتراكيب يُعين على الوصول إلى الحكم التحليلي الصائب.^٣

وإلى هذا الحد يبقى أماننا أمران للتوضيح والبيان، وهما الأدلة اللفظية والتركيبية. أما الأدلة اللفظية فهي عند قباوة تتمثل في العلامة الإعرابية والرتبة والصيغة والمطابقة ووسائل الربط والتنغيم والنبر.^٤

^١ - الزمخشري: الكشاف، ج ٥، ص ٢٧٥. وأبو حيان الأندلسي: تفسير البحر المحيط، ج ٧، ص ٣٨٦. وفخر الدين قباوة: التحليل النحوي أصوله وأدلتها، ص ١٤١.

^٢ - فخر الدين قباوة: التحليل النحوي أصوله وأدلتها، ص ١٢٨.

^٣ - ينظر: ص ٦٢-٦٧، من بحثنا هذا.

^٤ - فخر الدين قباوة: التحليل النحوي أصوله وأدلتها، ص ١٧٧-١٩٣. ذكر قباوة نغمة الأداء دليلا لفظيا ثم ذكر تحتها أنواعا، مع التمثيل لكل نوع. وذلك كتتنعيم الصوت والنبر الوظيفي وتلوين الوقفات. ينظر: التحليل النحوي أصوله وأدلتها، ص ١٧٥.

فالدليل مثلاً على أن لفظة "سَوْقًا" في قول النبي ﷺ: "رُؤَيْدُكَ سَوْقًا بِالْقَوَارِيرِ" مفعول به العلامة الإعرابية (الفتحة)^١، والصيغة (فَعَلَ) وهي صيغة من صيغ المصادر التي قد تأتي مفعولاً به، ثم إن رتبها بعد اسم فعل الأمر (رُؤَيْدَ) والفاعل المستتر وجوباً دليل أيضاً، فالتقدير أَمَّهُلُ سَوْقًا^٢.

كما أن الدليل على أن الفعل تَلَطَّى في الآية الكريمة: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ الليل: ١٤ فعل مضارع اشتماله على ضمير مستتر يعود على النار تقديره (هي)، وبهذا تحصل المطابقة، ويتبين لنا أن الفعل أصله تَلَطَّى، ثم حذفت التاء الثانية تخفيفاً، ولو كان ماضياً لكان مقتضى المطابقة مع الاسم المفرد المؤنث قبله (النار) أن يكون نارا تَلَطَّتْ^٣. ثم إن قراءة ابن مسعود دليل أيضاً، فقد قرأ "تَلَطَّى" على الأصل^٤.

وأما الأدلة التركيبية عنده فقد تمثلت في الإسناد والشرط والاقتضاء،^٥ فكون الاسم مسنداً إلى اسم آخر، وقد حصلت بهما فائدة دليل على أنه خبر، والفعل المبني للمعلوم المسند إلى اسم متأخر عنه فعل مع فاعله، ولو بني للمجهول ثم ركب لصار فعلاً مع نائب فاعله، إلى غير ذلك من العلاقات التركيبية الموضحة،

^١ - نفسه، ص ١٧٨.

^٢ - أبو البقاء العُكْبَرِي: إعراب الحديث، ص ١١٢.

^٣ - أبو حيان الأندلسي: تفسير البحر المحيط، ج ٨، ص ٤٧٨. والسمين الحلبي: الدر المصون، ج ١١، ص ٣٠. وفخر الدين قباوة: التحليل النحوي أصوله وأدلتها، ص ١٨٢.

^٤ - محي الدين الدرويش: إعراب القرآن الكريم وبيانه، ج ٨، ط ٧، اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، دار ابن كثير، بيروت، لبنان، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م، ص ٣٣٦.

^٥ - فخر الدين قباوة: التحليل النحوي أصوله وأدلتها، ص ١٧٣-١٧٤. والأدلة التركيبية عند قباوة تقابل القرن المعنوية عند تمام حسان، وهي عنده خمس: الإسناد والتخصيص والنسبة والتبعية والمخالفة.

كالشرط والاقتضاء، وانعدام إحدى هذه العلاقات يمنع الوظيفة الموافقة لها فإن عُدِمَ الإسنادُ بين الفعل والاسم لم يجز أن يكون فاعلاً له.

ومثال ذلك أن كلمة "رجال" في قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ﴾ النور: ٣٦ و ٣٧، في قراءة ابن عامر وأبي بكر ببناء الفعل يُسَبِّحُ للمفعول (يُسَبِّحُ)،^١ لا يصح كونها نائب فاعل لعدم صحة إسناد الفعل يُسَبِّحُ إليها، والمجرور في محل نائب فاعل، أما "رجال" فهو فاعل لفعل محذوف والتقدير: يُسَبِّحُهُ رجالٌ.^٢

أما على مستوى تحليل معاني الأدوات فقد انقسمت الأدلة بين يديه إلى أدلة معنوية وأدلة لفظية.

أما الأدلة المعنوية فتتمثل في معطيات المقام، أو ما كان قد سماه قبلُ بمقتضى المقام، ولا داعي لتكرار القول فيه، فقد مر في المبحث الثاني، عند الحديث عن مرتكزات التحليل النحوي.^٣

والأمر الثاني الذي ينضوي تحت الأدلة المعنوية هو معنى الجملة العام أو الأسلوب النحوي لها، ففخر الدين قباوة يرى بأن الأسلوب الذي تأتي ضمنه الأداة، كالنفي والتمني والاستدراك والدعاء والترجي، وغير ذلك، كلها عوامل مساعدة لضبط معنى الأداة، فالتأثير متبادل بين الأداة والجملة، فهي تكسب الجملة معنى معيناً، ثم قد يكون في نظم الجملة وسمتها ومعناها ما يدل على طبيعة الأداة ووظيفتها.^٤

^١ - أبو حيان الأندلسي: تفسير البحر المحيط، ج ٦، ص ٤٢١.

^٢ - الزمخشري: الكشاف، ج ٤، ص ٣٠٨. وفخر الدين قباوة: التحليل النحوي أصوله وأدلتها، ص ١٧٣. وينظر: ابن معطي الزواوي: الفصول الخمسون، تحقيق: محمود محمد الطناحي، مطبعة عيسى

البابلي الحلبي وشركاؤه، مصر، دون تاريخ، ص ١٩٤.

^٣ - ينظر: ص ٦٢-٦٧، من بحثنا هذا.

^٤ - فخر الدين قباوة: التحليل النحوي أصوله وأدلتها، ص ٢٥٩.

فعندما نفهم من الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ البقرة: ٢٨٦ معنى الدعاء لأن الطلب صادر من أسفل إلى أعلى تتعين دعائية "لا" في الموضعين.^١

أما الأدلة اللفظية فقد صرح قباوة بأنها أكثر من أن تحصر وتعد، وإنما اكتفى بالتمثيل لأشهرها، وهي أدلة الرتبة والاقتران والروابط والعلامة الإعرابية لضميماتها، ولفظ الأداة، ورسمها وأدائها.^٢

ويتضح دليل الرتبة مع الأداة "إذا" فهي في أول الكلام ظرفية شرطية، وفي وسطه ظرفية زمانية.^٣ ثم إن رسم الأداة دليل أيضا على طبيعتها، وعلى هذا الأساس نحكم على "ما" بأنها استفهامية إذا حذفت ألفها بعد حرف الجر، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾، النبأ: ١.

ب- بين أدلة التحليل النحوي وأصوله:

سبقت الإشارة إلى أن هناك فرقا بين أدلة التحليل النحوي وأصول التحليل النحوي، وذلك أن أصول التحليل ثابتة لا تتخلف، أما الأدلة فتتغير، وتحضر وتغيب، فَيَعْوِضُ بعضها بعضاً،^٤ ألا ترى أنك لا تستطيع الشروع في تحليل آية أو بيت من الشعر - تروم تحليلك سديدا - حتى تعرف ملابسات إيراده، مُلَقِيًا وَمُتَلَقِيًا وبيئة وزمان إلقاء، إلى غير ذلك من الأمور التي أشرنا إليها آنفا. والمعنى اللغوي

^١ - أبو حيان الأندلسي: تفسير البحر المحيط، ج ٢، ص ٣٨٢.

^٢ - فخر الدين قباوة: التحليل النحوي أصوله وأدلتها، ص ٢٦٣ وما بعدها.

^٣ - نفسه، ص ٢٦٤.

^٤ - نفسه، ص ٢٦٨.

^٥ - قد تختفي قرينة العلامة الإعرابية، في مثل قولنا: ضرب موسى عيسى، فتخلفها قرينة الرتبة لتتعين الفاعلية لموسى.

للفظ "الأصول" يُعْضَدُ هذا الفهم، فقد أورد الخليل في معجمه أنه يقال: إن النخيل بأرضنا أصيلٌ، أي هو بها لا يفني ولا يزول.^١

ثم إن الأصول كلية، والأدلة والقرائن جزئية، وشيء آخر يميز بينهما، وهو أن الأصول يجب أن تكون حاضرة في ذهن المحلل قبل أن يبدأ التحليل، أما الأدلة فيتعامل معها أثناء التحليل.^٢

وتجدر الإشارة إلى أن هذا التقريق - التقريق بين أدلة التحليل النحوي وأصوله - مما انفرد به فخر الدين قباوة، وإن لم يفصل أوجه الافتراق، بل اجتهدنا في تفصيلها انطلاقاً من خصائص وطبيعة كل قسم، أما الباحثون الآخرون فقد وردت مُتَصَمَّنَاتُ كل من الأصول والأدلة تحت مبحث قرائن التحليل أو التوجيه النحوي. إلا أنه عاد فنقض كلامه بكلام آخر عندما عد القرائن والأدلة شيئاً واحداً ثم جعلهما بمعنى الأصول.^٣

ثم تلزم الإشارة إلى أمر ثانٍ، وهو على الرغم من أن قباوة صرح بوجود اختلاف بين الدليل والقرينة، وأنهما ليسا شيئاً واحداً،^٤ إلا أنه ظل يستعملهما على مد كتابه مترادفين، يدلان على معنى واحد مشترك. فتحت مبحث الأدلة والقرائن في التحليل الإعرابي يقول قباوة: "وقد كنا، في الفصل الثاني من الباب الأول، عرضنا لكثير من الأدلة والقرائن العامة والخاصة، حين بسطنا الحديث عن أصول التحليل النحوي".^٥

^١ - الخليل بن أحمد الفراهيدي: العين، ج ٧، ص ١٥٦.

^٢ - فخر الدين قباوة: التحليل النحوي أصوله وأدلتها، ص ٢٧٩.

^٣ - نفسه، ص ١٧١ و ١٧٢.

^٤ - نفسه، ص ١١٧. حيث يقول: "وقد تلتبس "القرينة" بالدليل، مع أنها متميزة عنه".

^٥ - نفسه، ص ١٧١ و ١٧٢.

وقباوة هنا - بلا شك - يحيلُ على المعارف العامة والمعارف الخاصة، وقد عدّها هناك أصولاً، وذكر أنها تختلف عن القرائن، ثم يعود هنا ليسمّي الأصول قرائن، فيقع في اضطرابٍ مصطلحيّ.

ج- القرائن وأنواعها:

إن من المصطلحات الوثيقة الصلة بالأدلة القرائن، فقد استعمل المصطلحان عند فخر الدين قباوة وعند كثير من الدارسين مترادفين، فقالوا أدلة وقرائن التحليل النحوي أو التوجيه النحوي، وإن كان إطلاق القرائن أكثر وأشيع.^١ وهذا ما جعلنا نُفردُ لها مبحثاً خاصاً، زيادةً في توضيح أدلة التحليل النحوي وبيان أمرها.

ج.١ - القرينة لغة:

يقول ابن فارس: قرن: القاف والراء والنون أصلان صحيحان، أحدهما يدلُّ على جمع شيء إلى شيء، والآخر شيء يَنْتأُ بقوة وشدة،^٢ فمن الأول قولك: قرن الشيء بالشيء وقرنه إليه يقرنه قرنا شدة إليه،^٣ وقرنت بين الشيئين قرنا وقرانا جمعتُ، وقارنه مقارنة وقرانا: صاحبه واقرن به،^٤ ومنه قيل للنفس والزوجة قرينة، فالنفس تقارن الإنسان، والزوجة تقارن الزوج وتصاحبه.

ج.٢ - القرينة اصطلاحاً:

أما في الاصطلاح فالقرينة هي الأمر الدال على شيء لا بالوضع،^٥ فدلالتها ليست وضعية كدلالة المفردات، وإنما دلالتها طارئة تكتسبها من الحال التي ترد فيها، ومن

^١ - ينظر: راجي الأسمر: المعجم المفصل في علم الصرف، مراجعة: د. إميل يعقوب، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م، ص ٣٣٤.

^٢ - ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، ج ٥، ص ٧٦.

^٣ - ابن منظور: اللسان، ص ٣٦١٠.

^٤ - مجمع اللغة العربية بالقاهرة: المعجم الوسيط، ص ٧٣٠.

^٥ - التهانوي: كشف اصطلاحات الفنون، ص ١٣١٥.

سياق الكلام الذي تكون فيه، سابقا ولحاقا. وتكون حالية ومقالية، فالحالية مثل قولك: حجًا ميمونا، أي تحجُّ حجا ميمونا، فاحل مخاطبك وهو مُتَهَيِّءٌ للحج قرينة حالية أغنت عن ذكر الفعل (تَحُجُّ)،^١ أما المقالية فنحو قوله عز وجل: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ الرحمن: ٦٠ ف"إلا" قرينة مقالية لفظية على أن "هل" للنفي.^٢

وقد تناول الباحثون - وخصوصا المحدثن - القرائن بالتصنيف، فكانت لهم تصنيفات متنوعة، فمنهم من صنفها إلى حالية ومقالية، كما أثر عن القدماء، ثم زاد ففرع القرائن المقالية إلى تفرعات عديدة، وأشهرهم تمام حسان في نظرية القرائن، ومنهم من قسّمها إلى قرائن شرعية وعقلية، بالإضافة إلى اللغوية.

أما تمام حسان فقد عرض نظرية القرائن، أول مرة في كتابه "اللغة العربية معناها ومبناها" تحت مبحث قرائن التعليق. حيث ذكر بأن فهم قرائن التعليق يُغني عن نظرية العامل المفتعلة، في الدرس النحوي العربي.^٣

وقد انقسمت قرائن التعليق بين يديه إلى حالية وهي تعرف من المقام، ومقالية، وانقسمت بدورها إلى قرائن معنوية وهي الإسناد والتخصيص والنسبة والتبعية والمخالفة، وقرائن لفظية، وهي الإعراب والرتبة والصيغة والمطابقة والربط والتضام والأداة والتنغيم. وبتضافر هذه القرائن يمكن الوصول إلى الوظائف النحوية للمفردات، والعلاقات التركيبية بينها بسهولة ويسر.^٤

^١ - راجي الأسمر: المعجم المفصل في علم الصرف، ص ٣٣٤.

^٢ - فخر الدين قباوة: التحليل النحوي أصوله وأدلتها، ص ١١٧-١١٨.

^٣ - يقول تمام حسان: "وفي رأيي - كما كان في رأي عبد القادر على أقوى احتمال - أن التعليق هو الفكرة المركزية في النحو العربي وأن فهم التعليق على وجهه كافٍ وحده للقضاء على خرافة العمل النحوي والعوامل النحوية". تما حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، ص ١٨٩. وسيأتي التعليق على نظرية القرائن عند تمام حسان بعد عرضها.

^٤ - نفسه، ص ١٩٠.

ولتوضيح قرائن التعليق اللفظية والمعنوية نورد المثال التالي: ضرب زيدَ عمراً
يومَ الجمعةِ ضرباً شديداً، تأديباً له.

فبالنظر أولاً إلى الفعل (ضَرَبَ) نرى أنه جاء على صيغة الأفعال الماضية،
فنقول إن ضرب فعل ماضٍ (قرينة الصيغة)، ثم ننظر في لفظ (زيد) فنرى أن
صيغته صيغة اسم، فنحكم عليه بالاسمية (قرينة الصيغة)، ثم ننظر إلى الضمة في
آخره فنقول إنه مرفوع (قرينة العلامة الإعرابية) ثم نرى أن الفعل مسندٌ إليه (قرينة
الإسناد)، ثم نرى أنه متأخر عن فعله (قرينة الرتبة) وهي رتبة محفوظة، ثم ننظر
إلى الفعل قبله فنجد مسنداً إلى المفرد الغائب وهو (أي: زيد) مفرد، وهذه (قرينة
المطابقة)، وبتضافر هذه القرائن نصل إلى أن (زيد) فاعلٌ لِضَرَبَ.

ثم ننظر إلى لفظ (عمراً) فنلاحظ أن صيغته صيغة الاسم وهي (قرينة
الصيغة)، وأنه منصوب (قرينة العلامة الإعرابية)، ثم نجد أن العلاقة بينه وبين
الفعل قبله علاقة التعدية، وهي متفرعة عن (قرينة التخصيص)، ثم نرى أنه مؤخرٌ
عن الفعل والفاعل قبله (قرينة الرتبة)، والرتبة هنا غير محفوظة، وبتضافر هذه
القرائن أيضاً نحكم على لفظ (عمراً) بالمفعولية.

ثم ننتقل بعد هذا إلى النظر في لفظ (يوم) وفي علاقة النسبة بينه وبين لفظ
(الجمعة)، وهي قرينة النسبة التي نجدها بين المضاف والمضاف إليه، كما نجدها
بين الجار والمجرور مثل (لَهُ)، ثم ننظر إلى النصب في كلمة (يوم) وهو قرينة
العلامة الإعرابية، فنقول إنه ظرف زمان، وهو مضاف و(الجمعة) مضاف إليه.

وبعد هذا يتوجه النظر إلى لفظ (ضرباً) وكيف أتى مؤكداً معنى الفعل وهو
الضرب، وعلاقة التأكيد هذه متفرعة عن (قرينة التخصيص)، ثم ننظر إلى الفتحة
في آخره، وهي قرينة (العلامة الإعرابية)، فنقول إنه مفعول مطلق، مؤكداً لفعله

(ضرباً)، ثم ينحو النظر نحو لفظ (شديداً) التابع، وكيف أنه متلازم مع متبوعه (ضرباً)، وهذه قرينة إفراداً وتذكيراً، وبهذا نقول إنه صفة له.

وأخيراً نصل إلى لفظ (تأديباً) وارتباطه مع حدث الفعل (الضرب) بعلاقة السببية، فالضرب سببُ التأديب، وهي علاقة متفرعة عن قرينة (التخصيص). ثم يضاف إليها قرينة العلامة الإعرابية (النصب) فنقول إنه مفعول لأجله.

هذه نظرة تلخيصية عجلت لما اقترحه تمام حسان في نظرية القرائن، وهي جهد علمي رائد، يُذكر ويُؤوّه به. فتمام حسان لم يقف عند حدود النقد المجرد للنحوي العربي ونظرية العامل بل تعداه إلى تقديم البديل الذي يرضاه ويُؤمّن به.

نسجل هذا مع التوقف عند بعض العبارات التي سقّاه فيها حسان آراء نحاة العربية القدامى، وسجل غفلتهم عما بينه في نظرية القرائن.^١

وذلك أن تركيز القدامى على العلامة الإعرابية، وعدم تنظيرهم لبقية القرائن، وعدم بسط القول فيها لا يعني أنهم يجهلونّها، فقد كانوا يصُدُّرون في تحاليلهم للآيات والأحاديث والأبيات عن تصور شامل لملايسات القول، من اعتماد على السياق، واعتماد على كيفية إيراد الكلام، من علامة إعرابية وصيغة ورتبة، وذكر وحذف ومطابقة واختلاف، وإن لم يصرحوا في كثير من الأحيان بهذه المصطلحات، فالفكر النحوي العربي القديم يميل إلى الممارسة والتطبيق.

وفي هذا السياق يقول الباحث طه الجندي: "ومع تقديري الشخصي والموضوعي لهذه النظرية [أي نظرية القرائن لتمام حسان]، ولما قدمته من أفكار جديدة في الدرس النحوي فإنني أرى أنها لم تبتعد عما جاء به النحويون كثيراً، والدليل

^١ - وذلك حين صرح - وقد سبق نقل هذا القول - بأن فكرة العامل النحوي التي قال بها النحاة وقام عليها النحو العربي ما هي إلا خرافة، يمكن القضاء عليها بفهم قرائن التعليق. ينظر : تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، ص ١٨٩.

على ذلك أقوال النحويين التي ساقوها في تحديدهم للباب النحوي، إذ إنها تبين أنهم كانوا على دراية بالقرائن النحوية، وأهميتها في تحقيق الربط، وتحديد المعنى النحوي".^١

وهناك من لم يُخصّص لهذا المبحث درساً مفصلاً، وإنما نعت القرينة بحسب طبيعتها، فهي مرة شرعية وأخرى عقلية ومرات لغوية. فمثال الشرعية تعيين معنى الحرف "لن" في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ارْنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي﴾ الأعراف: ١٤٣ فهو حرف نصب يفيد النفي والاستقبال، خلافاً لما زعمه الزمخشري من أنها تفيد التأييد،^٢ والقرينة المؤيدة لهذا الحكم - عدم كونها للتأييد - شرعية، وهي جملة النصوص الشرعية التي فيها إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة. مثل قوله تعالى: ﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ﴾ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿القيامة: ٢٢ و ٢٣.

أما القرينة العقلية فهي التي يُستندُ فيها إلى العقل، فيساعد على تحديد الحكم أو المعنى إذ ذاك، ومثاله ما جاء في قوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ الشورى: ١١، فالمشهور عند النحاة أن الكاف زائدة، وهي داخلة على خير ليس (مثل) والتقدير: ليس شيء مثله، والذي أدى إلى هذا الحكم هو العقل لأن اعتبارها أصلية محال في حقه تعالى، إذ نكون قد نفينا المثلية عن مثله، وفي هذا إثبات المثل له، إذ التقدير: ليس مثل شيء، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً".^٣

^١ - خالد بن عبد الكريم بسندي: نظرية القرائن في التحليل اللغوي، مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب، المجلد ٤، العدد ٢، ٢٠٠٧م، ص ٢٣.

^٢ - ابن هشام الأنصاري: شرح قطر الندى وبل الصدى، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الطلائع للنشر والتوزيع، مصر، ٢٠٠٩م، ص ٧٣.

^٣ - السمين الحلبي: الدر المصون، ج ٩، ص ٥٤٤. ونشأت عل محمود عبد الرحمن: التوجيه النحوي وأثره في دلالة الحديث النبوي الشريف دراسة في الصحيحين، ص ٤٤.

أما القرائن اللغوية فقد سبق بيانها، وذكر أقسامها المعنوية واللفظية، عند
الدارسين المحدثين عموماً، وعند تمام حسان تحديداً.



الفصل الثاني

الفصل الثاني

المبحث الأول:

التحليل الصرفي عند الخليل بن أحمد ومن تبعه من نحاة المدارس النحوية المختلفة

الدلالة الصرفية :

يعرف علم الدلالة: ((بأنه دراسة المعنى، أو العلم الذي يدرس المعنى، أو ذلك الفرع من علم اللغة الذي يتناول نظرية المعنى، أو ذلك الفرع من علم اللغة الذي يتناول نظرية المعنى أو ذلك الفرع الذي يدرس الشروط الواجب توافرها في الرمز حتى يكون قادراً على حمل المعنى))

وللدلالة أنواع هي:

- ١- الدلالة الصوتية
- ٢- الدلالة الصرفية
- ٣- الدلالة النحوية
- ٤- الدلالة المعجمية أو الاجتماعية.

وموضوع هذا البحث الدلالة الصرفية، التي تعرف بأنها الدلالة المستمدة من الصيغ وبنيتها. وما يطرأ عليها من تغيرات تنعكس على دلالتها. أو هي دراسة التركيب الصرفي لكلمات وبيان المعنى الذي تؤديه صيغها. وبعبارة أخرى تقوم هذه الدلالة على ما تؤديه الأوزان الصرفية والصيغ العربية وأبنيتها من معان. فإذا وصف شخص معين بأنه (كذاب) يختلف بوصفه عن (كاذب)، لأن كلمة (كذاب) تزيد في دلالتها عن (كاذب) وتقيد المبالغة واستمدت هذه الدلالة من الصيغة المعينة التي

جئ بها، فاستعمال كلمة (كذاب) يمد السامع بقدر من الأدلة لم يكن ليصل إليه أو يتصوره لو استعمل المتكلم (كاذب).

وسأتناول بالبحث الدلالة الصرفية عند الخليل بن أحمد الفراهيدي وسيبويه وابن جني، وسأخص الأخير بوقفة متأنية كونه توسع في التصدي لها وأسهب في تناول موضوعاتها وتحدث عن أنواعها.

الخليل بن أحمد الفراهيدي

لا يخفى على أحد ما للخليل بن أحمد الفراهيدي من أثر بارز في الدراسات النحوية من خلال المادة النحوية التي نسبها سيبويه إليه في الكتاب، والرائد في الدراسات الصرفية من خلال المادة الموجودة في معجمه العين، وما ورد له من آراء مبثوثة في الكتب التي عنيت بالظواهر اللغوية المختلفة. أما فيما يخص الدلالة الصرفية عند الخليل، فقد تناوله في معجمة العين على مستويين المستوى الفعلي والمستوى الاسمي ففيما يتعلق بالمستوى الأول بدأ بذكر الأفعال ثم عرج على مصادرها ونعوتها والمشتق منها و أورد استعمالها.

قال في مادة (حص): ((الحصصة): الحركة في الشيء حتى يستقر فيه ويستمكن منه. و (تحاص القوم تحاصاً): يعني الأقسام من الحصّة. والحصصة بيان الحق بعد كتمانها. وحصص الحق، ولا يقال حصص الحق، و (الحصاص): سرعة العدو وفي شدة))، قال في مادة (خسر): ((الخُسْر): النقصان، والخُسْرانُ كذلك، والفعل: (خَسِرَ يَخْسِرُ خُسْرَاناً). و (الخاصِرُ): الذي وضع في تجارته، ومصدره: الخَسَارَةُ، و (الخُسْرُ): كَلَّتُهُ و وَرِثْتُهُ فَأَخْسَرْتُهُ، أي : نقصته. وقوله جل وعز: ﴿وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾، أي: نقصا. (صفقة خاسرة)، أي: غير مربحة)).

في هذين النصين أورد الخليل الصيغ الفعلية وما يشتق منها من مصادر وصيغ مبالغة وأسماء. وعندما ذكر المادة الأصلية أعطى معناها، فانا نلتبس هذا المعنى فيما يشتق منها من صيغ، فالحصصة هي الحركة في الشيء حتى يستقر، وتحاص القوم اقتسموا وهذا لا يأتي إلا بعد حركة واستقرار وإتفاق، والحصصة بيان الحق بعد كتمانها، وهذا لا يكون إلا بحركة، وتفتيش وتنقيب. حتى يستقر الأمر، والحصاص سرعة العدو في شدة، وهذا لا يخرج عن المعاني السابقة بالقاسم المشترك للحركة.

ومع هذا فإنه لا يمكن تعميم هذه المسألة على جميع ما ورد في (العين) من مادة أصلية للكلمات، إذ يخلص أن زيادة المروفيمات الوحدات الصرفية تؤدي إلى تغير المعنى أو اتساعه وشموله وتأكيده.

وقد يصل الخليل إلى معاني بعض الصيغ المشتركة من خلال الفعل ويهتم بتبادل الصيغ وحلول أحدها مكان الأخرى فصيغة فعيل قد تحل مكان صيغة مفعول، قال الخليل ما مادة (حق): ((الحقُّ) نقيض: الباطل، (حقَّ الشيءَ يَحِقُّ حقًّا)، أي: وَجَبَ وَجُوبًا. وتقول: (يُحِقُّ عَلَيْكَ أَنْ تَفْعَلَ كذا، و (أَنْتَ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ تَفْعَلَهُ). و (حَقِيقٌ)، فعيلٌ في موضع مفعول. وقل الله عز وجل ﴿حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ﴾، معناه: محقق كما تقول: واجب. وكلُّ مفعول رُدَّ إلى فَعِيلٍ فمذكَّره ومؤنَّته بغير الهاء، وتقول للمرأة: (أَنْتِ حَقِيقَةٌ لذلك، وَأَنْتِ مَحْقُوقَةٌ)).

ومن تبادل الصيغ حلول صيغة (انفعل) مكان (استفعل) قال الخليل في مادة (حمق): ((استَحْمَقَ الرجلُ): فَعَلَ فِعْلَ الحَمَقِ. و (امرأةٌ مُحْمِقٌ): تَلِدُ الحَمَقَى. و (فَرَسٌ مُحْمِقٌ): لَا يَسْبِقُ نَتَاجُهَا. و (حَمَقَ حَمَاقَةً وَحُمَقًا): صَارَ أَحْمَقَ. و(الحُمَاقُ): الجُدْرِيّ. يقال منه: (رَجُلٌ مَحْمُوقٌ). و (النَحْمَقُ) في معنى: استَحْمَقُ)).

أما المستوى الاسمي، فقد حاول من خلاله أن يصل إلى الصفات والصيغ المشتقة منه نحو صيغ المبالغة مثلاً. قال الخليل في مادة (درك) الشيء: ((الدَّرْكُ): إدْرَاكُ الحاجة والطلبية، ... و (الدَّرْكُ): أسفل قعر الشيء. و (الدَّرْكُ): واحد من أدراك جهنم من السبع. و (الدَّرْكُ) : لغة في الدَّرْك الذي هو من القعر... (والدراك): إتباع الشيء بعضه على بعض في كل شيء، يطعنه طعناً دركاً متداركاً تباعاً، أي: واحداً إثر واحد، وكذلك في جري الفرس، ولحقاه الوحش. قال الله تعالى: ﴿حتى إذا اداركوا فيها جميعاً﴾، أي: تداركوا، أدرك آخرهم أولهم فاجتمعوا فيها)).

ومن خلال هذا المستوى يصل الخليل في حديثه عن المصدر إلى الاستعمال الخاص لصيغة من الصيغ الاسمية كالصفة المشبهة التي استعملت استعمال الاسم. ويصل إلى الدلالة الخاصة الاستعمال، قال في مادة (رفق): ((الرَّفَقُ) : لبن الجانب ولطافة الفعل، وصاحبه : (رفيْقٌ)، وتقول: (ارْفُقْ وتَرَفَّقْ ورفقاً)، معناه: ارفُقْ رِفْقاً، ولذلك نُصِبَ، و (رَفَقَ رِفْقاً)... و (رَفِيقُكَ) : الذي تجمعهُ وإياك رُفْقَةً واحدة، في سفر يُرافِقُكَ، فإذا تفرقوا ذهب عنهم اسم الرفقة، ولا يذهب اسم الرفيق، وتسمى الرفقة ما داموا منضمين في مجلس واحد ومسير واحد، و (قد تَرافَقُوا وارتَفَقُوا فهم رفقاء)، الواحد رفيق، قال الله تعالى: ﴿وحسن أولئك رفيقاً﴾، أي رفقاء في الجنة)).

وقد يصل من خلال هذا المستوى إلى الفعل المتروك استعماله فالوداع مصدره ودع والتوديع مصدر (ودع) فالأول بالخفيف والثاني بالشديد لعين الفعل. قال الخليل في مادة (ودع) : ((و (الْوَادِع) : توديعُك أخاك في المسير. و (الْوَدَاعُ) : التَّزَكُّ والقَلَى، وهو توديعُ الفراق، والمصدر من كل : (توديع)، قال:

غداة غدٍ تودّع كلّ عين بها كُحلٌّ وكلّ يدٍ خضيب

وقوله تعالى : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾، أي: ما تَرَكَكَ. و (المودوع): المودَّع.

قال:

إذا رأيت الغرب المودوعا

والعرب لا تقول: (وَدَّعْتُهُ فَأَنَا وادع). في معنى : تركته فأنا تارك. ولكنهم يقولون في الغابر: (لم يدع)، وفي الأمر: (دثه)، وفي النهي : (لا تدعه)، إلا أن يُضطر الشاعر، كما قال:

وكانَ ما قَدَّموا لأنفُسِهِمْ أَكْثَرَ نَفْعاً مِّنَ الَّذِي وَدَّعُوا)).

سيبويه:

سيبويه التلميذ الأول الرائد الدراسات النحوية واللغوية للخليل بن أحمد الفراهيدي. حوي كتابه على مباحث صرفية كثيرة تناول فيها ما عن له من مسائل صرفية مختلفة، ولأهمية هذه المسائل فقد ألقت كتبنا فيها. أما في هذا البحث سأقتصر على مسألة مهمة تناولها سيبويه وهي دلالة الحركات الإعرابية على معان خاصة وأن كانت هذه المسألة الصق بالدلالة النحوية إلا أنني ارتأيت تناولها هنا لأن الحركات أنواع من حيث الدلالة، فالحركات الداخلية تغير المعنى والحركات الخارجية تغير المعنى أيضاً، وما دام التغير جار في الإثنين، فلا بأس في تناول النوع الثاني في الدلالة الصرفية. قال سيبويه في باب يختار فيه الرفع: ((له علم علم الفقهاء، وله رأي رأي الأصلاء، وإنما كان الرفع في هذا الوجه لأن هذه خصال تذكرها في الرجل، كالحلم والعلم والفضل، ولم ترد أن تعبر بأنك مررت برجل في حال التعلم ولا تفهم، ولكنك أردت أن تذكر الرجل بفضل فيه، وأن تجعل ذلك خصلة قد استكملها، كقولك: (له حسب حسب الصالحين)، لأن هذه الأشياء وما يشبهها صارت تحليله

عند الناس وعلامات ... وان شئب نصبت فقلت : (له علم علم الفقهاء) وكأنك مررت به في حال تعلم وتفقه، وكأنه لم يستكمل أن يقال: له عالم وإذا قال له صوت صوت حمار، فإنما اخبر أنه مر به وهو يصوت صوت الحمار. وإذا قال: له علم علم الفقهاء، فهو يخبر عما قد استقر فيه قبل رؤيته وقبل سماعه منه، أو رآه يتعلم فاستدل بحسن تعلمه على ما عنده من العلم، ولم يرد أن يخبر أنه أنما بدا في علاج العلم في حال لغيه إياه، لأن هذا ليس مما يثنى به، وإنما الثناء في هذا الموضوع أن يخبر. بما استقر فيه، ولا يخبر أن أمثل شيء كان منه التعلم في حال لقائه)).

في هذا النص فرق سيبويه بين المعاني المختلفة بوساطة الحركات الإعرابية، فالمعنى يتغير بتغير حركة الحرف الأخير للكلمة وأتى بأمثلة تدعم رأيه، فله علم علم الفقهاء، وله رأي رأي الأصلاء، وله حسب حسب الصالحين، وله صوت صوت حمار، تدل على معنى محدد أن الرجل الموصوف قد استكمل هذه الخصال. وصارت تحليله له عند الناس وعلامات يميز بها، 'أي أنها ليست خصال وقتية، وهذا لا يكون إلا في حالة رفع (علم)، و (رأي)، و (حسب)، و (صوت). أما في حالة نصب هذه الكلمات فالمعنى يتغير ويتبدل، و يكون الرجل الموصوف قد امتلك ما صوف به في حال مرور المتكلم به، أي أنه لم يستكمل العلم والرأي والحسب والصوت بعد؛ لأن هذا الأمر مشروط بمرور المتحدث، ولا يكون هذا إلا في حالة النصب وما ساقه سيبويه هنا يمثل غاية في الدقة التعبيرية، ورد على كل الذين زعموا أن الحركات الإعرابية لا تدل على معان.

ب- القول باختلاف البصريين والكوفيين

يخصص ابن الأنباري في كتاب الإنصاف عددا من الفصول أو المسائل لموضوع النصب، ولأسيما المسألتين الخامسة والسبعين والسادسة والسبعين، وها تتناولان على التوالي عامل النصب في الفعل المضارع بعد واو المعية وعامل النصب في الفعل المضارع في هذه المواضع بـ "أن" مقدرة، وأن الكوفيين يختلفون: فمنهم من ينصب الفعل بالحرف نفسه ومنهم من ينصبه بالصرف. ويقدم النحاة العرب تفصيلات أخرى: فابن جني ينسب القول بالصرف إلى البغداديين (سر صناعة الإعراب، ٢٧٦/١-٢٧٧). والسيوطي ينسب القول بالصرف إلى الفراء، ويذكر أن الكسائي وأصحابه يقولون بأن "الواو" هي الناصب للفعل، لا الخلاف. ويجعل النصب بالخلاف وجهة نظر الفراء وقوم من الكوفيين. (همع الهوامع، ١١٧/٤). والعلائي يقول: "ذهب الكوفيون ومن تبعهم من البغداديين إلى أن النصب في هذه الأماكن بالخلاف ويسمونه الصرف" (الفصول المفيدة في الواو المزیدة، ٢١٨). أما الأستراباذي فيقول: "إن الظاهر من مذهب الفراء أنه جعل الخلاف أمرا معنويا ناصبا" (شرح الكافية ٢٤١/٢).

هذه خلاصة آراء القوم في الصرف. ولم نجد أحدا تصدى لمعارضة هذه الآراء، فلا يقدم الدارسون المعاصرون، فيما نعلم، جديدا في الموضوع لأنهم يتابعون الأقدمين في ما ذكروه^١. أما ما كتبه ميخائيل كارتير عن الصرف والخلاف فإنه لا يمس جوهر الخلاف في المسألة التي تعنينا رغم حديثه عن الشبه بين تحليلي سيبيويه والفراء، فهو كما يقول، يأخذ النتائج التي توصل إليها مهدي مخزومي

^١ - انظر على سبيل المثال مهدي مخزومي: مدرسة الكوفة، ص ٢٩٢ وما بعدها؛ شوقي ضيف: المدارس النحوية، ص ١٦٤ وما بعدها؛ عبد الرحمن السيد: مدرسة البصرة، ص ١١٥ إلخ.

ويطورها ويعدلها^١، غير أنه عني بجانب، وأهمل جانب آخر هو بيت القصيد في الخلاف النحوي. فقد أصب في تأكيده أن "الخلاف" أو "الصرف" أمر مشترك بين البصريين والكوفيين. غير أنه اعتبر اشتراكهم في هذه المسألة خاتمة المطاف، فكأنه جعل إتفاق الفريقين على القول بـ "الخلاف" و "الصرف" رداً على من زعم اختلافهم، فأهمل بحث العامل عد الفراء وما ينسب إليه من القول بأن الصرف عامل معنوي ناصب بنفسه. وإنما يقع الخلاف في عامل النصب في الفعل المضارع لا في العمليات الذهنية المؤدية إليه.

ج- العطف والصرف

الواو والفاء و أو من حروب العطف. وحروف العطف تجمع بين المتعاطفين في حركة الإعراب وفي المعنى. يقول سيبويه : *فإن قلت: مررت برجل وامرأة فقد أشركت الواو بينهما في الباء فجريا عليه* وكذلك *إن قلت: "مررت برجل فامرأة" أو "مررت برجل أو امرأة" فأو أشركت بينهما في الجر، وأثبتت المرور لأحدهما دون الآخر، وسوت بينهما في الدعوى* (الكتاب، ١/٤٣٧-٤٣٨).

أما في الفعل المضارع المنصوب بعد ما يعرف بـ "واو المعية" فلا يشير سيبويه إلى الجمع بين الفعلين، بل إلى اختلافهما في حركة الآخر وفي المعنى. يقول في الجملة المشهورة التي تداولتها كتب النحاة:

لا تأكل السمك وتشرب اللبن

"ومنعك أن ينجزم في الأول لأنه إنما أراد أن يقول له: لا تجمع بين اللبن والسمك، ولا ينهاه أن يأكل السمك على حدة ويشرب اللبن على حدة، فإذا جزم فكأنه

^١ - انظر : Sarf el kilaf. P 294

نهاه أن يأكل السمك على كل حال أو يشرب اللبن على كل حال" (الكتاب، ٤٢/٣ - ٤٣).

ويقول في تفسير انتصاب الفعل المضارع في مثل: "لا تأتيني فتحدثني":
لم ترد أن تدخل الآخر فيما دخل فيه الأول، فتقول: لا تأتيني ولا تحدثني،
ولكنك لما حولت المعنى عن ذلك تحول إلى الاسم^١ (الكتاب، ٢٨/٣).
فيسبويه يفسر للنصب في هذه المواضع برغبة المتكلم في ألا يشرك بين الأول
والآخر، فهو يحول معنى الآخر فيخرجه من معنى الأول.^٢

إن تعليل سيبويه للنصب في هذه الأفعال المضارعة يقوم على التمييز بين
العطف الذي يشرك الآخر فيما دخل فيه الأول، والتحويل الذي يخرج الآخر مما
دخل فيه الأول، فيحول المعنى بتحويل حركة الفعل المضارع من الرفع أو الجزم إلى
النصب.

^١ - انظر: Salam HAMZE: Les unites amorphes libres dans le Kitab de Sibawayhi. PP. 196-201

^٢ - يقول عبد القاهر الجرجاني عن الواو في مثل:

لللبس عباءة وتقر عيني أحب إلي من لبس الشفوف

إن الغرض منها أن يجمع بين لبس العباءة وقرّة العين، فيقال: إنهما جمعيا أحب من لبس
الشفوف. وليس المقصود أن لبس العباءة أحب من لبس الشفوف ... فلو رفعت لكان
التقدير: لللبس عباءة أحب إلى من لبس الشفوف، ثم تقول: وتقر عيني. وليس هذا دليل
(كذا) على أن المحبة تحصل من لبس العباءة مقترنا بقرّة العين.

وينبغي أن يعلم أن الواو هنا ليس للعطف فقط كقولك: زيد وعمر خير من بكر، تريد أن كل
واحد منهما خير من بكر، وإنما الواو متضمن لمعنى: "مع"؛ فكأنه قال: لللبس عباءة مع قرّة
العين أحب إلى، كما تقول: الشرح والمشرح خير من المشروح، تريد أنهما جميعا خير من
هذا الواحد، ولا تريد أن كل واحد من الشرح والمشرح خير. كيف وفي ذلك استحالة؛ لأنه
بمنزلة أن تقول: كل واحد من زيد وعمر خير من زيد، وهو كقولك: زيد خير من زيد، وذا
محال (شرح المقتصد، ١٠٥٩/٢).

إن هذا التعليل نفسه هو تعليل الفراء للصرف. فقد حده حين ذكره لأول مرة في كتابه، فقال:

"فإن قلت: "وما الصرف؟" قلت: أن تأتي بالواو معطوفة على كلام في أوله
حادثة لا تستقيم إعادتها على ما عطف عليها، فإذا كان ذلك فهو الصرف، كقول
الشاعر:

لا تنه عن خلقٍ وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

ألا ترى أنه لا يجوز إعادة "لا" في "تأتي مثله" فلذلك سمى صرفاً، إذ كان
معطوفاً ولم يستقم أن يعاد فيه الحادث الذي قبله" (معاني القرآن، ١/٣٣-٣٤)^١.
وقال في موضع آخر:

"والصرف أن يجتمع الفعلان بالواو أو ثم أو الفاء أو "أو"، وفي أوله جدد أو
استفهام، ثم نرى ذلك الجدد أو الاستفهام ممتنعاً أن يكر في العطف، فذلك الصرف
(..) يقولون: لا يستعني شيء ويضيق عليك، ولا تكرر "لا" في "يضيق". فهذا تفسير
الصرف" (معاني القرآن، ١/٢٣٦).

والصرف بهذا المعنى مصطلح ودر أول ما ورد في معاني القرآن للفراء. وربما
يكون الفراء واضع هذا المصطلح، وإن أشار إلى استعمال النحويين له.^٢

^١ - في الكتاب، ٤٢/٣: "وإنما أراد" لا يجتمع "النهي والإتيان" فصار "تأتي" على إضمار "أن".

^٢ - لم يرد مصطلح الصرف بهذا المعنى الخاص في كتاب سيبويه. إلا أنه ورد في موضوع واحد
(الكتاب ٣/٣١) في سياق قريب من السياق الذي يستعمله فيه الفراء، وذلك في تعليقه لنصب الفعل
المضارع في مثل: "ما أتيتنا فتحدثنا؛ لأن حد الكلام أن يقال: "ما أتيتنا فحدثنا" باستخدام الفعل
الماضي. فلما صرف إلى المضارع نصب، لأنه ضعيف أن يُعطف المضارع على الماضي.

د - تقدير المعنى

واضح مما ذكرنا أن التحويل عند سيبويه هو الصرف عند الفراء. وواضح أنهما يلجآن في تعليلهما نصب المضارع في الأمثلة السابقة إلى العمليات الذهنية التي تبني المعنى، أي إلى قصد المتكلم الجمع والاشتراك بين الحكمين، أو قصده صرف الحكم الثاني عن الأول^١، كما يرجعان إلى هذه العمليات الذهنية لتعليل نصب المستثنى بعد "إلا"، وهي عمليات يريد بها المتكلم إخراج الآخر مما دخل فيه الأول كما يقول سيبويه أو مخالفة الثاني للأول كما يقول الفراء^٢، في تفسيره للآية ١٥٠ من سورة البقرة:

وقوله: ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم﴾.

يقول القائل: "يكون كيف استثنى الذين ظلموا في هذا الموضع؟" ولعلمهم توهموا أن ما بعد "إلا" يخالف ما قبلها، فإن كان ما قبل "إلا" فاعلا كان الذي بعدها خارجا من الفعل الذي ذكر، وإن كان قد نفى قبلها الفعل ثبت لما بعد "إلا". كما تقول: "ذهب الناس إلا زيدا" فـ "زيد" خارج من الذهاب، و "لم يذهب الناس إلا زيد" فـ "زيد" ذاهب والذهاب مثبت لـ "زيد" (معاني القرآن، ١/٨٩).

كما أنه يعلل نصب المستثنى بالانقطاع في الآية التالية:

^١ - انظر ما يجوز فيه العطف والصرف تبعا لقصد المتكلم. (الكتاب، ٣/٤٤) و (معاني القرآن ١/١١٥، ٢٢١، ٢٣٥، إلخ)

^٢ - يبدو أن مهدي مخزومي لا يهتم كثيرا بالعمليات الذهنية التي يعلل الكوفيون بها الاستثناء، بل يصرف همه إلى العامل فيه، فهو يقول:

(فمقالة الخليل في نصب المستثنى بـ "إلا" هي مبعث القول بالخلاف عند الكوفيين. ولكنهم رسموا له حدودا وطبقوه في موضوعات أخرى. فقالوا بالخلاف في أربعة مواضع لم يكن المستثنى بـ "إلا" واحدا منها). ثم يضيف معلقا: (ومن الغريب أن يقول الكوفيون بالنصب على الخلاف في هذه المواضع) ولا يقولوا به في نصب المستثنى بـ "إلا" مع أن المخالفة بين المستثنى وما قبله أبين منها في هذه المواضع". (مدرسة الكوفة، ٢٩٧).

"قلو لا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس" (يونس/٩٨) فيقول:
"وهي في قراءة أبي: (فهلا) ومعناها أنهم لم يؤمنوا، ثم استثنى قوم يونس
بالنصب على الانقطاع مما قبله) (معاني القرآن، ١/٤٧٩).

والانقطاع مصطلح قد يستخدمه الفراء في مكان مصطلح الصرف، كما فعل
في المثل التالي: "لست لأبي إن لم أقتلك أو تسبقني في الأرض"؛ فقد جعل الفعل
"تسبق" منصوبا على أن آخره منقطع من أوله (معاني القرآن، ٢/٧١). غير أنه
يفضل استعمال مصطلح الصرف في الأفعال المنصوبة بعد حروف النسق لأن
المنصوب فيها مختلف عن المنصوب بعد الاستثناء. ووجه الاختلاف بينهما أنك إن
لم تصرف عطفت فأعدت أمام الثاني النفي أو الاستفهام الذي يسبق الأول، وليس
ذلك في الاستثناء. ويبدو أن مصطلح القطع أوسع مجالا من مصطلح الصرف:
فالفراء يستعمله في الصرف (معاني القرآن، ٢/٧١)، وفي الاستثناء (١/٤٧٩)،
وقبل الاستئناف (١، ٢٢٤)، وفي الحال (١/٣٤٨) وفي التمييز (٢/٦). فكل صرف
انقطاع، وليس كل انقطاع صرفا. إنما الصرف الانقطاع بعد الواو والفاء و ثم و أو.

هـ - بين تقدير الإعراب وتقدير المعنى

حين يعلل سيبويه النصب في الفعل المضارع بعد واو المعية أو بعد فاء
السببية بالتحول، أو بخروج الآخر مما دخل فيه الأول، فإنما يقدم المعنى الذي قام
في الذهن وأدى إلى تغيير الإعراب. غير أنه لا يكتفي بذلك، فلا يعتبر هذا المعنى
عاملاً. وإنما يبحث عن عامل لفظي ناصب للفعل؛ ذلك أن تغيير المعنى لا ينصب
بنفسه، بل بعامل لفظي يقتضيه. يقول سيبويه في نصب الفعل المضارع في مثل
"لألزمك أو تقتضيني":

"اعلم أن ما انتصب بعد "أو" فإنه ينتصب على إضمار "أن"، كما انتصب في الفاء و الواو على إضمارها" (الكتاب، ٤٦/٣).

ويقول المبرد في مثل ذلك:

"اعلم أن الفاء عاطفة في الفعل كما تعطف في الأسماء (...). فإن خالف الأول الثاني لم يجر أن يحمل عليه، فحمل الأول على معناه، فانتصب الثاني بإضمار "أن" (المقتضب، ١٣/٢).

أما الفراء فيقول بالنصب على الصرف في مواضع كثيرة من كتابه. وقد أحسن الأستراباذي صنعا حين قال إن ظاهر كلام الفراء يدل على أنه يجعل الصرف عاملاً ناصباً. فالقول ما قال. غير أنه يحسن ألا يحمل كلام الفراء على ظاهره "فأكثر ما ترى من هذه الآراء المختلفة والأقوال المستشعبة - كما يقول ابن جني - إنما دعا إليها القائلين بها تعلقهم بظواهر هذه الأماكن". ويعطي ابن جني مثلاً لذلك ظاهر كلام سيبويه الذي يقول "في بعض ألفاظه: "حتى" الناصبة للفعل يعنى في نحو قولنا: "اتق الله حتى يدخلك الجنة". فإذا سمع هذا من يضعف نظره اعتدها في جملة الحروف الناصبة للفعل، وإنما النصب بعدها ب "أن" مضمرة" (الخصائص، ٢٦٠-٢٦١/٢).

و- الصرف ليس عاملاً عند الفراء

يبدو مما ذكره ابن جني وعبد القاهر الجرجاني أن البغداديين الذين ينسب إليهم القول والصرف، وهم كوفيو بغداد،^٢ لم يميزوا مستويين مختلفين من مستويات

^١ - ومن مثل ذلك قول النحويين في مثل "الحمد لله" إن "الله" خبر المبتدأ، وإنما حرف الخفض وما يتبعه من صلة فعل أو معناه (انظر الزجاجي: اللامات، ٥١ ٥٢). ومن ذلك قول السيوطي إن الزجاجي قد ذهب إلى أن "كان وأخواتها" حروف (همع الهوامع، ٢٨/١) ربما لأن ذلك قد ورد في أحد عناوين كتاب الجمل الذي يقول: باب الحروف التي ترفع الأسماء وتنصب الأخبار (الجمل، ٤١)، وإنما كان وأخواتها عند الزجاجي أفعال لا حروف. انظر الجمل، ١٠٣).

^٢ - Hassan HAMZE Umte el diversite dans la tradition grammatical arabe

التحليل اللغوي: العمليات الذهنية في الفعل المضارع المنصوب بعد واو المعية وفاء السببية، وعامل النصب فيه، فسموا هذه العمليات الذهنية عاملاً. يقول ابن جني: "وقول البغداديين: "إننا ننصب الجواب على الصرف" كلام فيه إجمال، بعضه فاسد وبعضه صحيح. أما الصحيح فقولهم: الصرف، أي ينصرف بالفعل الثاني عن معنى الأول، وهذا هو معنى قولنا: "إن الثاني يخالف الأول". فأما انتصابه بالصرف فخطأ، ولا بد له من ناصب مقتض له؛ لأن المعاني لا تنصب الأفعال، وإنما ترفعها المعاني. والمعنى الذي يرفع الفعل هو وقوع الفعل موقع الاسم (...). وكما أن الأسماء لا تنتصب إلا بناصر لفظي، فكذلك الأفعال لا تنتصب إلا بناصر لفظي" (سر صناعة الإعراب، ١/٢٧٦-٢٧٧).

ويقول عبد القاهر الجرجاني:

"وأما قول البغداديين إنه منصوب على الصرف، فالذي يصح منه أن يراد صرف الثاني عن إعراب الأول، فكأنهم لما قصدوا أن يكون الثاني غير داخل في حكم الأول فنصوبه صار العدول به عن معنى الأول كأنه نصبه إذا كان سبباً لإضمار "أن". فأما أن يراد أن النصب بنفس مخالته للأول حتى كأن عامله ذلك المعنى فلا. ولو جاز ذلك جاز أن تقول إن "زيداً" في قولك "ضربت زيدا"، لم ينتصب بالفعل وإنما عمل النصب فيه كونه مفعولاً؛ وذلك غير سديد" (المقتصد، ٢/١٠٧٤-١٠٧٥).

في تقديرنا أن الصرف عند الفراء ليس عاملاً ناصباً، بل مثله كمثل التحويل، أو كمثل خروج الآخر مما دخل فيه الأول عند سيبويه، يشرح العمليات الذهنية عند المتكلم، ويربط تغير اللفظ بتغير المعنى، فيبرر تغير الإعراب برغبة المتكلم في ألا

يدخل الآخر فيما دخل فيه الأول^١ دون أن يعني ذلك أن الصرف نفسه هو العامل الذي يحدث النصب في الفعل المضارع. فالفراء يستعمل مصطلحات كثيرة يفسر بها تغير حركة الإعراب كالصرف، والخلاف، والعدل، والانقطاع مما قبله، والخروج مما قبله، إلخ. وقد يعطي المثال الواحد فيجعله منصوبا على الصرف مرة، وعلى أن آخره منقطع من أوله مرة أخرى، كما في المثال التالي: لا يسعني شيء ويضيق عنك (معاني القرآن، ٢، ٧١؛ ٢٣٦/١). ولا يعني الانقطاع ولا الصرف ولا المصطلحات الأخرى، ضرورة عوامل معنوية تغني عن العامل اللفظي.

إننا نعتقد أن الفراء حين يتحدث عن الصرف، أو حين يقول بالنصب على الصرف فإنما يسعى، مثله مثل سيبويه في التحويل وفي خروج الآخر مما دخل فيه الأول، إلى تقدير المعنى لا إلى تقدير الإعراب^٢. وفي معاني القرآن ما يكاد يكون تصريحاً بذلك. وسوف نقدم عددا من الأدلة على ما نقول:

١- يستعمل الفراء مصطلح الصرف في مواطن غير التي ذكرناها من نصب الفعل المضارع لا يمكن أن يكون فيها ناصبا؛ فهو يستعمله في الأعداد المركبة المبنية على فتح الجزأين، من أحد عشر إلى تسعة عشر. ومعلوم أن هذه الأعداد لا تحتاج إلى عامل لتقدير الفتح فيها. يقول الفراء:

^١ - يقول عبد القاهر الجرجاني في هذا المعنى:

"وإذا قلت: لا تأتينا فنعطيك. فعدلت بالفعل الواقع بعد الفاء عن إعراب ما قبله، فنصبته وما قبله مرفوع في قولك: ما تأتينا فنعطيك، ومجزوم في نحو قوله تعالى: ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي (طه/٨١) علم ضرورة أنه غير داخل فيما قبله؛ إذ لو شاركه لما عدل به عن إعرابه" (المقتصد، ١٠٦٣/٢).

^٢ - انظر سيبويه في باب استعمال الفعل في اللفظ لا في المعنى (الكتاب، ٢١١/١) وانظر الأبواب الثلاثة التالية في الخصائص لابن جني: باب في الفرق بين تقدير الإعراب وتفسير المعنى (٢٧٩-٢٨٤)، باب في تجاذب المعاني والإعراب (٢٥٥-٢٦٠)، باب في التفسير على المعنى دون اللفظ (٢٦٠-٢٦٤).

"ذلك أنهم جعلوا اسمين معروفين واحدا، فلم يضيفوا الأول إلى الثاني فيخرج من معنى العدد. ولم يرفعوا آخره فيكون بمنزلة "بعلبك" إذا رفعوا آخرها. واستجازوا أن يضيفوا "بعل" إلى "بك" لأن هذا لا يعرف فيه الانفصال من ذا، والخمسة تتفرد من العشرة والعشرة من الخمسة، فجعلوهما بإعراب واحد؛ لأن معناه في الأصل: هذه عشرة وخمسة. فلما عدلا عن جهتهما أعطيا إعرابا واحدا في الصرف^١ كما كان إعرابهما واحدا قبل أن يصرفا) (معاني القرآن ٣٢/٢).

٢- لا يستعمل الفراء مصطلح النصب بالصرب في معاني القرآن^٢، بل مصطلح النصب على الصرف. وهذا لا يسمح بالقول إن الفراء يجعل الصرف ناصبا. كما أن البابين اللذين عقدهما سيبويه لـ "ما ينتصب على التعظيم والمدح" (الكتاب، ٦٢/٢؛ ١٩٤/٢) لا يسمحان بالقول إن سيبويه يجعل التعظيم أو المدح عاملا ناصبا^٣. وقد يستعمل الفراء مصطلحات أخرى في المنصوب على الصرف، كالنصب على الجواب (معاني القرآن، ٢٧٦/١)، والنصب على الانقطاع (معاني القرآن، ٧١/٢)، وليس الجواب والانقطاع ناصبين.

^١ - يقول محقق الكتاب في الحاشية: "يريد صرفهما عن حالة الأفراد إلى التركيب".

^٢ - معاني القرآن، ٣٣/١، ٣٤.١١٥، ٢٢١، ٣٩١.٤٠٨، ٢٩٢، ٢٧٦، ٢٣٦.٢٣٥؛ ٢٦٣/٢؛ ٢٤٤، ٦٤/٣.

^٣ - والأمر كذلك عند الأستراباذي الذي يستعمل مصطلح "واو الصرف" التي نصبوا الفعل للعطف (شرح الكافية، ٢٤٦/٢)، ومصطلح "النصب على الصرف" (شرح الكافية، ٢٤٩/٢) في قول الشاعر:

وما أنا للشيء الذي ليس نافعي ويغضب منه صاحبي بقول

والصرف عنده ليس ناصبا بنفسه، لأنه بعد أن ذكر أن الظاهر من مذهب الفراء أنه "يجعل الخلاف أمرا معنويا ناصبا" يقول: "واو أوجب الخلاف الانتصاب لم يجز العطف في النحو: "ما مررت بزيد لكن عمرو، وجاءني زيد لا عمر" (شرح الكافية، ٢٤١/٢).

ويبدوا من الأمثلة التي أعطاها حين حد هذا المصطلح^١ أنه يصرف همه إلى معناه لا إلى عمله، وأن الصرف يقوم على ألا تكرر أمام الفعل الثاني أداة النفي الواردة أمام الفعل الأول، لا على نصب الفعل الثاني.

٣- الصرف لا يعمل النصب، فالفعل قد يكون منصوباً وهو مصروف، ومرفوعاً وهو مصروف، ومجزوماً وهو مصروف. واعتبار الصرف عاملاً معنوياً ناصباً في الفعل المنصوب يقتضي اعتباره رافعاً في المرفوع وجاز ما في المجزوم ولم يقل بذلك أحد، بل يشير ما في معاني القرآن للفراء إلى خلاف ذلك.

- قد يكون الفعل الثاني مرفوعاً وهو مصروف إذا كان الفعل الأول منصوباً، كما في البيت التالي:

على الحكم المأتي يوماً إذا قضى
قضيته أن لا يجوز ويقصد^٢
ينقل السيوطي رأي الفراء في رفع الفعل الثاني "يقصد" فيقول:

"قال الفراء: "هو مرفوع على المخالفة" (الأشباه والنظائر، ٢٤٢، ٢).^٣

وجه المخالفة فيه أن يخالف الفعل الثاني الأول فلا ينصب مثله لأن نصبه يقتضي تكرار "ألا" الواردة أمام الفعل الأول، فيصبح المعنى: على الحكم ألا يجوز وألا يقصد، وهو خلاف المقصود. وأما سيبويه فيعلل رفع الفعل (يقصد) في البيت المذكور أعلاه بالانقطاع فيقول:

"ومما جاء منقطعاً قول الشاعر، وهو عبد الرحمن بن الحكم:

^١ - معاني القرآن، ١/٣٣-٣٤، ٣٥.

^٢ - لم نجد هذا البيت في معاني القرآن للفراء.

^٣ - يقول الأسترباذي: "وقولهم في نحو: لا تأكل السمك وتشرب اللبن إنه نصب على الصرف بمعنى قولهم: نصب على الخلاف سواء" (شرح الكافية، ٢/٢٤١).

على الحكم المأتي يوما إذا قضى قضيته أن لا يجوز ويقصد
كأنه قال: عليه غير الجور، ولكنه يقصد، أو هو قاصد فابتدأ، ولم يحمل
الكلام على "أن" (الكتاب ٥٦/٣).^١

قد يأتي الفعل الثاني مصروفاً وحركة إعرابه هي حركة إعراب الفعل الأول.
وجه صرفه ألا يكر فيه النفي الذي في الفعل الأول أو اليمين الذي في الفعل
الأول. فلو كان الصرف ناصباً لوجب أن يكون الفعل المصروف منصوباً على أي
حال لوجود ناصبه. يقول قائل للفراء:

"هل يجوز في الأفاعيل التي نصبت بالواو على الصرف أن تكون مردودة
على ما قبلها وفيها معنى الصرف؟" ويجيب الفراء: "قلت: نعم. العرب
تقول: "ليست لأبي إن لم أقتلك أو تذهب نفسي"، ويقولون: "والله لأضربنك أو
تسبقني في الأرض". فهذا مردود على أول الكلام ومعناه الصرف؛ لأنه لا
يجوز على الثاني إعادة الجزم بـ "لم"، ولا إعادة اليمين على "والله لتسبقني"
(معاني القرآن، ٣٤/١).

إن ملاحظة أمثلة الصرف التي يقدمها الفراء تظهر أن الفعل المصروف قد
يكون منصوباً أو مرفوعاً أو مجزوماً، وإن كان النصب أغلب وأكثر، وأن حركته قد
تماثل حركة الفعل الأول، وإن كانت المغايرة أغلب وأكثر. ولو كان الصرف عاملاً
معنوياً ناصباً لما جاز أن يكون الفعل الثاني مجزوماً أو مرفوعاً وفيه معنى الصرف.
ومع جواز جزم الفعلين في المثال الأول^٢ فإن حد الكلام أن يقال: "لست لأبي إن لم
أقتلك أو تذهب نفسي" لتنبية المسامع إلى أن إعادة "إن لم" أمام الفعل الثاني ليست

^١ - وبمثل هذا المصلح: الانقطاع من النسق والاستئناف، يعلل الفراء قراءة من قرأ: "ولا يأمركم" بالرفع
في الآيتين: "ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس (..) ولا يأمركم" (ال
عمران، ٧٩-٩٠).

^٢ - معاني القرآن، ٧٢/٢.

مقصودة. كما أن حد الكلام في المثال الثاني أن يقال: والله لأضربنك أو تسبقني في الأرض لتتبيه السامع بغير حركة آخر الفعل الثاني إلى أن تكرر اليمين ليس مقصودا فيه. غير أن ما يعنينا هنا هو أن الفراء يعتبر الفعل الثاني مصروفا وهو مجزوم مردود على الفعل الأول تابع له في حركة آخره مما يعني أن الصرف ليس عاملا ناصبا عنده.

إن مثل الصرف عند الفراء كمثّل الخلاف والانقطاع والعدل يشرح العمليات الذهنية للمتكمم ويبرر تغيير حركة الآخر دون أن يكون عاملاً. فعندما ينصب المتكلم الفعل المضارع بعد "أو" فإنما ينصبه "ليؤذن نصبه بالانقطاع عما قبله" كما يقول الفراء (معاني القرآن، ٧٠/٢). فالتغيير يحدثه العامل ليؤذن بالصرف أو العدل أو القطع أو الخلاف الذي ينويه المتكلم، لا أن العامل هو الصرف نفسه أو العدل أو القطع أو الخلاف، فهذه معان تهئ للعوامل أن تعمل، لا أنها عوامل في أنفسها كما يقول الجرجاني.^١

وليس الفراء، فيما يبدو لنا، بعيدا عن هذا التصوير، فهو في الآية ٧٢ من سورة التوبة/ براءة:

﴿وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر﴾ يجعل العدل سببا لرفع "رضوان"؛ لأنه عدل به عن أن ينسق على ما قبله فينصب. وليس العدل رافعا لـ "رضوان" في نظر الفراء. إنما

^١ - ف "زيدا" في "ضربت زيدا" منصوب بالفعل "ضرب" لا بكونه مفعولا لأنه لو كان ذلك صحيحا لما جاز أن يقال: "زيد مضروب" برفع زيد لأنه مفعول، ولقيل "زيدا مضروب". فكون زيد مفعولا في "ضربت زيدا" ليس ناصبا له، وإنما الصحيح أن يقال إن كونه مفعولا هو الذين "أوجب أن يكون" "ضربت" عاملا فيه النصب، فالذي يجوز نصبه بالفعل هو وقوع الفعل في المعنى عليه" (المقتصد، ١٠٧٥/٢).

الرافع عنده هو الخبر "أكبر" عملاً بقول الكوفيين أن المبتدأ والخبر يترافعان. يقول الفراء:

(وقوله: "و رضوان من الله أكبر" رفع بـ "الأكبر"، وعدل عن أن ينسق على ما قبله وهو مما قد وعدهم الله تبارك وتعالى، ولكنه أوتر بالرفع لتفضيله" (معاني القرآن، ٤٤٦/١). فالرفع إيدان بعدل الاسم المرفوع عما قبله لا أن العدل عامل رافع بنفسه.

ز - العامل في المنصوب على الصرف

ورد في معاني القرآن مرة واحدة مصطلح النصب بالواو على الصرف، على لسان سائل في ما يبدو^١. رداً على قول الفراء إن العرب تنصب الأسماء المعطوفة على المرفوع في مثل قولهم: لو تركت والأسد لأكلك، ولو خلّيت ورأيك لضللت: "لما لم يحسن في الثاني أن تقول: لو تركت وترك رأيك لضللت تهيبوا أن يعطفوا حرفاً لا يستقيم فيه ما حدث في الذي قبله. قال: فإن العرب تجيز الرفع؛ لو ترك عبد الله والأسد^٢ لأكله، فهل يجوز في الأفاعيل التي نصبت بالواو على الصرف أن تكون مردودة على ما قبلها وفيها معنى الصرف؟ قلت: نعم. العرب تقول. (معاني القرآن، ٣٤/١).

^١ - في النص بعض الاضطراب، فقد جاء فيه: (قال فهل يجوز (...))؛ قلت: نعم (...). دون ذكر القائل. يقول محقق الكتاب: "كأن الأصل: "قال قائل". وعلى هذا الافتراض يعود "قال" إلى سائل يسأل، و"قلت" إلى الفراء. (معاني القرآن، ٣٤/١)

^٢ - يقول الفراء في تجويز الوجهين: "لما جاءت الواو ترد اسماً على اسم قبله، وقبح أن ترد الفعل الذي رفع الأول على الثاني نصب؛ ألا ترى أنك لا تقول: لو تركت وترك الأسد لأكلك. فمن هنا أتاه النصب. وجاز الرفع لأن الواو حرف نسق معروف فجاز فيه الوجهان للعتين" (معاني القرآن، ٢، ٧١)

وفي السؤال إشارة واضحة إلى أن الصرف ليس عاملاً ناصباً. وظاهر كلام السائل الذي يعارضه الفراء، أو السائل الذي يفترض الفراء وجوده، يشير إلى أنه يجعل الفعل منصوباً بالواو **على الصرف** لا بالصرف نفسه. فإن أخذنا بهذا القول على أنه قول الفراء فإنه يعني أن الواو عنده، لا الصرف، هي عامل النصب في الفعل المضارع إلا إن كان ذلك قد قيل على سبيل الاتساع.

على أن في معاني القرآن للفراء، وهو ليس كتاباً في النحو، موضعين على الأقل، يشير فيهما الفراء تلميحاً يقرب من التصريح، إلى أن النصب في الفعل المضارع المنصوب على الصرف إنما يكون بعامل لفظي هو "أن" المضمرة، لا بالواو ولا بالصرف نفسه.

١- يقول في الآية ٧٣ من سورة النساء: ﴿يا ليتني كانت معهم فأفوز فوزاً

عظيماً﴾:

"العرب تنصب ما أجابت بالفاء في "ليت"؛ لأنها تمن، وفي التمني معنى: "يسرني أن تفعل فأفعل" فهذا نصب كأنه منسوق كقولك في الكلام: وددت أن أقوم فيتبعني الناس" (معاني القرآن، ١/٢٧٦).

والنسق يقتضي التكرير. يقول الفراء في الآيتين:

﴿وما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة (..) ولا يأمركم﴾ (ألا عمران/٧٩-٨٠). إن أكثر القراء على النصب "ولا يأمركم" لأنهم يردونها على "أن يؤتيه الله"، فتكون: "ولا أن يأمركم". (معاني القرآن، ١/٢٢٤). فكان الفراء يقول: يسرني أن تفعل ف (أن) أفعل، ولو لم تكن (أن) مكررة أما الفعل الثاني لما جاز أن ينسق على الفعل الأول. ويبدو لنا أن الفراء لا يسعى لتقدير المعنى فحسب، بل إلى

تقدير الإعراب كذلك لأنه يبرر النصب النسق الذي يقتضي التكرير، وليس في المثال ما يكرر إلا (أن) التي تنصب الفعل الأول. فيكون الثاني منصوبا بـ "أن" المقدره التي تدل عليها "أن" المظهرة أمام الأول.

٢- ويقول كذلك في المثالين التاليين:

"والله لأضربنك أو تقرّ لي":

﴿وقال الذين كفروا لرسولهم لخرجنكم من أرضنا أو لنعودن في ملتنا﴾^١

(إن معنى "أو" هنا معنى "حتى" أو "إلا"،^٢ إلا أنها جاءت بحرف نسق؛ فمن العرب من يجعل الشرط متبعا للذي قبله، إن كان في الأول لام كان في الثاني لام، وإن كان الأول منصوبا أو مجزوما نسقوا عليه، كقوله: "لنعودن". ومن العرب من ينصب بعد "أو" ليؤذن نصبه بالانقطاع عما قبله. وقال الشاعر^٣

"لنقعدن مقعد القصي مني ذي القادورة المقلي

أو تحلفي بربك العلي أنى أبو ذيا لك الصبي

فنصب "تحلفي" لأنه أراد: "أن تحلفي" (معاني القرآن، ٧٠/٢).

وهذا القول للفراء شبيه بقول سيبويه:

"أعلم أن ما انتصب بعد "أو" فإنه ينتصب على إضمار "أن" (الكتاب، ٤٦/٣).

ح.. إن هذه النتيجة التي وصلنا إليها تضيق شقة الخلاف بين البصريين والكوفيين، أو بين رأسي "المدرستين". ويظهر أن هذين النحويين كانا يصدران عن

^١ - إبراهيم/١٣

^٢ - المقصود بالطبع: إلا أن.

^٣ - في امرأته وقد عاد فوجدها قد ولدت غلاما فأكره

نظرية واحدة، وأن كثيراً من الخلافات الفرعية التي تداولتها كتب النحاة لم تكن في حقيقة الأمر خلافات بين النحويين الأوائل^١ وإنما نظن أن النحاة الذي افنتوا في التعليل وفي التوليد على مذاهب الأقدمين، ولاسيما نحاة القرن الرابع الهجري، قد أخذوا بظاهر كلام الفراء فوسعوا شقة الخلاف، وأن الآراء الخلافية المنسوبة إلى البصريين والكوفيين تحتاج إلى إعادة النظر فيها.

المصطلح الصرفي عند الفراء في معاني القرآن

من خلال البحث وجدت أن الفراء لم يتفرد بمصطلحات صرفية خاصة به وبالكوفيين بل تكاد تكون مصطلحاته بصرية، وقد قسمت المصطلحات على الوجه الآتي: تصريف الفعل، تصريف الاسم، التصريف المشترك.

تصريف الفعل:

أشار الفراء إلى الميزان الصرفي بـ (عين الفعل، ولامه)^٢، قال في تفسيره: قوله تعالى ﴿وَأَناسِي كَثِيرًا﴾^٣ "واحدهم إنسي وإن شئت جعلته إنساناً ثم جمعته أناسي فتكون الياء عوضاً من النون، والإنسان في الأصل إنسيان؛ لأن العرب تصغره أنيسيان. وإذا قالوا: أناسين فهو بين مثل بستان وبساتين. وإذا قالوا (أناسي كثيراً) فحَقَّقُوا الياء أسقطوا الياء التي تكون فيما بين عين الفعل ولامه مثل: قراقرير، وقراقر.^٤

^١ - يقول الزجاجي بعد أن ينقل آراء الفراء في بناء قبل وبعد وحيث وقط ومنذ ونحن على الضم: "ولو لا كراهية التطويل لبينيت ما يلزمه في فصل فصل من هذا، ومن أين أخذه، وكيف ولده؛ لأنه كله مأخوذ من معاني كلام سيبويه". (شرح مقدمة رسالة أدب الكتاب، ورقة ٦ ظهر).

^٢ - ورد هذا المصطلح في الكتاب: ينظر: كتاب سيبويه (ت ١٨٠هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار القلم ١٩٦٦، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧م: ٤٤٩/٣، ٤٥.

^٣ - الفرقان: ٤٩.

^٤ - معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت ٢٠٧هـ) // تحقيق: د. محمد علي النجار، و د. عبد الفتاح إسماعيل شلبي، عالم الكتب/ بيروت، ١٩٧٣م: ٢٦٩/٢-٢٧٠، وينظر: ١٤٨/٢، ١٣.

وثمة مصطلحات استعملها الفراء ليبين وزن المفردة أو بنيتها وهي: الميزان: استعمل الفراء مصطلح (الميزان)^١ في معانيه، قال: "كلّ القراء الذين نعرف على تسكين الواو من (عَوْرَة)^٢ وذكر عن بعض القراء أنه قرأ (عَوْرَة) على ميزان فَعْلَة وهو وجه...^٣" واستعمل أيضاً: صورة، ومثل - مثال، وبمنزلة، وعلى وجهة، وبناء، ولفظ ويستعمل أحياناً كاف التشبيه وأحياناً يبين زون المفردة مباشرة.^٤

واستعمل الفراء في معانيه مصطلحي (الفعل الرباعي، والثلاثي)^٥ قال: "وما كان من ميم زائدة أدخلتها على فعل رباعي قد زيد على ثلاثيه شيء من الزيادات فالميم منه في الفاعل والمفعول به والمصدر مضمومة. من ذلك قولك: رجل مُسْتَضْرَبٌ ومُسْتَضْرَبٌ ومُسْتَطَعَمٌ. يكون المُسْتَطَعَمُ بالفتح مصدراً ورجلاً وكذلك المُضَارِبُ هو الفاعل والمضارب بالفتح مصدر ورجل...".^٦

وأورد الفراء في معانيه مصطلح (ذوات الياء والواو) ويعني به الفعل الذي أحد أصوله واو أو ياء، قال: "وما كان من ذوات الياء والواو من دعوت وقضيت فالفعل منه مفتوح اسماً كان أو مصدراً إلا المآقي من العين، فإن العرب كسرت هذا الحرف. وبعض العرب يسمى ماوى الإبل فهذان نادران".^٧ وقال أيضاً: "وما كان من

^١ - ورد هذا المصطلح في العين: ينظر: العين، خليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ)، تحقيق: د.

مهدي المخزومي، و د. إبراهيم السامرائي، بغداد ١٩٨٠-١٩٨٥م: ١٠٨/٤

^٢ - الأحزاب: ١٣

^٣ - المعاني: ٩٧/٣

^٤ - ينظر: المصدر نفسه: ٩٠/١، ٣٨٢/١، ٤٤٨، ١٤٩/١، ٤٤٨/١، ٣٥٩/٢، ٤٣٦/١، ٢٥٢/٢، ٩٨/٣، ٢٥٣/٢.

^٥ - ورد هذا المصطلح في العين، ينظر: ٧٢/١، ٢٨٤/٤.

^٦ - المعاني: ١٥٣/٢.

^٧ - المعاني: ١٤٩/٢، وينظر: ١٥٠/٢.

من جميع ذوات الياء والواو على أفعال فهو ممدود، مثل آباء وآناء...^١ ومن خلال الأمثلة التي أوردها الفراء رأيته أنه أطلق هذا المصطلح على الأجوف والناقص واللفيف المقرون. وفضلاً عن المصطلح السابق استعمل وبالدلالة نفسها مصطلح (ذوات الثلاثة).^٢

واستخدم الفراء مصطلح (أوله واو) ويعني به ما يسمّيه البصريون مثلاً، قال: "وما كان أوله واواً مثل وزنت ووجلّت فالمفعّل فيه أسماً كان أو مصدرًا مكسور مثل قوله (أن لنّ نجعل لكم موعداً)^٣ وكذلك يُوَحِّل و يُوَجِّل المفعّل منهما مكسور في الوجهين وزعم الكسائي أنه سمع مَوْجَل ومَوْحَل. قال الفراء: وسمعت أنا موضع".^٤

تصريف الاسم:

استعمل الفراء مصطلح (واحد)^٥ ويعني به المفرد، أي ضد المثني والجمع، والواحد: أول عدد الحساب^٦. قال في تفسيره قوله تعالى ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾^٧ "قم قرأ (جُذَاذًا) فرفع الحيم فهو واحد مثل الحُطَام والرُّفَات، ومن قال (جِذَاذًا)^٨ بالكسر فهو جمع^٩. وبالمعنى نفسه استعمل: وَحَد ومَوْحَد، وتوحيد.^{١٠}

^١ - المنقوص والممدود، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت ٢٠٧هـ)، تحقيق عبد العزيز الميمني

الراجكوتي، دار المعارف/ مصر، ١٩٣٥م: ١٢.

^٢ - ينظر: المعاني: ١٥٤/٢، ١٩٠/١.

^٣ - الكهف: ٤٨.

^٤ - المعاني: ١٥٠/٢.

^٥ - ورد هذا المصطلح في العين: ينظر: ٢٤٧/٨.

^٦ - ينظر: لسان العرب، ابن منظور (ت ٧١١هـ)، دار صادر، ١٩٦٥م: (وحد) ٤٤٦/٣.

^٧ - الأنبياء: ٥٨.

^٨ - هي قراءة الكسائي، ينظر: العنوان في القراءات السبع، أبو طاهر إسماعيل بن خلف المقرئ

الأندلسي، (ت ٤٥٥هـ)، تحقيق: د. زهير زاهد، و د. خليل عطية، ط ١، عالم الكتب / بيروت

١٩٨٥م: ١٣٢.

^٩ - المعاني: ٢٠٦/٢، وينظر: ٤٥٥/١، ١٧٠/٣.

^{١٠} - ينظر: المعاني: ١١٠/٣، ٥٤/٢، ٩١/٣.

واستعمل الفراء مصطلح (التثنية)^١ بمعناه المعروف، قال في تفسيره: قوله تعالى ﴿بِيَدَيَّ اسْتَكْبَرْتُ﴾^٢ "اجتمع القراء على التثنية، ولو قرأ قارئ (بيدي) يريد يداً على واحدة كان صواباً".^٣ وبالدلالة نفسها استعمل (ثنى، وثنتان واثنان).^٤

وأورد الفراء مصطلح (جمع الاسمين على تسمية أحدهما)، ويعني بهذا المصطلح ما يعرف بالتغليب، قال في تفسيره قوله تعالى (يا ليت بيني وبينك بُعد المشرقين)^٥ "يريد ما بين مشرق الشتاء ومشرق الصيف، ويقال إنه أراد المشرق والمغرب فقال المشرقين، وهو أشبه الوجهين بالصواب، لأن العرب قد تجمع الاسمين على تسمية أشهرهما، فيقال: قد جاءك الزهدمان وإنما أحدهما زهدم، قال الشاعر^٦:

أخذنا بآفاق السماء عليكم
لنا قمراها والنجوم الطوالع
يريد الشمس والقمر..^٧ وأطلق الفراء على التغليب مصطلحاً آخر هو (الضم).^٨

واستخدم الفراء في معانيه مصطلح (الجمع)^٩ بكثرة، قال في تفسيره قوله تعالى (إسرارهم)^{١٠} "قرأها الناس: أسرارهم: جميع سر، وقرأ يحيى بن وثاب وحدة: إسرارهم بكسر الألف واتبعه الأعمش وحمزة والكسائي^١، وهو مصدر^٢...".

^١ - ورد هذا المصطلح في العين، ينظر: ١٩٧/٢

^٢ - ص: ٧٥.

^٣ - المعاني: ٤١٢/٢، وينظر: ٣١٠/٢.

^٤ - ينظر: نفسه: ١١٧/٣، ١٥/٣، ١٨٤/٢.

^٥ - الزخرف: ٣٨.

^٦ - البيت للفرزدق، ينظر: ديوان الفرزدق، دار صادر، بيروت، ١٩٦٦م: ٤١٩/١.

^٧ - المعاني: ٣٣/٣.

^٨ - ينظر: نفسه: ٣٩٢/٢.

^٩ - ورد هذا المصطلح في العين: ينظر: ٦٣/١.

^{١٠} - ق: ٢٦.

واستعمل الفراء للدلالة على الجمع مصطلحات أخرى هي: القوم، وكثير، وجمع الجمع، وجميع، ومجموع، وجماع، وجماعة.^٣

ومن جملة المصطلحات التي استعملها الفراء مصطلح (الجمع بالنون)^٤ ويقصد به جمع المذكر السالم والملحق به، قال في تفسيره قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾^٥... وواحدة الضمين عِضَةٌ رفعها عضون ونصبها وخفضها عِضِينَ... وإنما جاز ذلك في هذا المنقوص الذي كان على ثلاثة أحرف فنقصت لامه، فلما جمعوه بالنون توهموا أنه فعول إذ جاءت الواو وهي واو جماع...^٦. وقال ثعلب في قوله تعالى ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْإِبْرَارِ لَفِي عِلْيَيْنَ﴾^٧ (عَلْيَيْنِ) كل جمع لا عدد له يجمع بالواو والنون - يعني مجهول الواحد^٨.

وأطلق القراء على جمع المذكر السالم والملحق به علاوة على المصطلح السابق: جمع الذكران، وجمع الرجال، و واو الجماع.^٩

^١ - الكسر هي قراءة حفص وحزمة والكسائي ينظر: التيسير في القراءات السبع، أبو عمر الداني (ت ٤٤٤هـ)، تحقيق اوتريترزل، استانبول، مطبعة الدركة ١٩٣٠م: ٢٠١.

^٢ - المعاني: ٦٣/٣، ٤٥/١، ٥٨.

^٣ - ينظر: نفسه: ٣٠/٣، ٣١٠/٢، ٣١٤/١، ١٤٩/١، ٢٥/١، ٢٥٨/١، ٢١٠/١.

^٤ - ورد هذا المصطلح في العين، ينظر: ٣٧/٧.

^٥ - الحجر: ٩١.

^٦ - المعاني: ٩٢-٩٣، وينظر: ٢٤٧/٣.

^٧ - المطففون: ١٨.

^٨ - مجالس ثعلب، أبو العباس أحمد بن يحيى بن يحيى بن ثعلب (ت ٢٩١هـ)، تحقيق عبد السلام

هارون، دار المعارف، مصر ١٩٦٩م: ٢٠/١.

^٩ - ينظر: المعاني: ٣٤/٢، ٢٤٧/٣، ٩٣/٢.

وشمل المعاني على مصطلح (جمع المؤنث)^١ ويقصد به الفراء، جمع المؤنث المؤنث السالم، قال في تفسيره قوله تعالى: ﴿وَجَنَاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ﴾^٢ "نصب، إلا أن جمع المؤنث بالتاء يخفض في موضع النصب، ولو رفعت الجنات تتبع القنوان^٣ كان كان صواباً"^٤. وبالدلالة نفسها استعمل مصطلحي: الجمع بالتاء، وجمع النساء^٥.
وأورد الفراء مصطلح (غاية الجماع) ويقصد به صيغة منتهى الجموع وهو جمع لا جمع بعده، قال في تفسيره قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾^٦ "نصبت المواطن لأن كل جمع كانت فيها ألف قبلها حرفان وبعدها حرفان لا يُجري يُجري مثل صوامع، ومساجد، وقناديل، وتماثيل، ومحاريب وإنما منعهم من إجرائه أنه مثال لم يأت عليه شيء من الأسماء المفردة، وأنه غاية للجماع، إذا انتهى الجماع إليه فينبغي له ألا يجمع فذلك أيضاً منعه من الانصراف..."^٧ وقال أيضاً: "والاثنتان، تثنية، لا يثنى والجمع الأقل: اثنتان وجمع الاثنتان، أثنان. (والاثنتان) غاية الجمع"^٨.

وحوى المعاني على مصطلح (عدد قليل، قليل)^٩ ويعني الفراء به، جمع القلة من جموع التكسير، قال في تفسيره قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ﴾^{١٠} "أكثر

^١ - ورد هذا المصطلح في الكتاب: ينظر: ٣/٣٧٣.

^٢ - الأنعام: ٩٩.

^٣ - في الآية التي قبلها "من طلعتها قنوان..."

^٤ - المعاني: ١/٣٤٧.

^٥ - ينظر: نفسه: ٣/٧٠، ١/٢٥٧.

^٦ - التوبة: ٢٥.

^٧ - المعاني: ١/٢٤٨.

^٨ - الأيام والليالي والشهور، أبو زكريا الفراء (ت ٢٠٧هـ) تحقيق إبراهيم اليباري، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٥٦م: ٣.

^٩ - ورد هذا المصطلح في العين، ينظر: ٤/١٠٨.

^{١٠} - الإسراء: ٤٤.

القرّاء على التاء ... ولو قرئت بالياء^١ كان صواباً، وإنما حسنت الياء لأنه عدد قليل وإذا قلّ العدد من المؤنث والمذكر كانت الياء فيه أحسن من التاء، قال الله عز وجل في المؤنث القليل (وقال نسوة في المدينة)^٢، وقال في المذكر (فإذا انسلخ الأشهر الحرم)^٣، فجاء بالتنكير^٤. وقال أيضاً: يقال شهر وأشهر، للقليل ما دون العشرة، فإذا أجزت العشرة فهي الشهور...^٥.

واستخدم القرّاء مصطلح (ألف الجماع) ويقصد به ألف جمع التكسير، قال في تفسيره قوله تعالى (متكئين على رفرف خضر)^٦... حدثنا أبو العباس قال: حدثنا حدثنا محمد قال حدثنا الفراء قال: وحدثني معاذ بن مسلم بن أبي سادة قال: كان جارك زهير القرظي يقرأ: متكئين على رفارف خضر وعباقرى حسان. قال: الرفارف قد يكون صواباً، وأما العباقرى فلا، لأن ألف الجماع لا يكون بعدها أربعة أحرف، ولا ثلاثة صحاح^٧. وأطلق على ألف جمع التكسير مصطلح (ألف مجهولة)^٨.

^١ - قرأ المدنيان وابن كثير وأبو عامر وأبو بكر وأبو الطيب عن التمار عن رويس بالياء على التنكير وقرأ الباقر بالتاء على التأنيث، ينظر: النشر في القراءات العشر، ابن الجزري (ت ٨٣٣هـ) تصحيح محمد علي الضباع، دار الكتب العلمية، بيروت: ٣٠٧/٢.

^٢ - يوسف: ٣٠

^٣ - التوبة: ٥

^٤ - المعاني: ١٢٤/٢، وينظر: ٢٧٤/٢

^٥ - الأيام والليالي والشهور: ٥٣

^٦ - الرحمن: ٧٦.

^٧ - المعاني: ١٢٠/٣.

^٨ - ينظر: نفسه: ٣٧٣/١.

واستعمل الفراء مصطلح (لا واحد له)^١ ليتوصل به إلى تسمية اسم الجمع الإفرادي، واسم الجمع ما تضمن معنى الجمع، غير أنه لا واحد له من لفظه وإنما واحدة من معناه. قال الفراء في تفسيره قوله تعالى (عِظَاماً وَرُفَاتاً)^٢ "الرفات: التراب لا واحد له بمنزلة: الدُّقَّاق والخُطَام"^٣. وعلاوة على المصطلح السابق استعمل مصطلحات أخرى وبالدلالة نفسها وهي: لم يُفرد له واحد، وواحد في معنى جمع، و واحد وجمع^٤.

وذكر الفراء مصطلح (الاسم الموضوع) ويعني به اسم الجنس^٥، قال في تفسيره قوله تعالى ﴿طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾^٦ "رفع وعليه القراءة ولو نصب طوبى والحسن كان صواباً كما تقول العرب: الحمد لله والحمد لله وطوبى وإن كانت اسماً فالنصب يأخذها، كما يقال في السب: التراب له والتراب، والرفع في الاسماء الموضوعية أجود من النصب"^٧. وقال أيضاً: "ثم يأتي نوع آخر من الجمع مثل الشاة الشاة والبقرة والحصى فهذا اسم موضوع فإذا أرادت العرب أفراد واحدة قالوا: شاة للذكر والأنثى لم ترد بالهاء هاهن التأنيث المحض، إنما أرادوا الواحد..."^٨ واستعمل

^١ - ورد هذا المصطلح في العين، ينظر: ٢٤٨/٨.

^٢ - الإسراء: ٤٩.

^٣ - المعاني: ١٢٥/٢، وينظر: ١٧١/٢.

^٤ - ينظر: نفسه: ٢٩٢/٣، ٢٨/٣، ٣٩٣/٢.

^٥ - ينظر: المصطلح النحوي نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري، عوض حمد القوزي، شؤون المكتبات، جامعة الرياض، ١٩٨١م: ١٦٧.

^٦ - الرعد: ٢٩.

^٧ - المعاني: ٦٣/٢، وينظر: ٨/٣.

^٨ - المذكر والمؤنث: ٦٩.

الفراء للدلالة على اسم الجنس فضلاً عن المصطلح السابق: واحد في اللفظ ومعناه جمع^١، ولفظه واحد وهو جمع^٢، وجمع في المعنى^٣.

واستخدم الفراء مصطلح (الذكران) ويعني به المذكّر، قال في تفسيره قوله تعالى: ﴿عليها تسعة عشر﴾^٤ "إن العرب تنصب ما بين أحد عشر إلى تسعة عشر في الخفض والرفع، ومنهم من يخفف العين في تسعة عشر، فيجزم العين في الذكران ولا يخففها في: ثلاث عشرة إلى تسع عشرة، لأنهم إنما خففوا في المذكر لكثرة الحركات. فأما المؤنث فإن الشين من عشرة ساكنة، فلم يخففوا العين منها فيلتي ساكنان، وكذلك اثنا عشر في الذكران لا يخفف العين، لأن الألف من اثنا عشر ساكنة فلا يسكن بعدها فيلتي ساكنان...^٥ وقال أيضاً: (الأشاجع) ذكران، واحدها أشجع، وتحقيقه أشيجع"^٦ وبالدلالة نفسها استعمل: تذكير^٧، ومذكر^٨، وذكر^٩. ووردت ووردت هذه المصطلحات في العين^{١٠}.

وأورد الفراء مصطلح (الأنثى)^{١١} بمعناه المعروف والأنثى خلاف الذكر من كل شيء والجمع إناث^{١٢}، قال: "الهيم) الإبل التي يصيبها داء فلا تروي من الماء،

١ - ينظر: المعاني: ٢٥٦/٢.

٢ - المدثر: ٣٠.

٣ - في المعاني خفضوا

٤

٥ - المعاني: ٢٠٣/٣، وينظر: ١٥١/١.

٦ - المذكر والمؤنث: ٧٨.

٧ - ينظر: المعاني: ٢٥٢/١، ٢١٠.

٨ - المصدر نفسه: ٢٨٥/١، ٩٣/٢.

٩ - المصدر نفسه: ٥١/٢، ١٢٦/١، ٣٢٨.

١٠ - ينظر: العين: ١١٨/٨، ١١٥/٧.

١١ - ورد هذا المصطلح في العين، ينظر: ١٦٩/٨.

١٢ - ينظر: اللسان (أنث): ١١٢/٢.

واحدھا: أهيم، والأنثى هيماء. ومن العرب من يقول: هائم والأنثى هائمة"^١. واستعمل واستعمل أيضا: إناث، مؤنث، وتأنيث"^٢.

واستخدم الفراء مصطلح (تأنيثه في اسمه) ويعني به المؤنث المجازي، ومصطلح (تأنيثه في نفسه) ويعني به المؤنث الحقيقي قال في تفسيره قوله تعالى: ﴿إِنْ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً﴾^٣... "وفي قراءة عبد الله (نعجة أنثى) والعرب تؤكد التأنيث بأنثاء، والتذكير بمثل ذلك فيكون كالفضلة في الكلام فهذا من ذلك ومنه قولك للرجل: هذا والله رجل ذكر، وإنما يدخل هذا في المؤنث الذي تأنيثه في نفسه، مثل المرأة والرجل والجمال والناقة، فإذا عدوت ذلك لم يجر فخطأ أن تقول: هذه دار أنثى، وملحفة أنثى، لأن تأنيثها في اسمها لا في معناها. فابن على هذا"^٤ واستعمل مصطلح (أنثى في اللفظ) ويعني به المؤنث المجازي.

وذكر الفراء مصطلح (علامات التأنيث)^٥ قال في تفسيره قوله تعالى ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾^٦ "فإنه أريد به والله أعلم: جمع الضياء... وإن شئت ذكرته لأن الشمس اسم مؤنث ليس فيها هاء تدل على التأنيث، والعرب ربما ذكرت فعل المؤنث

^١ - المعاني: ١٢١/٣، وينظر: ٩١/١.

^٢ - ينظر: نفسه: ١٥١/١، ١٠٥/٣، ١٠/٣.

^٣ - ص: ٢٣.

^٤ - في المعاني كالفضل.

^٥ - المعاني: ٤٠٣/٢ - ٤٠٤ (٨٤) ينظر: نفسه: ٩٠/٣.

^٦ - ورد هذا المصطلح في العين: ينظر: ٣١٢/١.

^٧ - القيامة: ٩.

إذا سقطت منه علامات التأنيث...^١ واستعمل أيضا مصطلحي: يا التأنيث وهاء التأنيث.

ومن جملة المصطلحات التي استعملها الفراء مصطلح (الهاء)^٢ ويعني به تاء التأنيث المربوطة، قال في تفسيره قوله تعالى: (وإيقام الصلاة)^٣ فإن المصدر من ذوات الثلاثة إذا قلت: أفعلت كقيلك: أقمّت وأجرّت واجبّت يقال فيه كله: إقامة وإجارة وإجابة لا يسقط منه الهاء وإنما أدخلت لأن الحرف قد سقطت منه العين، كان ينبغي أن يقال: أقمته أقواماً وإجاباً فلما سُكّنت الواو وبعدها ألف الأفعال فسكّنتا سقطت الأولى منهما. فجعلوا فيه الهاء كأنها تكثير للحرف. ومثله مما أسقط منه بعضه فجعلت فيه الهاء قولهم: وعدته عِدّة ووجدت المال جدة، وزنة ودية وما أشبه ذلك. فلما أسقطت الواو من أوله كُثِّر من آخره بالهاء. وإنما استجيز سقوط الهاء من قوله (وإقام الصلاة) لإضافتهم إياه، وقالوا الخافض وما خَفَضَ بمنزلة الحرف والواحد. فلذلك أسقطوها في الإضافة. وقال الشاعر^٤:

إن الخليط أجَدّوا البين فانجردوا

وأخلفوك عِدّ الأمر الذي وعدوا

يريد عِدّة الأمر فاستجاز إسقاط الهاء حين إضافتها^٥. وقال أيضا: "إيا الشمس ضؤوها مقصور مكسور وربما أدخلت فيه الهاء فيقال: إياة الشمس"^٦. قال ثعلب في

^١ - المعاني: ١٢٦-١٢٧.

^٢ - ورد هذا المصطلح في العين، ينظر: ١٤٣/١.

^٣ - النور: ٣٧.

^٤ - لم ينسبه المحقق، وقائله الفضل بن عباس، ينظر: الخصائص، ابن جني، (ن ٣٩٢هـ)، تحقيق: محمد علي النجار، ط ٢، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٥م: ١٧١/٣ ومعجم شواهد العربية، عبد السلام هارون، ط ١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٢م: ١٠٥.

^٥ - المعاني: ٢٥٤/٢، وينظر: ١٤٣/٢، ٣٦٧.

^٦ - المنقوص والممدود: ٢٣.

قوله تعالى (ليس لها من دون الله كاشفة)^١. "أي لا يكشفها إلا هو، وادخل الهاء للمبالغة كقولك رجل علامة"^٢.

ونذكر الفراء مصطلح (المشتق)^٣ بمعناه المعروف، واشتقاق الكلام الأخذ فيه يميناً وشمالاً، واشتقاق الحرف من الحرف: أخذه منه، قال في تفسيره قوله تعالى: (ولا تكونوا أول كافر به)^٤ فوحد الكافر وقبله جمع وذلك من كلام العرب تعبير جيد في الاسم إذا كان مشتقاً من فعل، مثل الفاعل والمفعول، يراد به ولا تكونوا أول من يكفر فتحذف (من) ويقوم الفعل مقامها فيؤدي الفعل عن مثل ما أدت (من) عنه من التأنيث والجمع وهو في لفظ توحيد^٥ واستعمل الفراء للدلالة على مصطلح المشتق: أخذ، مأخوذ^٦.

وأورد الفراء في معانيه مصطلح (المرّة)^٧ ويعني به مصدر المرة قال في تفسيره قوله تعالى: (وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ)^٨ "قَتَلَهُ النَّفْسَ فَالْفَعْلَةُ منصوبة الفاء لأنها مرة واحدة ولا تكون وهي مرة بعلة ولو أريد بها مثل الجلسة والمشية جاز كسرهما^٩. وقال أيضاً: "أما المرة من الفعل فلا يُختلف فيها أن يفتح أولها ويسكن ثانيها كقولك: لَقِمَ لَقْمَةً، وقطع قَطْعَةً"^{١٠}.

١ - النجم: ٥٨.

٢ - مجالس ثعلب: ٤٥٧/٢.

٣ - ورد هذا المصطلح في العين، ينظر: ٣٦٧/٥.

٤ - ينظر: اللسان (شقق): ١٨٤/١٠.

٥ - البقرة: ٤١.

٦ - المعاني: ٣٢٣٣/١، وينظر: ٤٤/٢، ١٥١.

٧ - ينظر: المصدر نفسه: ٨٨/٢، ١٩٩، ٢٦٨/١، ٢٤٨/٣.

٨ - ورد هذا المصطلح في العين، ينظر: ١١٥/١.

٩ - الشعراء: ١٩.

١٠ - المعاني: ٢٧٨/٢ وينظر: ١٩٠/٢، ١٥٢/١.

١١ . المذكر والمؤنث: ١١٩-١٢٠.

ومن المصطلحات التي استعملها الفراء مصطلح (ألف الأفعال) ويعني به ألف مصدر الفعل الرباعي الذي على وزن أفعل، قال: "... فإن المصدر من ذوات الثلاثة إذا قلت: أفعلت كقيلك: أقمّت وأجريت وأجبت يقال فيه كله: إقامة وإجارة وإجابة لا يسقط منه الهاء. وإنما أدخلت لأن الحرف قد سقطت منه العين، كان ينبغي أن يقال: أقمته إقواماً وإجواباً فلما سكّنت الواو وبعدها ألف الأفعال فسكّنتا سقطت الأولى منهما...".^١

وأورد الفراء في معانيه (الافتعال، تاء الافتعال)^٢ قال: "... وتاء الافتعال تصوير مع الصاد والضاد طاء، كذلك الفصيح من الكلام كما قال الله عز وجل: (فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ)^٣ ومعناها افتعل من الضرر. وقال الله تبارك وتعالى (وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها)^٤ فجعلوا التاء طاء في الافتعال".^٥

وأورد الفراء في معانيه مصطلح (منسوب)^٦ بمعناه المعروف، قال: (الأعجمين)^٧ "الأعجم في لسانه. والأعجميّ المنسوب إلى أصله العجم وإن كان فصيحاً. ومن قال أعجم قال للمرأة عجماء إذا لم تحسن العربية ويجوز أن تقول: عَجَمِيّ تريد أعجمي تنسبه إلى العجم"^٨، قال ابن يعيش: "إعلم أن النسبة التي يقصدها النحويون ويسمّيها سيبويه الإضافة وهو ما ينسب إلى قبيلة أو بلدة أو صفة أو غير ذلك يقال: نسبته إلى بني فلان إذا عزوته إليهم فهي إضافة من جهة المعنى

^١ - المعاني: ٢٥٤/٢.

^٢ - ورد هذا المصطلح في العين، ينظر: ١٦٨/١، ٣٤٣/٤.

^٣ - المائدة: ٣.

^٤ طه: ١٣٢.

^٥ - المعاني: ٢١٦/١، وينظر: ١٠٧/٣.

^٦ - ورد هذا المصطلح في العين، ينظر: ١٩٥/١.

^٧ - الشعراء: ١٩٨.

^٨ - المعاني: ٢٨٣/٢، وينظر: ٢٥٢/٢، ١٣٧/١.

وإن كانت مخالفة لها من جهة اللفظ، وذلك أنك في الإضافة تذكر الاسمين وتضيف أحدهما إلى الآخر علام زيد وصاحب عمر وفي النسب إما تذكر المنسوب إليه وحده ثم تزيد عليه زيادة تدل على النسب^١.

واحتوى المعاني على مصطلح (الاسم الثابت) ويعني الفراء بهذا المصطلح (الاسم الثابت) ويعني الفراء بهذا المصطلح الاسم الجامد، قال: "... تقول: كان سيدهم أبوك، و كان سيدهم أباك. والوجه أن تقول: كان سيدهم أبوك، لأن الأب اسم ثابت والسيد صفة من الصفات.^٢" قال الأنصاري: هذا المصطلح قريب من سابقه فما كان من الفراء إلا أن أتى بالمعنى المرادف للمصطلح لمخالفة البصريين، وذلك لأنه يؤسس مذهباً يبتغي له الجدة في كل شيء حتى في المصطلحات.^٣، واستعمل واستعمل بالدلالة نفسها مصطلحي: اسم غير مخلوق من فعل^٤، واسم مصرح^٥.

وحوى المعاني على مصطلح (الأصل)^٦ واستعمل الفراء هذا المصطلح ليبين أصل المفردة أو حركة الحرف قبل إجراء التغيير، والأصل أسفل كل شيء وجمعه أصول^٧. قال في تفسيره قوله تعالى (لو شئت لتخذت عليه أجرا)^٨ "وقراً مجاهد^٩ (لو

^١ - شرح المفصل، ابن يعيش، (ت ٦٤٣هـ)، عالم الكتب، بيروت: ٤١/٥.

^٢ - المعاني: ١٢٦/١.

^٣ - أبو زكريا الفراء ومذهبه في النحو واللغة، د. احمد مكي الأنصاري، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، القاهرة، ١٩٦٠م: ٤٤٣.

^٤ - ينظر: المعاني: ١٢٦/١.

^٥ - ينظر: نفسه: ٢٦٨/١.

^٦ - ورد هذا المصطلح في العين، ينظر: ٢١٢/١.

^٧ - ينظر: اللسان (أصل): ١٦/١١.

^٨ - الكهف: ٧٧

^٩ - هذه هي قراءة ابن كثير وأبي عمرو، ينظر: الكشف عن وجوه القراءات السبع، أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي (ت ٤٣٧هـ)، تحقيق: د. محيي الدين رمضان مجمع اللغة العربية، دمشق ١٩٧٤م: ٧٠/٢.

(لو شئت لتخذت عليه أجرا) ... وأصلها اتخذ ... افتعل^١. وبالدلالة نفسها استعمل مصطلح بناء أيضا^٢.

وذكر الفراء مصطلح (الانتماء)^٣ ليكون بمعنى عدم سقوط صوت من بنية المفردة، وقد يُراد به المجيء بالبنية كاملة على الأصل قبل التغيير، والتام لغةً من تمّ الشيء يتم تَمّاً وتُماً وتَمامة، وتَمام الشيء وتَامته وتَتَمته.. ما تم به.. وأتمّ الشيء وتم به وجعله تاماً^٤. قال الفراء عند حديثه عن الياءات التي في أواخر الكلمات ... فمن حذفها اكتفى بالكسرة التي قبلها دليلاً عليها. وذلك أنها كالصلة إذا سكنت وهي في أواخر الحروف، واستثقلت وحذفت. ومن أتمها فهو البناء والأصل^٥.

وذكر الفراء مصطلح (الحركة اللازمة)^٦ بمعنى الحركة التي تلازم الكلمة، لزِمَ لَزِمَ الشيء يلزمه لَزماً ولُزوماً ولازمه مُلازمةً ولِزاماً والتَزَمه والزمه إياه فالزمه، ورجل الزمه. يلزم الشيء فلا يفارقه^٧، قال في تفسيره قوله تعالى (ويحيا من حيّ عن بيّنة)^٨... "وقرأ بعضهم (حيّ عن بيّنة) بإظهارها^٩. وإنما ادغموا الياء مع الياء وكان وكان ينبغي لهم ألا يفعلوا، لأن الياء الآخرة لزمها النصب في فَعَل، فادغموا لَمّا

^١ - المعاني : ١٥٦/٢، وينظر: ٢٢١/١.

^٢ - ينظر: نفسه: ٢٠١/١، ٢٦٤.

^٣ - ورد هذا المصطلح في الكتاب، ينظر: ٥٣/٤.

^٤ - ينظر : اللسان (تمم): ٦٧/١٢.

^٥ - ينظر: المعاني: ٢٠٠-٢٠١، وينظر: ١٤٤/٢، ٨٩/١.

^٦ - ورد هذا المصطلح في الكتاب: ٥٩/٣.

^٧ - ينظر: اللسان (لزم): ٥٤١/١٢.

^٨ - الأنفال: ٤٢.

^٩ - قرأه نافع وأبو بكر والبرقي بيّنين ظاهرتين، وقرأ الباقون بياء واحدة مشددة (الكشف: ٤٩٢/١).

التقى حرفان من جنس واحد. ويجوز الإدغام في الاثنتين للحركة اللازمة للياء الآخرة، فنقول للرجلين: قد حَيَّا، وحَيَّيا...^١.

عندما يقول الفراء هذه (ياء) أو (واو) أصلية فإنه يعني أن هذا الحرف من أصل المفردة أي ليس بمزيد، قال: "للعرب في الياءات التي في أواخر الحروف مثل اتبعن ... أن يحذفوا الياء مرة ويثبتونها مرة ... ويفعلون ذلك في الياء الأصلية، فيقولون هذا قاضٍ ورام وداعٍ بغير ياء، لا يثبتون الياء من شيء من فاعل"^٢. وقال أيضا في تفسيره قوله تعالى: (الذين جعلوا القرآنَ عضين)^٣ "... وإنما جاز في هذا المنقوص الذي كان على ثلاثة أحرف فنقصت لامه، فلما جمعه بالنون توهموا أنه فُعول إذا جاءت الواو وهي واو جماع، فوقعت في موضع الناقص، فتوهموا أنها الواو الأصلية وأن الحرف على فُعول...^٤". وأطلق الفراء مصطلح (دُعامة) للدلالة على الحرف الذي هو من أصل المفردة^٥.

وذكر الفراء في معانيه مصطلح (الاسم الناقص) ويعني به الاسم المحذوف منه حرف، قال عند تفسيره قوله تعالى (قل اللهم مالكُ المُلْكِ)^٦. "اللهم كلمة تنصبها العرب. وقد قال بعض النحويين: إنما نصبت إذ زيدت فيها الميمان لأنها لا تتادي بـ

^١ - المعاني: ٤١١/١، وينظر: ١١٣/١

^٢ - المعاني: ٢٠٠-٢٠١، وينظر: ٤٩/١.

^٣ - الحجز: ٩١

^٤ - المعاني: ٩٣/٢

^٥ - ينظر: المصدر نفسه: ١٨٤/٢

^٦ - آل عمران: ٢٦.

(ياء)، كما تقول: يا زيد، ويا عبد الله، فجعلت الميم خلفاً من ياء ... ولم نجد العرب زادت مثل هذه الميم في نواقص الأسماء الآ مخففة مثل الفم وابنم وهم^١.

حروف الزوائد عشرة وهي الهمزة والألف والياء والواو والميم والنون والسين والياء^٢ والتاء واللام والهاء ويجمعها قولك في اللفظ (اليوم تنساه) وان شئت (هويت السمان)^٣. واستعمل الفراء مصطلح (الزائد)^٤ ويعني به حروف الزوائد، قال: "وما كان من ميم زائدة أدخلتها على فعل رباعي قد زيد على ثلاثية شيء من الزيادات فالميم منه في الفاعل والمفعول به والمصدر مضمومة"^٥. ونراه أحياناً يقول: ياء زائدة، وتاء زائدة...^٦.

وذكر الفراء في معانيه مصطلحي (التصغير والتحقيق)^٧، والصغر ضد الكبر الكبر والتصغير يجيء بمعانٍ شتى^٨، والتحقيق: الحَقُّ في كل المعاني: الدِّلة والتحقيق: التصغير^٩. قال في تفسيره قوله تعالى (وَأَناسِيَّ كَثِيرًا)^{١٠} "واحدهم إنسيّ وان وان شئت جعلته إنساناً ثم جمعته أناسيّ فتكون الياء عوضاً من النون والإنسان في الأصل إنيسان لأن العرب تصغره أنيسيان. وإذا قالوا: أناسين فهو بين مثل بستان وبساتين، ..."^{١١} وقال أيضاً: كلُّ مؤنث فحَّه الآ يجري، لأن فيه معنى الهاء، وإن لم

١ - المعاني: ٢٠٣/١، وينظر: ٩٣/٢.

٢ - في اللسان: الياء مكررة

٣ - ينظر: اللسان (زيد): ٢٠٠/٣.

٤ - ورد هذا المصطلح في العين: ٢٤٣/٣.

٥ - المعاني: ١٥٣/٢، وينظر: ١٧٢/١، ٧٥

٦ - ينظر: المصدر نفسه: ٣٢١/١، ١٨٩/٣

٧ - ورد هذا المصطلح في العين، ينظر: ١٨٢/٢، ٢١٣/٣

٨ - ينظر: اللسان (صغر): ٤٥٨/٤

٩ - ينظر: المصدر نفسه: (حقر): ٢٠٧/٤

١٠ - الفرقان: ٤٩

١١ - المعاني: ٢٦٩/٢-٢٧٠.

تظهر الا ترى أنك إذا حقرتها وصغرتها قلت: هنيذ، ودعيده، ومن أجزاها...^١. وقال
وقال أيضا: العين أنثى تحقيرها عيينة وتجمعها: ثلاث أعين^٢.

التصريف المشترك:

ومن جملة المصطلحات التي وردت في المعاني مصطلح (الأف الخفيفة)^٣
ويعني به الفراء همزة الوصل^٤. قال في تفسيره قوله تعالى: (للذين آمنوا انظرونا)^٥
"وقرأها يحيى بن وثاب والأعمش وحمزة^٦ (أنظرونا). من أنظرت وسائر القراء على
(انظرونا) بتخفيف الألف، ومعنى أنظرونا إنتظرونا، ومعنى انظرونا، اخرونا كما
قال: (أنظرنى إلى يوم يُبعثون)^٧، وقد تقول العرب أنظرنى وهو يريدون: انتظرنى
تقوية لقراءة يحيى قال الشاعر^٨.

أبا هندٍ فلا تَعَجَلْ علينا وأنظرنَا نُخَبِّرَكَ اليقينا

فمعنى هذه أنتظرننا قليلاً نُخَبِّرَكَ؛ لأنه ليس هاهنا تأخير، إنما هو استماع
كقولك للرجل: اسمع منى حتى أخبرك^٩ قال القوزي: "ويقصد بها الفراء ما يسمى
ألف الوصل أو همزته، وكان يطلق على همزة الاستفهام: اصطلاح الألف. هذه
الأوصاف تبرز دقة الحس عند هؤلاء العلماء وتبين كيف تطورات تلك الجهود حتى

^١ - المصدر نفسه: ١١٠/٣.

^٢ - ينظر: المذكر والمؤنث: ٧٣

^٣ - ورد هذا المصطلح في الكتاب، ينظر: ٥٣٣/٣

^٤ - المصطلح النحوي: ١٨١

^٥ - الحديد: ١٣

^٦ - قرأ حمزة بقطع الهمزة مفتوحة وكسر الضاد بمعنى أمهلونا وقرأ الباقر بوصل الهمزة وضم الضاد
أي انظرونا (النشر: ٣٨٤/٢)

^٧ - الأعراف: ١٤

^٨ - نسبه محقق المعاني إلى عمرو بن كلثوم اعتماداً على شرح المعلقات، وهو في شرح القصائد التسع
المشهورات: ٦٢٨/٢

^٩ - المعاني: ١٣٣/٣. وينظر: ٤٦٩/١

وصلت إلينا، فابن يعيش يقول: وكان المتقدمون يسمون الفتحة الألف الصغيرة والضمة الواو الصغيرة والكسرة الياء الصغيرة، لأن الحركات والحروف أصوات وإنما رأى النحويون صوتاً أعظم من صوت فسمّوا العظيم حرفاً، والضعيف حركة، وإن كانا في الحقيقة شيئاً واحداً ويبدوا أن الفراء نظر إلى هذه الألف فوجدها دون مستوى الهمزة فلم يقف عند تسميتها بالألف ورآها فوق مستوى الحركة فوصفها بهذا الوصف وأطلق عليها هذا الاصطلاح^١، وأطلق الفراء على همزة الوصل تسمية أخرى وهي (الألف الخيفة الزائدة)^٢.

وذكر الفراء في معانيه (الإدغام)^٣ "وأدغم الفرس اللجام أدخله في فيه وأدخل وأدخل اللجام في فمه ومنه أدغم الحرف في الحرف إذ أدخله"^٤، "وقيل هو الباث الحرف في مخرجه مقدار إلباث الحرفين نحو مدّ وعد"^٥. (الإدغام) ويعني به الفراء: أ- إيصال حرفين من جنس واحد أي تشديد الحرف، قال في تفسيره قوله تعالى: (لكن الله ربي)^٦، "معناه لكن أنا هو الله ربي ترك همزة الألف من أنا وكثر وكثر بها الكلام، فأدغمت النون من (أنا) مع النون من لكن ومن العرب من يقول: أنا قلت ذاك بتمام الألف فقرئت لكنا على تلك اللغة..^٧

ب- إيصال حرف بحرف آخر عن غير أن يفصل بينهما بشيء، قال الفراء في تفسيره قوله تعالى (وقال الذين كفروا هل نُؤْلَكُم)^٨، "العرب تدغم اللام عند

^١ - المصطلح النحوي: ١٨١

^٢ - ينظر: المعاني: ٣٥٤/٢

^٣ - ورد هذا المصطلح في الكتاب، ينظر: ٤٧٥/٤

^٤ - تاج العروس، مرتضى الزبيدي، ت ١٢٠٥هـ، دار صادر، بيروت ١٩٦٠م: ٢٩١/٨

^٥ - التعريفات، علي بن محمد علي الجرجاني المعروف بالسيد الشريف، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والإعلام/ بغداد، ١٩٨٦م: ١٦

^٦ - الكهف: ٣٨

^٧ - المعاني: ١٤٤/٢، وينظر: ٢٩/٢، ٤١١/١

^٨ - سبأ: ٧

النون وتحركت النون وذلك أنها قريبة المخرج منها. وهي كثيرة في القراءة. ولا يقولون ذلك في لام تتحرك في حال، مثل أدخل، وقُل: لأن قُل قد كان يُرفع وينصب ويدخل عليه الجزم وهل وبل وأجل مجزومات أبدأً. فشبهن إذا أدغمن بقوله (النار) إذا أدغمت اللام من النار في النون منها^١. والكوفيون يُخففون دال الإدغام، أما البصريون فيُشدّدونها^٢. ويقول الدكتور محيي الدين توفيق "وأحسب أن الفرق بينهما أن الإدغام بالتشديد فعل لا إرادي أي يأتي من طبيعة الحروف وقرب ومخارجها، أما الإدغام ففيه شيء من الإرادة والقصد"^٣.

وأطلق الفراء مصطلح (المدة)^٤ على تطويل الألف أي عكس القصر ويُقال مدّ الحرف يمدّه طوّله^٥. قال في تفسيره قوله تعالى (أأمنتم)^٦ "يجوز فيه أن تجعل بين بين الألفين ألفاً غير مهموزة... فأفعل بكل همزتين تحركتا فزد بينهما مدّة، وهي من لغة بني تميم"^٧. واستعمل الفراء فضلاً عن المصطلح السابق مصطلحي: مد الألف^٨، وتطويل الألف^٩.

١ - المعاني: ٣٥٣/٢ وينظر: ٣٨٢/٢، ٢٠٦/١.

٢ - شرح المفصل، موفق الدين بن يعيش النحوي، ت ٦٤٣هـ، عالم الكتب، بيروت، ١٠/١٢١، وينظر: كشاف اصطلاحات الفنون، محمد علي التهانوي، بيروت: ٥٠١/٢، وينظر: مدرسة البصرة النحوية نشأتها وتطورها، عبد الرحمن السيد، دار المعارف - مصر، ١٩٦٨م: ٣٤٨.

٣ - المصطلح الكوفي، د. محيي الدين توفيق إبراهيم، مجلة التربية والعلم، كالية التربية - جامعة الموصل، ١٩٧٤م، العدد الأول: ٤٧.

٤ - ورد هذا المصطلح في العين، ينظر: ٣١٢/١.

٥ - ينظر: التاج (مدد): ٤٩٩/٢.

٦ - الملك: ١٦.

٧ - المعاني: ١٧١/٣، وينظر: ١٤٩/٣، ٢٠٨/١.

٨ - ينظر: المصدر نفسه: ١٣٦/٣.

٩ - ينظر: المصدر نفسه: ٣٠١/٢، ٣٣٧.

واستخدم الفراء مصطلح (مشدد)^١ بمعنى حرفان متماثلان مدغمان، قال في تفسيره قوله تعالى: (وما نَزَلَ من الحق)^٢ "قرأها عاصم وبعض أهل المدينة (نَزَلَ) مشددة، وقرأها بعضهم (وما نَزَلَ)^٣ مخففة و في قراءة عبد الله: وما أنزل من الحق، فهذا قوة لمن قرأ: نَزَلَ"^٤. واستعمل مصطلح التشديد أيضاً، قال في تفسيره قوله تعالى تعالى (إِنْ يُبَدِّلْهُ)^٥، "قرأها عاصم والأعمش (أَنْ يُبَدِّلْهُ) بالتخفيف، وقرأ أهل الحجاز: (أَنْ يُبَدِّلْهُ) بالتشديد^٦ وكل صواب، أبدلت، بدلت"^٧. وأورد ابن السكيت باباً سماه باب باب ما يشدد: تقول هو آري الدابة، مثقل، لمَحْبَسِها، والجمع أوارِي^٨.

واستعمل الفراء مصطلح (التخفيف)^٩ ويعني به عكس التشديد، قال في تفسيره تفسيره قوله تعالى (ما كَذَّبَ الْفُؤَادُ)^{١٠} " ... وكذب يقرأ بالتشديد والتخفيف. خففها عاصم والأعمش وشيبة ونافع والمدنيان وشدها الحسن البصري، وأبو جعفر المدني وكأن من قال كَذَّبَ يريد: أن الفؤاد لم يكذب الذي رأى، ولكن جعله حقاً صدقاً وقد يجوز أن يريد: ما كذب صاحبه الذي رأى. ومن خفف قال: ما كذب الذي رأى ولكنه صدقه"^{١١}.

^١ - ورد هذا المصطلح في العين، ينظر: ٦٢/٢.

^٢ - الحديد: ١٦

^٣ - قرأ نافع وحفص بالتخفيف وشدد الباقون (التبصرة ٣٤٥، والنشر: ٣٨٤/٢)

^٤ - المعاني: ١٣٤/٣، وينظر: ٥٨/٣.

^٥ - الحريم: ٤

^٦ - قرأ المدنيان وأبو عمرو بتشديد الدال، وقرأ الباقون بالتخفيف، النشر في القراءات العشر: ١٣٤/٢.

^٧ - المعاني: ١٦٧/٣، وينظر: ٢٨/٢.

^٨ - وينظر: إصلاح المنطق: ١٧٦.

^٩ - ورد هذا المصطلح في العين، ينظر: ١٧٩/١

^{١٠} - النجم: ١١

^{١١} - المعاني: ٩٦/٣، وينظر: ١٣٤/٣، ٤٩/١.

قال ابن السكيت: إذ قرأ الإمام فاتحة الكتاب: آمين فتقصر الألف وتخفف الميم وآمين مطولة الألف مخففة الميم. ولا تقل آمين بتشديد الميم...^١

وأورد الفراء مصطلح (المضاعف)، وأضعف الشيء وضعفه وضاعفه: زاد على أصل الشيء وجعله مثيله أو أكثر، وهو التضعيف والإضعاف^٢ قال "وكل ما كان فيه معنى من المدح والذم فإنك تقول فيه: أظرف به وأكرم به، ومن الياء والواو: أطيب به طعاماً وأجود به ثوباً، ومن المضاعف تُظهر فيه التضعيف ولا يجوز الإدغام"^٣ قال في تفسيره قوله تعالى: (تودّ لو أن بينها) ^٤، "ويقول في تودّ: تودّ بالنصب، وتودّ. ولو كان التضعيف ظاهراً لجاز تودّد:"^٥

قال ابن السكيت: كل ما كان على فعلت ساكنة التاء من ذوات التضعيف فهو مدغم^٦ نحو صمت المرأة وأشباهه، إلا أحرفاً جاءت نواذر في إظهار التضعيف وهي لحت عينه إذا التصقت. وصككت وأل السقاء إذا تغير ريحه^٧.

واستخدم الفراء مصطلح (حرفان من جنس واحد) ويعني به الحرف المكرر في الكلمة، قال في تفسيره قوله تعالى: (ويحيا من حيّ عن بيّنه)^٨... وإنما أدغموا أدغموا الياء مع الياء^٩ وكان ينبغي لهم ألا يفعلوا؛ لأن الباء الآخرة لزمها النصب في

^١ - إصلاح المنطق: ١٧٩

^٢ - ينظر: اللسان (ضعف): ٢٠٤/٩

^٣ - المعاني: ١٣٩/٢

^٤ - آل عمران: ٣٠

^٥ - المعاني: ٢٠٦-٢٠٧/١ وينظر: ١٣٩/٢، ١١٤/٣.

^٦ - كذا ضبطها محقق إصلاح المنطق، والمشهور أن الإدغام من مصطلحات الكوفيين والإدغام من مصطلحات البصريين.

^٧ - إصلاح المنطق: ٢١٦

^٨ - الأنفال: ٤٢

^٩ - (من جبي) بياءين نافع والبيز وأبو بكر (التيسير: ١١٦، والعنوان: ١٠٠).

في فعل، فأدغموا لما التقى حرفان متحركان من جنس واحد^١ وقال أيضاً: "وسمعت بعض العرب يقول: أتيت فلاناً فبشّش بي من البشاشة، وإنما فعلوا ذلك كراهية اجتماع ثلاثة أحرف من جنس واحد"^٢.

وذكر الفراء مصطلح الإبدال^٣، "والإبدال في التصريف: حذف حرف، ووضع ووضع آخر مكانه، بحيث يختفي الأول، ويحل الآخر محله سواء أكان الحرفان علة أم غير علة، يدخل في الإبدال، الإعلال بالقلب لأنه قلب حرف العلة إلى حرف آخر"^٤، (الإبدال) عند الفراء يشمل:

أ- عند اجتماع حرفين أو أكثر من جنس واحد في كلمة واحدة يبذل حرف من هذه الحروف بحرف آخر قال في تفسيره قوله تعالى (لم يتسنّه)^٥ "جاء التفسير: لم يتغير بمرور السنين عليه، مأخوذ من السنة وتكون الهاء من أصله... ومن قال في تصغير السنة يُنينة وإن كان ذلك قليلاً جاز أن يكون تسنّيت تفعلت أدبلت النون بالياء لما كثرت النونات، كما قالوا تسنّيت واصله الظن..."^٦

ب- ما يدخل ضمن قانون التعاقب، وهو ورود كلمتين بمعنى واحد تختلف إحداها عن الأخرى في صوت واحد ويكون الصوت في الكلمة الأولى من مخرج الصوت في الكلمة الثانية، قال في تفسيره قوله تعالى (وفومها وعدسها وبصلها)^٧... وهي في قراءة عبد الله و (ثومها) بالثاء والعرب تبدل الفاء

^١ - المعاني: ٤١١/١.

^٢ - المصدر نفسه: ١١٤/٣.

^٣ - ورد هذا المصطلح في العين، ينظر: ٣٣/٤.

^٤ - الشامل في علوم اللغة ومصطلحاتها، محمد سعيد اسبر وبلال الجندي، ط ١، دار العودة/ بيروت،

١٩٨١م: ٣١.

^٥ - البقرة: ٢٥٩.

^٦ - معاني القرآن: ١٧٢/١.

^٧ - البقرة: ٦١.

بالثاء فيقولون: جدث وجدف ووقعوا في عاثور شرّ وعافور شر والاثافي^١.

وذكر الفراء مصطلح (القلب)^٢، والقلب، تحويل الشيء من وجهه^٣ وهو إبدال حروف العلة والهمزة بعضها مع بعض، فهو أخص من الإبدال ويطلق أيضاً على تقديم بعض حروف الكلمة على بعض ويسمى قلباً مكانياً^٤. وبهذه الدلالة استعمل الفراء مصطلح (القلب)، قال: "وقد تُقلب فيه الياء إلى واو فيقال:

وكنت إذا جاري دعا لمضوفة اشمر حتى ينصف الساق منزري^٥

جعلها مفعلة وهي من الياء فقلبها إلى الواو لضمّة ما قبلها، كما قالوا: قد سُور به^٦. وقال في موضع آخر: لأنك لا تقول: هذا قاض ولا رامّ. وإن يكن عرف فيها لغة مقلوبة مثل عاث وعثا فهو صواب^٧، واستعمل فضلاً عن المصطلح السابق: حوّل، غير، وصير^٨.

واستخدم الفراء في معانيه مصطلح (الإخفاء)^٩، وخفي الشيء خفاء فهو خافٍ خافٍ وخفي: لم يظهر. وخفاه هو وأخفاه: ستره وكتمه^{١٠}، وفي اصطلاح القراء نطق

^١ - المعاني: ٤١/١، وينظر: ٣٨٤/٢

^٢ - ورد هذا المصطلح في الكتاب، ينظر: ١٧٧/٤.

^٣ - ينظر: اللسان (قلب): ٦٨٦/١.

^٤ - ينظر: كشاف اصطلاحات الفنون: ٧١/٥.

^٥ - نسبه محقق المعاني إلى أبي جندب الهذلي، وهو في ديوان الهذليين، الدار القومية، القاهرة، ١٩٦٦م: ٩٢/٣

^٦ - المعاني: ١٥٢/٢

^٧ - ينظر: نفسه، ٣٩٤/٢

^٨ - ينظر: نفسه: ٢٨٩/٢، ١/٤.

^٩ - ورد هذا المصطلح في الكتاب، ينظر: ٤٧٥/٤

^{١٠} - ينظر: اللسان (خفا): ٢٣٤/١٤

حرف بصفة هي بين الإدغام والإظهار مع بقاء الغنة في الحرف الأول^١. وبالمعنى نفسه استعمل الفراء في معانيه هذا المصطلح قال في تفسيره قوله تعالى: (وكذلك نُجِّي المؤمنين)^٢، "القرء يقرأونها بنونين، وكتابتها بنون واحدة. وذلك أن النون الأولى متحركة والثانية ساكنة، فلا تظهر الساكنة على السان، فلما خُفيت حُذفت وقد قرأ عاصم^٣ - فيما أعلم - (نُجِّي) بنون واحدة"^٤. وأورد الفراء مصطلح (التبيان)^٥ ويعني به عكس الإدغام^٦. واستبان الشيء: ظهر واستبنته أنا عرفته، وتبين الشيء ظهر^٧، قال في تفسيره قوله تعالى (والصافات)^٨ "تخفف التاء من (الصافات) ومن (التاليات)، لأنه قسم وكان ابن مسعود يُدغم^٩ والصافات معاً كذلك (والزاجرات) يدغم يدغم التاء منهن والتبيان أجود، لأن القراءة بنيت على التفصيل والبيان^{١٠}". وبالمعنى نفسه استعمل الفراء مصطلح الإظهار^{١١}.

واستعمل الفراء مصطلح (القطع)^{١٢} ويعني به الوقف، ومقطع كل شيء ومنقطعه: آخره حيث ينقطع كمقطع الرمال والأدوية والحررة وما أشبهها^{١٣} والقطع

^١ - ينظر: كشاف اصطلاحات الفنون: ٤٥٩/٢، وينظر: الشامل: ٦٥

^٢ - الأنبياء: ٨٨

^٣ - ابن عامر وأبو بكر بنون واحدة وتشديد الجيم والباقون بنونين والتخفيف (التبصرة: ٢٦٤، وينظر: التيسير: ١٥٥)

^٤ - المعاني: ٢١٠/٢، وينظر: ٥٦/٢، ١٧٢/٣.

^٥ - ورد هذا المصطلح في العين، ينظر: ٣٥٢/٨.

^٦ - ينظر: المصطلح الكوفي: موازنة واستدراك: ٤١٧

^٧ - ينظر: اللسان (بين): ٦٦/١٣

^٨ - الصافات: ١

^٩ - وقرأ حمزة بالإدغام أيضا (ينظر: التيسير: ١٨٥، والعنوان: ١٦٣)

^{١٠} - المعاني: ٣٨٢/٢، وينظر: ١٨/١، ٥٦/٢.

^{١١} - ينظر: المصدر نفسه: ٣٥٣/٢، ٣٥٤، ١٧٢/٣.

^{١٢} - ورد هذا المصطلح في الكتاب، ينظر: ٣٨/٣.

^{١٣} - ينظر: اللسان (قطع) ٢٧٨/٨.

عند المتقدمين من القراء هو الوقف^١، وبالمعنى نفسه استعمل الفراء مصطلح (القطع) في معانيه قال في تفسيره قوله تعالى (يوم يأتِ لا تكلم^٢)، "كتبت بغير الياء، وهو في موضع رفع، فإن أثبت فيه الياء إذا وصلت القراءة كان صواباً، وإن حذفها في القطع والوصل كان صواباً^٣ وقد استعمل الفراء للدلالة على الوقف فضلاً فضلاً عن المصطلح السابق: الانقطاع، والوقف، والسكوت - السكت^٤.

ونذكر الفراء مصطلح (الوصل)^٥، ووصلت الشيء وصلاً وصلة، والوصل ضد الهجران. ابن سيدة: الوصل خلاف الفصل^٦ وهو عند الفراء عدم الفصل^٧. وبالدلالة نفسها استعمل الفراء هذا المصطلح في معانيه، قال في تفسيره قوله تعالى (اهبطوا مضراً)^٨ "... فإن شئت جعلت الألف في مضراً ألفاً يوقف عليها، فإذا وصلت لم تتون فيها..."^٩ واستعمل أيضاً للدلالة على الوصل: اتصال - متصل^{١٠}. واستخدم الفراء مصطلح (الحرف الصحيح) والصحة مقابلة للإعلال فالصحيح ما ليس بمعتل فيشمل المهموز والمضاعف^{١١}، قال في تفسيره قوله تعالى (مُتَكِنِينَ عَلَى رُفُوفٍ خُضْر)^{١٢}، "حدثنا أبو العباس قال: حدثنا الفراء قال، وحدثني

^١ - ينظر: كشف اصطلاحات الفنون: ١١٩٩/٥

^٢ - هود: ١٠٥.

^٣ - المعاني: ٧٢/٢، وينظر: ٣٥٠/٢.

^٤ - ينظر: المعاني: ٤٥٣/١، ٣٥٠/٢، ١٤٩/٢

^٥ - ورد هذا المصطلح في الكتاب، ينظر: ٨٨/٣

^٦ - ينظر: اللسان (وصل): ٧٢٦/١١

^٧ - ينظر: كشف اصطلاحات الفنون: ١٥٠٣/٦

^٨ - البقرة: ٦١

^٩ - المعاني: ٤٢/١-٤٣، و ينظر: ٣٥٠/٢، ١٧/٣

^{١٠} - ينظر: نفسه: ١٥٧/٢، ٢٣٠، ١٧٧/٣

^{١١} - ينظر: كشف اصطلاحات الفنون: ٨١٥/٣

^{١٢} - الرحمن: ٧٦

معاذ بن مسلم، قال: كان جارك زهير القرقي يقرأ: متكئين على رفارف خضر وعباقرى حسان، قال الرفارف قد يكون صواباً، وأما العباقرى فلا؛ لأن ألف الجماع لا يكون بعدها أربعة أحرف، ولا ثلاثة صحاح^١.

واستخدم الفراء مصطلح (المعتل)^٢ ويقصد به الكلمة التي فيها حرف من حروف العلة، قال في تفسيره قوله تعالى (كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مُسَنَّدَةٌ)^٣ "... وإن شئت جمعته وهو خُشْبَةٌ على خشب، والعرب تجمع بعض ما هو على صورة خشبة. على فُعْل، من ذلك أجمة وأجم وبْدَنَةٌ وبُذْن، وأَكْمَةٌ وأُكْم. ومن ذلك من المعتل: ساحة وسوح، وساق وسوق، وعانة وعون، ولابة ولُوب، وحياة وحي. قال العجاج^٤: ولو ترى ترى إذ الحياة حي.

وكان ينبغي أن يكون حوى، فكسر أولها لئلا تتبدل الياء واواً، كما قالوا بيض وعين^٥.

واستخدم الفراء مصطلح (التخفيف)^٦ ويعني به تسكين الحرف، والخَفَّة والخِفَّة: والخِفَّة: ضد الثقل، خَفَّ يَخِفُّ خَفّاً وخَفَّةً صار خفيفاً^٧. قال في تفسيره قوله تعالى (عُزْباً)^٨ "... حدثنا الفراء قال: وحدثني شيخ عن الأعمش قال: كنت أسمعهم يقرأون:

^١ - المعاني: ١٢٠/٣

^٢ - ورد هذا المصطلح في العين، ينظر: ٤٧/١

^٣ - المنافقون: ٤٠

^٤ - في الديوان وقد نرى: ٣١٣

^٥ - المعاني: ١٥٩/٣

^٦ - ورد هذا المصطلح في العين: ١٤٩/٣

^٧ - ينظر: اللسان (خفف): ٧٩/٩

^٨ - الواقعة: ٣٧

يقرأون: (عُزْباً أُرْبَاباً) بالتخفيف^١. وهو مثل قولك: الرُّسُل والكُتُب في لغة تميم، وبكر بالتخفيف، والتثقيل وجه القراءة؛ لأن كل فعول أو فعيل أو فِعال، جُمع على هذا المثال، فهو مثقل مذكراً كان أم مؤنثاً والقراء على ذلك^٢.

قال ابن السكيت: "حكى - أي الفراء - ما رأيته قَطُّ، وما رأيته قُطُّ، يا هذا مرفوعة مثقلة وخفيفة، إذا كانت في معنى حَسَب فهي مفتوحة مجزومة"^٣.

وعلاوة على المصطلح السابق استعمل الفراء مصطلح: الوقف^٤ والمقصور^٥، والمقصور^٥، والسكون والتسكين^٦، ومجزوم^٧.

واستعمل الفراء مصطلح (التثقيل)^٨ ويعني به التحريك، والثقل نقيض الخفة والثقل مصدر الثقل، تقول: ثَقُلَ الشيء ثِقْلاً وثِقَافَةً فهو ثَقِيلٌ^٩، قال في تفسيره قوله تعالى (دَابَّاً)^{١٠} "وقرأ بعض قُرَّائنا^{١١} (سَبْعَ سَنِينَ دَابَّاً)، فَعَلَّاً وكذلك كل حرف فُتِحَ أوله وسُكِّنَ ثانية فتثقله جائز إذا كان ثانيه همزة أو عيناً أو غيناً أو حاء أو خاء أو

^١ - إجماع القراء على ضم الراء إلا ما تفرد به حمزة وأبو بكر عن عاصم من إسكانها (الحجة: ٣٤٠، وينظر: العنوان: ١٨٥)

^٢ - المعاني: ١٢٥/٣، وينظر: ١٤/٣، ١١٧/٢

^٣ - إصلاح المنطق: ٩٠.

^٤ - ينظر: المعاني: ٣٧١/٣، ١٧٢، ٩/١.

^٥ - ينظر: المصدر نفسه: ٢٤/٢

^٦ - ينظر: المصدر نفسه: ٢٠٧/٢١، ٣٨/٢، ٤٧.

^٧ - ينظر: المصدر نفسه: ٣١٢/١، ٣١٥/٢، ٢١٣/٣.

^٨ - ورد هذا المصطلح في العين، ينظر: ١٤٩/٣.

^٩ - ينظر: اللسان (ثقل) ٨٥/١١.

^{١٠} - يوسف: ٤٧

^{١١} - قرأ حفص (دَابَّاً) بتحريك الهمزة والباقون بإسكانها (التيسير: ١٢٩).

هاء^١ قال ثعلب: يقال: خذه من عُرُض الناس بالثقل وعُرُض بالتخفيف^٢. قال العكبري: المصدر من هزأت: هزواً مثقلاً ومخففاً^٣.

وأورد الفراء مصطلح (إرسال الياء) ويعني به إطلاقها وإسكانها، وجاء في اللسان: الليث: الرّسل، بفتح الراء، الذي فيه لين واسترخاء وسيّر رسل: سهل^٤ وأرسل وأرسل الشيء أطلقه وأهمله^٥. قال في تفسيره قوله تعالى (ما أخفي)^٦، "وكل جل وعز وعز (والله أنبتكم من الأرض نباتاً)^٧ ولو كانت - إنباتاً - كان صواباً"^٨ قال ابن السكيت: قال الفراء: يقال وعدته خيراً، أوعدته^٩. وعلاوة على المصطلح السابق أطلق الفراء على همزة القطع: الألف المقصورة^{١٠} والألف المقطوعة^{١١}، والألف المهموزة^{١٢}.

^١ - المعاني: ٤٧/٢، وينظر: ١٤/٣، ٣٦/٣.

^٢ - ينظر: مجالس ثعلب: ٥٢٠/٢.

^٣ - ينظر: شرح ديوان أبي الطيب المسمى التبيان في شرح الديوان، المنسوب إلى أبي البقاء العكبري، ضبطه وصححه مصطفى السقا وآخرون، ١٩٧٨م: ١٧٣/٢.

^٤ - ينظر: اللسان (رل): ٢٨٢/١١.

^٥ - ينظر: المصدر نفسه: ١٨٥/١١.

^٦ - السجدة: ١٧

^٧ - نوح: ١٧

^٨ - المعاني: ٨٨/٣ وينظر: ١٦٤/٢، ٧٨/١

^٩ - إصلاح المنطق: ٢٢٦

^{١٠} - ينظر: المعاني: ١٦٠/٢، ٣٠١، ٣٣٧

^{١١} - ينظر: نفسه: ٩/١، ٧٢، ٢٥٤/٢

^{١٢} - ينظر: نفسه: ٢٩/١

ابن جني:

يعد ابن جني من أبرز علماء العربية تناولوا للموضوعات الصرفية وعرضا لدقائقها في مختلف كتبه التي وصلت إلينا، وله ذخيرة كبيرة من المادة الصرفية وضعها في ناوله لمختلف ظواهر اللغة، وتحدث عن الدلالة وأنواعها في فصول متعددة في كتابه الخصائص الدلالة عند ابن جني على ثلاثة مراتب في القوة والضعف، وهي الدلالة اللفظية، وقصد بها الدلالة الصوتية، والدلالة الصناعية، وقصد بها الدلالة الصرفية والدلالة المعنوية قصد بها الدلالة المعنى وقدم الدلالة الصوتية ثم ثم الدلالة الصرفية ثم الدلالة المعنى. قال ابن جني في باب الدلالة اللفظية والصناعية والمعنوية: ((اعلم أن كل واحدة من هذه الدلائل معتد مراعي مؤثر، إلا أنها في القوة والضعف على ثلاثة مراتب: فأقواهن الدلالة اللفظية، ثم تليها اللفظية، ثم تليها الصناعية ثم تليها المعنوية. ولنذكر من ذلك ما يصح به الغرض. فمنه جمع الأفعال ففي كل واحد منها الأدلة الثلاثة، ألا ترى إلى قام، دلالة مفعله على مصدره ودلالة بنائه على زمانه، ودلالة معناه على فاعله. فهذه ثلاث دلائل من لفظه وصيغته ومعناه. وإنما كانت الدلالة الصناعية أقوى من المعنوية من قبل أنها وإن لم تكن لفظاً فإنها صورة يحملها، ويخرج عليها ويستقر على المنال المعترم بها فلما كانت كذلك لحقت بحكمة، وجرت مجرى اللفظ المنطوق به، فدخلوا بذلك في باب المعلوم والمشاهدة)). فالدلالة الصرفية أو الصناعية عند ابن جني، هي دلالة البناء أو الصيغة الصرفية، فدلالة قام بلفظه (بحروفه) دلالة وظيفة مطردة على القيام والحدث.

وإن هذه الدلالة تستمد قوتها من الدلالة الصوتية (اللفظية) من قبل أنها إطار اللفظ أو القالب الذي تصب فيه الألفاظ وتبنى على منواله.

لاحظ ابن جني في كثير من الصيغ الصرفية فروقا في الدلالة بسبب زيادة بعض الوحدات الصرفية (المورفيمات) في أول الصيغ أو أوسطها على الحروف الأصلية أو على الجذر الأصلي، فصيغة (فعل) إذا زيدت الهمزة في أولها تحولت إلى صيغة أخرى هي (أفعل) مختلفة الدلالة عنها ف (أدخل) و (أخرج)، تجعل الفاعل مفعولا وتقيد أن هناك من دفعه إلى الدخول والخروج، و (دخل) و (خرج) تقيد دخول وخروج الفاعل بمحض إرادته. فزيادة الهمزة كان لها تأثير على المعنى الصرفي. قال ابن جني: ((فافعل للنقل وجعل الفاعل مفعولا، نحو دخل، وأدخلته، وخرج، وأخرجته)). ورأى أيضا أن زيادة الهمزة على الصيغ قد تقيد أن الشيء وصل غايته، فإذا قلت (أحصد الزرع) عنيت أن الزرع قد نضج وإن وقت حصاده، فزيادة الهمزة غيرت دلالة الفعل، ورأى أن زيادة الألف في وسط الكلمة تعطي دلالة جديدة، هي المشاركة في الفعل من اثنين أو أكثر لا من واحد نحو قاتل وشارك قائلا: ((ويكون أيضا للبلوغ، نحو احصد الزرع، وأركب المهر، واقطف الزرع، ولغير ذلك من المعاني. وأما فاعل فلكونه من اثنين فصاعدا، نحو ضارب زيد عمرا، وشاتم جعفر بشرا)).

ونص على أن تضعيف العين في صيغة (فعل) قد يأتي للدلالة على تكثير الفعل نحو: غلق الأبواب، وقطع الحبال، وكسر الجرار.

ولاحظ ابن جني بحسه الذواق أن المعنى يقوي بقوة لفظه قائلا: ((خشن واخشوشن. فمعنى خشن دون معنى اخشوشن لما فيه من تكرير العين وزيادة الواو

... وكذلك قولهم: أعشب المكان، فإذا أرادوا كثرة العشب فيه قالوا: اعشوشب. ومثله حلا واحلولي، وخلق واخلولق، وغدن واعدودن)).

فتكرار مورفيم العين وزيادة مورفيم الواو نقل صيغة (فعل) إلى صيغة (أفعول) مع قوة المعنى وزيادته فمعنى خشن واعشب وحلا وخلق وغدن دون معنى اخشوشن واعشوشب واحلولا واخلولق واغدودن. ومثل هذا فعل وافتعل نحو قدر واقتدر وكسب واكتسب: ((ومثله باب فعل وافتعل نحو قدر واقتدر. فاقتدر أي معنى من قولهم قدر... قال الله سبحانه: ﴿أخذ عزيز مقتدر﴾. فمقتدر هنا أوفق من قادر، من حيث كان الوضع لتفخيم الأمر وشدة الأخذ وعليه عندي قول الله عزوجل: ﴿ها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾ وتأويل الك ان كسب الحسنة بالإضافة إلى اكتساب السيئة أمر يسير ومستصغر وذلك لقوله عز اسمه : ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزي إلا مثلها﴾. أفلا ترى أن الحسنة تصغر بإضافتها إلى أجزائها، صغر الواحد إلى العشرة، ولما كان جزاء السيئة أنما هو بمثلها لم تحقر إلى الجزء عنها، فعلم بذلك قوة فعل السيئة عن فعل الحسنة؛ ولذلك قال تبارك وتعالى: ﴿تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ان دعوا للرحمن ولدا﴾. فإذا كان فعل السيئة ذاهبا بصاحبه إلى هذه الغاية البعيدة المترامية، عظم قدرها، فخم لفظ العبارة عنها، ففعل لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت. فزيد في لفظ فعل السيئة، وانتقص من لفظ فعل الحسنة)).

فمعنى المبالغة واضح جلي في ما ذكره ابن جني، وطوال أبلغ من طويل، وعراض أبلغ من عريض، وخفاف أبلغ من خفيف وقلال أبلغ من قليل، وسراع أبلغ من سريع، وهذا لم يأتي جزافا وإنما بإبدال (فونيم) الياء في صيغة (فعليل) بفونيم الإلف في صيغة (فعال).

وقد أدرك ابن جني الوظيفة الدلالية للحركات وبين أنها مورفيمات لا تقل عن الحروف في بيان الفروق الدلالية وتميرها فصيغة (مفعل) إذا كانت الميم الزائدة فيها مفتوحة دلت على الحدث، وإن الشيء ثابت، أي تكون الصيغة مصدرا. وإذا كانت هذه الميم مكسورة دلت على اسم آلة غير ثابت. قائلًا: ((وسبب امتناع مفعل ومفعل أن يكونا ملحقين أن كان على وزن جعفر، وهجرع أن الحرف الزائد في أولهما، وهو لمعنى وذلك أن مفعلا يأتي للمصادر نحو ذهب مذهبًا، ودخل مدخلًا، وخرج مخرجًا، ومفعلا يأتي للدلات، والمستعملات، نحو مطرق، ومروج، وحصد، ومئزر فلما كانت الميمات ذواتي معنى حسوا أنهم الحقوا المعنى المقصود بهما أن يتوهم أن الغرض فيهما أنما هو الإلحاق حسب، فيستهلك المعنى المقصود بها. فتحاموا الإلحاق بهما يكون ذلك موفق على المعنى لهما)). وقال أيضا: ((ومن ذلك قولهم للسلم مرقاة، وللدرجة مرقاة فنفس اللفظ يدل على الحدث الذي هو الرقي، وكسر الميم يدل على أنها مما ينقل ويعتمل عليه وبه كالمطرقة والمأزر والمنجل، وفتحة ميم مرقاة تدل على أنه مستقر في موضعة، كالمنارة والمثابة)). فالفتحة والكسرة • فيما ذكره ابن جني هما مورفيمان لهما تأثيرهما في توجيه معنى الصيغ وتبين الفروق الدلالية بينها وقد وضع هذا الأمر في صيغتي (مفعل) و (مفعل).

وقد لاحظ ابن جني أن لحروف المضارعة وإن كانت تتساوى في إفادة الحال أو الاستقبال للفعل الذي تزداد عليه - وظيفة دلالية أخرى - هي الدلالة على الفاعل في (افعل) التي تعني أن الفاعل هو المتكلم مفردا بدليل وجود الهمزة، والنون في (تفعل) دليل على أن الفاعل مفرد مؤنث غائب أو مفرد مذكر مخاطب حسب السياق والياء في " يفعل " دليل على أن الفاعل مفرد مذكر غائب قائلًا: ((يدل على تمكن المعنى في أنفسهم - العرب - وتقدمه للفظ عندهم تقديمهم لصرف المعنى في

أول الكلمة، وذلك لقوة العناية به فقدموا دليله ليكون ذلك إمارة لتمكنه عندهم. وعلى ذلك تقدمت حروف المضارعة في أول الفعل. إذ كل دلائل على الفاعلين: من هم، وما هم، وكم عدتهم نحو: افعَل، ونفعل، وتفعَل، ويفعل). وبهذا يبدو أن ابن جني قد أدرك القيمة الدلالية للمورفيم قبل أن يدركها علم اللغة الحديث.

فما ذكره ابن جني هنا يمثل غايته في الدقة التعبيرية، فزيادة مورفيم التاء في صيغة (فعل) نقلها إلى صيغة (أفعل) وهي أقوى منها في الدلالة التعبيرية، فاقترت أقوى من قدر ومقتدر أقوى وأوفق من قادر من حيث التفضيم للأمر وشدة الأخذ، واكتسبت أقوى في المعنى من كسب، فالله عزوجل استعمل صيغة (افتعل)؛ لأن المقام يقتضي التعظيم والتفضيم كون فعل السيئة أمر مهول وجسيم، فهذه الصيغة تناسب الفعل أو الأمر المهول والفظيع، وأعطى الحسنة صيغة (فعل) لأن فعل الحسنة دون فعل السيئة ولذلك انتقص من لفظها.

فزيادة مورفيم ما على الصيغ الصرفية يحولها إلى صيغة أخرى ويعطيها دلالة جديدة تفيد المبالغة قال ابن جني: ((رجل جميل، ووضئ، فإذا أرادوا المبالغة في ذلك قالوا: وضاء، وجمال، فزادوا في اللفظ هذه الزيادة لزيادة معناه)). فسبب هذه الزيادة التي حدثت في الصيغة أخذت دلالة جديدة أفادت المبالغة فجمال ووضاء أبلغ وأقوى من جميل ووضئ.

ويدخل في هذا الباب العدول من صيغة فعال إلى صيغة فاعيل، وهذا العدول يفيد المبالغة قال ابن جني: ((تكثير اللفظ لتكثير المعنى العدول عن معتاد حاله. وذلك فعال في معنى فاعيل، نحو طوال، فهو أبلغ معنى من طويل، وعراض، فإنه أبلغ معنى من عريض. وكذلك خفاف من خفيف، وقولال من قليل، وسراع من سريع. ففعال لعمرى وإن كانت أعم من فاعيل في باب الصفة، فإن فاعيل أخص بالباب من

فعال الا تراه أشد انقياد منه، نقول جميل ولا تقول: جمال وبطئ ولا نقول بطاء،
وشديد ولا تقول شداد، ولحيم وغريض ولا يقال لحام وغراض. كلما كانت فعيل هي
البال المطرد وأريت المبالغة، عدلت إلى فعال)).



الفصل الثاني

المبحث الثاني

التحليل الاعرابي عند الخليل ومن تبعه من نحاة
المدارس النحوية المختلفة

المبحث الثاني:

التحليل الاعرابي عند الخليل ومن تبعه من نحاة المدارس النحوية المختلفة

مقدمة:

من الثابت الذي لا جدال فيه أن اللغويين والنحاة العرب الأوائل، كانوا شديدي الحرص في وضع قواعد اللغة العربية، ولكن الأسباب التي دعت إلى نشأة الدراسات اللغوية كانت العامل الأساس في تحديد مسار هذه الدراسات.

فقد نشأت دراسة اللغة العربية علاجاً لظاهرة كان يخشى منها على القرآن الكريم، وعلى العربية من التحريف، وهي التي سموها "ذبوع اللحن".

وتسمية هذه الظاهرة اللغوية المذكورة - ولا شك - تدل بصفة خاصة على الأخطاء التي تعتري أواخر الكلمات بعدم ضبطها بعلامات إعرابية مناسبة لوظيفتها في التركيب، وقد يتجاوز الخطأ النحوي مجال العلامة الإعرابية - أحيانا - إلى مجال المطابقة والرتبة وغيرهما.

ومن هنا فقد اتسمت الدراسات اللغوية العربية على أيدي المتأخرين من النحاة بخاصة، ومن سار على منهجهم بسمة الاتجاه إلى المبنى أساسا، ولم يكن اهتمامهم بالمعنى إلا خدمة لذلك.

النحو واللغة:

يمتاز النحو العربي بصفته فرعاً من فروع اللغة العربية بطاقات جبارة لضبط المعاني والتعبير عنها. فلقد بات معلوماً اليوم لدى الباحثين أن النحو ليس هو علم العربية؛ فعلم العربية له مدلول أوسع؛ فهو العلم الذي يختص بالبحث في قواعد هذه اللغة بمختلف مستوياتها: من صوتية، وصرفية، وتركيبية، ودلالية، وفي علل ظواهرها، ولا يتخذ النحو لمعانيه مباني من أي مستوى من مستويات اللغة إلا ما يقدمه له علم الصرف من المباني. وقد عرض بعد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) لأهمية النحو، فيقول: "وأما زهدهم في النحو واحتقارهم له... أشبه بأن يكون صدا عن كتاب الله وعن معرفة معانيه، ذلك لأنهم لا يجدون بداً من أن يعترفوا بالحاجة إليه فيه، إذ كان قد علم أن الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها، وأن الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها، وأنه المعيار الذي لا يتبين نقصان كلام ورجحانه حتى يعرض عليه".

فالنحو - إذن - ليس هو العربية، ولكنه علم يقعد لها، "ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة، فينطق بها، وإن لم يكن منهم، وإن شذ بعضهم عنها، رد به إليها".

وقال أبو البقاء: "إنما سمي العلم بكيفية كلام العرب في إعرابه وبنائه نحواً، لأن الغرض به أن يتحرى الإنسان في كلامه إعراباً وبناء طريقة العرب في ذلك".
والجدير بالإشارة أن بعض النحاة أثقلوا كاهل العربية بمصطلحات صنعوها صنعا، وبأمثلة اصطنعوها اصطناعاً، فنفروا المتعلمين منها. ولما كان النحو بالنسبة للغة العربية غير السليقة المتوارثة عن الأجداد، غدت مدونة مخبريه باحة للوصف والتحليل أمام النحاة الذي لم يكونوا جميعهم أهلاً لدراسة هذه اللغة الرفيعة التي وسعت كلام الله لفظاً وغاية.

وأصدر بعض النحاة الأوائل أحكاماً نحوية على غير ما وضع العرب لغتهم،
ويكفي في هذا المقام إشارة إلى ما جاء عند سيبويه (ت ٨٠هـ)، فقد عقد عنواناً
أسماءه: "هذا باب منه ما استكرهه النحويون، وهو قبيح عندهم، فوضعوا الكلام فيه
على غير ما وضعت العرب". أي: اصطنعوا أمثلة لا تمت بصلة إلى القواعد
السليقة العربية، كقوله: "وذلك قولك: ويح له وتب، وتباً لك و يحاً، فجعلوا التب
بمنزلة الويح، وجعلوا الويح بمنزلة التب، فوضعوا كل واحد منهما على غير الموضع
الذي وضعت العرب، ولا بد لويح مع قبجها من أن تحمل على تب، لأنها إذا بدئت لم
يجز حتى يبنى عليها كلام، وإذا حملتها على النصب كانت تبنيها على شيء مع
قبجها".

ولا ينتابنا الشك أبداً أن نتجاهل الجهود اللغوية والنحوية الجليلة التي اضطلع
بها القدامى، فنحن لا نزال نعتز بتلك الأعمال كلما عدنا إلى مؤلف من مؤلفاتهم،
فمقدمة "كتاب العين" للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ)، وحدها دون العودة إلى
ما سبقه أو لحقه من آراء وأفكار لغوية تستحق الإكبار والإعجاب، غير أن الأمصار
كانت على درجات متفاوتة في العمل العلمي، والنحاة هم الآخرون لم يكونوا جميعهم
في مستوى واحد من الكمال العلمي، بل كانوا في ذلك درجات، ونص أبو الطيب
اللغوي الذي يقول فيه: "وضع ابن قسطنطين بمكة شيئاً من النحو، ثم قدم البصرة،
فسمح النحو، فطرح جميع ما كان عمل ووضع شيئاً آخر لا يساوي شيئاً أيضاً".
فبهذا النص بما ورد فيه من معطيات يجعلنا ننهج هذا النهج.

ظاهرة الإعراب في اللغة العربية:

اللغة العربية لغة إعرابية، لكن السؤال المطروح: هل العلامة الإعرابية تحمل دلالات، أم هي لأمر شكلي؟ نجيب عن هذا السؤال و نحن نستقرئ آراء بعض العلماء القدامى:

١ - إثارة قضية جدوى الإعراب من الخليل:

الظاهر أن أول من أثار هذه المسألة الخليل بن أحمد، حيث أورد سيبويه نصا له، جاء فيه: "وزعم الخليل أن الفتحة والكسرة والضمة زوائد، وهم يلحقن الحرف ليوصل إلى التكلم به، والبناء هو الساكن الذي لا زيادة فيه، فالفتحة من الألف، والكسرة من الياء، والضمة من الواو".

وذكر سيبويه أن أهل الحجاز، كانوا يقولون: "لم تخف أباك" وهم يريدون: "لم تخف أباك"، و "لم يبع أبوك"، و "لم يقل أبوك"، لأنك إنما حركت حيث لم تجد بدا من أن تحذف الألف وتلقى حركتها على الساكن الذي قبلها ولم تكن تقدر على التخفيف إلا كذا كما لم تجد بدا في التقاء الساكن من التحريك فإذا لم تذكر بعد الساكن همزة تخفف كانت ساكنة على حالها كسكونها إذا لم يذكر بعدها ساكن، أما قولهم: لم يخافا، ولم يقولوا، ولم يسمعا، فإن هذه الحركات لوازم على كل حال، وإنما حذفت النون للجزم كما حذفت الحركة للجزم من فعل الواحد ولم تدخل الألف هنا على ساكن، ولو كان كذلك لقال، "لم يخفا".

وذكر سيبويه - كذلك - أن عيسى بن عمر و يونس بن حبيب حدثاه أن بعض العرب في الوقف يقول وقفا على آخر فعل الأمر معتل الآخر، نحو: ارم، واغز، واخش، وذلك بقصد التخفيف، فهم يعاملون مثل هذه الأفعال المعتلة معاملة الفعل الصحيح.

وعقب سيبويه على هذا النص بقوله: "وهذه اللغة أقل اللغتين، جعلوا آخر الكلمة حيث وصلوا إلى التكلم بها بمنزلة الأواخر التي تحرك مما لم يحذف منه شيء، لأن من كلامهم أن يشبهوا الشيء بالشيء وإن لم يكن مثله في جميع ما هو فيه".

ولعل إثارة هذه المسألة على أن الحركات الإعرابية تحمل دلالات، أو لا تحمل، دارت بين تلاميذ سيبويه والكسائي، فانقسموا حينئذ فريقين.

٢- رأي ثعلب في مسألة الإعراب:

عرض ثعلب (ت ١٩١هـ) لهذه المسألة، وذكر أن العرب "تخرج الإعراب على اللفظ دون المعاني، ولا يفسد الإعراب المعنى، إذا كان الإعراب يفسد المعنى فليس من كلام العرب". وقد أعجب بالفراء (ت ٢٠٧هـ)، لأنه عمل العربية والنحو على كلام العرب منتقدا سيبويه، فيقول: "كل مسألة وافق إعرابها معناها، ومعناها إعرابها فهو الصحيح، وإنما لحق سيبويه الغلط، لأنه عمل كلام العرب على المعاني وخلي عن الألفاظ، ولم يوجد في كلام العرب و لا أشعار الفحول إلا ما المعنى فيه مطبق للإعراب، والإعراب مطبق للمعنى". غير أن الفراء "حمل العربية على الألفاظ والمعاني فبرع واستحق التقدمة". أي: أنه لم يفصل بين المعنى والإعراب، فقد لاءم بينهما، إلا أن دخول المعنى على الإعراب لا يفسده، لأننا لو حملنا العربية على المعاني في كل أمر لوجب أن نقول مثلاً: "انكسر الزجاج"، على أن الزجاج وقع عليه الكسر، ونقول: "مات الرجل"، لأن الله تعالى هو الذي أماته، غير أنه في مثل هذا تحمل العربية على اللفظ فتقول: "انكسر الزجاج"، مات الرجل، بالرفع على إسناد الفعل إلى ما كان في المعنى مفعولاً به.

٣- وصف الإعراب عند قطرب:

يذكر الزجاجي (ت٣٣٧هـ) أن جميع النحويين يرون في علامات الإعراب دلالة على المعاني إلا قطربا (ت٢٠٦هـ)، "فإنه عاب عليهم هذا الاعتلال، وقال لم يعرب الكلام للدلالة على المعاني، والفرق بين بعضها وبعض، لأننا نجد في كلامهم أسماء متفقة في الإعراب مختلفة في المعاني وأسماء مختلفة في الإعراب متفقة المعاني، فما اتفق إعرابه واختلف معناه قولك: إن زيدا أخوك، ولعل زيدا أخوك، وكأن زيدا أخوك، اتفق إعرابه واختلف معناه، ومما اختلف إعرابه واتفق معناه قولك: ما زيد قائما، وما زيد قائم، اختلف إعرابه واتفق معناه، ومثله: ما رأيته منذ يومين، ومنذ يومان، ولا مال عندك، ولا مال عندك، وما في الدار أحد إلا زيد، وما في الدار أحد إلا زيدا، ومثله: إن القوم كلهم ذاهبون، وإن القوم كلهم ذاهبون، ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾. و ﴿إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾، قرئ بالوجهين جميعا". حيث قرأ أبو عمرو ويعقوب واليزيدي "كله" رفعا على الابتداء.

وقرأ الباقر نصبا على التوكيد، وهي اللغة النموذجية المألوفة، وكذلك قولهم: "ليس زيد بجبان، ولا بخيل ولا بخيلا، ومثل هذا كثير جدا مما اتفق إعرابه واختلف معناه، ومما اختلف إعرابه واتفق معناه، قال: فلو كان الإعراب إنما دخل الكلام للفرق بين المعاني، لوجب أن يكون لكل معنى إعراب يدل عليه، ولا يزول إلا بزواله، قال قطرب: وإنما أعربت العرب كلامها، لأن الاسم في حال الوقف يلزمه السكون للوقف، فلو جعلوا وصله بالسكون أيضا لكان يلزمه الإسكان في الوقف والوصل، وكانوا يبطنون عند الإدراج فلما وصلوا وأمكنهم التحريك جعلوا التحريك معاقبا للإسكان، ليعتدل الكلام، ألا تراهم بنوا كلامهم على متحرك وساكن، ولم يجمعوا بين ساكنين في حشو الكلمة، ولا في حشو بيت، ولا بين أربعة أحرف

متحركة، لأنهم في اجتماع الساكنين يبطئون، وفي كثيرة الحروف المتحركة يستعجلون، وتذهب المهلة من كلامهم، فجعلوا الحركة عقب الإسكان، قيل له: فهلا لزموا حركة واحدة، لأنها مجزية لهم، إذ كان الغرض إنما هو حركة تعقب سكونا؟ فقال: لو فعلوا ذلك لضيقوا على أنفسهم، فأرادوا الاتساع في الحركات، ولم يحظروا على المتكلم الكلام إلا بحركة واحدة. هذا مذهب قطرب واحتجابه.

وقال المخالفون له ردا عليه: لو كان زعم لجاز جر الفاعل مرة، ورفعه أخرى ونصبه، وجاز نصب المضاف إليه، لأن القصد في هذا إنما هو الحركة تعاقب سكونا، يعتدل به الكلام. وأي حركة أتى بها المتكلم أجزأته، فهو مخير في ذلك، وفي هذا فساد للكلام وخروج عن أوضاع العرب وحكمة نظام كلامهم".

وتدليل قطرب بالأمثلة التي ساقها مردود، لأن الأدوات التي دخلت على الجمل في مثل إن وأخواتها هي التي غيرت المعاني من التوكيد إلى الترجي إلى التشبيه، وكذلك ما النافية هي التي جعلت الجملتين بمعنى واحد، سواء أكانت "ما" الحجازية العاملة، أو "ما" التميمية غير العاملة، فدلالة النفي هي المستفادة من الجملتين بغض النظر عن العلامة الإعرابية.

ويلحظ - كذلك - أن قطربا كان ينتقي أحيانا أمثلة، تختلف فيها لغات العرب من حيث الإعراب، ولا يختلف المعنى. و لأمر يكون كذلك في بعض الكلمات التي لا يتغير معناها و وظيفتها بدخول العامل عليها، كدخول حرف الجر على المسند إليه من فاعل، أو نائب فاعل، أو مبتدأ، مثل: ما غاب من طالب، وما عوقب من أحد، و ﴿هل لنا من الأمر من شيء﴾. فالمسند إليه -هنا- مجرور اقتضاء ب "من" الزائدة للتأكيد، فهو مجرور لفظا مرفوع محلا.

وإذا ما استثنينا وجهة نظر الخليل غير الواضحة إلى جانب رؤية ثعلب المتذبذبة، فإن كل النحاة القدامى يعتلون بدخول الإعراب على الكلمات دليلاً على المعاني، إلا أبا علي قطربا الذي عاب عليهم الاعتلال مدعماً وجهة نظره بدليلين:

أ- في لغة العرب ظواهر لغوية لا تتناقض فيما بينها، لأننا نجد في كلامهم أسماء متفقة في إعرابهم مختلفة في معانيها، وأسماء مختلفة في إعرابها متفقة في معانيها، في مثل ما ذكره من أمثلة. ومما يقوي مذهبه ما هو شائع من تراكيب لهجية عربية فصيحة، ورد بعضها في القرآن الكريم وأشعار العرب وأقوالهم، من ذلك مثلاً أن أهل الحجاز يعاملون "هلم" معاملة اسم فعل الأمر، ولا يختلف لفظها بحسب ما هي مسندة إليه، كقوله تعالى: ﴿قُلْ: هَلُمَّ شَهَدَاءَكُمْ﴾، وكقوله: ﴿وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ: "هَلُمَّ إِلَيْنَا"﴾. و "هلم" في الآيتين تدل على جمع الذكور، وأما عند تميم فهي فعل أمر تلحقها الضمائر البارزة بحسب من أسندت إليه.

ب- التعليل اللغوي والمنطقي، فمن التعليل اللغوي منهج الاستقراء والاستنباط أن العرب أعربوا كلامهم من أجل اعتدال خطابهم، ثم جعلوا علامات إعرابية بدل علامة واحدة، حتى يجري الكلام على ألسنتهم من دون صعوبة أو تكلف. ومن الدلائل المنطقي أنه لو كان الإعراب دخل الكلام للفرق بين المعاني المختلفة لوجب أن يكون لكل معنى إعراب يدل عليه، ولا يصح من دونه، وهذا لم يحدث.

٤- تعرض الزجاجي لإشكالية الإعراب:

يعد أبو القاسم الزجاجي (ت ٣٣٧هـ) من الذين يرون أن الحركات الإعرابية دال على معانيها، إذ يقول: "إن الأسماء لما كانت تعتروها المعاني، فتكون فاعلة،

ومفعولة، ومضافة، ومضافة إليها، ولم تكن في صورتها وأبنيتها أدلة على هذه المعاني، بل كانت مشتركة، جعلت حركات الإعراب فيها تنبئ عن هذه المعاني".
ويسوق الزجاجي أمثلة، ليستدل بها على أن الإعراب لا يدخل عبثاً على الكلمات، فإذا قالوا: "ضرب زيدٌ عمراً"، فدلوا برفع "زيد" على أن الفعل له، وبنصب "عمرو" على أن الفعل واقع به، وقالوا: "ضرب زيدٌ" فدلوا بتغيير أول الفعل، ورفع "زيد" على أن الفعل ما لم يسم فاعله، وأن المفعول قد ناب منابه، وقالوا: "هذا غلام زيدٍ"، فدلوا بخفض "زيد" على إضافة الغلام إليه، وكذلك سائر المعاني، جعلوا هذه الحركات دلائل عليها، ليتسعوا في كلامهم، ويقدموا الفاعل إن أرادوا ذلك، أو المفعول عند الحاجة إلى تقديمه، وتكون الحركات دالة على المعاني".

ويبدو من تتبع علل الزجاجي في هذه المسألة أن علامات الإعراب لا تدخل اعتباراً على الكلام العربي، إلا أننا يمكن أن نتساءل عم إذا كان الإعراب جزءاً لا ينفصل عن الأداء الكلامي، أم هو حركات تعتري النسق الكلامي بعد بنائه؟ ولعل تساؤلاً كهذا يعد من المسائل الفلسفية، إلا أن الزجاجي قد طرحه وأجاب عنه بالتفصيل، حيث يقول: "إن قال قائل: أخبرني عن الإعراب والكلام أيهما أسبق؟ قيل له: للأشياء مراتب في التقديم والتأخير: إما بالتفاضل، أو بالاستحقاق، أو بالطبع، أو على حسب ما يوجبه المعقول، فنقول: إن الكلام سبيله أن يكون سابقاً للإعراب، لأننا نرى الكلام في حال غير معرب، ولا يختل معناه، ونرى الإعراب يدخل عليه، ويخرج، ومعناه في ذاته غير معلوم، مثال ذلك: أن الاسم نحو: زيد، ومحمد، وجعفر، وما أشبه ذلك معرباً كان أو غير معرب لا يزول عنه معنى الاسم، وكذلك الفعل المضارع، نحو: يقوم، ويذهب، ويركب، معرباً كان أو غير معرب لا يسقط عنه معنى الفعلية، وإنما يدخل الإعراب لمعان تعتور هذه الأشياء. ومع هذا

فقد رأينا الشيء من الكلام الذي ليس بمعرب قريبا من معربه كثرة... فعلمنا بذلك أن الإعراب عرض داخل. في الكلام لمعنى يوجده، ويدل عليه، فالكلام إذا سابقه في الرتبة، والإعراب تابع من توابعه".

وإن كان الزجاجي محقا فيما ذهب إليه -هنا- غير أن بعض التراكيب تظل غامضة إن لم تضبط أواخرها، فالإعراب يدخل الأفعال أو الأسماء لأداء دلالات قد تعترضها، وعلى هذا فالكلام وهو في ذهن المتكلم أسبق في المرتبة، والإعراب تابع له، أي: أنه عرض يدخل عليه، لدلالة يتحقق بها.

ويذكر الزجاجي أن النحاة البصريين أجمعوا على: "أن الإعراب إنما دخل الكلام، ليفصل بين المعاني المشككة، ويدل به على الفاعل والمفعول والمضاف والمضاف إليه وسائر ذلك من المعاني التي تعتور الأسماء... قالوا وهذه المعاني موجودة في الأسماء دون الأفعال والحروف، فوجب لذلك أن يكون أصل الإعراب للأسماء، وأصل البناء للأفعال والحروف".

ويتضح مما أوردناه أن الزجاجي يدرك تماما أن الكلمات في بعض التراكيب لا تنبئ عن وظيفتها ومعناها إلا إذا دخلها الإعراب.

٥ - أحمد بن فارس ومسألة الإعراب:

أما ابن فارس (ت ٣٩٥هـ)، فيقول "وزعم قوم أن العرب العاربة لم تعرف هذه الحروف بأسمائها، وأنهم لم يعرفوا نحوها، ولا إعرابا، ولا رفعا، ولا نصبا، ولا همزا، قالوا: والدليل على ذلك ما حكاه بعضهم عن بعض الأعراب أنه قيل له: "أتهمز إسرائيل؟" فقال: "إني إذا لرجل سوء"، قالوا: "وإنما قال ذلك"، لأنه لم يعرف من

الهمز إلا الضغط والعصر، وقيل لآخر: "أتجر فلسطين؟" فقال: "إني إذ لقوي"، قالوا:
وسمع بعض فصحاء العرب ينشد:

نحن بني علقمة الأخيارا

ف قيل له: لم نصبت "بني"؟ فقال: ما نصبته، وذلك أنه لم يعرف من النصب إلا
إسناد الشيء. قالوا: وحكى الأخفش عن أعرابي فصيح أنه سئل أن ينشد قصيدة
على الدال، فقال: وما الدال؟ وحكى أن أبا حية النميري سئل أن ينشد قصيدة على
الكاف، فقال:

كفى بالنأي من أسماء كاف وليس لسقمها إذا طال شاف

وبعدما يستطرد أمثلة على الحروف يذهب على أنها توقيف من الله تعالى تبعا
للنظريته المعروفة، ويصرح بأن العرب تداولوا الإعراب مستدلا بقصيدة الحطيئة التي
أولها:

شأقتك أظعان ليلي دون ناظرة بواكر

بحيث جاءت قوافيها جميعها عند الترنم والإعراب مرفوعة، "ولو لا علم
الحطيئة بذلك لأشبه أن يختلف إعرابها، لأن تساويها في حركة واحدة اتفاقا من غير
قصد لا يكاد يكون".

ويتفق ابن فارس مع تقدمه من علماء اللغة والنحو بأن الإعراب من خصائص
العربية، و "هو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ، وبه يعرف الخبر الذي هو
أصل الكلام، ولو لاه ما ميز فاعل من مفعول، ولا مضاف من منوع، ولا تعجب
من استفهام، ولا صدر من مصدر، ولا نعت من تأكيد".

ووضح -كذلك- أن الإعراب دال على معناه، حيث يقول: "إن الإعراب هو
الفارق بين المعاني، ألا ترى أن القائل إذا قال: "ما أحسن زيد" لم يفرق بين التعجب
والاستفهام والذم إلا بالإعراب".

ويقول في موضع آخر: فأما الإعراب ففيه تميز المعاني، ويوقف على أغراض المتكلمين، وذلك أن قائلًا لو قال: "ما أحسن زيد"، غير معرب، أو "ضرب عمر زيد" غير معرب، لم يوقف على مراده، فإذا قال: "ما أحسن زيداً" أو "ما أحسن زيد"، أو "ما أحسن زيد"، أبان بالإعراب عن المعنى الذي أراده. فالجملة الأولى تعجبية، والثانية استفهامية، والثالثة منفية.

ويورد نصاً طويلاً في "باب الخطاب" مزوداً بنماذج تطبيقية حول دلالة الحركات، أو ما يسمى بالصوائت القصيرة التي تدخل في البنية الصرفية للكلمة، فتدل على معنى، إذ يقول: "وللعرب في ذلك ما ليس لغيرها: فهم يفرقون بالحركات وغيرها بين المعاني، يقولون: "مِفْتح" للآلة التي يفتح بها، و"مَفْتح" لموضع الفتح، و"مِقْص" لآلة القص، و "مَقْص" للموضع الذي يكون فيه القص، و "مِحب" لفتح يحلب فيه، و "مَحلب" للمكان يحتلب فيه ذوات اللبن، ويقولون: "امرأة طاهر" من الحيض، لأن الرجل لا يشاركها في الحيض، وطاهرة من العيوب، لأن الرجل يشاركها في هذه الطهارة، وكذلك "قاعد" من الحبل، و "قاعدة" من القعود، ثم يقولون: "هذا غلام أحسن منه رجلاً"، يريدون الحال في شخص واحد، ويقولون: "هذا غلام أحسن من رجل"، فهما إذا شخصان، وتقول: "كم رجلاً رأيت؟ في الاستخبار، و "كم رجلٍ رأيت" في الخبر، يراد به التكثير، و "هن حواج بيت الله" إذا كن قد حججن، و "حواج بيت الله" إذا أردن الحج، ومن ذلك "جاء الشتاء والحطب"، لم يرد أن الحطب جاء، إنما أراد الحاجة إليه، فإن أراد مجيئهما، قال: "والحطب". وفي هذه الأمثلة دليل على أن التغيير في البنية الصرفية يؤدي إلى تغيير في المعنى.

ويتضح مما أوردناه أن الإعراب لم يكن ترفاً لغوياً، وإنما جيء به للدلالة على معانٍ إعرابية، ولو لم يكن كذلك، فلم أظهر المتكلم العربي القديم ذو السليقة اللغوية

هذه الحركات، (الصوائت القصيرة)، فضلا عن العلامات الأخرى من سكون وحذف؟ والإعراب -كذلك- لم يؤت به لاعتدال الكلام أثناء الوصل فحسب، وإنما لهذا وذاك. وإضافة لذلك فالإعراب جزء من النحو، وهو قائم بوجود العامل -غالبا- وحركات الإعراب شرط من شروط الفصاحة العربية في جانبها النطقي والكتابي.

٦- جدوى الإعراب لدى لغويين آخرين:

يرى ابن جني (ت ٣٩٢هـ) أن الإعراب: "هو الإبانة عن المعاني بالألفاظ، ألا ترى أنك إذا سمعت: أكرم سعيد أباه، وشكر سعيدا أبوه، علمت برفع أحدهما ونصب الآخر الفاعل من المفعول، ولو كان الكلام شَرْحاً واحدا لاستبهم أحدهما من صاحبه"، فلم يتضح الفاعل من المفعول به.

ويقول في موضع آخر: "... ولما كانت معاني المسمين مختلفة كان الإعراب الدال عليها مختلفا أيضا، وكأنه من قولهم: عربت معدته، أي فسدت، كأنها استحالت من حال إلى حال، كاستحالة الإعراب من صورة إلى صورة".

ويذهب العكبري (ت ٦١٦هـ) كما ذهب إليه أسلافه، فيقول: "الإعراب عند النحويين هو اختلاف آخر الكلمة لاختلاف العامل فيها لفظا أو تقديرا..." وتردد هذا القول عند من جاء بعده من لغويين ونحاة. والإعراب بمعنى: "أعرب الرجل إذا أبان عما في نفسه، والحركات في الكلام كذلك، لأنها تبين الفاعل من المفعول، وتفرق بين المعاني كما في قولهم: "ما أحسن زيدا، فإنه إذا عري عن الحركات احتل النفي والاستفهام والتعجب، وكذلك قولهم: "ضرب زيد عمرا"، لو عريته من الإعراب لو يفرق الفاعل من المفعول".

أما السيوطي (ت ٩١١هـ) فيرى "أن الإعراب يبين معنى الكلمة كما يبين الإنسان عما في نفسه" ويقول في موضع آخر: "إن الإعراب أزال عن الكلام التباس

معانيه...، لأن المتكلم بغير الإعراب غير متكلم بالعربية، لأن اللغة الفاسدة ليست من العربية... والمعنى على هذا: أن المتكلم بالإعراب موافق للغة العربية". ويرى بعض النحويين أن الإعراب كان أساسه الدخول على الكلمات لإحداث معنى فيها، ولما كان كذلك وجب أن يؤتى بها، ثم يدخلها الإعراب، لأن "المعاني الموجب للإعراب إنما تحدث في الاسم عند تركيبه مع العامل، فالتركيب شرط حصول موجب الإعراب". ومن هنا نتبين أن الكلمات تتحدد وظائفها داخل التركيب.

ظاهرة التصرف في العلامة الإعرابية:

سواء أكانت العلامات الإعرابية ذات دلالة على مذهب النحاة القدامى أم غير دالة بحسب مذهب قطرب المتفرد عن النحاة القدامى، باستثناء إشارة الخليل غير الواضحة، وتذبذب رأي ثعلب، فإن الذي لا خلاف فيه أن النصوص التي وصلتنا خلال مرحلة جمع اللغة، كانت في قمة التصرف الإعرابي، منتظمة في شكل لغوي دقيق، وكان النص القرآني من بعد في غاية هذا التصرف الإعرابي الذي لا يساور فيه الشك إلا جاهلا بالقراءات القرآنية التي يدل تعددها وتباين قرائها بحسب لغات العرب على أوج ما كانت بلغته الظواهر الإعرابية قبل الإسلام.

ويتفق العلماء المهتمون بتاريخ العربية في أنها ظلت تحتفظ بظاهرة التصرف الإعرابي كخاصية من أقدم الخصائص اللغوية التي فقدتها كل أخواتها الساميات عدا لبابلية القديمة.

ومع ذلك فنحن لا ننكر أن بعض القبائل العربية ربما كانت تخرجها هذه الظواهر الإعرابية، وتبدو علامات هذا الإحراج من تلك المحاولات التي نراها في محاولة المتكلم العربي من التحرر من بعض الظواهر الإعرابية، مثلما الحال عند

أهل الحجاز من تصريف "هلم"، لكي لا تظهر فيها مميزات النوع والعدد، وكذا محاولة تميم و طيء ف يالتحرر من ذكر خبر "لا" النافية للجنس إن دل عليه دليل تلافيا لإظهار الإعراب في معمولين لعامل واحد، وقبائل أخرى قصرت الأسماء الممدودة، قد تكون كرهت أن تختتمها بالهمز نفورا من إظهار الحركات الإعرابية.

وعلى خلاف ذلك، فإن ألفاظا كثيرة في بعض التراكيب العربية قد تعرب بأكثر من وجه، مما يدل على سعة العربية وثرائها، ففي الاستثناء المنقطع وحده ما يدل على هذه السعة، من ذلك قراءة ابن كثير وأبي عمرو قوله تعالى: ﴿و لا يلتفت منكم أحدٌ إلا امرأتك﴾، بضم كلمة "امراتك"، وجمهور القراء قرؤوها بالنصب، "فالحجة لمن رفع أنه استثنائها من قوله: ﴿ولا يلتفت منكم أحد﴾. والحجة لمن نصب أنه استثنائها من قوله: ﴿فاسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت﴾... في هذه الآية.

وقرأ جمهور القراء: ﴿ما لهم به من علم إلا إتباع الظن﴾ بنصب "إتباع" و تميم ترجحه، وتجيز الإتياع. وقرأ جمهور القراء: ﴿ما فعلوه إلا قليلٌ منهم﴾. رفع "قليل" على أنه فاعل، على لغة تميم، وتقرئ ابن عامر بنصبه على لغة أهل الحجاز، على أنه مستثنى منصوب. ولا شك أن هذا التصرف الإعرابي يدل على نماء اللغة العربية وسعتها وقابليتها للتطور.

الخاتمة:

لقد اتضح لنا من خلال هذا المبحث المتواضع أن العلامة الإعرابية تحمل دلالة للمتلقي، لأن المتكلم كان يستخدمها لنقل أفكاره، وهي تقتضي تنظيما خاصا في مبنى الجملة. فعلماء المعاني، والوظيفية في الدرس الحديث لا يكتفون بدراسة المباني وحدها، ولا يوقفون نتائج التحليل عند تصنيفها إلى أقسام وصور وتنظيمات

في ظل منهج لفظي استقرائي يتعلق بالمبنى في ذاته، كما يفعل جمهور النحاة في الدرس العربي القديم، وإنما ينظرون في علاقة تلك الصور والتنظيمات بما يمكن أن تقيده من معان بسببها وباقتضاء منها كان ترتيب تلك العناصر النحوية على ما رتبت عليه.

وما أريد أن أشير إليه -كذلك- أن المعاني الوظيفية التي تعبر عنها المباني الصرفية هي في أساسها تتصف بتعدد المعاني: فالمبنى الصرفي الواحد بوسعه أن يعبر عن أكثر من معنى ما دام أنه غير متحقق بعلامة إعرابية ما، وفي سياق ما، فإذا تحقق المعنى بعلامة إعرابية صار تركيباً في معنى واحد بذاته.

الفصل الثاني

المبحث الثالث

تحليل معاني الأدوات الإعرابية عند الخليل بن أحمد
وأسئلة سيبويه لمعلمه في القضايا التحليلية

المبحث الثالث

تحليل معاني الأدوات الإعرابية عند الخليل بن أحمد وأسئلة سيبويه لمعلمه في القضايا التحليلية

أخذ الخليل العلم عن عيسى بن عمر، وأبي عمرو بن العلاء، وعاصم الأحول.

وأخذ عنه سيبويه، والأصمعي، والنضر بن شميل، ومؤرج السدوسي، وعلي الجهمي.

وفي سنة سبعين ومائة - وقيل: سنة خمس وسبعين ومائة - من الهجرة الشريفة إنتقل الخليل بن أحمد الفراهيدي إلى رحمة ربه، وكان عمره أربعاً وسبعين سنة.

وألّف الخليل مؤلفات عدة، منها: كتاب الشواهد، وكتاب العروض، وكتاب الإيقاع والنقط والشكل.

المسألة الأولى: نوع (ما) في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾^١

قال سيبويه: "وسألته عن قوله عزوجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ فقال: (ما) ههنا بمنزلة (الذي)، ودَخَلْتُهَا اللام كما دَخَلْتُ على (إِنْ) حين قلت: والله لئن فعلت لأفعلن، واللام التي في (ما) كهذه التي في (إِنْ)، واللام التي في الفعل كهذه التي في الفعل هنا.^٢

^١ - آل عمران: ٨١

^٢ - الكتاب: ١٠٧/٣

للنحويين اختلاف في نوع (ما) في (لما آتيتكم) من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَضْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَفَرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ ، وكان الخليل مِنْ أوائل مَنْ بَيَّن نوع (ما) في هذه الآية، وفيما يأتي عرض لأقوال النحويين عامة في المسألة:

القول الأول: أنها (ما) الموصولة، و (آتيتكم) صلتها، والعائد محذوف، والتقدير: آتيتكموه. وهو قول الخليل^١ وسيبويه^٢ والأخفش^٣ ومكي بن أبي طالب^٤.
القول الثاني: أنها (ما) الشرطية، وهي في محل نصب بـ (آتيتكم)، وقدمت لأن أدوات الشرط من الأدوات التي لها الصدر في الكلام. وهو قول الكسائي^٥ والفراء^٦ والمازني^٧ والفارسي^٨ وابن جني^٩.
وقد عُرِي هذا القول إلى الزجاج^{١٠}، لكنه في (معاني القرآن وإعرابه) أجاز كلا الوجهين السابقين^{١١}، كما أجازهما من المتأخرين الزمخشري^{١٢}، وأبو البركات الأنباري^{١٣}.

^١ - ينظر: الكتاب: ١٠٧/٣، إعراب القرآن للنحاس: ٣٩١/١، سر صناعة الإعراب: ٣٩٩/١

^٢ - ينظر: البحر المحيط: ٢٣٨/٣، الدر المصون: ١٥٢/٢.

^٣ - ينظر: معاني القرآن: ٢٠٩/١، إعراب القرآن للنحاس: ٣٩١/١

^٤ - ينظر: مشكل إعراب القرآن: ١٦٥/١

^٥ - ينظر: إعراب القرآن: ٣٩١/١، البحر المحيط: ٢٣٧/٣، الدر المصون: ١٥٣/٢

^٦ - ينظر: معاني القرآن: ٢٢٥/١

^٧ - ينظر: البحر المحيط: ٢٣٨/٣، الدر المصون: ١٥٣/٢

^٨ - ينظر: الحجة: ٦٦/٣، الفريد: ٥٩٥/١، البحر المحيط: ٢٣٨/٢

^٩ - ينظر: سر صناعة الإعراب: ٣٩٩/١

^{١٠} - ينظر: البحر المحيط: ٢٣٨/٣، الدر المصون: ١٥٣/٢

^{١١} - ينظر: معاني القرآن وإعرابه: ٤٣٦/١

^{١٢} - ينظر: الكشف: ٤٤١/١

^{١٣} - ينظر: البيان: ٢٠٩/١

القول الثالث: أن (ما) في الآية زائدة. وهو قول ابن خالويه.^١

القول الرابع: أن (لَمَّا) أصلها (لَمَّا) المشددة، وهي ظرف مضمن معنى الشرط.

وعزا أبو حيان^٢ والسمين الحلبي هذا القول إلى الزجاج.^٣

وعندي أن القول الذي جمع بين القول الأول والقول الثاني فأجازهما كليهما رأي جدير بالقبول؛ لوجهة هذين الإعرابين وقوتهما، أما القول الثالث - وهو قول ابن خالويه - فإنه ضعيف؛ لأن فيه حملاً لشيء من القرآن على الزيادة مع إمكان حملة على غير ذلك دون ضعف، كما أن الأصل عدم الزيادة، فلا يلجأ إلى القول بها إلا لحاجة ملحة، ولا حاجة هنا تدعو إلى الحكم عليها بالزيادة، فلزم ترك ذلك.

المسألة الثانية: معنى (أَنَّ) في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا

يُؤْمِنُونَ﴾^٤

قال سيبويه: "وسألته عن قوله عزوجل: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾... وأهل المدينة يقولون: (أنها)، فقال الخليل: هي بمنزلة قول العرب: ائت السوق أنك تشتري لنا شيئاً؛ أي: لملك، فكأنه قال: لعلها إذا جاءت لا يؤمنون.^٥

ذكر النحويون أن هذه الآية من الآيات المشككة في القرآن؛ لأنه لا يصح أن تحمل الآية على ظاهرها، فتجعل (أنها) مؤكدة، وتكون معمولة لـ (يشعركم)، لأنه لو كان ذلك لترتب عليه محذور في المعنى، وهو أن ذلك يكون عذراً لمن قال: إن أولئك القوم لن يؤمنوا بعد مجيء الآيات والمعجزات لهم، قال تعالى في الآية نفسها قبل هذا المقطع: ﴿وَأَفْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنِ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ

^١ - إعراب القراءات السبع: ١١٦/١

^٢ - ينظر: البحر المحيط: ٢٣٩/٣

^٣ - ينظر: الدر المصون: ١٥٣/٢

^٤ - الأنعام: ١٠٩

^٥ - الكتاب: ١٢٣/٣

اللَّهُ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾، والأمر بخلاف ذلك؛ إذ الآية نزلت لتوبخ من قال بذلك.^١

ولما سبق ذكره فقد اجتهد النحويون والمفسرون في توجيه هذه الآية، ولهم في ذلك أقوال خمسة، هي:

القول الأول: أن (أَنَّ) ليست على معناها الأصلي، وهو التوكيد، وإنما هي بمعنى (لعل) وقد ورد عن العرب استعمالهم لها في هذا المعنى، ومن ذلك قومهم: ائت السوق أنك تشتري لنا شيئاً؛ أي: لعلك تشتري، وعلى هذا يكون المعنى: وما يشعركم لعلها إذا جاءت لا يؤمنون. وهو قول الخليل^٢ وسيبويه^٣ والأخفش^٤ والنحاس^٥ والنحاس^٥ ومكي^٦، واختاره الزجاج^٧، وعليه جماعة من المتأخرين^٨، كما أجازوه الفراء الفراء من الكوفيين، وقد عزاه السيرافي إلى الكسائي^٩.

^١ - ينظر: شرح كتاب سيبويه للسيرافي: ٢٢/٤ ب، التعليقة: ٢٣٥/٢، شرح الرماني: ٢٤٦ (رسالة د/إبراهيم آل موسى)، الدر المصون: ١٥٤/٣.

^٢ - ينظر: الكتاب: ١٢٣/٣، الأصول: ٢٧١/١، شرح كتاب سيبويه للسيرافي: ٢٢/٤ ب، التعليقة: ٢٣٦/٢، الحجة: ٣٨٠/٣، شرح كتاب سيبويه للرماني: ٢٤٦ (رسالة د/إبراهيم آل موسى)، إعراب القراءات السبع: ١٦٧/١.

^٣ - عزاه إليه ابن أبي الربيع، وليس له نص صريح في ذلك، وقد يكون فهمه من سؤاله الخليل، وعدم اعتراضه له، وعد ذلك تقريراً له، ينظر: البسيط في شرح جمل الزجاجي: ٧٦٣/٢.

^٤ - ينظر: معاني القرآن: ٢٨٥/٢.

^٥ - ينظر: الكشف عن وجوه القراءات: ٤٤٤/١.

^٦ - ينظر: الدر المصون: ١٥٥/٣، مغني اللبيب: ٣٣١.

^٧ - ينظر: شرح المفصل لان يعيش: ٨٧/٨، الفريد: ٢١١/٢، البسيط في شرح جمل الزجاجي: ٤٤٣/١، الدر المصون: ١٥٤/٣.

^٨ - ينظر: معاني القرآن: ٣٥٠/١، شرح كتاب سيبويه للسيرافي: ٢٢/٤ ب.

^٩ - ينظر شرح كتاب سيبويه للسيرافي: ٢٢/٤ ب.

وقد عزا السمين الحلبي^١ إلى الفارسي تضعيف هذا القول، مع أن الفارسي قد أجازته كما سيأتي.

القول الثاني: أن (أنّ) على بابها وهو التوكيد، و (لا) في (لا يؤمنون) زائدة، وعليه يكون المعنى: وما يشعركم أنها إذا جاءت يؤمنون. وهو قول الكسائي^٢ والفراء^٣، وعزا ابن هشام هذا القول إلى الخليل^٤، كما عزا هو وابن أبي الربيع إلى الفارسي^٥، وقد أخذ به ابن كثير من المفسرين المتأخرين^٦.

القول الثالث: أن كلا القولين السابقين جائز وسائغ. وهو قول الفارسي^٧ وأبي البركات الأنباري^٨.

القول الرابع: أن (أنّ) على بابها، و (لا) ليست زائدة، ومعنى الآية: وما يدركم عدم إيمانهم، وهذا جواب لمن حكم عليهم بالكفر بالآيات، ويؤس من إيمانهم^٩. واختار هذا القول أبو حيان^{١٠}.

القول الخامس: أن في الكلام حذفاً لجملة مع عاطفها، والتقدير: وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون أو يؤمنون، وهو قول لبعض النحويين^{١١}.

^١ - ينظر: الدر المصون: ١٥٥/٣

^٢ - ينظر: إعراب القرآن: ٩٠/٣، البحر المحيط: ٦١٥/٤، الدر المصون: ١٥٥/٣.

^٣ - ينظر: معاني القرآن: ٣٥٠/١، حجة القراءات: ٢٦٦، البحر المحيط: ٤١٥/٤، الدر المصون: ١٥٥/٣.

^٤ - ينظر: مغني اللبيب: ٣٣١

^٥ - ينظر: البسيط في شرح جمل الزجاجي: ٧٦٤/٢، مغني اللبيب: ٣٣١

^٦ - ينظر: تفسير القرآن العظيم: ١٥٧/٣

^٧ - ينظر: الحجة: ٣٨٠/٣

^٨ - ينظر: البيان: ٣٣٤/١

^٩ - القول بلا عزوفي: التبيان: ٥٣١/٢، الفريد: ٢١٢/٢

^{١٠} - ينظر: البحر المحيط: ٦١٥/٤

^{١١} - القول بلا عزوفي: الدر المصون: ١٥٦/٣

والقول الراجح من الأقوال السابقة هو القول الأول القائل بأن (أن) في الآية

بمعنى (لعل)، يدل على ذلك ما يأتي:

١- أن أبي بن كعب - رضي الله عنه - كان يقرأها: ﴿لوما يشعركم لعلها إذا﴾

جاءت لا يؤمنون^١، ومن المعلوم أن القراءات يؤيد بعضها بعضاً.

٢- أنه ورد عن العرب الكثير من الشواهد التي تدل على شيوع استعمال (أن)

بمعنى (لعل)^٢، وقد ذكر السيرافي شواهد حكاهما الكسائي عن العرب تدل على ذلك^٣،

ذلك^٣، ولا عجب في ذلك فحروف المعاني كثيراً ما تأتي لِمَعَانٍ أخرى غير معانيها الأصلية.

وإضافة إلى ما سبق فإن في حملها على معناها الأصلي وهو التوكيد مانعاً

معنوياً كما سبق، فإذا تعذر حملها على معناها الأصلي ترجح القول القائل بأنها جاءت بمعنى (لعل).

أما الأقوال الأخرى فعندي أنها أقوال مرجوحة؛ لأن فيها تكلفاً، سواء بتقدير

محذوفات، أو بالحكم بالزيادة على شيء من القرآن الكريم مع إمكان حمله على غير ذلك دونما ضعف.

المسألة الثالثة: إعراب (أسفل) في قوله تعالى: ﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ۖ﴾^٤

قال سيبويه: "وسألته عن قوله: زيد أسفل منك؟ فقال: هذا ظرف، كقوله

عزوجل: ﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ كأنه قال: زيد في مكان أسفل من مكانك"^٥.

^١ - ينظر: الفريد: ٢/٢١١، الدر المصون: ٣/١٥٥

^٢ - ذكر السمين الحلبي شواهد كثيرة على مجيء (أن) بمعنى (لعل)، ينظر: الدر المصون: ٣/١٥٦

^٣ - ينظر: شرح كتاب سيبويه: ٤/٢٢ب.

^٤ - الأنفال: ٤٢

^٥ - الكتاب: ٣/٣٨٩

ذكر سيبويه أنه سأل شيخه الخليل عن الناصب لـ (أسفل) في قوله تعالى:
﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ فأجابه بأنه منصوب
على الظرفية، وهو في الأصل نعت لمنعوت محذوف، حُذف المنعوت، وأقيم النعت
مقامه في الإعراب، والتقدير: والركب مكاناً أسفل منكم.^١

وقد أخذ بهذا التوجيه الذي ذهب إليه الخليل جميع من وقفت على إعرابه لهذه
الكلمة من النحويين والمعرّبين، متقدميهم ومتأخريهم.^٢

المسألة الرابعة: علة فتح همزة (أَنْ) في قوله عزوجل: ﴿فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا

فِيهَا﴾^٣

قال سيبويه: " ومما جاء مبدلاً من هذا الباب: ﴿أَيَعِدْكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ
وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْتُمْ تُخْرَجُونَ﴾^٤، فكأنه على: أيعدكم أنكم مخرجون إذا متم ... وزعم
الخليل أن مثل ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ
جَهَنَّمَ﴾^٥.

تعددت توجيهات النحويين والمعرّبين لفتح همزة (أَنْ) الثانية في قوله تعالى:
﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ۖ ذَلِكَ الْخُزْيُ الْعَظِيمُ﴾، وقال

^١ - ينظر: الكتاب: ٣/٣٨٩، شرح كتاب سيبويه للسيرافي: ٤/١١٥ب، شرح كتاب سيبويه للرماني:
٩٩٧ (رسالة د/إبراهيم آل موسى)

^٢ - ينظر: الكتاب الآتية: معاني القرآن للفراء: ١/٤١١، معاني القرآن للأخفش: ٢/٣٢٣، معاني القرآن
وإعرابه: ٢/٤١٧، إعراب القرآن: ٢/١٨٨، مشكل إعراب القرآن: ١/٣١٤، كشف المشكلات:
١/٥٠٢، البيان: ١/٢٨٨، البسيط في شرح جمل الزجاجي: ١/٥٠٥، الدر المصون: ٣/٤٢٢

^٣ - التوبة: ٦٣

^٤ - المؤمنون: ٣٥

^٥ - الكتاب: ٣/١٣٢

نقل سيبويه قول الخليل في هذه المسألة، وفيما يأتي عرض لقوله مع أقوال غيره من النحويين:

القول الأول: أن (أن) فتحت في الآية: لأنها بدل من (أنّ) الأولى (أنه من يحادد). وهو قول الخليل^١ وسيبويه^٢.

القول الثاني: أنها فتحت؛ لأنها وما دخلت عليه في تأويل مصدر مرفوع، وهو مبتدأ محذوف خبره. وهو قول الأخفش^٣ والزمخشري^٤ وأبي حيان^٥ والسمين الحلبي^٦، الحلبي^٦، وأجاز هذا القول السيرافي^٧.

القول الثالث: أنها فتحت؛ لأنها كررت تأكيداً لـ (أنّ) الأولى. وهو قول الجرمي^٨ والمبرد^٩ والزجاج^{١٠} وابن يعيش^{١١}، وأجازه أيضاً السيرافي^{١٢}.

القول الرابع: أنها فتحت؛ لأنها وما دخلت عليه في تأويل مصدر جاء خبراً لمتدأ محذوف. وهو قول الأخفش الأصغر^{١٣} وابن الناظم^{١٤}.

^١ - ينظر: الكتاب: ١٣٣/٢، إعراب القرآن: ٢٢٤/٣، وقد ضعف السمين الحلبي نسبة هذا القول إلى سيبويه، ينظر: الدر المصون: ٤٧٩/٢

^٢ - ينظر: الانتصار: ١٨٨، إعراب القرآن: ٢٢٤/٢، المسائل البصريّات: ٦٧٥/١، مشكل إعراب القرآن: ٣٣٢/١

^٣ - ينظر: معاني القرآن: ٣٣٤/٢

^٤ - ينظر: الكشف: ١٩٩/٢، البحر المحيط: ٤٥١/٥، الدر المصون: ٤٨٠/٣

^٥ - ينظر البحر المحيط: ٤٥١/٥

^٦ - ينظر: الدر المصون: ٤٨٠/٣

^٧ - ينظر: شرح كتاب سيبويه: ٢٩/٤ ب.

^٨ - ينظر: المقتضب: ٣٥٦/٢، المسائل البصريّات: ٦٧٣/١، مشكل إعراب القرآن: ٣٢٢/١

^٩ - ينظر: المقتضب: ٣٥٦/٢، الانتصار: ١٨٩، إعراب القرآن: ٢٢٤/٢

^{١٠} - ينظر: معاني القرآن وإعرابه: ٤٥٩/٢

^{١١} - ينظر: شرح المفصل: ٦٨/٢

^{١٢} - ينظر: شرح كتاب سيبويه: ٢٩/٤ ب.

^{١٣} - ينظر: إعراب القرآن: ٢٢٥/٢، مشكل إعراب القرآن: ٣٣٢/١، البيان: ٤٠٢/١.

^{١٤} - ينظر: شرح ابن الناظم: ١٢٠

والذي يظهر لي أن القول الراجح في هذه المسألة هو القول الأول ثم القول الثالث؛ لبعدهما عن التكلف، وقوتهما في المعنى، كما أنهما لا يحتاجان إلى تقدير، خلافاً للقولين الآخرين.

المسألة الخامسة: إعراب لفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ﴾^١
قال سيبويه: "و﴿كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ إنما هي: كفى الله، ولكنك لما دخلت الماء عَمِلْتُ... وهذا قول الخليل رحمه الله".^٢

للنحويين مذهبان في فاعل الفعل (كفى) وإعراب لفظ الجلالة (الله) في نحو قوله سبحانه: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ وفيما يأتي عرض لذينك القولين:
الأول: أن الباء الداخلة على لفظ الجلالة حرف جر زائد عمل الجر في اللفظ، أما محله فهو رفع؛ لأنه فاعل لـ (كفى)، والتقدير: كفى الله وهو قول جمهور النحويين كالخليل^٣ وسيبويه^٤ والزجاج^٥ وابن جني^٦ وغيرهم.^٧
القول الثاني: أن فاعل (كفى) مصدر محذوف، والجار والمجرور (بالله) متعلق بهذا المصدر، والتقدير: كفى كفايتي أو اكتفائي بالله، فحذف لدلالة الفعل (كفى) عليه. وهو قول ابن السراج.^٨

^١ - الإسراء: ٩٦

^٢ - الكتاب: ٩٢/١

^٣ - ينظر: الكتاب: ٩٢/١، شرح كتاب سيبويه للسيرافي: ١٩٩/١ ب.

^٤ - ينظر: الأصول: ٣٦٠/٢، سر الصناعة: ١٤٣/١

^٥ - ينظر: معاني القرآن وإعرابه: ٢٦١/٣

^٦ - ينظر: سر الصناعة: ١٤٢/١

^٧ - ينظر: شرح كتاب سيبويه للسيرافي: ١٩٩/١ ب، مشكل إعراب القرآن: ٤٣٥، كشف المشكلات:

٧٢٣/٢، الفريد: ٢٠١/٣، شرح التسهيل للمرادي: ٦٤٣، شرح ألفية ابن مالك للأندلسي: ١٨٣/٣،

التصريح: ٨٩/٣

^٨ - ينظر: الأصول: ٢٦٠/٢، سر الصناعة: ١٤٢/١.

وضعف ابن جني هذا القول بأن المحذوف مصدر، وهو الاكتفاء، ولا يصح حذف الموصول وإقاء صلته^١.

وعندي أن القول الأول هو القول الراجح؛ لأنه لا يحتاج إلى تقدير محذوف، كما أن مجيء الفاعل مجروراً بحرف جر زائد ليس بدعاً ولا شاذاً، فها هو ذا فاعل فعل التعجب (أفعل) فإنه هو الاسم المجرور بالباء الزائدة بعده^٢، أما القول الآخر فسمّة التكلف فيه ظاهرة، لو لم يكن فيه ما يضعفه، فكيف وفيه هذا المأخذ الذي أخذ به ابن جني عليه.

المسألة السادسة إعراب (بكرة) في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾^٣ قال سيبويه: "وزعم الخليل أنه يجوز أن تقول: آتيتك اليوم غدوةً وبكرةً، تجعلها بمنزلة ضحوة، وزعم أبو الخطاب أنه سمع من يوثق به من العرب يقول: آتيتك بكرةً، وهو يريد الإتيان في يومه أو في غده، ومثل ذلك قول الله عز وجل: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾. هذا قول الخليل"^٤.

ذكر سيبويه أن الخليل يجيز أن يقال: آتيتك اليوم غدوةً وبكرةً، تجعلها منونتين، ويفهم من ذلك أنهما منصوبان على الظرفية، وهذا ما لمحّه السيرافي^٥ وابن خروف^٦ خروف^٦ في كلا سيبويه الذي حكاه عن شيخه، الذي حمل الخليل على ذلك (بكرة) في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾.

^١ - ينظر: سر الصناعة: ١٤٢/١.

^٢ - ينظر: شرح التسهيل للمراي: ٦٤٣، شرح الفية ابن مالك للأندلسي: ١٨٣/٣، التصريح: ٨٩/٢.

^٣ - مريم: ٦٢.

^٤ - الكتاب: ٢٩٤/٣.

^٥ - ينظر: شرح كتاب سيبويه: ١٢٧/٤ ب.

^٦ - تنقيح الألباب: ٣٧٤.

وبناء على ذلك يستتب أن الخليل يرى أن (بكرة) في الآية منصوبة على الطرفية، وقد قال بهذا القول كل من وقفت على إعرابه لهذه الكلمة، مع قلة المعربين الذين تعرضوا لذلك^١، فلم يشأ أكثرهم الإشارة إليه أصلاً لوضوحه.

المسألة السابعة: العلة في مجيء ما لا يعقل في بعض الآيات منزلاً منزلة مَنْ يعقل.

قال سيبويه: " وأما: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾^٢ و ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾^٣ و ﴿يَا أَيُّهَا النَّملُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾^٤ فَرَعَمَ أنه بمنزلة ما يعقل ويسمع، لما ذكرهم بالسجود، وصار وصار النمل بتلك المنزلة حين حَدَّثَتْ عنه كما تُحَدِّثُ عن الأناسي، وكذلك ﴿فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ لأنها جُعِلَتْ - في طاعتها وفي أنه لا ينبغي لأحد أن يقول: مُطَرْنَا بِنُوءٍ كذا، ولا ينبغي لأحد أن يعبد شيئاً منها - بمنزلة ما يعقل من المخلوقين ويُبصر الأمور^٥.

ورد في القرآن الكريم بعض الآيات التي فيها حديث عن أشياء لا تَعْقِلُ، واستعمل لها ما يُستعمل للعقلاء، وقد أشكل ذلك على سيبويه، ففرع إلى شيخه الخليل يسأله عن تلك الآيات، وهي: قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾، وقوله عز وجل: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ مَلَكَةٌ يَا أَيُّهَا النَّملُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فأجابه الخليل بأن ما لا يعقل في هذه الآيات نُزِلَ منزلة ما يعقل ويسمع؛ بسبب أنه ذُكر له أوصاف تختص بالعقلاء،

^١ - ينظر: معاني القرآن وإعرابه: ٢٣٧/٣، إعراب القرآن: ٢٢/٣، البحر المحيط: ٢٨١/٧

^٢ - الأنبياء: ٣٣

^٣ - يوسف: ٤

^٤ - النمل: ١٨

^٥ - الكتاب: ٤٧/٢

ففي الآية الأولى لما أطاعت تلك المخلوقات - وهي الشمس والقمر والليل والنهار - خالقها جعلت كمن يعقل، وفي الآية الثانية لما سجدت الشمس والقمر والكواكب كانت كمن يعقل، فعوملت معاملته، وفي الآية الثالثة لما تحدثت تلك النملة مع باقي النمل بحديث العقلاء نزلن منزلتهم^١.

وقد وافق النحويون والمعربون ممن وقفت على تخريجهم لهذه الآي الخليل في هذا التوجيه^٢، وعزا النحاس هذه التوجيهات إلى الخليل وسيبويه^٣.

وقد ذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى أن العرب قد تستعمل لما لا يعقل ما تستعمله للعقلاء، وأطلق القول في ذلك، ولم يذكر له علة كما فعل الخليل، وأورد شواهد على ذلك من الشعر وبعض الآيات، منها الآيات السابقة^٤.

وعليه فقد يكون أبو عبيدة يجيز ذلك دون تقييد؛ لأن العرب قد استعملته، خلافا لغيره من النحويين الذي يظهر من رأيهم في المسألة أنه يقصرونه على المسموع، ويبحثون عن تعليل لما ورد من ذلك المسموع يعيده إلى الحكم النحوي الرئيس في المسألة.

المسألة الثامنة: علة فتح همزة (إِنَّ) في قراءة من قرأ: {وَأَنْ هَذِهِ أُمّتُكُمْ أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون}.{.

^١ - ينظر: الكتاب: ٤٧/٢، إعراب القرآن: ٢١٣/٢، شرح كتاب سيبويه للسيرافي: ١٢٨/٦ (مطبوع)
^٢ - ينظر على سبيل المثال: معاني القرآن للفراء: ٣٥/٢، معاني القرآن للأخفش: ٣٦١/٢، معاني القرآن وإعرابه: ٩١/٣، ٣٩١، إعراب القرآن: ٣١٣/٢، مشكل إعراب القرآن: ٣٧٨/١، الكشف: ٣٠٢/٢، أمالي ابن الشجري: ٢٠٣/١، البيان: ٢٣/٢، الفريد: ٢٨/٣، ٤٨٦، البسيط في شرح جمل الزجاجي: ٢٦٩/١، الدر المصون: ١٥٣/٤
^٣ - ينظر: إعراب القرآن: ٣١٣/٢
^٤ - ينظر: مجاز القرآن: ٣٨/٢

قال سيبويه: "وسألت الخليل عن قوله جل ذكره: {وَأَن هَذِهِ أُمَّتُكُمْ وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ} فقال: إنما هو على حذف اللام، كأنه قال: لأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون".^٢

قرآن نافع وابن كثير وأبو عمرو بن العلاء من السبعة بفتح همزة (أَنَّ) في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾.^٣، وقد سأل سيبويه شيخه عن توجيه هذه القراءة فأجابه عن ذلك، ولم يقتصر النحويون على ما ذهب إليه الخليل، وإنما زادوا توجيهات أخرى، وفيما يأتي إيراد لأقوال النحويين والمعرّبين في علة فتح همزة (إن) في هذه القراءة:

القول الأول: أن هناك لاماً محذوفة قبل (إن) والتقدير: لأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون. وهو قول الخليل^٤، وعزي إلى سيبويه^٥، كما عزي إلى البصريين^٦، وأخذ به جماعة، منهم مكي ابن أبي طالب^٧ والزمخشري^٨ والباقولي^٩ وأبو حيان^{١٠}، وأجازه ابن خالويه^{١١}.

^١ - المؤمنون: ٥٢

^٢ - الكتاب: ١٢٦/٣

^٣ - وينظر: السبعة: ٤٤٦، الكشف عن وجوه القراءات: ١٢٩/٢، الإقناع: ٧٠٨/٢

^٤ - ينظر: الكتاب: ١٢٦/٢، الأصول: ٢٧١/١، شرح كتاب سيبويه للسيرافي: ٢٥/٤ ب، التعليقة:

٢٣٩/٢، الحجة: ٢٩٧/٥، شرح كتاب سيبويه للرماني: ٢٦٦ (رسالة د. إبراهيم آل موسى)، حجة

القراءات: ٤٨٨، شرح عين كتاب سيبويه: ١٨٨

^٥ - ينظر: الحجة: ٢٩٧/٥

^٦ - ينظر: إعراب القرآن: ١١٦/٣

^٧ - ينظر: الكشف: ١٢٩/٢

^٨ - ينظر: الكشف: ٣٤/٣

^٩ - ينظر: كشف المشكلات: ٩٢٩/٢

^{١٠} - ينظر: البحر المحيط: ٧/٥٦٦

^{١١} - ينظر: إعراب القراءات السبع: ٩١/٢

القول الثاني: أن (أنّ) وما دخلت عليه معطوفة على (ما تعلمون)، والتقدير: إني ما تعملون عليهم وبأن هذه أمتكم واحدة^١. وهو قول الكسائي^٢ وأحد قولي الفراء^٣، واختاره ابن خروف من المتأخرين^٤.

القول الثالث: أن في الكلام حذفاً، والتقدير: واعلموا أن هذه أمتكم واحدة^٥. وهو القول الآخر من قولي الفراء^٦، وأجازه ابن خالويه^٧ من المتقدمين، وابن طاهر^٨ طاهر^٩ من المتأخرين.

ويترجح عندي القول الأول، ثم يليه القول الثاني، أما القول الثالث فهو مرجوح؛ للجوئه إلى تقدير جملة محذوفة، مع أنني لا أرى مسوغاً لذلك لا من جهة المعنى ولا من جهة الصناعة النحوية؛ بدليل أن أصحاب القول الأول والثاني لم يلجؤوا إلى القول بالحذف؛ لأنهم رأوا أن الآية مستقيمة معنى وصناعة من غير حاجة إلى تقدير محذوف.

المسألة التاسعة: الجازم لـ (يضاعف) في قوله سبحانه: ﴿يُضَاعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^٩

قال سيبويه: "وسألته عن قوله جل وعز: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا، يُضَاعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾. فقال: هذا كالأول؛ لأن مضاعفة العذاب هو لُقْيُ الآثام^١.

^١ - القول بلاعزوفي: التبيان: ٩٥٦/٢، الفريد: ٥٦٩/٣، الدر المصون: ١٩١/٥

^٢ - ينظر: إعراب القرآن: ١١٦/٣، البيان: ١٨٦/٢

^٣ - ينظر: معاني القرآن: ٢٣٧/٢، إعراب القرآن: ١١٦/٣

^٤ - ينظر: تنقيح الألباب في شرح غوامض الكتاب: ٢١٨

^٥ - القول بلاعزوفي: التبيان: ٩٥٦/٢، الفريد: ٥٦٩/٣، الدر المصون: ١٩١/٥

^٦ - ينظر: معاني القرآن: ٢٣٧/٢، إعراب القرآن: ١١٦/٣، البيان: ١٨٦/٢

^٧ - ينظر: إعراب القراءات السبع: ٩١/٢

^٨ - ينظر: تنقيح الألباب في شرح غوامض الكتاب: ٢١٨

^٩ - الفرقان: ٦٨

ذكر سيبويه أنه سأل شيخه الخليل عن سبب جزم الفعل (يضاعف) في قوله عز وجل : ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا، يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ فأخبره الخليل بأن (يضاعف) جزم؛ لأنه بدل من الفعل (يلق) جزم لمجيئه جواباً للشرط، فلقى الأثام هو مضاعفة العذاب.^٢

وقد وافق الخليل جميع من وقفت على آرائهم من النحويين والمفسرين في هذا التوجيه الإعرابي للآية.^٣

المسألة العاشرة: أصل (ويكأن)

قال سيبويه: "وسألتُ الخليل - رحمه الله تعالى - عن قوله: ﴿وَيَكُنَّ لَا يُفْلِحُ﴾^٤، وعن قوله تعالى جده: و ﴿وَيَكُنَّ اللَّهُ﴾ فزعم أنها (وي) مفصولة من (كأن)، والمعنى: وقع على أن القوم انتبهوا، فتكلموا على قدر علمهم، أو نُبِّهوا فقليل لهم: أما يُشِبِّه أن يكون هذا عندكم هكذا"^٥.

اختلف النحويون في أصل (ويكأن) على أقوال، وكان الخليل من أوائل من تعرض لهذه المسألة إذ سألها عنها سيبويه كما في نصه السابق؛ لأنها وردت في قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكُنَّ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ

^١ الكتاب: ٣٨٧

^٢ - ينظر: الكتاب: ٨٧/٢، شرح كتاب سيبويه للسيرافي: ٢٤٤/٣

^٣ - ينظر: معاني القرآن: ٨٦/٤، إعراب القرآن: ١٦٨/٣، الحجة: ٣٥٠/٥، إعراب القراءات السبع:

١٢٦/٢، وحجة القراءات: ٥١٤، مشكل إعراب القرآن: ٥٢٦/٢، الكشف: ١٠١/٣، البيان:

٢٠٧/٢، التبيان: ٩٩١/٢، الفريد: ٦٤٢/٣، تفسير النسفي: ٢٥٦/٣، البحر المحيط: ١٣١/٨،

الدر المصون: ٢٦٤/٥

^٤ - القصص: ٨٢

^٥ - الآية نفسها

^٦ - الكتاب: ١٥٤/٢

عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيُكَأِّنُهُ لَا يَفْلَحُ الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ وفيما يأتي

عرض لجميع الأقوال التي قيلت فيها بما فيها قول الخليل:

القول الأول: أن (ويكأن) مركبة من (وي)، و(كأن). وهو قول الخليل^١

وسيبيويه^٢ وابن قتيبة^٣ والزجاج^٤ وابن فارس^٥، كما عزي هذا القول إلى الكسائي^٦ ويونس^٧، وقد أجازاه الفراء^٨.

واستدل ابن قتيبة لهذا القول بأنه ورد عن ابن عباس أنه قال في تفسيرها: كأن

الله يبسط الرزق لمن يشاء، كأنه لا يفلح الكافرون^٩.

ووجه استدلال ابن قتيبة بهذا التفسير أن (كأن) في (ويكأن) هي التي للتشبيه،

وليست كما قال أصحاب القولين الآخرين من أنها (أن) ركبت مع غيرها.

وقد تطرق مؤلف كتاب (العين) إلى هذه المسألة، فذكر أن (ويكأن) مركبة من

(وي) و (كأن)^{١٠}، وهو نفسه هذا القول.

القول الثاني: أنها مركبة من (ويك) و (أن)، وهي بمجملها كلمة تقال للتقرير،

كقولك: أما ترى؟ وهو قول الكسائي^{١١}، وأبي زيد الأنصاري^{١٢}، وعزي هذا القول إلى

^١ - ينظر: الكتاب: ١٥٤/٢، معاني القرآن وإعرابه: ١٥٧/٤، الأصول: ٢٥١/١، إعراب القرآن للنحاس: ٢٤٤/٣، مشكل إعراب القرآن: ٥٤٨/٢، أمالي ابن الشجري: ١٨٣/٢، شرح المفصل لابن يعيش: ٧٦/٤، مغني اللبيب: ٤٨٣

^٢ - ينظر: الكتاب: ١٥٤/٢، شرح المفصل: ٧٦/٤

^٣ - ينظر: تأويل مشكل القرآن: ٥٢٦

^٤ - ينظر: معاني القرآن وإعرابه: ١٥٧/٤

^٥ - ينظر: الصاحبى: ٢٨٤

^٦ - ينظر: إعراب القرآن: ٢٤٤/٣، أمالي ابن الشجري: ١٨٣/٢

^٧ - ينظر: معاني القرآن وإعرابه: ١٥٧/٤، أمالي ابن الشجري: ١٨٣/٢

^٨ - ينظر: معاني القرآن: ٣١٢/٢

^٩ - ينظر: تأويل مشكل القرآن: ٥٢٧

^{١٠} - ينظر: ٤٤٣/٨

^{١١} - ينظر: تأويل مشكل القرآن: ٥٢٦

الأخفش^٢. وقد عزاه سيبويه إلى المفسرين^٣. وضعف الزجاج^٤ وابن جني^٥ هذا القول. القول الثالث: أن (ويكأن) مركبة من (ويك)، وأصلها: ويك، يقال للتقريع، و (أن)، وقد فتحت همزتها؛ لوجود فعل مضمر قبلها، والتقدير: ويك اعلم أنه لا يفلح الكافرون. وهو قول الفراء^٦، وعزي إلى الكسائي^٧.

وعندي أن القول الأول هو القول الراجح؛ لأن ترجمان القرآن ابن عباس - رضي الله عنه - قد فسرهما بما يؤيد هذا القول كما سبق، ويلي هذا القول في القوة القول الثاني، أما القول الثالث ففيه ضعف؛ لأن فيه من التمثل ما لا يخفى لى المتأمل، فهو من جهة يذكر أن هناك حذفاً للام (ويك) فصارت (ويك)، ومن جهة أخرى يقدر فعلاً من فاعله بعد (ويك) وقبل (أن) تسويغاً لفتح همزتها، ومما يقدح في هذا القول: أن الرسم القرآني قد جاء بوصل كلمة (ويكأن)، ولو كانت (أن) معمولة لفعل مقدر للزم فصلها عن (ويك).

المسألة الحادية عشرة: نوع (ما) في الآية الكريمة

قال سيبويه: "وقال الخليل مثله: {إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ} ^٨ ف (ما) ههنا بمنزلة (أيهم)، و (يعلم) معلقة"^٩.

^١ - ينظر: صاحب: ٢٨٢

^٢ - ينظر: شرح المفصل لابن يعيش: ٧٧/٤، مغني اللبيب: ٤٨٣

^٣ - ينظر: الكتاب: ١٥٤/٢

^٤ - ينظر: معاني القرآن وإعرابه: ١٥٦/٤

^٥ - ينظر: المحتسب: ١٥٦/٢

^٦ - ينظر: معاني القرآن: ٣١٢/٢، إعراب القرآن: ٢٤٤/٣، مشكل إعراب القرآن: ٥٤٨/٢

^٧ - ينظر: الخصائص: ٤٠/٣

^٨ - العنكبوت: ٤٣، وهذه هي قراءة الجمهور (تدعون) بالتاء، أما عاصم وأبو عمرو ابن العلاء فقد قرأها بالياء (يدعون)، ينظر: التيسير: ١٤١، الإقناع: ٧٢٧/٢، النشر: ٣٤٣/٣

^٩ - الكتاب: ١٤٨/٣

كان بين النحويين والمعرّبين لآي الذكر الحكيم اختلاف في نوع (ما) في قوله سبحانه: {إن الله يعلم ما تدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم} وقد تعددت أقوالهم في ذلك، وفيما يأتي عرض لتلك الأقوال:

الأول: أن (ما) استفهامية في محل نصب مفعول به لـ (تدعون)، والتقدير: أي شيء يدعون من دونه. وهو قول الخليل^١ وسيبويه^٢ والفارسي^٣ والباقولي^٤ وابن خروف^٥ والهمداني^٦.

الثاني: (أن) ما نافية، و (من) زائدة، و (شيء) مفعول به لـ (تدعون). وهو قول الأخفش^٧ والنحاس^٨، وأجازه العكبري^٩ وأبو بكر بن طاهر^{١٠}.

الثالث: أن (ما) موصولة، وهي في محل نصب بـ (يعلم)، وحذف العائد من الصلة إلى الموصول تخفيفاً لطولها، والأصل: إن الله يعلم الذي تدعونه من دونه. وهو قول لبعض النحويين والمعرّبين كالقرطبي^{١١}.

وعندي أن قول من ذهب إلى أن (ما) في الآية استفهامية، وقول من ذهب إلى أنها نافية هما القولان الجديران بالترجيح، أما القول الثالث فهو وإن كان مقبولاً من

^١ - ينظر: الكتاب: ١٤٨/٣، التعليقة: ٢٦١/٢، الحجة: ٤٣٤/٥، كشف المشكلات: ١٠٣٩/٢، البيان: ٢٤٥/٢

^٢ - ينظر: البغداديات: ٢٦٦، كشف المشكلات: ١٠٣٩/٢، البيان: ٢٤٥/٢، الفريد: ٧٤٣/٣

^٣ - ينظر: الحجة: ٤٣٤/٥، البغداديات: ٢٦٦

^٤ - ينظر: كشف المشكلات: ١٠٣٩/٢

^٥ - ينظر: تنقيح الألباب: ٢٣٩

^٦ - ينظر: الفريد: ٧٤٢/٣

^٧ - ينظر: الفريد: ٧٤٢/٣

^٨ - ينظر: إعراب القرآن: ٣٥٧

^٩ - ينظر: التبيان: ١٠٣٢/٢

^{١٠} - ينظر: تنقيح الألباب: ٢٣٩

^{١١} - ينظر: تفسير القرطبي: ٣٤٦/١٣، والقول بلاعزوفي: كشف المشكلات: ١٠٣٩/٢، والبيان:

٢٤٥/٢، التبيان: ١٠٣٣/٢، الفريد: ٧٤٢/٣

جهة المعنى إلا أن هناك ما يضعفه من جهة الصناعة: إذ إن النحويين قد اشترطوا في مجيء (من) زائدة أن تسبق بنفي أو استفهام^١، فإذا علم ذلك تبين أن جعل (ما) موصولة يترتب عليه أن تكون (من) في (من شيء) غير مسبوقه بنفي أو استفهام، وعليه لا يصح الحكم عليها بالزيادة، على الرغم من كونها زائدة في المعنى، وهذا ما يرجح القولين السابقين؛ لحكمهما على (ما) بأنها نافية أو استفهامية.

المسألة الثانية عشرة: معنى (ظلوا) في قوله تعالى: ﴿وَلَيْنِ أَرْسَلْنَا رِجًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا

لَظُلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾^٢

قال سيبويه: "وسألته عن قوله عزو جل ﴿وَلَيْنِ أَرْسَلْنَا رِجًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظُلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾، فقال: هي في معنى: لَيَفْعَلَنَّ، كأنه قال: لَيَظْلَنَّ، كما تقول: والله لا فعلتُ ذاك أبداً، تريد معنى لا أفعل^٣.

سأل سيبويه الخليل عن زمن الفصل (ظلوا) في قوله تعالى: ﴿وَلَيْنِ أَرْسَلْنَا رِجًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظُلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ فأجابه الخليل عن ذلك بأن ذكر أن هذا الفعل في صورة الماضي ومعناه المستقبل: لأنه جواب للقسم، وجواب القسم لا يكون إلا مستقبلاً، فمعناه (لَيَظْلَنَّ)^٤.

^١ - ينظر: أوضح المسالك: ٣، التصريح: ٨/٢

^٢ - الروم: ٥١

^٣ - الكتاب: ١٠٨/٣

^٤ - ينظر: الكتاب: ١٠٨/٢، الأصول: ١٠٩/٢، إعراب القرآن للنحاس: ٢٧٨/٣، شرح كتاب سيبويه

للسيرافي: ١٠/٤، التليقة: ٢١٤/٢، الفريد: ٧٦٤/٣

وقد وافق الخليل جميع من وقفت على رأيه من النحويين والمعرّيين^١، إلا أن العكبري قدسها في ذلك، فذكر أن الفعل (ظلوا) في معنى المستقبل؛ لأنه جواب للشرط^٢.

قلت: والصواب أنه جواب للقسم؛ لأن القسم متقدم في الآية على الشرط، وإذا تقدم القسم على الشرط لزم أن يكون الحواب له^٣.

وهذا ما حصل في الآية، إذ الجواب لقسم؛ لكونه قد سبق باللام، وختم بنون التوكيد، فهو جواب القسم لا محالة.

المسألة الثالثة عشرة: إعراب (الطير) في قراءة من رفعها

قال سيبويه: "وقال الخليل رحمه الله: من قال: يا زيد والنّضر، فنصب، فإنما نصب لأن هذا كان من المواضع التي يُردُّ فيها الشيء إلى أصله، فأما العرب فأكثر ما رأيناهم يقولون: يا زيد والنّضر، وقرأ الأعرج: {يا جبال أوبي معه والطير} فرفع"^٤.
قرأ جمهور القراء بنصب (الطير) في قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ۚ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ ۚ﴾^٥ وقرأ بعضهم بالرفع، منهم أبو يحيى والسلمي وابن هُرْمُز، ورويت عن عاصم ورويت عن يعقوب^٦، وقد وقف الخليل عند قراءة الرفع فوجهها، وفيما يأتي عرض للتوجيهات التي قيلت فيها:

^١ - ينظر: معاني القرآن وإعرابه: ١٨٩/٤، إعراب القرآن: ٢٧٨/٢، شرح كتاب سيبويه للسيرافي:

١٠/٤، شرح كتاب سيبويه للرماني: ١٠٧٢ (تحقيق د سيف العريفي)، إعراب مشكل القرآن:

٥٦٣/٢، الكشف: ٢٢٦/٣، كشف المشكلات: ١٠٥٢/٢، الفريد: ٧٦٤/٣، مغني اللبيب: ٨٣٤

^٢ - ينظر: التبيان: ١٠٤٢/٢

^٣ - ينظر: أوضح المسالك: ١٩٦/٤، المساعد: ١٧٦/٣، همع الهوامع: ٢٥٢/٤، شرح الأشموني:

٢٣٩/٢

^٤ - الكتاب: ١٨٦/٢

^٥ - سبأ: ١٠

^٦ - ينظر: البحر المحيط: ٥٢٥/٨، الدر المصون: ٤٣٤/٥، النشر: ٣٤٩/٢

الأول: أن (الطير) معطوف على المنادى، وهو (جبال). وهذا قول الخليل^١،
وبه أخذ كثير من النحويين كالزجاجي^٢ والرماني^٣ ومكي بن أبي طالب^٤ والزمخشري^٥
والزمخشري^٥ والعكبري^٦ وابن يعيش^٧، وأجازه الهمداني^٨.

الثاني: أن (الطير) معطوف على الضمير في (أوبي). وهو قول أجازه الفراء^٩
والزجاج^{١٠} وأبو البركات الأنباري^{١١}.

الثالث: أن (الطير) مبتدأ، وخبره مقدر دل عليه الكلام السابق، والتقدير:
والطير مؤوية. وهو قول لبعض النحويين^{١٢}.

والقول الصحيح هو قول الخليل ومن وافقه؛ لأن الخليل وسيبويه قد نصا على
أن الاسم المحلي بـ (أل) المعطوف على المنادى المبني يجوز فيه النصب على
المحل، والرفع حملا على اللفظ، ولم يكن استمادهما في هذا الحكم إلى القياس فقط،
وإنما استندا إلى المسموع أيضا؛ إذ نقلا عن العرب شواهد تعضد ما قالاه^{١٣}، فإذا
علم ذلك تبين أن حمل الآية الكريمة على ما ذهبنا إليه أولى؛ لأن توجيههما لا
يستدعي تجشم عناء التأويل أو تقدير محذوفات كما فعل أصحاب القولين الآخرين.

^١ - ينظر: الكتاب: ١٨٦/٢

^٢ - ينظر: الجمل: ١٥١

^٣ - ينظر: شرح كتاب سيبويه: ٢٢١/١ ب.

^٤ - ينظر: مشكل إعراب القرآن: ٥٨٤/٢

^٥ - ينظر: الكشف: ٢٨١/٢

^٦ - ينظر: التبيان: ١٠٦٤/٢

^٧ - ينظر: شرح المفصل: ٣/٢

^٨ - ينظر: الفريد: ٥٨/٤

^٩ - ينظر: معاني القرآن: ٢٥٥/٢

^{١٠} - ينظر: معاني القرآن وإعرابه: ٢٤٣/٤

^{١١} - ينظر: البيان: ٢٧٦/٢

^{١٢} - ينظر: البحر المحيط: ٥٢٥/٨، الدر المصون: ٤٣٤/٥

^{١٣} - ينظر: الكتاب: ١٨٦/٢

وعندي تنبيه يلزم ذكره، وهو أنه يؤخذ على القول الثاني أن العطف على الياء في (أوبي) وإن كان مستقيماً وسائغاً في الآية إلا أنه لا يستقيم ألبتة مع الشواهد التي نقلها سيبويه عن العرب، كقولهم: يا زيد والحارث؛ لأنه لا يوجد ثمة شيء يعطف عليه عدا المنادى، فليت شعري كيف يوجه أصحاب هذا القول مثل هذا الشاهد؟

المسألة الرابعة عشرة: نوع (أن) في قوله سبحانه: ﴿أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾^١.

قال سيبويه: "قوله عزو جل: ﴿وَأَنْطَلِقُ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا﴾. زعم الخليل أنه بمنزلة (أي)؛ لأنك إذا قلت: انطلق بنو فلان أن أمشوا، فأنت لا تريد أن تُخبر أنهم انطلقوا بالمشي.^٢

للنحويين رأيان في نوع (أن) في قوله تعالى: ﴿وَأَنْطَلِقُ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾^٣ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُّ ، وهما:

القول الأول: أن (أن) مفسرة، والتقدير : وانطلق الملاء منهم؛ أي: امشوا على آلهتكم. وهو قول الخليل^٣ وكثير من النحويين، منهم الأخفش^٤ والزجاج^٥ وابن السراج^٦ والزجاجي^٧ والفارسي^٨ والرماني^٩، ووافقهم كثير من المتأخرين، منهم العكبري^٢ وابن خروف^٣ وابن يعيش^٤ والهمداني^٥ وأبو حيان^٦.

^١ - ص: ٤

^٢ - الكتاب: ١٦٢/٣

^٣ - ينظر: الكتاب: ١٦٢/٣، شرح كتاب سيبويه السيرافي: ١٥٠/٤، شرح كتاب سيبويه للرماني ٤٢٧ (رسالة د إبراهيم آل موسى).

^٤ - ينظر: معاني القرآن ١١٤/١.

^٥ - ينظر: معاني القرآن وإعرابه ٢٢١/٤.

^٦ - ينظر: الأصول ٢٣٧/١

^٧ - ينظر: الجمل ٣٥٣

^٨ - ينظر: المسائل المنثورة ٢٢٧.

القول الثاني: أن (أن) مصدرية، والمعنى: انطلقوا بأن امشوا؛ أي بهذا القول^٧.
وهول أجازة الزجاج^٨، والظاهر من كلام النحاس^٩.
ويترجح عندي القول الأول من هذين القولين، وهو أن تكون (أن) مفسرة في الآية.

المسألة الخامسة عشرة: هل الجواب محذوف في هذه الآيات الكريمات
قال سيبويه: "وسألت الخليل عن قوله جل ذكره: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ
أَبْوَابُهَا﴾^{١٠} أين جوابها؟ وعن قوله جل وعلا: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ
الْعَذَابَ﴾^{١١}، ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يُقْفَوْنَ عَلَى النَّارِ﴾^{١٢} فقال: إن العرب قد تترك في مثل هذا
الخبر الجواب في كلامهم؛ لِعِلْمِ الْمَخْبَرِ لَأَيِّ شَيْءٍ وَضِعَ هَذَا الْكَلَامُ"^{١٣}.
تبين لي - من خلال ما رجعت إليه من مصادر - أنه ليس ثمة خلاف في أن
جواب (لو) محذوف في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ

^١ - ينظر: شرح كتاب سيبويه: ٤٠١ (رسالة د إبراهيم آل موسى)

^٢ - ينظر: التبيان ١٠٩٧/٢

^٣ - ينظر: تنقيح الألباب ٢٤١

^٤ - ينظر: شرح المفصل: ٧٤/٨، ١٤١.

^٥ - ينظر: الفريد: ١٥٤/٤

^٦ - ينظر: البحر المحيط ١٣٨/٦

^٧ - ينظر: الدر المصون ٥٢٥/٥

^٨ - ينظر: معاني القرآن وإعرابه ٣٢١/٤، الفريد: ١٥٥/٤

^٩ - ينظر: إعراب القرآن ٥٤٥/٣

^{١٠} - الزمر: ٧٣

^{١١} - البقرة: ١٦٥

^{١٢} - الأنعام: ٢٧

^{١٣} - الكتاب: ١٠٣/٣

جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١﴾ ، وفي قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾^١ ؛
لدلالة السياق عليه، وهو ما قال به الخليل فيما نقله عنه سيبويه في النص السابق
إلا أنه قد تعددت تقديرات المعربين لهذا الجواب المحذوف:

أما الآية الأولى فقليل: إن تقديره: لِنَتَّبِعُنَا ضُرر اتخاذكم الآلهة^٢، وقيل أيضاً:
إن التقدير: عُذِبُوا^٣، وقيل: بل تقديره: لَعَلِمْتُ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً^٤، كما قيل: إن
تقديره: لَرَأَوْا أَمراً عظيماً^٥.

وأما الآية الثانية فقد قيل: إن التقدير: لَرَأَيْتُ أَمراً شنيعاً^٦، وقيل: بل التقدير:
لَعَلِمْتُ كُنْهَ مَا يَصِيرُونَ إِلَيْهِ^٧، وقيل: لَعَلِمْتُ حَقِيقَةَ مَا يَصِيرُونَ إِلَيْهِ^٨، كما قيل:
تقديره: لَشَاهَدْتُ أَمراً عظيماً^٩.

والحق أن هذا الاختلاف ليس اختلافاً جوهرياً، وإنما هو اختلاف في تقدير
شيء محذوف دل عليه مفهوم الكلام السابق، وجل التقديرات السابقة صالح، وليس
فيها مطمئن؛ لأن معناها متقارب، إن لم يكن متطابقاً، لكن الأمر الجوهري في هذا
المسألة هو إطباقهم على القول بأن جواب (لو) في الآيتين محذوف للعلم به.

وقد عزي إلى الزهري وقتادة أن حذف جواب (لو) في الوعيد أبلغ^١.

^١ - ينظر: معاني القرآن للفراء: ٩٧/١، معاني القرآن للأخفش ١٥٤/١، إعراب القرآن ٢٧٦/١،

المسائل المنثورة ١٦٩، الكشف ١٢/٢، كشف المشكلات ٣٩٣/١، البيان ١٣٤/١، التبيان

١٣٥/١، الفريد ١٣٦/٢، الدر المصون ٤٢٨/١

^٢ - ينظر: إعراب القرآن ٢٧٦/١، الفريد ٤٠٢/١

^٣ - ينظر: المسائل المنثورة: ١٦٩

^٤ - ينظر: كشف المشكلات: ١٢٠/١

^٥ - ينظر: الفريد: ٤٠٢/١

^٦ - ينظر: الكشف: ١٢/٢ / الفريد: ١٣٦

^٧ - ينظر: كشف المشكلات: ٣٩٣/١

^٨ - ينظر: البيان: ٣١٨/١

^٩ - ينظر: التبيان: ٤٨٩/١

كما ذهب العكبري إلى أن حذفه في الوعد والوعيد أبلغ، لأن الموعود والمتوعد إذا عرف قدر النعمة أو العقوبة وقف ذهنه مع ذلك المعين^٢.

أما جواب (حتى) في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ ، وهي أولى الآيات التي سأل عنها سيبويه شيخه الخليل فقد وقع بين النحويين خلاف في تحديد جوابها على أقوال ثلاثة:

الأول: أنه محذوف دل عليه سياق الآية، وهو قول الخليل وجمهور المعربين كالمبرد^٣ والزجاج^٤ والنحاس^٥ والفارسي^٦ وابن جني^٧ وغيرهم^٨، واختاره الأخفش معللاً ذلك بأنه كثير في كلام العرب^٩.

وقد تعددت تقديرات هؤلاء للجواب المحذوف، فمن قال: سَعِدُوا^{١٠}، ومن قائل: دَخَلُوهَا^{١١}، ومن قائل: أَمِنُوا^{١٢}، ومن قائل غير ذلك^{١٣}.

-
- ^١ - ينظر: إعراب القرآن: ٢٧٧/١، الفريد: ١٣٦/٢
- ^٢ - ينظر: التبيان: ١٣٥/١
- ^٣ - ينظر: معاني القرآن وإعرابه: ٣٦٣/٤، إعراب القرآن: ٢٢/٤، الدر المصون: ٢٥/٢
- ^٤ - ينظر: معاني القرآن وإعرابه: ٣٦٣/٤
- ^٥ - ينظر: إعراب القرآن: ٢٢/٤
- ^٦ - ينظر: المسائل المنثورة: ١٦٩
- ^٧ - ينظر: الخصائص: ٤٦٢/٢
- ^٨ - كالزمخشري والأنباري والعكبري والهمداني، ينظر: الكشف: ٤١١/٣، البيان: ٣٢٧/٢، التبيان: ١١١٤/٢، الفريد: ٢٠٢/٤
- ^٩ - ينظر: معاني القرنين: ٤٥٧/٢
- ^{١٠} - ينظر: معاني القرآن وإعرابه: ٣٦٣/٤، إعراب القرآن: ٢٢/٤
- ^{١١} - ينظر: معاني القرآن وإعرابه: ٣٦٣/٤
- ^{١٢} - ينظر: الفريد: ٢٠٢/٤
- ^{١٣} - ينظر: معاني القرآن وإعرابه: ٣٦٣/٤، الخصائص: ٤٦٢/٢، الكشف: ٤١١/٣، البيان: ٢٢٧/٢، التبيان: ١١١٤/٢

الثاني: أن الجواب هو قوله سبحانه: (وفتحت أبوابها)، والواو زائدة^١. وعزا السمين الحلبي هذا القول إلى الكوفيين^٢.

الثالث: أن الجواب قوله تعالى: (وقال لهم خزنتها)، والواو زائدة، وهو قول الأخفش^٣.

والحق أنه لا يساورني شك في صحة قول الخليل والجمهور، لأنه هو القول الذي يستند إلى كثرة السماع، كما نص الخليل فيما نقله عنه سيبويه، وكما ذكر الأخفش في (معاني القرآن)، فقد ذكرا أن العرب كثيرا ما تحذف الجواب للعلم به. أما القول الثاني والثالث ففيهما ضعف؛ لحملهما شيئا من القرآن على الزيادة مع إمكان حمله على الأصالة كما فعل الجمهور.

المسألة السادسة عشرة: إعراب (سواء) في قوله تعالى: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءٌ لِلْسَّائِلِينَ﴾^٤

قال سيبويه: "قال عزو جل: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءٌ لِلْسَّائِلِينَ﴾ وقد قرأ ناسٌ ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءٌ﴾. قال الخليل جعله بمنزلة مستويات".^٥

قرئت (سواء) في قوله عزو جل: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءٌ لِلْسَّائِلِينَ﴾ بالنصب، وهي قراءة الجمهور، ومنهم العشرة، وقرئت بالجر، وهي قراءة الحسن البصري وزيد بن علي وعبدالله بن أبي إسحاق وعيسى بن عمر ويعقوب وعمرو بن عبيد.^٦

^١ - هذا القول بلا عزوفي: معاني القرآن وإعرابه: ٣٦٣/٤، الفريديك ٢٠٢/٤

^٢ - ينظر: الدر المصون: ٢٥/٦

^٣ - ينظر: معاني القرآن: ٤٥٧/٢

^٤ - فصلت: ١٠

^٥ - الكتاب: ١١٩/٢

^٦ - ينظر: البحر المحيط: ٢٨٨/٩، الدر المصون: ٥٧/٦، النشر: ٢٦٦/٢

وقد أعرب الخليل (سواء) على قراءة الجر، فنذكر أنها نعت لما قبلها^١، غير أنه لم ينص على المنعوت، أهو (أربعة) أم (أيام)؟
 ومع أن جميع من وقفت على أعاريبهم لهذه القراءة أجمعوا على أن (سواء) نعت^٢، إلا أنهم اختلفوا في المنعوت على أقوال ثلاثة:
 الأول: أن المنعوت هو المضاف إليه (أيام). وهو قول الزجاج^٣ وبعض النحويين والمفسرين^٤.

الثاني: أن المنعوت يجوز أن يكون المضاف المجرور (أربعة) أو المضاف إليه (أيام)، وهو قول النحاس^٥ وجماعة من النحويين^٦.
 الثالث: أن المنعوت هو المضاف المجرور (أربعة). وهو قول أبي البقاء العكبري^٧.

وعندي أن القول الثالث - وهو أن (سواء) صفة لـ (أربعة) - هو القول الراجح؛ لأن جمهور القراء - كما سبق - قد قرؤوها بالنصب، وقد اتفق المعربون على أن

^١ - الكتاب: ١١٩/٢، شرح كتاب سيبويه للسيرافي: ٥٣/٧ (مطبوع)

^٢ - ينظر: معاني القرآن للأخفش: ٤٦٥/٢، معاني القرآن وإعرابه: ٣٨١/٤، إعراب القرآن: ٥٠/٤، مشكل إعراب القرآن: ٦٤٠/٢، الكشاف: ٤٤٤/٣، كشف المشكلات: ١١٨٥/٢، البيان: ٣٢٧/٢، إعراب القراءات الشواذ: ٤٢٦/٢، الفريد: ٢٢٤/٤، تفسير النسفي: ١٣١/٤، فتح القدير: ٦٦٥/٤

^٣ - ينزر: معاني القرآن وإعرابه: ٣٨١/٤

^٤ - كالباقولي والنسفي والشوكاني، ينظر: كشف المشكلات ١١٨٥/٢، وتفسير النفي ١٣١/٤، وفتح القدير ٦٦٥/٤

^٥ - ينظر: إعراب القرآن: ٥٠/٤

^٦ - كمكي بن أبي طالب وأبي البركات الأنباري والمنتجب الهمداني، ينظر: مشكل إعراب القرآن: ٦٤٠/٢، والبيان: ٣٣٧/٢، والفريد: ٢٢٤/٤

^٧ - ينظر: إعراب القراءات الشواذ: ٤٢٦/٢

(سواء) في تلك القراءة نصبت لأنها حال من (أربعة)، وهو اسم نكرة اكتسب من المضاف إليه (أيام) التخصيص، وهذا ما سوغ مجيء الحال منه.^١

قلت: فإذا علم ذلك تبين أن جمل (أربعة) في قراءة الجر هو الموصوف أولى؛ لأن كلاً من الحال وصاحبه مماثل للصفة والموصوف من حيث المعنى لا الصناعة، وبهذا تكون القراءة الأخرى هي التي أرشدت إلى الموصوف في قراءة الجر.

المسألة السابعة عشرة: الناصب لـ (يرسل) في قوله عزوجل: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾^٢

قال سيبويه: "وسألت الخليل عن قوله عزو جل: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأْذَنِهِ مَا يَشَاءُ﴾^٣ فزعم أن النصب محمول على (أن) سوى هذه التي قبلها، ولو كانت هذه الكلمة على (أن) هذه لم يكن للكلام وجه، ولكنه لما قال: {إلا وحياً أو من وراء حجاب} كان في معنى: إلا أن يوحى، وكان (أو يرسل) فعلاً لا يجري على (إلا)، فأجري على (أن) هذه، كأنه قال: إلا أن يوحى أو يرسل؛ لأنه لو قال: إلا وحياً وإلا أن يرسل كان حسناً، وكان (أن يرسل) بمنزلة الإرسال، فحملوه على (أن).^٣

قرأ الجمهور بنصب (يرسل) في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأْذَنِهِ مَا يَشَاءُ﴾^٤ إِنَّهُ عَلَيَّ حَكِيمٌ^٥، وقد كان للمعربين قولان في توجيهها:

^١ - ينظر: أوضح المسالك: ٢٢٤/٢، شرح ابن عقيل: ٢٦٠/٢، التصريح: ٣٧٧/١

^٢ - الشورى: ٥١.

^٣ - الكتاب: ٤٩/٣

الأول: أن (يرسل) منصوب بـ(أن) مضمرة، والمصدر المؤول من (أن) وما دخلت عليه معطوف على (وحيًا). وهذا قول الخليل^٢ وسيبويه^٣ وجمهور المعربين^٤، واستدل كثير منهم بهذه الآية على إضمار (أن) قياساً^٥ على هذه المسألة.

الثاني: أن (يرسل) معطوف على فعل مقدر هو العامل في (من وراء حجاب)، والتقدير: أو يسمعه من وراء حجاب، وهذا الفعل المقدر منصب بـ(أن) مضمرة جوازاً؛ لأن المصدر المؤول من (أن) وما دخلت عليه عطف على (وحيًا)، وقد ذكر هذا القول السمين، غير أنه لم يعزه إلى أحد.^٦

والقول الراجح هو القول الأول: لأن جمهور النحويين نصوا على أن هذه المسألة - وهي مسألة عطف (أن) على اسم خالص بـ(الواو) أو (أو) أو (الفاء) أو (ثم) - من المسائل التي تضرر فيها (أن) جوازاً^٧، إضافة إلى كون هذا القول لا يحتاج إلى تقدير محذوف، خلافاً للقول الآخر الذي قدر فعلاً محذوفاً عطف عليه (يرسل).

^١ - ينظر: الإقناع: ٧٥٨/٢، الدر المصون: ٨٨/٦

^٢ - ينظر: الكتاب: ٤٩/٣، معاني القرآن وإعرابه: ٤٠٣/٤، إعراب القرآن: ٩٢/٤، شرح كتاب سيبويه للسيرافي: ٢٢٠/٣، الحجة: ١٣٣/٦، شرح كتاب سيبويه للرماني: ٩٠٦ (رسالة د/يوسف العريفي)، حجة القراءات: ٦٤٤

^٣ - ينظر: الكتاب: ٤٩/٣، معاني القرآن وإعرابه: ٤٠٣/٤، حجة القراءات: ٦٤٤

^٤ - ينظر: معاني القرآن وإعرابه: ٤٠٣/٤، إعراب القرآن: ٩٢/٤، الحجة: ١٢٣/٦، مشكل إعراب القرآن: ٦٤٧/٢، البيان: ٣٥١/٢، الفريد: ٢٤٨/٤

^٥ - ينظر: الكتاب: ٤٩/٣، المقتضب: ٢٢/٢، المسائل المنثورة: ١٥٢، توضيح المقاصد:

١٢٦٢/٣، مغني اللبيب: ٢٥١، شفاء العليل: ٩٣٨/٢، التصريح: ٢٤٤/٢

^٦ - ينظر: الدر المصون: ٨٨/٦

^٧ - ينظر: توضيح المقاصد: ١٢٦٢/٣، شفاء العليل: ٩٣٨/٢، التصريح: ٢٤٤/٢

المسألة الثامنة عشرة: الجازم لـ (أكن) في قوله تعالى: ﴿رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.^١

قال سيبويه: "وسألت الخليل عن قوله عزوجل: فقال: ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ هذا كقولك زهير:

بدا لي أنني لست مُدْرِكُ ماضى ولا سابقِ شيئاً إذا كان جائياً

فإنما جرّوا هذا؛ لأن الأول قد يدخله الباء، فجاءوا بالثاني، وكأنهم قد أثبتوا في الأول الباء، فكذاك هذا لما كان الفعل الذي قبله قد يكون جزماً ولا فاء فيه تكلموا بالثاني، وكأنهم قد جزموا قبله، فعلى هذا توهموا هذا".^٢

للمعربين في توجيه جزم الفعل (أكن) في قوله سبحانه: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ رأيان:

الأول: أن الفعل (أكن) مجزوم بالعطف على التوهم؛ فكأنه تُوهم في الفعل (أَصَّدَّقَ) الجزم بشرط مقدر؛ لأنه جاء في جواب الطلب، وهو التمني في الآية، فلما عطف عليه (أكن) جُعل مجزوماً. وهو قول الخليل^٣، ووافقه ابن خروف^٤.

وقد نص أبو حيان^٥ على أن الخليل لم يرد العطف على المحل، وإنما أراد الجزم على توهم الشرط الذي دل عليه التمني؛ لأنه لا موضع هنا؛ إذ الشرط ليس بظاهر، وإنما يعطف على الموضع إذا كان الشرط ظاهراً، كقراءة من قرأ بجزم

^١ - المنافقون: ١٠

^٢ - الكتاب: ١٠٠/٣

^٣ - ينظر: الكتاب: ١٠٠/٣، البحر المحيط: ١٠٤/١٠، الدر المصون: ٣٢٣/٦

^٤ - ينظر: تنقيح الألباب: ١٩٩

^٥ - ينظر: البحر المحيط: ١٠٤/١٠، الدر المصون: ٣٢٣/٦

(يُنْزِلُهُمْ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾^١
عطفًا على الموضع.

وقد رد كل من السيرافي^٢ والرماني^٣ حمل الخليل الآية على التوهم، محتجين بأن التوهم قبيح، ولا يصح أن يحمل كلام الله على هذا الوجه، بل إن الآية تختلف عن البيت لأن (سابق) في البيت لا يصح حمله على اللفظ ولا على الموضع، أما (أكن) في الآية فإنه يمكن حمله على الموضع، وهذا هو الصحيح.

الثاني: أن الفعل (أكن) معطوف على موضع (أصدق): لأن موضعها موضع جزم: إذ جاء جواباً لشرط مقدر دل عليه التمني. وهو قول الجمهور^٤ وفي مقدمتهم الفراء^٥ والزجاج^٦ والسيرافي^٧ والفارسي^٨ والروماني^٩، وعزاه النحاس إلى سيبويه^{١٠}، سيبويه^{١١}، وليس في (الكتاب).

قلت: وقد فسر الفارسي^{١١} مراد الخليل بـ(التوهم) بالعطف على الموضع، وعلى هذا التفسير يكون الخليل وجمهور النحويين متقين في هذه المسألة.

^١ - الأعراف: ١٨٦

^٢ - ينظر: شرح كتاب سيبويه: ٤/٤٤٤.

^٣ - ينظر: شرح كتاب سيبويه: ١٠٥٢ (رسالة د سيف العريفي).

^٤ - ينظر: تأويل مشكل القرآن: ٥٦، إعراب القرآن: ٤/٤٣٧، توجيه القراءات: ٧١٠، مشكل إعراب القرآن: ٢/٧٣٧، الكشف: ٤/١١٢، أمالي ابن الشجري: ١/٤٢٨، البيان: ٢/٤٤١، شرح المفصل لابن يعيش: ٢/١١٠، الفريد: ٤/٤٧٤

^٥ - ينظر: معاني القرآن: ٣/١٦٠

^٦ - ينظر: معاني القرآن وإعرابه: ٥/١٧٨

^٧ - ينظر: شرح الكتاب: ٤/١٤

^٨ - ينظر: الحجة: ٦/٢٩٣، البحر المحيط: ١٠/١٨٤، الدر المصون: ٦/٢٢٣

^٩ - ينظر: شرح كتاب سيبويه: ١٠٥٢ (رسالة د سيف العريفي)

^{١٠} - ينظر: إعراب القرآن: ٤/٤٣٧

^{١١} - ينظر: التعليقة: ٢/٢٠٨

والقول الصحيح في هذه المسألة هو قول الجمهور، أما قول الخليل على ما فهمه السيرافي والرماني وأبو حيان، وهو أن الآية محمولة على العطف على التوهم فمعلوم أن التوهم مقصور على المسموع، وقد ورد فيه شواهد معدودة؛ بل إن بعض النحويين كابن يعish عد التوهم نوعاً من الغلط^١، وعليه فإن الأولى الا يحمل شيء من القرآن عليه إذا أمكن حمله على وجه آخر قوي غيره كما فعل الجمهور في توجيه هذه الآية.

المسألة التاسعة عشرة: إعراب (لظى) و (نزاعة للشوى) في قراءة من رفع (نزاعة)

قال سيبويه: "وذلك قولك: هذا عبدُ الله منطلق... وزعم الخليل - رحمه الله - أن رفعه يكون على وجهين: فوجهٌ أنك حين قلت: هذا عبدُ الله أضمرت هذا أو هو، كأنك قلت: هذا منطلقٌ أو هو منطلقٌ. والوجه الآخر: أن تجعلها جميعاً خبراً لهذا، كقولك: هذا حلٌّ حامضٌ، لا تريد أن تنقُصَ الحلاوة، ولكنك تزعم أنه جمع الطعمين، وقال الله عزوجل: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ نَزَاعَةٌ لِّلشَّوَىٰ﴾^٢٣.

قرئت (نزاعة للشوى) في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ، نَزَاعَةٌ لِّلشَّوَى﴾ بقراءتين: الأولى بالنصب، وهي قراءة عاصم برواية حفص، أما راوي عاصم الآخر أبو بكر شعبه وباقي السبعة فقد قرؤوها بالرفع^٤، وقد تعددت آراء النحويين والمعرين في توجيه قراءة الجمهور، ولهم في ذلك أقوال كثيرة، وفيما يأتي عرض لها:

^١ - ينظر: شرح المفصل: ٦٩/٨

^٢ - المعارج: ١٥-١٦

^٣ - الكتاب: ٨٣/٢

^٤ - ينظر: السبعة: ٦٥١، التيسير: ١٧٤، الاقناع: ٧٩٢/٢

- ١- أن (لظى) خبر لـ (إنّ)، و (نزاعة للشوى) خبر آخر لها، فهي خبر بعد خبر. وهذا قول الخليل^١.
- ٢- أن (لظى) و (نزاعة) مجتمعين خبر لـ (إن) كما في نحو: هذا حلّو حامض^٢. وهو قول الزجاج^٣، والفارسي^٤.
- ٣- أن (لظى) خبر لـ (إنّ)، و (نزاعة) خبر لمبتدأ مضمّر تقديره: هي^٥.
- ٤- أن (لظى) بدل من الضمير الذي في محل نصب في (إنها)، و (نزاعة) خبر^٦ (إنّ). وهو قول الأخفش^٧.
- ٥- أن (لظى) خبر لـ (إنّ)، و (نزاعة) بدل منها، وهو قول الفراء^٨ وابن خالويه^٩، وغيرهما^{١٠}.
- ٦- أن (لظى) مبتدأ، و (نزاعة) خبر لها، والجملة في محل رفع خبر لـ (إن)^{١١}.

^١ - ينظر: الكتاب: ٨٣/٢، إعراب القرآن: ٣٠/٥، شرح كتاب سيبويه للسيرافي: ١٦٩/٦ (مطبوع)، مشكل إعراب القرآن: ٧٥٧/٢، الكشف: ١٥٨/٤، الفريد: ٥٢٩/٤، البحر المحيط: ٢٧٤/١٠.

^٢ ينظر: الحجة للقراء السبعة: ٣١٩/٦، البيان في إعراب القرآن: ٤٦١/٢.

^٣ ينظر: معاني القرآن وإعرابه: ٢٢١/٥، حجة القراءات: ٧٢٤.

^٤ الحجة: ٣١٩/٦.

^٥ ينظر: إعراب القراءات السبع: ٣٩٠/٢، مشكل إعراب القرآن: ٧٥٧/٢، البيان: ٤٦١/٢، الفريد:

٥٢٩/٤، الدر المصون: ٣٧٦/٦.

^٦ ينظر: إعراب القرآن: ٣٠/٥٠، مشكل إعراب القرآن: ٧٥٧/٢، الفريد: ٥٢٩/٤، البحر المحيط:

٢٧٤/١٠، الدر المصون: ٢٧٦/٦.

^٧ ينظر: معاني القرآن: ٥٠٨/٢.

^٨ ينظر: حجة القراءات: ٧٢٤.

^٩ ينظر: إعراب القراءات السبع: ٣٩٠/٢.

^{١٠} ينظر: إعراب القرآن: ٣٠/٥، إعراب القراءات السبع: ٣٩٠/٢، البيات: ٤٦١/٢، البتيان: ١٢٤٠/٢،

الفريد: ٥٢٩/٤.

^{١١} - ينظر: الفريد: ٥٢٩/٤.

٧- أجاز الزمخشري أيضا أن تكون (نزاعة للشوى) صفة للخبر الذي هو (لظى)

مشترباً ألا تكون علماً للنار، وإنما بمعنى اللهب.^١

والذي يظهر لي أن القول الأول والقول الثاني هما أرجح الأقوال السابقة؛ لقوتهما من حيث الصناعة النحوية، كما أن المعنى فيهما جائز وسائغ، إضافة إلى أنهما في منأى عن التكلف والتأويل.

المسألة العشرون: متعلق الجار والمجرور في قوله سبحانه: ﴿لَا إِلَافَ قُرَيْشٍ﴾^٢

و نوع اللام فيه.

قال سيبويه: "ونظيرها: ﴿لَا إِلَافَ قُرَيْشٍ﴾ لأنه إنما هو: لذلك ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾^٣، فإن حذفت اللام من (أَنَّ) فهو نصب، كما أنك لو حذفت اللام من (لَا إِلَافَ) كان نصباً، هذا قول الخليل"^٤

اختلف النحويون في متعلق الجار والمجرور في قوله سبحانه في مطلع سورة (قريش): ﴿لَا إِلَافَ قُرَيْشٍ﴾ ، ولهم في ذلك أقوال:

الأول: أنه متعلق بقوله سبحانه في الآية بعدها: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾، فهو على التقديم والتأخير، ودخلت الفاء لما في الكلام من معنى الشرط، والتقدير: فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لإيفهم، فإنها أظهر نعمة عليهم. وهو قول الخليل^٥، وتبعه المبرد^١ والفراسي^٢، وقواه الزجاج^٣ والنحاس^٤، وعزي إلى البصريين البصريين عامة^٥، وأخذ به من المتأخرين الزمخشري^٦ والعكبري^٧ وابن هشام^٨.

^١ - ينظر: الكشف: ١٥٨/٤، الدر المصون: ٢٧٧/٦

^٢ - قريش: ١

^٣ - قريش: ٣

^٤ - كتاب سيبويه: ١٢٧/٣

^٥ - ينظر: كتاب سيبويه: ١٢٧/٣، إعراب القرآن للنحاس: ٢٩٣/٥، الحجة: ٤٤٦/٦، إعراب القراءات

السبع: ٥٣٤/٢، الدر المصون: ٥٧١/٦

الثاني: أنه متعلق بالفعل (جعل) في قوله سبحانه في سورة (الفيل) قبلها:

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾^٩. وهو قول الأخفش^{١٠}، وقواه الهمداني^{١١}.

ورد النحاس هذا القول بأنه لو كان العامل (جعل) في سورة (الفيل) للزم أن

تكون السورتان سورة واحدة^{١٢}.

الثالث: أنه مضمّر، والتقدير: فعلنا ذلك - أي إهلاك أصحاب الفيل - لإيلاف

قري، أو أن تقديره: إعجبوا. وهو قول يعزي إلى الفراء^{١٣}، وبه قال ابن خالويه^{١٤}.

وتبعا لاختلاف النحويين السابق في متعلق الجار والمجرور في الآية السابقة

﴿لِإِيلَافٍ قُرَيْشٍ﴾ اختلفوا في نوع لام الجر على أقوال:

الأول: أنها لام التعليل، وهذا هو الظاهر من كلام أصحاب القول الأول في

متعلق الجار والمجرور؛ إذ جعلوا قوله سبحانه (فليعبدوا) متعلقا لـ (لإيلاف قريش)،

وفي تقديرهم ما يدل على أنهم يريدون أن {إيلاف قريش} من أهم الأسباب والنعم

التي تدعو إلى عبادة الله عزوجل.

^٩ - ينظر: المتقضب: ٣٤٢/٢

^{١٠} - ينظر: المسائل المنثورة: ١٥٨

^{١١} - ينظر: معاني القرآن وإعرابه: ٣٦٥/٥

^{١٢} - ينظر: إعراب القرآن: ٢٩٣/٥

^{١٣} - ينظر: إعراب لثلاثين سورة: ٢١٠

^{١٤} - ينظر: الكشف: ٢٨٧/٤، الدر المصون: ٥٧١/٦

^{١٥} - ينظر: التبيان: ١٣٠٥/٢

^{١٦} - ينظر: مغني اللبيب: ٢٧٦

^{١٧} - الفيل: ٥

^{١٨} - ينظر: إعراب القرآن للنحاس: ٢٩٢/٥، الحجة: ٤٤٦/٦، الدر المصون: ٥٧١/٦

^{١٩} - ينظر: الفريد: ٧٣١/٤

^{٢٠} - ينظر: إعراب القرآن: ٢٩٣/٥، الدر المصون: ٥٧١/٦

^{٢١} - ينظر: إعراب القرآن: ٢٩٣/٥، وقد ذكره الفراء في معانيه، غير أنه عزاه إلى بعضهم: ٢٩٣/٣

^{٢٢} - ينظر: إعراب القراءات السبع: ٥٣٤/٢

الثاني: أنها لام التعجب، وهو قول قاله الفراء^١، وأجازه ابن خالويه^٢.

الثالث: أنها لام زائدة. وهو قول ابن خالويه^٣.

الرابع: أنها لام العاقبة والصيرورة. وهو قول الهمداني^٤.

والقول الراجح هو قول الخليل ومن وافقه؛ للأميرين الآيتين:

أحدهما: أنه هو القول الذي لا يحتاج إلى تقدير، كما أنه فيه قوة ووجاهة في المعنى، خلافاً للأقوال الأخرى، فقول يجعل المتعلق في سورة أخرى، وفي هذا بعد وتكلف غير خفيين، وقول يجعله مقدراً، ومعلوم أن ما لا يحتاج إلى تقدير مقدم على ما يحتاج إلى تقدير، إذا لم يكن هناك ما يمنعه من حيث المعنى أو الصناعة. الثاني: أنه كثيراً ما تستعمل اللام للتعليل، فإذا كان المعنى يؤيد ذلك كما هو شأن اللام في هذه الآية فالأولى ألا يترك إلى غيره.

المسألة الحادية والعشرون: إعراب (حمالة الحطب) في قوله تعالى: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ

حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾^٥

قال سيبويه: "وبلغنا أن بعضهم قرأ هذا المحرف نصباً: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾

لم يجعل الحاملة خبراً للمرأة، ولكنه كأنه قال: أذكرُ حمالة الحطب، شتماً لها، وإن كان فعلاً لا يستعمل إظهاره".^٦

^١ - ينظر: معاني القرآن وإعرابه: ٣٦٥/٥

^٢ - ينظر: إعراب القراءات السبع: ٥٣٤/٢، إعراب ثلاثين سورة: ٢١٠

^٣ - ينظر: إعراب ثلاثين سورة: ٢١٠

^٤ - ينظر: الفريد: ٧٣١/٤

^٥ - المسد: ٣-٤

^٦ - الكتاب: ٧٠/٢

قال تعالى: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ، وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ قرأ الجمهور برفع (حمالة الحطب)، وقرأ عاصم من السبعة بنصبها^١، وقد كان للمعربين مذاهب ثلاثة في إعراب هذه الآية على قراءة النصب، وفيما يأتي إيراد لها:

الأول: أن (حمالة الحطب) منصوب على الذم والشتم، وهو قول عيسى بن عمر^٢ وتلميذه الخليل^٣، وعليه جمهور النحويين، منهم الزجاج^٤ والفارسي^٥ وابن خالويه^٦ والرماني^٧ والزمخشري^٨ وغيرهم^٩.

الثاني: أنه يجوز أن تنصب (حمالة الحطب) على الذي والشتم، كما يجوز أن تكون منصوبة على الحال. وهو إعراب الأخفش^{١٠} والنحاس^{١١}، والظاهر من كلام الفراء^{١٢}.

الثالث: أن (حمالة الحطب) منصوبة على الحال. وهو قول العكبري^{١٣}.

^١ - ينظر: الإقناع: ٨١٥/٢، الدر المصون ٥٨٦/٦

^٢ - ينظر: مجاز القرآن: ٣١٥/٢

^٣ - الكتاب: ٧٠/٢، شرح كتاب سيبويه للسيرافي: ١٥٦/٦ (مطبوع).

^٤ - ينظر: معاني القرآن وإعرابه: ٣٧٥/٥

^٥ - ينظر: التعليقة: ٤٥٢/٦، الحجة: ٤٥٢/٦

^٦ - ينظر: إعراب القراءات السبع: ٥٤٢/٢

^٧ - شرح كتاب سيبويه للروماني: ١٧٠/١

^٨ - ينظر: الكشف: ٢٩٧/٤

^٩ - ينظر: إعراب القراءات السبع: ٥٤٢/٢، حجة القراءات: ٧٧٦، الكشف عن وجوه القراءات:

٢٩٠/٢، كشف المشكلات: ١٤٨٩/٢ أن أمالي ابن الشجري: ١٠١/٢، البيان: ٥٤٤/٣،

شرح الفصل لابن يعيش: ١٩/٢، الفريد: ٧٤٦/٤، مغني اللبيب: ٨٢٨.

^{١٠} - ينظر: معاني القرآن: ٥٤٨/٢

^{١١} - ينظر: إعراب القرآن: ٢٠٦/٥

^{١٢} - ينظر: معاني القرآن: ٢٩٨/٣

^{١٣} - ينظر: التبيان: ١٣٠٨/٢

والقول الراجح من هذه الأقوال هو قول الخليل والجمهور القائل بأن (حمالة الحطب) منصوبة على الذم والشتم؛ لقوته معنى وصناعة، خلافاً لقول من أعربه حالاً، وهو القول الثالث، ومن أجاز ذلك الإعراب، وهو القول الثاني، فأعربه حالاً وإن كان سائغاً من جهة الصناعة إلا أن معنى الآية لا يعضده؛ إذ كيف يكون ذلك المعنى؟ أيقال: وامرأته حال كونها حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد؟، على أن جملة (في جيدها حبل) في محل رفع خبر لـ (امرأته)؟

ملخص المبحث:

يمكن تلخيص المبحث في الفقر الآتية:

الأولى: أن لهذا الموضوع أهمية تتبع من مكانة الخليل بن النحويين، والحاجة لمعرفة أعرابه التي نقلها عن سيبويه الذي يعد أهم مصدر لتلك الأعراب. الثانية: أن هذا المبحث قد تضمن إحدى وعشرين مسألة، وهي مجموع ما نقله سيبويه عن شيخه من أعراب للقرآن الكريم بقراءاته.

الثالثة: أن تلك الأعراب التي قال بها الخليل في (الكتاب) قد تركت أثراً كبيراً في كثير من النحويين، إذ تابعوه في معظم المسائل التي درستها في هذا للبحث. منهج الخليل في تحليل معاني الأدوات الاعرابية ومتابعة النحاة له في ذلك على اختلاف المدارس النحوية

١- أن سيبويه - رحمه الله - قد نقل في كتابه عن الخليل بعض الأعراب للقرآن الكريم، وأحسب أن تلك الأعراب أصح ما يمكن نسبته إلى الخليل، ولهذا كان موضع البحث مقتصرًا على ما عزا سيبويه إلى الخليل، دون الأعراب التي عزيت إليه في مواطن أخر.

٢- أن تلك الأعراب التي نقلها سيبويه عن الخليل تتسم بالقوة والوجاهة، وإخال أن هذا هو ما حدا بجمهور النحويين إلى موافقته فيها، ولعل هذه السمة هي السمة الغالبة على ما أعربه رحمه الله، وفي ذلك تفسير لما وصف به الخليل من الذكاء المفرط، وما تحلى به من العلم الغزير، فجل أعرابه - كما قلت - محل إجلال وإكبار من النحويين فلم يستطع أكثرهم العدول عنها، بل ألزمته بما تضمنته من حجج وبراهين أن يتقبلها ويذود عن حياضها.

وأستثني من تلك الأعراب إعراباً واحداً يمكن وصفه بأنه إعراب مرجوح على ما فسره وفهمه السيرافي والرماني وأبو حيان، وهو ذهابه إلى أن (أكن) في قوله سبحانه: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾^١ مجزوم على التوهم، وهذا خلاف ما ذهب إليه الجمهور من أنه محمول على محل (فأصدق)؛ لأن محله جزم لأنه جاء جواباً للطلب، أما الفارسي ففسر التوهم بما يتوافق مع قول الجمهور؛ إذ فسر التوهم بالحمل على المحل.

٣- أنه يمكن تقسيم أعراب الخليل - رحمه الله - قسمين:

الأول: الأعراب التي وافقه فيها جميع النحويين أو جمهورهم، ومعظم أعرابه تدخل تحت هذا القسم.^٢

الثاني: الأعراب التي تابعه فيها بعض النحويين.^٣

^١ المنافقون: ١٠

^٢ - ينظر المسائل: الثانية، والثالثة، والخامسية، والسادسة، والسابعة، والثامنة، والتاسعة، والعاشر، والثانية عشرة، والثالثة عشرة، والرابعة عشرة، والخامسة عشرة، والسابعة عشرة، والحادية والعشرين.

^٣ - ينظر المسائل: الأولى، والرابعة، والحادية عشرة، والثامنة عشرة، والتاسعة عشرة.

- ٤- لاحظت من خلال هذا البحث أنه لم يكن عند الخليل تعدد في الأوجه الإعرابية للموضع الواحد، فهو يذكر إعراباً واحداً لكل آية، وهذا بالتأكيد فيه دلالة على بعده عن التكلف والتمحل في البحث عن الأوجه في الإعراب.
- ٥- أن الخليل - رحمه الله - قد ترك أثراً واضحاً فيمن جاء بعده من خلال أعاريبه، إذا يلحظ أن معظم تلك الأعاريب قد وافقه فيها كثير من النحويين كما أشرت سابقاً، وأخص بالذكر هنا تلميذه وصفيه سيبويه.
- ٦- ظهر لي من خلال هذه المسائل تأثر الخليل بشيخه عيسى بن عمر في مسألة واحدة: إذا أخذ برأيه في إعراب (حمالة الحطب) في قوله تعالى: ﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ هَبٍ، وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾^١ فأعربها منصوبة على الذم والشتم.^٢
- ٧- تبين لي أن للخليل - رحمه الله - عناية بالقراءات القرآنية، ولهذا تجده يبحث جاهداً عن توجيه يناسب تلك القراءة، من غير قدح فيها أو غض من قدر قارئها، مع كون بعض تلك القراءات غير متواتر^٣، وقد وجه عدداً من القراءات القرآنية من خلال المسائل السابقة.^٤
- وإن من يتأمل (الكتاب) ليجد ذلك التلميذ النجيب سيبويه قد سار على نهج شيخه في موقفه من القراءات إكباراً لشأنها، وإجلالاً وتقديراً لقارئها.
- ٨- ظهر لي من خلال دراستي لهذه الأعاريب أن الخليل - رحمه الله - يقول بأقوى الحجج وأكثر الوجوه استقامة، مع كونه يجنح إلى الأعاريب السهلة

^١ - المسد: ٣-٤.

^٢ - ينظر: المسألة الحادية والعشرون.

^٣ - ينظر: المسألة السادسة عشرة.

^٤ - ينظر إلى المسائل الثامنة، والثالثة عشرة، والسادسة عشرة، والسابعة عشرة، والتاسعة عشرة، والحادية والعشرين.

الواضحة التي ليس فيها تكلف، شريطة أن تكون قوية من حيث المعنى،
فقلما تجده - رحمه الله - يلجأ إلى التأويل دونما حاجة ملحة تدعوه إلى
ذلك.

٩- كان لدي أمل أن يكون صاحب معجم (العين) قد تطرق إلى بعض الأعراب
التي نقلها سيبويه عن الخليل؛ ليكون ذلك مرجحا لنسبة ذلك الكتاب إلى
الخليل أو مضعفا لتلك النسبة، إلا أن ذلك لم يكن؛ إذ لم يتطرق صاحب
العين إلا إلى مسألة واحدة من المسائل التي تضمنتها تلك الآيات، وقد وافق
ما في (العين) ما عزاه سيبويه إلى الخليل في تلك المسألة، وهي مسألة أصل
(ويكأن)؛ إذ ذهب الخليل إلى أن (ويكأن) مركبة من (وي) و (كأن)، وهو
نفسه القول الذي قال به صاحب معجم العين، ولعل هذا الدليل يمكن أن
يضاف إلى الأدلة التي استدل بها من ذهب إلى أن ذلك الكتاب من صنع
الخليل بن أحمد رحمه الله.

١٠- لقد تجلت أخلاق العالم الرياني في شخص الخليل بن أحمد رحمه الله، فكثيراً
ما كان تلميذه سيبويه يذكر واقعا حيا لما كان يدور بينه وبين شيخه من
حوار ومناقشة، وإنك لتلمس من هذا أن ذلك الشيخ الجليل يتدارس مع تلميذه
الفطن تلك المسائل من غير تكبر أو سأم، بل إنه يسعى جاهدا لإيصال تلك
الفكرة إليه بأسلوب لطيف ميسور.

كما ظهر أن ذلك العالم قد تميز بعفة اللسان، إذ لم ينقل عنه سيبويه أنه أغلظ
في القول مع أحد من مخالفيه، كما فعل غيره من الأعلام، فها هو ذا سيبويه نفسه
ينقل عن شيخه يونس عن أبي عمرو ابن العلاء أنه قال عن أحد القراء - وهو ابن

مروان الذي قرأ: {هؤلاء بناتي هنَّ أظهرَ لكم}¹ بنصب (أظهر)- : احتبى ابن مروان
في ذِه في اللحن.²



¹- هود: ٧٨.

²- ينظر: الكتاب: ٣٩٦/٢.

الفصل الثاني

المبحث الرابع

خصائص التحليل النحوي عند الخليل بن أحمد عن
غيره من النحاة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أفضل الخلق أجمعين سيدنا محمد
أما بعد، فإننا سنتناول في بحثنا هذا الحديث عن موضع له صلة بعلم من أعلام
النحو العربي ألا وهو الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي أرسى قواعد النحو العربي،
والذي قيض الله سبحانه وتعالى له تلميذه سيبويه الذي نقل عنه بكل أمانة وصدق،
إذ إنّ من المعروف أن الخليل لم يترك لنا كتاباً في النحو العربي، "فلم يصلنا
بالخليل إلا تلاميذه الذين كتبوا ما سمعوا عنه، وما أملاه عليهم، ولم يترك لنا الخليل
من الكتب ما نستطيع معه أن نتعرف به على ملامح شخصيته العظيمة العلمية.
فنحوه لم يصل إلينا إلا عن طريق سيبويه وكتابه، وأقواله في اللغة والأصوات لم
تصل إلينا إلا عن طريق تلميذه الليث بن المظفر، وعروضه لم يصل إلينا إلا عن
طريق الأخفش. هذه الجوانب الثلاثة من حياة الخليل العلمية لم تصل إلينا في كتب
صنّفها هو، وإنما أملاها على تلاميذه الذي نقلوها عنه بأمانة وإخلاص"^١.

وإن الجانب الذي سنتحدث عنه في هذا البحث لم يكن مرتكزاً على الحديث
عن سيرته إذ وجدت غيري من الباحثين قد تناول هذا الجانب وهو الدكتور مهدي

^١ - الخليل بن أحمد أعماله ومنهجه، مهدي المخزومي، ط٢، دار الرائد العربي، بيروت - لبنان:
١٩٨٦م - ١٤٠٦هـ.

المخزومي في كتابه الخليل بن أحمد أعماله ومنهجه، المطبوع في بيروت سنة ١٩٨٦م، وغيره من الباحثين.^١

ولم يكن همنا في هذا للبحث الحديث عن سعة إطلاع الخليل بن أحمد في مختلف الثقافات، ولا الحديث عن ذكائه المتوقد إذ إنه "أذكى العرب. وهو مفتاح العلوم ومصرفها".^٢ ولكن الأمر الأساسي هو التعرف على مدى ظهور العلل الدلالية عند الخليل بن أحمد وإن قال قائل لما حُصر الحديث عن هذه العلل دون غيرها، قيل له: كما يبدو لي إن كثرة الاهتمام بهذه العلل فيه مؤشر على مدى الاهتمام بوضوح المعنى والبعد عن التعقيد، فالعلل الدلالية هي التي كان يُعلل بها "بالرجوع إلى المعنى، وذلك بإضفاء قيمة دلالية على النص المعلل له، أو بإضفاء قيمة دلالية للخروج عن القاعدة".^٣ وهذه من المبادئ السانية التي كانت في ذهن الخليل بن أحمد "الذي يرجع إلى جهوده القيمة ومؤلفاته الجليلة وعبقريته النادرة أكبر قسط من الفضل في النهوض بهاتين الشعبتين (النحو والصرف) وغيرهما من شعب البحوث اللسانية".^٤

وإنني أرى أن حاجة البحث تقتضي أن نتحدث عن العلة النحوية ولو بشكل مختصر، وعن التعليل عند الخليل بن أحمد قبل أن يصل بنا المطاف إلى العلل الدلالية عن الخليل بن أحمد الذي "استطاع أن يستنبط من علل النحو ما لم يستنبط أحد".^٥

^١ - ينظر: كتاب مسائل خلافية بين الخليل وسيبويه، د. فخر قدارة، للدكتور مهدي المخزومي أيضاً كتاب بعد وان عبقري من البصرة.

^٢ - مراتب النحويين، أبو الطيب اللغوي، ص ٥٥، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، ط ٢.

^٣ - التعليل اللغوي في كتاب سيبويه، ص ٩٢، د. شعبان عوض محمد العبيدي، دار الكتب الوطنية، بنغازي ط ١٩٩٩، أم.

^٤ - عم اللغة، علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ط ١، ص ٦٩.

^٥ - طبقات اللغويين والنحويين، ص ٤٣.

إن من طبيعة الإنسان عادة السؤال عن السبب الذي أدى بشيء ما على أن يكون على صورة معينة دون غيرها، وهذا ما حصل للنحاة عند استقراءهم لكلام العرب: "كان الخليل عملياً تجريبياً استقرأ كلام العرب وأخذ يتذوق أساليبهم ويتدبر تعبيراتهم، ثم أخذ يجري عليها تجاربه ليصل إلى نتائج لا يمكن الوصول إليها بغير التجربة والاستقراء"^١. إذ يعد "المنهج الاستقرائي الأكثر أهمية وموضوعية، والأكثر جذباً للانتباه في العصر الحديث"^٢. والاستقراء والتجربة من المعايير اللسانية في الدرس اللساني المعاصر "فعلى هذا السنن سار علم اللغة في دراساته فاستخدم طرقاً عامة... الطريقة التجريبية... واستخدمت هذه الطريقة كذلك في الظواهر اللغوية المتعلقة بالدلالة (السيمنتك)، ووصل بفضلها العلماء إلى نتائج ذات بال لاسيما في دراسة اللهجات واللغات العامية (الدياليكتولوجي). فلم يكتف الباحثون في هذه الناحية بملاحظة الأشخاص وهم يتحدثون في حالاتهم العادية، بل لجأوا كذلك إلى التجارب أي إثارة الظواهر اللغوية وتوجيهها في النواحي التي تتيح لهم الوقوف على حقيقة أو استنباط قانون"^٣.

الخليل بن أحمد كان "ينظر إلى اللغة على أنها ظاهرة اجتماعية، فلا بد أن تخضع لما تخضع له الظواهر الاجتماعية الأخرى، ولا بد أن يدرسها دراسة علمية طبيعية قائمة على الاستقراء والتجربة"^٤.

^١ - الخليل بن أحمد أعماله ومنهجه، ص ٦٠.

^٢ - فقه اللغة العربية وخصائصها، ص ٨٥، د. أميل بديع يعقوب، ط ١، ١٩٨٢م، دار العلم للملايين، بيروت.

^٣ - علم اللغة، د. علي عبد الوحد وافي، ص ٤٧.

^٤ - الخليل بن أحمد أعماله ومنهجه، ص ١٥٩.

والخليل صاحب العبقرية الفذة، المتمرس بالغغة وقواعدها، "المهد الطريق أمام تلميذه سيبويه ليضع الصورة النهائية للنحو العربي والملاحم الأولى لمستويات الدرس واللسان"^١.

وإن الخليل بن أحمد "ليست المسألة عنده مسألة سماع وشواهد فحسب، فقد جعله استقرؤه للغة العرب أن تستقر في نفسه سليقتهم استقراء مكنه من ضبط القواعد النحوية والصرفية ضبطاً يبهر كل من يقرأ مراجعات سيبويه له"^٢.

ويعد الخليل بن أحمد من أوائل الذين قاموا باستقراء اللغة، فقد ابتكر طريقة هندسية مكنته من ضبط كلام العرب وحصره. ويسرت له ما استعمل من كلامهم، وما أهمل منه بأسلوب دقيق قائم على حصر الألفاظ المحتملة التي يصح أن تأتلف منها مفردات الأصوات العربية.^٣

وإن الدراسات اللغوية أكثر ما تعتمد على الاستقراء، بل لا سبيل إلى دراستها واستخراج قواعدها إلا عن طريق الاستقراء، فليست الدراسات اللغوية من القضايا المجردة التي يصل العقل إلى أحكامها الكلية قبل استقراء الجزئيات.^٤

وقد ذهب بعض الباحثين المحدثين إلى "أن علماء اللغة كانوا يفرضون القواعد ثم يعمدون إلى إخضاع كلام العرب لهذه القواعد. فيرتضون ما وافقها، ويرفضون ما جاء خارجاً عنها"^٥. ولكن "وظيفة اللغويين والنحاة الأوائل متجه صوب وصف الحقائق لا فرض القواعد"^٦.

^١ - أصول تراثيه في اللسانيات الحديثة، ص ١٣، د. كريم زكي حسام الدين، ط ٣، ١٩٨٤م.

^٢ - المدارس النحوية، ص ٤٧، د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، ط ٢.

^٣ - دراسات في اللغة والنحو، د. عدنان محمد سلمان، ط ١، ص ٤٦، ١٩٩١م

^٤ - الخليل بن أحمد أعماله ومنهجه، ص ٢٢٤.

^٥ - دراسات في اللغة والنحو، ص ٤٥، د. عدنان محمد سلمان، ط ١، ١٩٩١م

^٦ - دراسات في فقه اللغة ص ٢٦، د. صبحي الصالح، ط ٥، بيروت، ١٩٧٣م.

وإن العملية الاستقرائية عند العرب تثبت بشكل قاطع أن البحث اللغوي عند العرب اتخذ مجراه الطبيعي في التعامل مع الظواهر، وهو يتفق تماماً مع منهج العلوم التي تستند إلى الاستقراء العلمي المنظم بدءاً بالجزئيات في التتبع والاستقراء، وصولاً إلى الكليات في استخلاص الأصول في حين أن البحث اللغوي عند الغربيين كان في مبدئه معيارياً لا يعتبر عن روح المنهج العلمي.^١

وقد رأى بان جني "إن النحو منتزع من استقراء هذه اللغة، فكل من فرق له عن عله صحيحه وطريق منهجه، كان خليل نفسه، وأبا عمرو وفكره".^٢

ولنصرف القلم عن الكتابة عن التجربة والاستقراء اللذين أفردنا لهما جانبا من الحديث؛ لصلتهما بالعلة النحوية، ولنعد إلى الحديث عن التعليل الذي يمثل واحداً من الدروس اللسانية، والذي "يُعد عنصراً أساسياً في الدرس النحوي عند العرب، وإذا كان التعليل لم يظهر ظهوراً واضحاً في المراحل الباكرة، فإن التعليل كان من الأصول الأولى، وقد ظلّ يتطور حتى غلب على الفكر النحوي كله، وقد عرف النحاة الأوائل بأنهم معللون"^٣. "فالعلة النحوية قد نشأت وترعرعت منذ أن نشأت الدراسات النحوية، ومن الطبيعي أن يُنسب التعليل إلى علماء العربية الأوائل، وأن يكون التعليل مرافقاً للحكم النحوي منذ أن وجد النحو".^٤

^١ - المنهج الوصفي في كتاب سيبويه، د. توزاد حسن أحمد، ص ٥٥، منشورات جامعة قار يونس، ط ١، ١٩٦٦.

^٢ - الخصائص / ١/ ١٨٩، ابن جني، تحقيق محمد علي النجار، المكتبة العلمية.

^٣ - النحو العربي والدرس الحديث، ص ٨٠، د. عبده الراجحي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٨٨م.

^٤ - علل النحو، ص ٧، ابن الورّاق، تحقيق د. محمود جاسم الدرويش، كلية الآداب، الجامعة المستنصرية.

والخليل كان واحداً من أوائل العلماء الذين كانت لهم جهود عظيمة في إرساء قواعد النحو العربي والذي كان له الأثر الواضح في كتاب سيبويه فضلاً عن الدور الكبير لسيبويه الذي "أراد من تأليف كتابه إحياء علم الخليل".^١

ويكفي الخليل "فخراً أنه أنجب للنحو تلميذاً من تلاميذه طبقت شهرته الآفاق، وقدم للعربية كتاباً كاملاً في النحو، ولم يكتب شيئاً في النحو، ولا ألف فيه كتاباً، وإنما اكتفى في ذلك بما أوحى إلى سيبويه من علمه، وبما لقنه من دقائق نظره ونتائج فكره، ولطائف حكمته، فحمل سيبويه ذلك عنه، وألف فيه كتابه الذي أعجز من تقدّم قبله، وامتنع على من تأخر بعده".^٢

وإن الباحث الذي يرغب في دراسة نحو الخليل لا يأتيه إلا من باب كتاب سيبويه، إذ إن كتاب سيبويه يكاد "أن يكون مبنياً كله على التعليل والحوار الذي يجري فيه دائماً بينه وبين أستاذه الخليل، يبدأ في الأعم بالسؤال عن العلل".^٣

ويمكن أن يكون الحوار مبنياً عن السؤال عن العلة سبب ما كان معروفاً لدى الخليل بن أحمد عن العرب من أنهم لا ينطقون كلامهم اعتباطاً، بل راعوا في عقولهم عللاً له، وإن لم يصرحوا بها تصريحاً، فشذ هو فكرة لاستخراجها وانتزاعها، مستنداً إلى خبرته بمقاصد العرب في استعمالاتهم، وتمرسه بأساليبهم، ومعرفته بذوقهم فيما يستحسنونه أو يستقبحونه من الطبيعي أن تكثر تعليقاته وتتسع، ما دام

^١ - ينظر: طبقات النحويين واللغويين، ص ٧٥، للزبيدي، وينظر: أنباء الرواة، ١/٣٤٦.

^٢ - المزهري ١/٨٠، للسيوطي، تحقيق محمد أحمد جاد المولى، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد

البجاوي، دار التراث بالقاهرة، ط

^٣ - النحو العربي والدرس الحديث، ص ٨٠

يعتقد أن لكل ما نطق به العرب علّة مرعية. ومن يقرأ أقواله في كتاب سيبويه يدرك أن ليس عنده شيء لا يُعلل حتى ما جاء شذوذاً أو اضطراراً.^١

وتكوّن الخبرة بما يعنيه العرب في كلامهم، والتمرس بأساليبهم، والتعمق في معرفة ذوقهم لا يأتي إلا من نظر ثاقب، ودراسة معمقة، وهذا ما كان لدى الخليل بن أحمد في نظريته يظهر لي - نهج وضعه الخليل بن أحمد لنفسه، فهو صاحب عقلية نيّرة أتت به إلى أن يصل إلى ما وصل إليه من المعرفة بمختلف العلوم "فلم تكن طريقة الخليل في دراسته استعياب ما كان يأخذه عن شيوخه شأن الرواة الحقاظ، بل كان يتمثل كل ذلك في نفسه، ولم نسجل هذا عن افتراض نفترضه وإنما نعتمد فيه على كلام له فقد روى المبرد أنه قال: "كن على مدارس ما في قلبك أحرص منك على حفظ كتبك".^٢ وقد قال فيه سفيان الثوري "من أحب أن ينظر إلى رجل خلق من الذهب والمسك فليُنظر إلى الخليل بن أحمد".^٣

قلنا: إن الخليل بن أحمد كانت لديه معرفة بأن العرب لم ينطقوا كلامهم اعتباطاً، بل كان لعل في أذهانهم، فمن هنا - كما أزع - بين لنا الخليل بن أحمد الغاية الأساسية التي من أجلها جاء التعليل، وهي فهم كلام العرب، - وفي أغلب ظني - أن العلل الدلالية قد ولدت من رحم معرفة مقاصد العرب في كلامهم وهذه المعرفة ترتبط بنشوء النحو العربي الذي كان سببه اللحن الذي يتمثل بالخروج عن الاستعمال اللغوي الصحيح لكلام العرب، والمؤدي في النهاية إلى غموض المعنى وإبهامه والابتعاد بالسامع أو القارئ عما يقصده المتكلم.

^١ - وضع الخليل بن أحمد لأصول النحو البصري وفروعه، ص ٦٧، رسالة ماجستير، جعفر نايف عابنه، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٧٠م.

^٢ - الخليل بن أحمد، أعماله ومنهجه، ص ٥٨.

^٣ - السابق نفسه، ص ٥٣.

والخليل بن أحمد "التقى مع من سبقه من النحاة في الغاية من التعليل، وهي فهم كلام العرب. ولكن ثقافته الواسعة طبعت تعليله بطوابع هامة تميّز بها من تعليل سالفه. وأول ما يلاحظ، أنه قد وسع نطاق العلة حتى شملت جميع الأحكام، ذاهباً إلى أن العرب بنوا أحكام نطقهم على علل معتبرة، جعل همّه أن يستخرجها، ويبين وجه الحكمة فيها"^١. ولعل هذا هو مصدر قول القدماء: "إنه قد استنبط من علل النحو ما لم يستنبطه أحد، أو لم يسبقه إليه أحد"^٢. وهو أول من بسط القول في العلل النحوية بسطاً لفت بعض معاصريه"^٣.

ولا أجنب الصواب إذا قلت: إن هناك مقولة للخليل بن أحمد تُعد الأساس الذي قام عليه التعليل في النحو العربي وهي: إنه عندما سُئل الخليل عن علله هل أخذها عن العرب أم اخترعها من نفسه، فكان جوابه "إن العرب نطقت على سجيّتها وطباعها، وعرفت ومواقع كلامها، وقام في عقولها علله، وإن لم ينقل ذلك عنها. واعتلت أنا بما عندي أنه علة لما علّته منه، فإن أكن أصبت فهو الذي التمس، وإن تكن هناك علة له، فمثلي في ذلك مثل رجل حكيم دخل داراً محكمة البناء، عجيبه النظم والأقسام، وقد صحت عنده حكمة بانيها بالخبر الصادق أو بالبراهين الواضحة والحجج اللائحة، فكلما وقف هذا الرجل في الدار على شيء منها قال: إنما فعل هذا هكذا لعله كذا وكذا، سنحت له، وخطرت بباله محتملة لذلك فجائز أن يكون الحكيم الباني للدار فعل ذلك للعلة التي ذكرها هذا الذي دخل الدار، وجائز أن يكون فعله لغير تلك العلة، إلا إن ذلك مما ذكره هذا الرجل محتمل أن يكون علة

^١ - وضع الخليل بن أحمد لأصول النحو البصري وفروعه، ص ٨١.

^٢ - طبقات اللغويين والنحويين، ص ٤٣، الزبيدي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ١، القاهرة، ١٩٥٤م.

^٣ - الإيضاح في علل النحو، المقدمة بقلم د. شوقي ضيف، (ب)، لأبي القاسم الزجاجي، تحقيق د. مازن المبارك، الناشر مكتبة دار العروبة، مصر، ١٣٧٨هـ - ١٩٥٩.

لذلك، فإن سنح لغيري علة لما علته من النحو هي أليق مما ذكرته بالمعلول، فليأت بها"^١.

وأرى؛ استكمالاً لحاجة البحث أن نعرّف بعلم الدلالة مرة أخرى لتوضيح بعض متعلقات البحث في هذه المسئلة، وذلك قبل أن نشرع ببيان العلل الدلالية. لقد عُرّف علم الدلالة بأنه البحث في تحليل معنى الكلمة. أو العبارة أو الجملة من وجهة لغوية. وهذا العلم مهم بعد أن شاعت الدراسة الشكلية للغة، وأصبحت لا تقدم ما ينفع، لأن المعنى عنصر رئيس، ولا خير في دراسة لغوية أو نقدية لا تقف عن المعنى، وتوضح العلاقة بين الألفاظ وما تؤديه من معان يهدف إليها المتكلم أو المبدع.^٢

وإن علم الدلالة "يمثل مستوى من مستويات الدرس اللساني، وهو يرتبط بالمستويات الأخرى الصوتية والصرفية والتركيبية، وتتعاون هذه المستويات على بيانه وتوضحيه، فهو يرتبط بالفونيمات أو الوحدات الصوتية، كما يرتبط بالكلمات أو الصيغ الصرفية إلى جانب الجمل أو التراكيب، وبهذا نجد أن الدرس الدلالي يشترج بهذه المستويات ويرتبط بها ارتباطاً وثيقاً".^٣

ومن تعريفات علم الدلالة أيضاً "دراسة المعنى" أو "العلم الذي يدرس المعنى" أو "ذلك الفرع الذي يدرس الشروط الواجب توافرها من الرمز حتى يكون قادراً على حمل المعنى".^٤

^١ - السابق نفسه، ص ٦٥.

^٢ - مجلة الضاد، ص ٢١٧، (تطور البحث الدلالي)، د. أحمد مطلوب، ج ٢ جمادي الأخرى ١٩٠٤ هـ - كانون الثاني ١٩٨٩ م.

^٣ - أصول تراثية في اللسانيات الحديثة، د. كريم زكي حسام الدين، ط ٣، ص ٢٤٤، ١٩٨٤ م.

^٤ - علم الدلالة، ص ١١، د. أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط ٥، ١٩٩٨ م.

وأكد أقول: إن فهم الخليل للنحو، والتعريفات السابقة لعلم الدلالة هما من واد واحد فدراسة النحو بمعناه العام كما يفهمه الخليل بن أحمد يشتمل على "دراسة الكلمة مفردة لهم بنائها العام في العربية، ودراستها في الجملة لفهم دلالتها على معنى من المعاني التي أراد العرب التعبير عنها. قد خطا الخليل بهذه الدراسة خطوات واسعة، وتعجل تكوينها في زمن تقتضي ظواهر الأشياء أن تتأخر عنه، واختصر المسافة والزمن اللذين ينبغي أن تقطعها لكي تصل إلى المستوى الذي وصلت إليه، وتوصل من ذلك إلى نتائج باهرة حقاً تدعو إلى كثير من الإعجاب".^١

والخليل بن أحمد "كان يتذوق الكلمات ومواقعها في العبارات ليدرك ما تدل عليه من معانٍ إعرابية، هي الصورة النفسية التي مثلت في نفس العربي، فأراد التعبير عنها، وكان يتذوق الكلمات ليفقه ما في هذه الكلمات من أسرار، وكان يقلب الجمل على وجوهها التي يحتمل أن يكون العرب قصدوا إليها، ليقف على المعاني المختلفة التي تدل على هذه الوجوه".^٢

فمن هنا نقول إن "الاهتمام بالمعنى كان مستحضراً في ذهن الخليل بن أحمد الفراهيدي وهذا يقودنا إلى القول بأن الاهتمام بالمعنى لم يبدأ منذ القرن العشرين، وذلك بعد أن لفت اللساني بريال أنظار اللسانيين إلى مشكلة المعنى".^٣

وأقول: إن آراء الخليل بن أحمد المتمثلة في كتاب تلميذه سيبويه هي التي أرست دعائم علم الدلالة وليست آراء سوسير كما رأى بعض الباحثين في قوله:

^١ - الخليل بن أحمد أعماله ومنهجه، ص ٧٥.

^٢ - السابق نفسه، ص ٢٢٥.

^٣ - أصول تراثية في اللسانيات الحديثة، ص ٢٤٥.

"كانت آراء سوسير... من أهم المؤثرات التي أرست دعائم علم الدلالة الذي يعد من أحدث مجالات علم اللسانيات الحديثة".^١

وإن ما جاء به أصحاب المدرسة الألمانية فيما يتعلق بنظرية المجال الدلالي المتمثلة بتحديد "معنى الكلمة على أساس علاقاتها بالكلمات الأخرى المجاورة لها".^٢ وهذا لم يكن غائباً عن ذهن الخليل بن أحمد الذي "كان يمتاز بحس لغوي دقيق جعله يفقه أسرار العربية ودقائقها في العبارات والألفاظ فقهاً لعل أحداً من معاصريه لم يبلغه".^٣

و "على أية حال لقد أثبت باحثون لسانيون غربيون معتدلون أمثال (روبنز، وتشومسكي) تأثر اللسانيات الحديثة بالتراث العربي وذلك عن طريق وسائل مختلفة سواء أكانت مباشرة (الاطلاع على التراث اللغوي العربي باللغة العربية) أم غير مباشرة (عن طريق ترجمة أعمال النحاة واللغويين والبلاغيين العرب إلى لغات أجنبية كثيرة)".^٤

والدراسة اللغوية يجب أن يكون "موضوعها الأول والأخير هو المعنى، وكيفية ارتباطه بأشكال التعبير المختلفة، فالارتباط بين الشكل والوظيفة هو اللغة، وهو العرف، وهو صلة المبنى بالمعنى" وهذه تُعد من المبادئ اللسانية، فضلاً عن العلل الدلالية التي سيأتي الحديث عنها لاحقاً، والتي تمثل كل علة منها مبدأً من المبادئ اللسانية، وإن هذه العلل المرتكزة على المعنى، فيها دليل على الاهتمام الكبير للخليل بن أحمد بالمعنى وضرورة وصوله إلى المتلقى بكل وضوح. ولنبدأ بتناول هذه العلل،

^١ - انظر: Semanties, p.1. second Edition London, 1983 plamer

^٢ انظر: Principles of semantics, p.159, ullmann

^٣ - المدارس النحوية، ص ٣٧

^٤ - دراسات لسانية تطبيقية، د. مازن الوعر، ط١، ص ٣١، ١٩٨٩م، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر.

والتي حاولت استخراجها من النصوص التي كان سيبويه يطرح فيها سؤالاً على الخليل بن أحمد إذ جاءت على النحو الآتي:

١ - الحذر من الوقوع في الالتباس

إن الاهتمام بالذوق العربي كان في مقدمات ما كان يهتم به الخليل، "فالحق أن مدرسة الخليل التي كانت تضع الذوق العربي في الأسلوب والتأليف في المقام الأول بدئت بالخليل، ولم يبرز من علماء اللغة بعده من استطاع أن ينهج منهجه إلا قلة من فقهاء اللغة، بنوا آثارهم على الأسس التي وضعها الخليل.^١

إن الغاية الأسمى من الكلام الموضوع والإبانة، وإلا فقد الكلام قيمته، فما كان في ذهن العرب هو الحرص على أن يكون كلامهم واضحاً فيتوخون ذلك في مراعات الحركات الإعرابية من رفع أو نصب أو جر، أو في نواحي الحذف والإضافة وغيرها من الحالات التي تؤدي مراعاتها إلى عدم الوقوع في الالتباس. وهذا ما وجدناه في تعليل الخليل بن أحمد لعدم حذف (عَشَرَ) من اثنا عشر وعلة ذلك حتى لا يلتبس الأمر على القارئ فيحسب أن المقصود كلمة (الاثنين) وإن مثل هذه الالتفاتة إن دلت على شيء فإنما تدل على دقة كبيرة عند صاحب هذا التعليل وإنه قد تمرس في لغة العرب وعرف مقدار كرههم للالتباس المؤدي إلى الخلط بين المعاني. إذ إن خشية الوقوع في الالتباس دليل قاطع على حرص العرب على أن يكون كلامهم واضحاً، ودليل على حذرهم الذي يحفظ اللسان من الوقوع في المتشابهات التي من شأنها أن تجعل الاستعمالات اللغوية مضطربة.

^١ - الخليل بن أحمد أعماله ومنهجه، ص ٢٢٨.

"وأما اثنا عشر فزعم الخليل أنه لا يُغَيَّر عن حالة قبل التسمية، وليس بمنزلة خمسة عشر؛ وذلك إن الإعراب يقع على الصدر فيصير اثنا في الرفع. وأثنتي في النصب والجر وعَشَرَ بمنزلة النون ولا يجوز فيها الإضافة كما لا يجوز في مُسْلِمِينَ، ولا تُحذف عَشَرَ مخافة أن يلتبس بالاثنتين فيكونَ علم العدد قد ذهب. فإن صار اسم رجل فأضفت حذف عَشَرَ لأنك لست تريد العدد، وليس موضع التباس، لأنك لا تريد أن تفرق بين عددين فإنما هو بمنزلة زَيْدِينَ".^١

وقد رأى الخليل أنه لا يجوز النسب إلى عَبْدٍ منافٍ بقولنا: منافيٌّ وذلك خشية الوقوع في الالتباس مع أن القياس يكون كما وضّحه سيبويه بقوله: "عَبْدُ الْقَيْسِ، وامرؤ القيس، فهذه الأسماء علامات كزيد وعمر، فإذا أضفت قلت: عبديٌّ وامرئيٌّ، ومرئيٌّ، فكذلك هذا وأشباهه".^٢

قال سيبويه: "وسألت الخليل عن قولهم في عبد منافٍ منافيٌّ فقال: أما القياس فكما ذكرت لك، إلا أنهم قالوا منافيٌّ مخافة الالتباس، ولو فعل ذلك بما جُعِلَ اسماً من شيئين جاز؛ لكرهية الالتباس".^٣

ومثال ما جُعِلَ اسماً م شيئين كما في قول سيبويه الآتي: "من الأشياء التي هي من شيئين جُعِلَا اسماً واحداً ما لا يكون على مثاله والواحد، نحو: أيادي سَبَا، لأنه ثمانية أحرف، ولم يجيء اسم واحد عِدَّتَه ثمانية أحرف".^٤

^١ - الكتاب ج ٣، ص ٣٠٧، تحقيق عبد السلام محمد هارون، الناشر مكتبة الخانجي، ط ٢، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م.

^٢ - الكتاب ج ٣، ص ٣٧٦.

^٣ - السابق نفسه، ج ٣، ص ٣٧٦.

^٤ - الكتاب، ج ٣، ص ٣٧٦.

٢ - التأويل

إن المقصود بالتأويل النحوي مأخوذ من المعنى اللغوي لكلمة تأويل ففي اللغة "أول الكلام تأويلاً، وتأوله: دبّره وقدره وفسّره".^١

والتأويل "صرف الكلام عن ظاهرة إلى وجوه خفية تحتاج لتقدير وتدبر، وإن النحاة قد أولوا الكلام وصرفوه عن ظاهرة لكي يوافق قوانين النحو وأحكامه".^٢ وإن مضمون التأويل "البحث عن الباطن خلف الظاهر، وافتراض حروف في مادة الكلمة وصيغ لكلمات وجمل كاملة وكل ذلك من عمل الذهن وعلى أساس القواعد".^٣

وإن مظاهر التأويل النحوي تتمثل بأربعة أمور "الحذف، والاستتار، وصوغ المصدر، والتقدير في الجمل والمفردات".^٤

وقد كان الخليل يكثر من التأويل والتخريج حتى يصطدم ببعض القواعد التي يستظهرها، وهو في تضاعيف ذلك يحلل الألفاظ والكلام تحليلاً يعينه على ما يريد من توجيه الإعراب ومن التأويل والتفسير.^٥

لقد علل الخليل قوله ذهب ثلاثتهم وأربعتهم "بأن المتكلم عندما وضع علامة النصب يريد أن يعبر لنا بأنه يقصد "مررتُ بهؤلاء فقط". أما الذين يضعون الحركات الإعرابية حسب حركة الاسم السابق لكلمتي (ثلاثتهم وأربعتهم) أي إن كان الاسم مرفوعاً رفعوا، وإن كان منصوباً نصبوا وإن كان مجروراً جرّوا، فكأن الغاية التي في نفوسهم هي العموم وليس التخصيص كما في حالة النصب فقط.

^١ - القاموس المحيط، ٣/٣٣١، مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد الفيروز آبادي الشيرازي (ت ٨١٧).

^٢ - أصول النحو العربي، د. محمد عيد، عالم الكتب، القاهرة، ط ١، ص ١٨٥.

^٣ - أصول النحو العربي، ص ٢١٣.

^٤ - السابق نفسه، ص ١٩١.

^٥ - المدارس النحوية، د. شوقي ضيف، ص ٤٥.

لقد لاحظت أن سيبويه قد يبني باباً كاملاً على هذه العلة أي علة التعليل بما في النفس كما جاء في باب "ما جُعل من الأسماء مصدراً" وهذا ما في ذهن الخليل أيضاً؛ لأن الباب المذكور سابقاً- إن لم أكن مجانياً الصواب- قد بناه سيبويه على ما ذهب إليه الخليل. ولا أغالي إذا قلت: لو أن الخل ألف كتاباً في النحو فلا أظن، أنه سيأتي بهذا الباب على خلاف ما جاء في كتاب سيبويه. لقد بدأ سيبويه الباب بقوله: "هذا باب ما جُعل من الأسماء مصدراً" وذلك قولك: مررت به وخذته، ومررت بهم وخذهم، ومررت برجلٍ وخذته".^١

لقد كانت هناك وقفة للرمانى حول قول سيبويه السابق إذ قال: "وتقول مررت به وخذته فينصب على معنى أفردته بمروري وخذته واختصصته بمروري وخذته، ثم تحذف هذا الفعل؛ لأن وخذته يقتضي الاختصاص به دون غيره، إذ فيه معنى التوحيد في هذا الوجه".^٢

واستكمل سيبويه ما افتتح به الباب قائلاً: "ومثل ذلك في لغة أهل الحجاز: مررت بهم ثلاثتهم وأربعتهم، وكذلك إلى العشرة. وزعم الخليل رحمه الله أنه إذا نصب ثلاثتهم فكأنه يقول: مررت بهؤلاء فقط، لم أجاوز هؤلاء. كما إنه إن قال وخذته فإنما يريد: مررت به فقط لم أجازه. وأما بنو تميم فيجرونه على الاسم الأول: إن كان جرّاً فجراً، وإن كان نصباً فنصباً، وإن كان رفعاً فرفعاً. وزعم الخليل إن الذي يُجرونه فكأنهم يريدون أن يعموا، كقولك: مررت بهم كلهم أي لم أدع منهم أحداً.

وزعم الخليل رحمه الله، حيث مثّل نصب وخذته وخمستهم، إنه كقولك: أفردتهم إفراداً. فهذا تمثيل، ولكنه لم يستعمل في الكلام... وعندما ذكرنا الأفراد في وخذته، والانتقاض في قَضَّهم، لأنه إذا قال: قَضَّهم فهو مشتق من معنى الانتقاض، لأنه

^١ - الكتاب ج ١، ص ٣٧٣.

^٢ - الكتاب، الهامش ج ١، ص ٣٧٣.

كأنه يقول: إنقضَّ آخرهم على أولهم. وكذلك وحدَه إنما هو من معنى التفرّد. فكذلك أيضاً يكون خمستهم نصباً إذا أردت معنى الانفراد، فإن أردت إنك لم تدع منهم أحداً جررت، كما كان ذلك في قضّهم. وبعض العرب يجعل قضّهم بمنزلة كلّهم، يجريه على الوجوه"^١. والمقصود بالوجوه "وجوه الإنباع من الرفع والنصب والجر"^٢.

من الممكن أن نستخلص مما سبق؛ أن الخليل بن أحمد عند تعليقه للحالات الإعرابية سواء في النصب وحده، أم في الحالات الإعرابية جميعها كان ينظر من زاويتين - كما أزعّم - إحداهما تتمثل في العموم، والأخرى تتمثل في الخصوص، والنظر من هاتين الزاويتين فيه مؤشر على مدى الاهتمام بالمعنى واستحضاره في ذهن الخليل بن أحمد. وكأني به يحدد لنا أن المعنى يسير في اتجاهين: هما الاتجاه العام، والاتجاه الخاص.

وإنّ تعليق الخليل لما جاء عند أهل الحجاز ولما جاء عند أهل تميم فيه دلالة على معرفته الواسعة بالغاية من الكلام في ذهن العرب، وفيه دلالة على تبخّره - إن صح التعبير - في لغات العرب، وكيف لا وهو رائد الدراسات اللغوية.

ومن التعليق بما في النفس علة الرفع، والنصب لكلمة (أنفسهما) في عبارة (مررت بزيد وأتاني أخوه أنفسهما) الواردة في نص سيبويه الذي سنعرضه لاحقاً. فقد رأى الخليل بن أحمد أن الرفع يدل على معنى يريد المتكلم أن يوصله للسامع وهو أن زيداً وأخاه صاحباي. أما النصب ففيه دلالة على معنى "إنني أعني زيداً وأخاه". يتراءى لي - أن تعليق الخليل السابق لحالة الرفع نظر إليه من فهمه لموقف ما وهو أن المتكلم لا يمر بزيد إلا لأنه صاحبه، وإن أخا زيد جاء إلى المتكلم لأنه صاحبه أيضاً، فوضع الخليل بدلاً من (زيد وأخيه) الضمير هما ليكون مبتدأ، ومن

^١ - الكتاب ج ١، ص ٣٧٤، ٣٧٥.

^٢ - الكتاب، الحاشية، ج ١، ص ٣٧٥.

المعروف أن المبتدأ كثيراً ما يحتاج إلى خبر فوضع صاحبائي. فربما هذا ما كان في ذهن الخليل فجاء افتراضه من باب المبتدأ والخبر. أما النصب - من الممكن أنه - قد بناه على المفعول به وكأن المتكلم عند مروره بزيد وأخيه يكون قد رآهما معاً فيمكن تأويلها بأن المتكلم قد قال: (لقد رأيتهما أعني زيدا وأخاه). والخليل "يفترض مسائل لم يرد منها شيء في كلام العرب لتطبيق الأصول التي استخرجها عليها، وهو نوع من الاستقراء، ولكنه استقراء لصور يستخرجها العقل في ضوء الأساليب، وحمل لها في الحكم ما ورد في كلامهم"^١.

قال سيبويه: "سألت الخليل رحمه الله عن: مررتُ بزيد وأتاني أخوه أنفُسُهما، فقال: الرفع على هما صاحبائي أنفُسُهما، والنصب على أعنيهما، ولا مدح فيه لأنه ليس مما يُمدحُ به"^٢.

ومما جاء منصوباً أيضاً لعلّة في نفس المتكلم ما أورده لنا سيبويه عن الخليل بن أحمد في باب (ما ينصب على التعظيم والمدح) ويقصد به سيبويه النعت المنقطع^٣، إذ قال: "زعم الخليل إن نصب هذا على إنك لم ترد أن تحدّث الناس ولا من تخاطب بأمر جهلوه، ولكنهم قد علموا من ذلك ما قد علمت، فحعله ثناء وتعظيماً ونصبه على الفعل، كأنه قال: أذكر أهل ذاك، وأذكر المقيمين، ولكنه فعلٌ ولا يستعمل إظهاره"^٤.

واسم الإشارة "هذا" الوارد في النص السابق يشير به إلى نصب كلمة (أخاها)

الواردة في بيتي الشعر السابقين للنص المذكور سابقاً، والبيتان هما:

^١ - الخليل بن أحمد أعماله ومنهجه، ص ٢٣.

^٢ - الكتاب، ج ٢، ص ٦٠.

^٣ - ينظر: المنهج اللغوي في كتاب سيبويه، ص ٧٥، د. عبد الصبور شاهين، حوليات الجامعة التونسية، العدد (١١)، ١٩٧٤م.

^٤ - الكتاب ج ٢، ص ٦٥.

لقد حَمَلَت قيسُ بن عِيْلان حَرْبَها على مُسْتَقِلِّ للنوائب والحرب

أخاها إذا كانت عِضاضاً سما لها على كل حالٍ من ذُلُول ومن صَغْبٍ

وقد وَضَحَ لنا الخليل إن علة مجيء الكلمة منصوبة لشيء في نفس المتكلم لا يُفهم للوهلة الأولى؛ فالتكلم لا يقصد أن يخبرك بشيء أنت على مسبق به، ولكنه يذهب إلى أبعد من ذلك وهو المدح والثناء، وإن نصب كلمة المقيمين في الآية القرآنية الكريمة (والمقيمين الصلاة)^١. جاءت منصوبة على إضمار فعل كما بيّن لنا الخليل بن أحمد، والغاية المدح والثناء والله أعلم.

لقد استخلصنا مما سبق أن الغاية التي في نفس المتكلم المدح والثناء، وقد تكون الغاية أيضاً من باب التنبيه إلى أمر ما فجاء الكلام على قدر علم المتكلم كما في قول سيبويه الآتي: "وسألت الخليل رحمه الله تعالى عن قوله: "ويكأنه لا يُفح"^٢ وعن قوله تعالى جدّه "ويكأن الله"^٣. فزعم أنها ويّ مفصولة عن كَأَنَّ، والمعنى وقع على أن القوم انتبهوا فتكلموا على قدر علمهم، أو نُبِّهوا فقبل لهم: أما يشبه أن يكون هذا عندكم هكذا والله تعالى أعلم"^٤.

وللسيرافي في ويكأن ثلاثة أقوال: "أحدها قول الخليل الذي ذكرناه، تكون وي كلمة تندم بقولها المتندّم ويقولها المتندّم لغيره، ومعنى كَأَنَّ التحقيق. الثاني: قول الفراء، تكون ويك موصولة بالكاف، وإن منفصلة، ومعناها عنده تقرير، كقولك: أما

١ - الآية ١٦٢، سورة النساء.

٢ - الآية ٨٢، من سورة القصص.

٣ - الآية ٨٢، من سورة القصص.

٤ - الكتاب ج ٢، ص ١٥٤.

ترى؟! والقول الثالث: يذهب إلى أن ويك بمعنى ويلك، وجعل أن مفتوحة بفعل مضمر، كأنه قال: ويلك أعلم أن الله^١.

وقد تكون الغاية في نفس المتكلم التعريف أو التأكيد قال سيبويه، وزعم الخليل: إن الذي يقولون: غاق غاق، وعاء وعاء، فلا ينونون فيها ولا في أشباهها أنها معرفة، وكأنك قلت في عاء وعاء الإتياع، وكأنه قال: قال الغراب هذا النحو. وإن الذي قالوا: عاء وعاء وعاق جعلوها نكرة. وزعم الخليل: إن الذين قالوا: صه ذلك أرادوا النكرة، كأنهم قالوا: سكوتاً. وكذلك هيهات^٢، وما يمكن أن ندرجه تحت علة التعليل بما في النفس ما يأتي وحدثني الخليل وهارون أن ناساً يقولون: "مُرْدَفِين" فمن قال هذا فإنه يريد مُرْتَدَفِين.

وقد استند الخليل بن أحمد إلى النية لبيان سبب جر كلمة خير في النص الآتي: "ومن الصفة قولك: ما يحسن بالرجل مثلك أن يفعل ذاك، وما يحسن بالرجل خير منك أن يفعل ذاك وما يحسن بالرجل خير منك أن يفعل ذاك."

وزعم الخليل - رحمه الله - أنه إنما جر هذا على نية الألف واللام، ولكنه موضع لا تدخله الألف واللام كما كان الجماء الغفير منصوباً على نية إلقاء الألف واللام، نحو طُرّاً و قاطبةً والمصادر التي تشبهها^٣.

قال سيبويه: "وهو قولكم: مررت بهم الجماء الغفير، والناس فيها الجماء الغفير. فهذا ينتصب كانتصاب العراك. وزعم الخليل رحمه الله أنهم أدخلوا الألف واللام في هذا الحرف وتكلموا به على نية ما لا تدخله الألف واللام، وهذا جعل

١ - الكتاب، الحاشية ج ٢، ص ١٥٤.

٢ - السابق نفسه، ج ٣، ص ٣٠٢.

٣ - الكتاب، ج ٤، ص ٤٤٤.

كقولك: مررت بهم قاطبةً، ومررت بهم طُرّاً، أي جميعاً؛^١ إلا أن هذا نكرة لا يدخله الألف واللام، كما أنه ليس كل المصادر بمنزلة العراك كأنه قال: مررت بهم جميعاً^٢. ومن التعلل بعلّة النية أيضاً ما يتعلق بكلمة (لتفعلن) إذا لم تسبق بما يحلف به "وسألته عن قوله لتفعلن، إذا جاءت مبتدأة ليس قبلها ما يحلف به؟ فقال: إنما جاءت على نية اليمين وإن لم يتكلم بالمحلف به"^٣.

قد نخلص إلى القول بأن التأويل قد بناه الخليل على واحد من الأبواب الآتية:
(١) باب العموم والخصوص (٢) باب إخبار السامع بشيء لا يعرفه. (٣) باب المدح والثناء (٤) باب التنبيه (٥) باب التعريف والتذكير (٦) باب النية.
وهذه الأبواب من الممكن أن نعدّها من مظاهر التأويل فضلاً عن المظاهر التي عرفناها سابقاً.

٣ - الإضمار والتثنية

إن الحذف بعد ظاهرة من الظواهر اللغوية التي يقوم فيها الجانب الدلالي بدور بارز غير أن هذه القضية تتعلق بمنهج النحاة نفسه، ففي الحذف تدفع دلالة السياق المتكلم في كثير من الأحيان إلى الاختصار والحذف لبعض عناصر الجملة، ويكون ذلك على ضربين: أحدهما ما يكون بالتوسع في إيقاع العلاقات النحوية....

^١ - الكتاب ج ٢، ص ١٣

^٢ - الكتاب ج ١، ص ٣٧٥

^٣ - الكتاب ج ٣، ص ١٠٦

وثانيهما: ما يكون بحذف بعض عناصر الجملة اكتفاءً ببعضها الآخر^١. يُقصد بالإضمار الحذف أو الاختزال كما هو عند سيبويه^٢.

ذكر لنا الخليل بن أحمد أن التثنية في كلمة (حنانيك) جاءت لمعنى وهو أن المتكلم أراد أن يقول: تحنناً بعد تحنن. "وزعم الخليل رحمه الله أن معنى التثنية إنه أراد تحنناً بعد تحنن، كأنه قال: كما كنتُ في رحمة وخير منك فلا ينقطعن وليكن موصولاً بآخر من رحمتك"^٣.

وقد تأتي تثنية حنانيك "لإرادة التكثير، لأن التثنية أول مراتب التكثير"^٤، وقد ترد عبارات كما يرى الخليل بن أحمد يُستخلص منها معنى معين كما هو الحال في قوله "مررت به المسكين" ففيه معنى الترحم، إذ إن كلمة المسكين قد وردت على عدة أوجه إعرابية يمثل كل وجه منها معنى يختلف عن الآخر فيبدو لي أن الخليل قد بنى افتراضاته في التخريجات الإعرابية للعبارة السابقة على ما يُعرف بالتأويل العقلي وهو عبارة عن "صيغة لغوية يفترضها اللغوي لكي يعلل بها في إثبات صحة النطوق التي تبدو له متعارضة مع تصورات النظرية، وإن التأويل العقلي يختص بالعبارات فقط وليس للمستوى الصوتي أو الصرفي نصيب فيه"^٥.

وإنني أضم صوتي إلى صوت الدكتور مهدي المخزومي في قوله: "ومن الطبيعي أن تختلف الوجوه إذا اختلف قصد المتكلم والخليل لم يعن بهذه الوجوه

^١ - النحو والدلالة مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي، د. محمد حماسه عبد اللطيف، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط٢، ص ١٦٦.

^٢ - ينظر: منهج كتاب سيبويه في التقويم النحوي، ص ٢٣٠، د. محمد كاظم البكاء، دار الشؤون الثقافية العامة، ط١، بغداد ١٩٨٩م.

^٣ - الكتاب، ج١، ص ٣٤٨.

^٤ - الكتاب، الحاشية، ج١، ص ٣٤٨.

^٥ - التعليل اللغوي عند الكوفيين مع مقارنته بنظيره عند البصريين دراسة إبستمولوجية، ص ١٨٧، د. حلال شمس الدين، ط١، توزيع مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٤م.

المختلفة من أجل التلاعب باللفظ، وإظهار المقدرة على استخراج الصور اللفظية وإنما عني بها لأنها قد تصل به إل معان جديدة. فمن ذلك ما ذهب إليه من قولهم: "المعاني التي قصد إليها المتكلم متعددة فاستبقت هذه المعاني الجديدة تغييراً في الإعراب، واختلافاً في الحركات"^١.

وزعم الخليل أنه يقول: مررت به المسكين، على البدل، وفيه معنى الترحم، وبدله كبذل مررت به أخيك. وقال:

فأصْبَحْتُ بَقَرٍ قَرَى كَوَانِسَا فَلَا تَلْمُهُ أَنْ يَنَامَ الْبَائِسَا

وكان الخليل يقول: إن شئت رفعتَه من وجهين فقلت: مررت به البائسُ والبائسُ أنت وإن شاء قال: مررت به المسكينَ، كما قال: *بنا تَمِيمَا يُكْشِفُ الضَّبَابَ*

وفيه معنى الرَّحْم، كما كان في قوله رحمة الله عليه معنى رحمه الله. فما يترحم به يجوز فيه هذان الوجهان، وهو قول الخليل رحمه الله. وقال أيضاً: يكون مررتُ به المسكينُ على: المسكينُ مررت به، وهذا بمنزلة لقيته عبْدُ الله، إذا أراد، عبْدُ الله لقيته... وزعم الخليل رحمه الله أنه يقول إنه المسكينُ أحمقُ، على الإضمار الذي جاز في مررتُ، كأنه قال: إنه هو المسكينُ أحمقُ^٢.

والخليل قد استند إلى علة الإضمار عند حديثه عن التخريجات الإعرابية في عبارة "هذا عبْدُ الله مُنْطَلِقٌ" "وزعم الخليل رحمه الله أن رفعه يكون على وجهين: فوجّه أنك حين قلت: هذا عبْدُ الله أضمرت هذا أو هو، كأنك قلت هذا مُنْطَلِقٌ أو هو

١ - الخليل بن أحمد أعماله ومنهجه، ص ٢٢٥.

٢ - الكتاب ج ٢، ص ٧٦.

مُنطلقاً. والوجه الآخر: أن تجعلهما جميعاً خبراً لهذا، كقولك: هذا حلٌّ حامضٌ، تريد أن تنقض الحلاوة، ولكنك تزعم أنه جمع الطَّعمين".^١

وقد يستند الخليل إلى علة عدم الإضمار، كما هو الحال عند تعليقه على قول الأخطل الوارد تالياً وأما قول الأخطل:

ولقد أبيت من الفتاة بمنزلٍ فأبيت لا حرج ولا محروم

فزعم الخليل - رحمه الله - أن هذا ليس إضمار أنا. ولو جاز هذا على إضمار أنا لجاز: كان عبد الله لا مسلم ولا صالح على إضمار هو. ولكنه فيما زعم الخليل - رحمه الله -: فأبيت بمنزلة الذي قال له لا حرج ولا محروم".^٢

إن الشاهد في بيت الشعر الوارد في النص السابق "رفع حرج" و "محروم" وهو في مذهب الخليل على الحمل على الحكاية، أي كالذي يقال له لا حرج و محروم. ويجوز رفعه على إضمار خبر أي أبيت لا حرج ولا محروم في المكان الذي أبيت فيه، وكان وجه الكلام نصبهما على الخبر أو الحال".^٣

ومما لا ينتصب على الإضمار كلمة (شاعراً) في بيت اشعر الوارد في النص الآتي: "وسألت الخليل رحمه الله ويونس عن نصب قول الصَّلَتان العَبْدِيّ:

يا شاعراً لا شاعرَ اليوم مثله جريـر ولكن في كُليب تواضُع

فزعما أنه غير منادي وإنما انتصب على إضمار كأنه قال: يا قائل الشعر شاعراً، وفيه معنى حَسْبُكَ به شاعراً".^٤

^١ - الكتاب ج ٢، ص ٨٣.

^٢ - الكتاب، ج ٢، ص ٨٤.

^٣ - السابق نفسه، الحاشية، ج ٢، ص ٨٤.

^٤ - الكتاب ج ٢، ص ٢٣٦.

إن (شاعراً) نُصبت "على الاختصاص والتعجب"، والمنادى محذوف تقديره يا هؤلاء أو يا قوم، حسبكم به شاعراً. وإنما امتنع أن يكون منادى لأنه نكرة عنده يدخل فيه كل شاعر بالحضرة، وهو إنما قصد شاعراً بعينه وهو جرير الذي أتعجب منه. قال الشنتمري: ويجوز عندي أن يكون قوله شاعراً منادى جرى على لفظ المنكور وإن كان مخصوصاً معروفاً، لوصفه بالجملة التي بعده، والجملة لا يوف بها إلا النكرة"^١.

وقد تأتي (نن) للجزاء كما بين الخليل بن أحمد مستنداً إلى علة الإضمار.

قال سيبويه "وقد جاء في الشعر إنَّ مَنْ يَأْتِي آتِه. قال الأعشى:

إِنَّ مَنْ لَامَ فِي بَنِي بَنْتٍ حَسًّا نَ أُلْمُهُ وَأَعَصِهِ فِي الْخُطُوبِ

وقال أمية بن أبي الصلت:

وَلَكِنَّ مَنْ لَا يَلْقَ أَمراً يَنْوَبُهُ بُعْدَتِهِ يَنْزِلُ بِهِ وَهُوَ أَعَزُّ

فزعم الخليل أنه إنما جازى حيث أضمر الهاء، وأراد إنه ولكنه"^٢.

٤ - الإخبار بالحال

تتمحور هذه العلة حول الالتزام بحالة إعرابية معينة نتعرّف من خلالها على الحالة التي كان عليها المتحدث عنه في الوقت الذي قيل فيه الحديث، وليس عن حالته التي كان عليها في الماضي، أو عن الحالة التي ستأتي مستقبلاً.

قال سيبويه: "هذا باب ما ينتصب من المصادر لأنه حال صار فيه المذكور، وذلك قولك: أما سمناً فسمين، وزعم الخليل رحمه الله، أنه بمنزلة قولك: أنت الرجل علماً

^١ - الكتاب، الحاشية ج ٢، ص ٢١٣٦.

^٢ - الكتاب، ج ٣، ص ٧٣.

ودينا وأنت الرجلُ فهماً وأدباً، أي أنت الرجل في هذه الحال. وعمل فيه ما قبله وما بعده، ولم يحسن في هذا الوجه الألف واللام كما لم يحسن فيما كان حالاً وكان في موضع فاعل حال. وكذلك هذا، فانتصب المصدر لأنه حالٌ مصير فيه. ومن ذلك قولك: أما علماً فلا علم له، وأما علماً فلا عِلْمَ عنده، وأما علماً فلا علم وتضرر له، لأنك إنما تعني رجلاً^١.

وما يمكن أن ندرجه تحت علة الإخبار بالحال، قول الخليل الذي أورده سيبويه في النص الآتي "وتقول: قد جرّبتك فوجدتُك أنتَ أنتَ، فأنت الأولى مبتدأةً والثانية مبنيةً عليها، كأنك قلت فوجدتُك وجهك طليقاً. والمعنى أنك أردت أن تقول: فوجدتُك أنتَ الذي أعرف. ومثل ذلك: أنتَ أنتَ، وإن فعلت هذا فأنتَ أنتَ، أي فأنتَ الذي أعرف، أو أنتَ الجواد والجَلَد، كما تقول الناسُ أي الناسُ بكل مكان وعلى كل حال كما تعرف. وإن شئت قلت: قد وليتَ عملاً فكنتَ أنتَ إياك وقد جرّبتك فوجدتُك أنتَ إياك، جعلتَ أنتَ صفةً وجعلتَ إياك بمنزلة الظريف إذا قلتَ: فوجدتُك أنتَ الظريف. والمعنى أنك أردت أن تقول وجدتُك كما كنتُ أعرفُ. وهذا كله قول الخليل رحمه الله سمعناه منه"^٢.

وقد ذكر الخليل أن (كيف) ليست من حروف الجزاء، ولكن مخرجها على الجزاء جاء من معنى التوافق في الحال "وسألت الخليل عن قوله: كيفَ تصنعُ أصنعُ. فقال هي مستكرهةٌ وليس من حروف الجزاء، ومخرجها على الجزاء، لأن معناها على أي حالٍ تكن أكن"^٣.

١ - الكتاب ج ١، ص ٣٨٤.

٢ - الكتاب ج ٢، ص ٣٦٠.

٣ - الكتاب ج ٣، ص ٦٠.

٥ - الرد إلى المعنى

إننا لا نجانب الصواب إذا قلنا: أن الهدف الأساسي من الكلام هو التعبير عن المعنى الذي نرغب في إيصاله إلى المتلقي "فالأصوات التي تصدر عنا ليست هدفاً لذاتها، وإنما هي وسيلة نتخذها للتعبير عن الدلالات والخواطر التي تجول بأذهاننا".^١

ويقول "بلومفيلد (رائد المدرسة الأمريكية) لا يمكن في اللغة فصل الأشكال عن معانيها ومن غير المرغوب فيه، وربما من غير المجدي دراسة أصوات اللغة فقط دون إعطاء أي اعتبار للمعنى".^٢

فالخليل بن أحمد لجأ إلى المعنى في تخريجه لمجيء النصب في الكلمات التي جاءت منصوبة في النص الآتي "وإن شئت نصبت، تقول: ضُربَ زيدٌ الظهرَ والبطنَ، ومُطَرنا السَّهلَ والجبلَ، وقُلِبَ زيدَ ظهرهَ وبطنهَ. فالمعنى أنهم مُطَرُوا في السَّهلَ والجبلَ، وقُلِبَ على الظهرَ والبطنَ. ولكنهم أجازوا هذا كما أجازوا قولهم: دخلتُ البيتَ، وإنما معناه دخلتُ في البيتَ والعامل فيه الفعلُ، وليس المنتصب ههنا بمنزلة الظرف: لأنك لو قلت: قُلِبَ هو ظهرهَ وبطنهَ وأنت تعني على ظهره لم يجز... وزعم الخليل رحمه الله أنهم يقولون: مُطَرنا الزرعَ والصَّرعَ".^٣

وإيراد سيبويه للقول الذي سمعه الخليل عن العرب فيه مؤشر على أن الخليل يتوافق مع سيبويه فيما قاله في الفقرة السابقة. وهذا مما نجده يتكرر في كتاب سيبويه.

^١ - طريق تنمية الألفاظ في اللغة، د. إبراهيم أنيس، ص ٥، القاهرة، ١٩٧٦م.

^٢ - Language, p. 103, New York, 1950 Bloofield.

^٣ - الكتاب ج ١، ص ١٥٩.

ومما جاء منصوباً لعلّة الرد إلى المعنى كلمة (قولك) في العبارة الآتية: "هذا القول لا قولك". قال سيبويه "هذا باب ما ينتصب من المصادر تأكيداً لما قبله. وذلك قولك: هذا عبد الله حقاً، وهذا زيدٌ الحق لا الباطل وهذا زيدٌ غير ما تقول، لأن "لا قولك" في ذلك المعنى ألا ترى أنك تقول: هذا القول لا ما تقول، فهذا في موضع نصبٍ فإذا قلت: لا قولك، فهو في موضع لا ما تقول"^١.

ومن الممكن أن يكون الخليل في تخريجه السابق قد لجأ إلى القياس التمثيلي في الدلالة وهو "أن يكون لدينا تركيب لغوي جائز من الناحية الدلالية، وتركيب آخر لا يعرف حكم إجازته. فإذا وجدنا وجه شبه بين التركيبين، تعللنا باستعمال القياس التمثيلي لإجازة التركيب الثاني"^٢. إن ميل الخليل إلى القياس التمثيلي الدلالي فيه دليل على مدى الاعتماد على الجانب الدلالي في التعليل وهذا يؤكد على أن الاهتمام بإيصال المعنى بشكل واضح يتواجد بشكل دائم في ذهن الخليل. وهذا يؤدي إلى ورود العلل الدلالية عند الخليل بدرجة أكبر من غيرها.

ولعلّة المعنى ينجزم الفعل إذا كان جواباً لأمر أو نهى أو استفهام أو تمن أو عرض وهذه التي يعنيها الخليل بن أحمد "بالأوائل" في قوله الآتي: "وزعم الخليل: أن هذا الأوائل كلها فيها معنى إنّ، فلذلك انجزم الجواب؛ لأنه إذا قال انتني آتكَ فإن معنى كلامه إن كن منك إتيان آتكَ وإذا قال: أين بيتك أزرك، فكأنه قال إن أعلم مكان بيتك أزرك، لأن قوله أين بيتك يريد به أعلمني وإذا قال ليته عندنا يحدّثنا، وهو يريد ههنا إذا تمّنى ما أراد في الأمر. وإذا قال لو نزلت فكأنه قال انزل"^٣.

^١ - الكتاب جذ، ص ٣٧٨.

^٢ - التعليل اللغوي عند الكوفيين مع مقارنته عند البصريين دراسة ايستومولوجية، ص ٢٠١.

^٣ - الكتاب ج ٣، ص ٩٤.

ومن التعلل بالرد إلى المعنى جواز فصل الألف واللام مما بعدها عند تذكر المتكلم شيئاً ، ثم إعادتها عند التذكير متصلة بما بعدها^١ ، وهذا هو الشاهد في بيت الشعر الوارد في نص سيبويه الآتي وقال غيلان:

دُعْ ذَا وَعَجَلْ ذَا وَأَلْحَقْنَا بِذَلْ بِالشَّحْمِ إِنَّا قَدْ مَلَلْنَاهُ بَجَلْ

كما تقول: إنه قَدِي ثم تقول: قد كان كذا وكذا، فنتثني قَدْ. ولكنه لم يكسر اللام في قوله بِذَلْ ويجيء بالياء، لأن البناء قد تم. وزعم الخليل إنها مفصولة كَقَدْ و سَوْفَ، ولكنها جاءت لمعنى كما يجيئان للمعاني، فلما لم تكن الألف في فعل ولا اسم كانت في الابتداء مفتوحة، فُرض بينهما وبين الأسماء والأفعال^٢.

٦- البيان

لقد رأى الخليل بن أحمد أن عدم إدخال الألف واللام على اسم زيد وعمرو وسلم، لعللة البيان قال سيبويه: "وليس هذا بمنزلة زيد وعمرو وسلم، لأنها أعلام جمعت ما ذكرنا من التطويل وحذفوا.

وزعم الخيل - رحمه الله- أنما منعهم أن يدخلوا في هذه الأسماء الألف واللام أنهم لم يجعلوا الرجل الذي سمِّي بزيد من أمّه كل واحد منها يلزمه هذا الاسم، ولكنهم جعلوه سُمِّي به خاصاً.

وزعم الخليل - رحمه الله- أن الذين قالوا الحارث والحسن والعباس، إنما أرادوا أن يجعلوا الرجل هو الشيء بعينه، ولم يجعلوه سُمِّي به ، ولكنهم جعلوه كأنه وصف له غَلَبَ عليه. ومن قال حارثٌ وعباسٌ فهو يجريه مجرى زيد^٣.

١ - الكتاب، الحاشية ج٣، ص ١٤٨.

٢ - الكتاب ج٤، ص ١٤٧.

٣ - الكتاب ج٢، ص ١٠١.

وقد نجد الخليل يستند إلى علة البيان عند نقضه لرأي ما، إذ إننا نجده يضعف أن يكون "كلهم" مبنياً على اسم أو غير اسم "وزعم الخليل رحمه الله أنه يستضعف أن يكون "كلهم" مبنياً على اسم أو غير اسم، ولكنه يكون مبتدأ أو يكون كلهم صفة. فقلت: ولم استضعفت أن يكون مبنياً؟ فقال: لأن موضعه في الكلام أن يُعمَّ به غيره من الأسماء بعدما يُذكر فيكون كلهم صفة أو مبتدأ. فالمبتدأ قولك إن قومك كلهم ذاهب، أو ذكر قوم فقلت: كلهم ذاهب. فالمبتدأ بمنزلة الوصف لأنك إنما ابتدأت بعدما ذكرت لك ولم تبنه على شيء فعممت به. وقال: أكلت شاة كل شاة حسن. وأكلت كل شاة ضعيف؛ لأنهم لا يعمون هكذا فيما زعم الخليل رحمه الله^١.

٧- الإبهام

إن الغاية التي يسعى إليها الخطيب في إلقائه، والكاتب في كتابته الوضوح والابتعاد عن الإبهام، وإلا وصف ذلك الإلقاء وتلك الكتابة بالغموض لقد علل الخيلبعل الإبهام عدم حواز أن نقول "لي مثله" أو قولنا: لي عشرون. قال سيبويه: "هذا باب ما ينصب نصب كم إذا كانت منونه في الخبر والاستفهام، وذلك ما كان من المقادير، وذلك قولك: ما في السماء موضع كفت سحابا، ولي مثله عبدا، وما في الناس مثله فارسا، وعليها مثلها زيدا. وذلك أنك أردت أن تقول: لي مثله من العبيد، ولي ملؤه من العسل، وما في السماء موضع كفت من السحاب، فحذف ذلك تخفيفا كما حذفه من عشرين حين قال: عشرون درهما... وزعم الخليل رحمه الله أن المجرور بدل من التتوين، ومع ذلك أنك إذا قلت لي عشرون فقد أبهمت الأنواع، فإذا قلت درهما فقد اختصت نوعا، وبه يُعرف من

^١ - الكتاب ج ٢، ص ١١٦

أي نوع ذلك العدد. فذلك مثله هو مبهم يقع على أنواع: على الشجاعة، والفروسية والعبيد.^١

٩ - التوكيد

إن الغاية من التوكيد هي جعل السامع على يقين تام بالخبر الذي تقوله له. لقد وضّح لنا الخليل بن أحمد العلى من اقتران الفعل بنون التوكيد الثقيلة "اعلم أن كل شيء دخلته الخفيفة فقد تدخله الثقيلة. كما أن كل شيء تدخله الثقيلة تدخله الخفيفة. وزعم الخليل أنهما توكيد كما التي تكون فصلاً. فإذا جئت بالخفيفة فأنت مؤكّد، وإذا جئت بالثقيلة فأنت أشدّ توكيداً".^٢

١٠ - الحمل على المعنى

يعتبر الحمل على المعنى من أهم الأدلة على سعة لغتنا العربية، بحيث تجعل هذه اللغة قادرة على التعبير عن حاجات الناس بكل وضوح. فالحمل على المعنى "من أهم أساليب تأويل النصوص المخالفة لقواعد التطابق"^٣. وهو غور من العربية بعيد ومذهب نازح فسيح قد ورد به القرآن وفصيح الكلام منشوراً ومنظوماً، كتأنيث المذكر، وتذكير المؤنث وتصور معنى الواحد في الجماعة، والجماعة في الواحد، وفي حمل الثاني على لفظ قد يكون عليه الأول، أصلاً كان ذلك اللفظ، أو فرعاً^٤.

^١ - الكتاب ج ٢، ص ١١٦.

^٢ - الكتاب ج ٣، ص ٥٠٩.

^٣ - أصول التفكير النحوي، ص ٢٨٧، د. علي أبو المكارم، مطابع دار القلم، بيروت - لبنان، ط ١، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٣م.

^٤ - الخصائص، ج ٢، ص ٤١١، ابن جني، تحقيق محمد علي النجار، المكتبة العلمية.

والحمل على وسيلة اصطنعها النحاة العرب في منهجهم ليجبروا بها كل صدع في "بناء الجملة" إذا لم يكن متوافقاً مع "البنية الأساسية" وذلك بأن يحمل الكلام على معناه لا على لفظه، وسموا هذه الوسيلة - وهي ضمن وسائل أخرى للغرض نفسه - الحمل على المعنى. وفي هذه الوسيلة يقوم العنصر الدلالي بعلاج كثير من المخالفات اللفظية المنطوقة^١. والحمل على المعنى "وسيلة تأويلية، أو - إن شئت - وسيلة تحويلية ولكنهما تعتمد على المعنى"^٢.

قال الخليل: "إنما قالوا: مَرَضَى وهَلَكى وَمَوْتَى وَجَزَى وأشباه ذلك لأن ذلك أمر يُبْتَلون به، وأُدخلوا فيه وهم له كارهون وأُصيبوا به، فلما كان المعنى معنى المفعول كَسَرُوهُ على هذا المعنى"^٣.

وإننا ننصب كلمة (أوسع)، وكلمة (خيراً) لعلة الحمل على المعنى كما ذكر الخليل بن أحمد "ومما ينتصب... على إضمار الفعل المتروك إظهاره (انتهوا خيراً لكم) و (وراءك أوسع لك) و (حَسْبُكَ خيراً لك) إذا كنت تأمر... وإنما نصبت خيراً لك وأوسع لك، لأنك حين قلت: "انته" فأنت تريد أن تخرجه من أمر وتدخله في آخر.

وقال الخليل: كأنك تحمله على ذلك المعنى، كأنك قلت: انتهِ وادخل فيما هو خيرٌ لك فنصبته لأنك قد عرفت أنك إذا قلت له انتهِ، إنك تحمله على أمر آخر، فلذلك انتصب، وحذفوا الفعل لكثرة استعمالهم إياه في الكلام، ولعلم المخاطب أنه

١ - النحو والدلالة، ص ١٨٩.

٢ - السابق، نفسه، ص ١٩٩.

٣ - الكتاب ج ٣، ص ٦٤٨.

٤ - الآية ١٧١ من سورة النساء.

محمول على أمر حين قال له: انتهِ فصار بدلاً من قوله أنت خيراً لك، وادخل فيما هو خيرٌ لك^١.

وقد علل الخليل بعلّة الحمل على المعنى سبب جر كلمة (خربة) فيما يأتي:
"وقال الخليل رحمه الله: لا يقولون إلا هذان جُحراً ضبّ خربان، من قبل أن الضبّ واحدٌ والجحر جُحران وإنما يغلطون إذا كان الآخر بعدّة الأول وكان مذكراً مثله أو مؤنثاً. وقالوا: هذه جُحرة ضباب خربة لأن الضّاب مؤنثة، ولأن الجحرة مؤنثة، والعدّة واحدة، فغلطوا وهذا قول الخليل رحمه الله"^٢.

١١ - الاختصاص

يرى الخليل بن أحمد أنه من الجائز أن نقول: "سَيِّدٌ فَيَعِلُّ" وذلك لعلّة الاختصاص " وكان الخليل يقول: سَيِّدٌ فَيَعِلُّ وإن لم يكن فَيَعِلُّ في غير المعتل، لأنهم قد يخصّون المعتل بالبناء لا يخصّون به غيره من غير المعتل، ألا تراهم قالوا كينونةً والقيدود، لأنه مُنقاد وأقوّد، فأصلهما فيعلولة"^٣.

ولعلّة الاختصاص - كما بيّن الخليل - حدث تعاقب بين سيغتي فَيَعِلُّ وفَيَعِلّا " وأما الخليل فكان يقول: عاقبت فَيَعِلُّ فَيَعِلّا فيما الياء والواو فيه عينٌ واختصّت به"^٤.

^١ - الكتاب ج ١، ص ٢٨٣.

^٢ - الكتاب ج ١، ص ٤٣٧.

^٣ - الكتاب ج ٤، ص ٣٦٥.

^٤ - الكتاب ج ٤، ص ٤٠٩.

وبالحديث عن هذه العلة نكون قد انتهينا من تناول العلل الدلالية - حسب ما استعطت جمعه - عند الخليل بن أحمد الفراهيدي وإن كا ما كتبتة كان لمحا سريعا كنهلة طائر من ينبوع زلال.

فلعل فيما عرضناه دليلا على أن الخليل بن أحمد قد اهتم بالعلل الدلالية وظهرت عنده بشكل يتماشى مع عظم اهتمامه بوضوع المعنى، والبعد عن الغموض والإبهام وهذا يمثل جلّ اهتمام العرب في كلامهم. سائلا الله عزوجل أن يوفقنا إلى ما فيه الخير والصالح، والله ولي التوفيق.



الفصل الثالث

الموازنة بين آراء الخليل ومن تبعه من النحاة من خلال
استعراض الحقبة التاريخية التي مرت بها كل مدرسة مع
ترجمة مختصرة لأشهر أعلام تلك المدارس ومناهجهم
التحليلية النحوية

المبحث الأول

المذهب النحوي في البصرة

بيئة البصرة

البصرة:

يجدر بنا قبل أن نخوض في نشأة النحو ورجاله ومراكز دراسته أن نلقي نظرة سريعة على "الصرة" المدينة التي كانت منبع هذا العلم والمصدر الذي شمل بعلمه وثقافته الكثير من الأمصار الإسلامية. والشمس التي بزغت على الناطقين بالضاد، وغمرت بضوئها بلاد العرب والمسلمين بعد أن استطاع رجالها القائمون على هذا العلم أن يضعوا أصوله وضوابطه وأقيسته التي بها يستطيعون أن يفسروا آيات كتاب الله وأحاديث رسوله الكريم ﷺ وأساليب أسلافهم من العرب الفصحاء، وأن يفهموا من عاصرهم أو جاء بعدهم ممن دخلوا في الإسلام وانضوا تحت لوائه من أبناء الألسن المختلفة والجنسيات المتباينة.

وبالبصرة مدينة معروفة منذ بدايات التحرير الإسلامي للعراق، وقيل هي مدينة قديمة كانت تدعى في العصور الوسطى في أوربا "بلصرة" (Balsara) و هي مدينة تجارية تقع على شط العرب، وقد قامت منذ الأزمان القديمة في تلك البقعة التي يصب فيها نهرا دجلة والفرات في البحر عدة مدن^١. وقد اختلف اللغويون ومترجمو البلدان في اسمها والأصل الذي اشتق منه، وفي معناه^٢.

^١ - ينظر دائرة المعارف الإسلامية مادة (بصرة)

^٢ - ينظر معجم البلدان ٤٣٠/١، ودائرة المعارف للبيستاني، ٤٥٣/٥، ولسان العرب (بصر). وفتوح البلدان للبلاذري ٣٤١.

ولما تم لخالد بن الوليد تحرير المنطقة الجنوبية من العراق بعث عمر ب الخطاب - رضي الله عنه - إلى سعد بن أبي وقاص قائد الحركات العسكرية في وسط العراق، وفاتح "المدائن" التي هرب منها الفرس بعد الفتح - يقول له: "حُطَّ بيروانك بالكوفة وابعث بعثبة بن غزوان إلى أرض الهند^١ فإن له من الإسلام مكاناً، وقد شهر بدراناً^٢. وسار عتبة بن غزوان مع ثمان مائة من المقاتلين ونزلوا في الخريبة^٣ في خيام، وبعد أن استقرت الأمور وهدأت الحال في الجنوب كتب إلى عمر يستأذنه في اختطاط البصرة. ووصفها له لتكون مشى لهم إذا شتوا ومنزلاً للجند إذا عادوا من الغزوات والحروب، فوافقه عمر على أن تكون المدينة قريبة من الماء والمرعى وأن تكون في مكان لا يفصل الماء بينهم وبين الحجاز مقر عمر (ﷺ)، فكتب إليه عتبة بصفة البصرة وموقعها، وبدأ بتمصيرها بعد وصول موافقة عمر إليه وكان ذلك سنة أربع عشرة للهجرة في أرجح الروايات^٤.

بنى عتبة مسجدها الجامع ودار الامارة والسجن والديوان من القصب أول الأمر فكانوا كلما ساروا للحرب نزعوا القصب وحزموه حتى يعودوا فيبينوه من جديد، فلما جاء أبو موسى الأشعري واليا على البصرة سنة ١٦هـ أو ١٧هـ نزع القصب وبنى المسجد ودار الامارة باللبن، ولما ولّى معاوية زيادا على البصرة بنى دار الامارة باللبن والمسجد بالجص وسقفه بالساج وظل كذلك حتى جاء الرشيد فهدم دار الامارة وادخلها في قبلة المسجد^٥.

^١ - بهذا الاسم كانت تعرف منطقة البصرة وما جاورها في ذلك الزمن.

^٢ - ينظر معجم البلدان، ١، ٤٣٢.

^٣ - موضع بالبصرة (معجم البلدان - خريبة) ٣٦٣/٢

^٤ - ينظر معجم البلدان، ١/٤٣٢، وفتوح البلدان، ٣٥٤

^٥ - ينظر فتوح البلجان، ١/٤٣٣، ومختصر كتاب البلدان لابن الفقيه، ١٨٨

وكان لهذه المنطقة أهمية تجارية عظيمة منذ القديم لموقعها على شط العرب ملتقى نهري دجلة والفرات وتحكمها في مصبه بالبحر، ولفت إليها هذا الموقع أنظار الفاتحين وجعلوا منها مركزاً تجارياً مما ساعد على تنويعها وازدهارها. وكانت مستقر الحضارة العربية وملتقاها بالحضارات الأجنبية الأخرى، فالعرب الوافدون عليها كانوا ما زالت تغلب عليهم نزعة البداوة وما زالوا يميلون بطبعهم إلى الحياة الفطرية، غير أنهم اتصلوا في هذه البلاد بشعوب كثيرة رسخت أقدامهم في المدنية فأخذوا الكثير من ثقافات تلك الشعوب وتعلموا منهم كل جديد طريف مع احتفاظهم بمقومات عروبتههم وأسلوب حياتهم، وقد أعانهم موقع البصرة على أطراف البادية والحضر على ذلك وهياً لهم في الوقت نفسه حياة هينة رغبوا فيها وسعوا إليها وطلبوها.

لقد نزلت هذه القبائل العربية المحاربة والنازحة إلى البصرة في ظاهر المصر الجديد، كما جرت عادتهم وانشئت الأسواق بينهم منها سوق كل يعرب بـ "سوق الإبل" وكان متجراً لأهل المدينة وملتقى للقادمين من البادية بالحضر المقيمين فيها لتبادل السلع، وقد نمت هذه السوق واستتعت حتى صارت حياً كبيراً من أحياء البصرة ازدهرت فيه الحياة ونشطت فيه التجارة وصارت المواسم التي يفد فيها الأعراب على هذه السوق أشبه بالمهرجانات وأقرب ما تكون إلى ما عرفه العرب من أسواق عطاء في الحجاز، ينشد فيها الشعراء أشعارهم وينتابها الفصحاء من الأعراب وعلماء البادية و رواة الأخبار والأيام، وأخذت حلقات الأدب تقام في "المربد" الذي كان ميداناً فسيحاً لذلك ومنتقياً واسعاً للخطباء والشعراء والأدباء.^١

ولم ينته القرن الأول حتى كانت البصرة مركزاً لطلاب العلم والدارسين من مختلف الآفاق وأصبحت مفخرة من مفاخر العرب والمسلمين ومركزاً ثقافياً اتسعت

^١ - ينظر تاريخ آداب اللغة العربية - زيدان ١/٢٠٠٠

شهرته وعمت الأقطار الإسلامية، وقد صلب هذا الإزدهار الثقافي إزدهار عمرانى على يد أبى موسى الأشعري وزىاد بن أبىه من بعده فبنيت المنازل الكبيرة والقصور الجميلة الفخمة، والأسواق العامرة وأصبحت مدينه زاهرة بعمارتها وأسواقها وحماماتها وأشجارها ومياها يقصدها الناس للتجارة كما يقصدها الأدباء والشعراء للمفاخرة، وغصت مساجدها بطلاب العلم الدينى والدنيوى على اختلاف فروعها.^١

وأخذت البصرة تفخر آنذاك على سائر الأمصار الإسلامية بالبيوتات التى نزلتها، وبالرجالات الذين لم ينبج مثلهم عصر تفقهاً وبلاغاً وزهداً وعلماً وأدباً و ورعاً، وكان المحاربون أول سكانها المهاجرين إليها، وتمثل عائلاتهم الوجبة الثانية من المستوطنين فيها، وتوافد الناس عليها من الحجاز حتى صار عدد سكانها بعد حوالى خمسين سنة من تمصيرها ثلاث مائة ألف نسمة.^٢

قسمت البصرة عند تمصيرها إلى خطط وكان سكانها من قبائل العرب المختلفة بعضهم من مقاتلة العرب وبعضهم من الراحلين إليها من القبائل العربية الساكنة فى نجد والحجاز فاتسعت بهم البصرة وتضاعفت مساحتها. وكان يسكنها أقوام أخرى غير العرب، وقد امتزجت هذه الأقوام ببعضها وبمن يفدون إليها للتجارة أو الاطلاع وبمن كان فيها من الموالى من جنسيات متعددة جاءت بهم الفتوحات الإسلامية فنشأ عن هذا الخليط جيل من العلماء يجمعون الثقافات والعلوم العربية والإسلامية إلى ما كان لديهم من عقليات ومواهب وعبقريات مكنتهم من أن يضعوا أسس علوم ما لبثت بعد فترة من الزمن أن أصبحت علوماً كاملة.

^١ ينظر: المعارف ٥٦٣-٥٦٤ ومعجم البلدان ٤٣٢/١-٤٣٣، وفتوح البلدان ٣٤١/١، وما بعدها.

^٢ - ينظر معجم البلدان ٤٣٤/١، وفتوح البلدان ٣٤٢ و ٣٥٠ ودائرة المعارف الإسلامية (بصرة)

وكان للعرب عند مجيء الإسلام ثقافة دينية وتجارية واقتصادية كما يتضح من الآيات القرآنية الكريمة التي عالجت التنظيم الاقتصادي وشؤون المعاملات والعبادات والعهود.^١

وقد رغبت هذه الأقوام الداخلة في الإسلام الذي وصل إلى مجاهل الهند والصين في تعليم لغة القرآن الكريم، لغة الدين الذي أحبته وعملت جاهدة في سبيل تعلم أحكامه بعد تعلم قراءته وفهم معانيه وحفظه لكي تتضوي تحت لواء الدولة العربية الإسلامية وتشارك في الحياة العامة.

وأصبح للمساجد والمكتبات دور فعال في نشر الثقافة الإسلامية والعلوم العربية، بما وجد فيها من علماء عظماء أخذوا يعقدون حلقات الدرس لتلقي العلوم المختلفة فيها كعلوم القرآن والحديث والفقه وغيرها بعد أن كانت الأسواق ولاسيما المربد انشط مراكز الثقافة العربية اللغوية والأدبية لما كان يجتمع فيها من شعراء وخطباء من مختلف قبائل العرب يتناشدون الشعر ويرتلون الخطب وينسجون القصص، كل ذلك بلغة أدبية فصيحة، والناس يجتمعون ويستمعون ويحفظون ويوازنون وينقدون، الا أن مدى هذه الأسواق وتأثيرها كان محدوداً لأن إقامتها لا تتم إلا مرات معدودة في العام الواحد فلم تكن لتفي بالغرض الذي أصبحت تتطلبه الحياة المزدهرة في البصرة التي انتشر فيها الإسلام بين الأجناس المختلفة التي كانت تعيش فيها، وتدعوا إليه رغبة هؤلاء المسلمين في قراءة القرآن وتعلمه والتفقه فيه وفي أحكامه.

مراكز الثقافة فيها:

^١ - ينظر الخليل بن أحمد الفراهيدي، ١١

واشتهر في البصرة مركزان قاما بنشر الثقافة والدعوة إليها وترغيب الناس فيها، وكانا صدري أشعاع في هذه البلاد الإسلامية التي بقيت ملتقى التجار ومجمع العلماء ومركز الحضارة وفي هذين المركزين الثقافيين اختلطت الأفكار العربية الإسلامية بالحضارات الأجنبية وأصبحت الثقافة مزيجاً اتضحت فيه الثقافة العربية الإسلامية اتّضحاً بَيِّناً، وكانت هي الغالبة لأن القرآن عربي وطابع الحكم فيها عربي. وهذان المركزان هما: المسجد الجامع والمربد.

١ - المسجد الجامع: كان أول ما أسس عتبة بن غزوان عند تمصيره البصرة مسجدها الجامع، وقد كان متوسطا المدينة تحيط به الدور والاحياء والسكك، وذلك لأنه المكان الذي يجتمع فيه أهل المصر لأداء فريضة الصلاة وليتباحثوا في أمور دينهم ودنياهم ويعقدوا فيه الاجتماعات العامة التي يدعو إليها الخيفة أو ولاته عند إعلان الجهاد، ثم أصبح مجمعاً للعلماء والفقهاء والمحدثين والمقرئين والقصاص واللغويين وفيه تعقد مجالس الدرس وحلقات الشيوخ التي كان من أشهرها.

مجلس الحسن البصري (١١٠هـ): كان يجتمع فيه الناس على اختلاف نزعاتهم لسماع قراءته للقرآن الكريم التي كان يتبع فيها طريقة عبدالله بن عباس في اهتمامه بالتفسير والاستشهاد عليه باللغة، ولمتابعة ما يلقيه من مواعظ وما يسرده عليهم من قصص، فقد كان الحسن البصري زعيم المدرسة القرآنية بالبصرة التي كانت تعنى كذلك بفقه القرآن واستنباط الأحكام والنظم الاجتماعية التي تحملها آياته.

وكان يتمتع بقوة الحجة وفصاحة البيان والقدرة على المنطق والجدل لذلك استطاع أن يرد على أهل الأهواء والنزعات المختلفة.^١

ومجلس واصل بن عطاء (٨٠-١٣١هـ) وقد كان يجلس أول الأمر في مجلس الحسن البصري ثم اعتزل مجلسه لإثارته أقوالاً كان يبينها بين المجتمعين فطرده الحسن و كَوّن له مجلساً مُستقلاً كان يثير فيه مسائل يشتد الجدل حولها ويقوي ويتجه اتجاهها عقلياً كلامياً وقد قام نتيجة لهذا مذهب الاعتزال وظهر بعده علم الكلام في هذا المجلس أيضاً.^٢

ومجلس أيوب بن أبي تميمة السختياني المحدث الثقة الثبت الذي كان يعلم الحديث والفقه في مجلسه هذا فأصبحت له مكانة في نفوس معاصريه لورعه وزهده وتدينه.^٣

ومجلس حماد بن سملة (- ١٦٥هـ) المحدث المشهور بالفصاحة والمعدود من متقدمي النحاة، كان يقول: "من لحن في حديثي فقد كذب علي" وكان يروي الحديث في مجلسه ويصحّحه لطلّابته ويعنى بألفاظه وسنده وتفسير معانيه وأحكامه. وكانت تعقد في المسجد حلقات للقراءة واللغة والنحو يزدهم فيها طلبة العلم والدارسون، من أشهرها حلقة أبي عمرو بن العلاء أحد القراء السبعة، والعربي الوحيد فيهم، كان من أعلم الناس بالقرآن وقراءته. وحلقة الخليل بن أحمد الفراهيدي التي كان الدارسون فيها يزحم بعضهم بعضاً، حتى انكشفت من حولها الحلقات، ولم

^١ - البيان والتبيين، ٣٧٤-٣٧٥/١ و ١١٤/١ و ٣١٧.

^٢ - مرآة الجنان للياقعي، ٢٧٤/١ وما بعدها والفهرست ٢٠٢-٢٠٣ وتمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، ٢٨٨.

^٣ - المعارف ٤٧١، والفهرست ٢٣٥، ونور القبس ٥٦.

يتحدث التاريخ في حياة الخليل عن مجلس غير مجلسه. ولم تدب الحياة في المجالس الأخرى إلا بعد موت الخليل.^١

ولم تكن مجالس الدرس في المسجد الجامع مقتصرة على هذه المجالس وعلى الدراسات القرآنية ودراسات الحديث والفقه واللغة وإنما كانت مجالس الدرس وحلقاته تضم الدارسين على اختلاف اتجاهاتهم وتنوع علومهم من الشعر والأدب إلى النحو واللغة إلى الحديث وروايته ورجاله، والقراءة وأصولها وتخريجاتها والبحث في مصحتها واختلافها وتوجيهها بحسب لغات القبائل العربية المختلفة، وبحسب المعاني التي تتضمنها، هذه الدراسات التي كانت الأساس الذي قامت عليه فيما بعد الدراسات اللغوية، ونشأت منه وتفرعت عنه الدراسات النحوية، ثم اتجهت إلى ميادين أخرى منها الشعر وروايته ونقده والمفاضلة بين الشعراء على أساس الصحة اللغوية والنحوية بعد الفصاحة وجودة الشعر، وأذعن فيها الشعراء لأحكام النحاة ونقدهم وأخذوا يلّمون بمجالسهم يسمعون ما يذكر من عيوب الشعر وأصبحوا يعرضون شعرهم بعد ذلك على النحاة قبل انشاده ليقيموه وليأمنوا مخالفتهم إياهم وطعنهم عليهم.^٢

٢ - المَرِيد:

كان المَرِيد سوقا بطاهر البصرة ومناخا للابل، وكان يسمى "سوق الابل" وكان شبيها بسوق عكاظ الذي كان أصله سوقا لتبادل السلع، ثم أصبح مقصد القبائل العربية يجتمعون فيه. وقد أصبح المريد بعد تمصير البصرة مثابة للخطباء والشعراء

^١ - طبقات النحويين واللغويين، ص ٦٦ و ٤٨ و ٣٨-٣٩. والفهرست ٢٨٣ ونزهة الالباء، ٢٦-٢٨. ونور القيس ٩٥.

^٢ - ينظر الأغاني، ١٨/١٨٤، وعقبري من البصرة، ١٦-١٧.

من البادية والحاضرة يتناشدون الأشعار ويتفاخرون بأحسابهم وأنسابهم ومآثرهم، ولم يكن هؤلاء الشعراء ممن يقيمون في الحاضرة وإنما كانوا أعرابا، فمقام الفرزدق بادية البصرة ومقام جرير بادية اليمامة والأخطل بادية بني تغلب، وقد اشتهر ما كان بينهم من نقائض تضرمها العصبية القبلية. وكان غيرهم من الشعراء يفضلون الإقامة في البادية ويختلفون إلى المربد في المواسم التي يلتقي فيها البدو والحضر والشعراء والنقاد واللغويون والنحويون الذين كانوا يحضرون لمشاهدة الأعراب الذين ما زالت سلائقهم سليمة وفصاحتهم لم تشبها شائبة التحضر، وليضعوا على ما يسمعونهم أصولهم في الدرس النحوي واللغوي بعد ملاحظة أساليبهم في التعبير ورصدها ودراسنها.

هذا ما كان لهذين المركزين الثقافيين - ولاسيما المسجد الجامع - من أثر كبير في نشأة العلوم الدينية في البصرة ثم نمت ووصلت أوجها بمدرسة الحسن البصري في الأقرء والتفسير فيما تذكر كتب التاريخ، ولم تتوفر لدي معلومات عن مجلس لأبي الأسود في المسجد الجامع ولا يذكر ذلك من أرخ له من كتاب التراجم ومؤلفي الطبقات ويبدو أن مجالس الأقرء والتفسير والدراسات اللغوية بدأت قبل زمن أبي الأسود ومنذ تأسيس المسجد الجامع وبقي العلماء يعقدون فيه مجالسهم وحلقاتهم للأقرء ونشر علوم القرآن والحديث وغيرها من العلوم الدينية، ولرواية اللغة وإنشاد الشعر وللمناقشة في المسائل اللغوية والنحوية. وفي المسجد نشطت الدراسات القرآنية في زمن أبي الأسود ومعاصريه وتلاميذه وعلى أيديهم تم نقط المصحف نقط الأعراب ونقط الأعجام، وكان ذلك بداية التفكير في المسائل اللغوية والنحوية والبذرة الأولى التي نمت وازدهرت وأثمرت، فيما بعد هذا النحو العظيم.

تطور النحو البصري عند الخليل

وصل النحو إلى الخليل وتلاميذه وقد قطع مرحلة كبيرة من التطور بفضل هؤلاء الأعلام الذين تعاقبوا على تطويره ومتابعة كلام العرب الموثوق به وآيات كتاب الله وما فيها من ظواهر ووضع الأصول والأقيسة وتخطيط المنهج الذي اتبعوه في كل هذا من استقراء ودرس واستنباط وقياس وتعليل وتأويل وافتراض والقول بالعوامل وتقديرها، وكان للخليل بعد هذا فضل التطوير والوصول به إلى ما وجدناه في كتاب سيبويه.^١

ولا نرى حاجة إلى التفصيل في التعريف بالخليل فهو الخليل بن أحمد بن عبدالرحمن الأزدي الفراهيدي من أزد عمان، ولد سنة (١٠٠هـ) وتوفي سنة (١٧٠هـ)^٢ قضى حياته في البصرة، كان أعلم الناس وأذكاهم وأنبههم، ومن أكثرهم ورعاً وتقي وزهداً في مباحج الحياة وفي الجاه والسلطان، انصرف إلى العلم عن كل ما يشغله عنه سوى العبادة والحج بين عام وآخر.^٣

ابتدع ترتيب المعجم الذي حصر فيه بطريقة رياضية ما في لغة العرب من مفردات وأثبت فيه المستعمل وفسره وترك ما أهمل مما لم يصل إليه علمه مع كثرة حفظه وسعة روايته لكلام العرب. وابتدع علم العروض على غير منهاج سابق^٤.

^١ - الكتاب، ٤٣٩/٣ و ٣١٠-٣١٢.

^٢ - ينظر الكتاب، ٢٢٦/٢ و ٥٢٧/٣ والانصاف المسألة ٥٧ والتسهيل ١٤٩ وكتاب يونس بن جبيب النحوي، فقد جمعت فيه آراؤه.

^٣ - تنظر ترجمته في طبقات فحول الشعراء، ٢٢/١، ومراتب النحويين ٢٧-٢٩، وأخبار النحويين البصريين، ٣٠-٣١ والفهرست ٤٨-٤٩ وطبقات النحويين واللغويين ٤٣-٤٧ ونزهة الألباء ٢٩-٣١ ونور القبس ٥٦-٧٢ وإنباه الرواة ٣٤١/١ وعبقر من البصرة والخليل بن أحمد الفراهيدي وغيرها.

^٤ - وقد ذهب أحمد بن فارس ومن تابعه إلى أن علم العروض قديم وأن الخليل أحياء (يراجع صاحبني، ٣٨).

واطلع على علوم عصره من فلك ورياضة وموسيقى وفلسفة وما شاع في زمانه، وهو على كل حال قد بلغ الغاية في استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس فيه كما يقول السيرافي، ووصل مرحلة القول بأن القراء والمحدثين والفقهاء والعلماء عامة أولياء الله، وقد كان قارئاً مطلعاً على الفقه والحديث.

ألف الخليل في النحو كتاباً "في العوامل" وألف في "الامالة"، واشهر كتبه في اللغة كتاب "العين" المشهور وكتاب "الشواهد" وفي الموسيقى "النغم" و "الايقاع"^١ وليس معنى أنه لم يترك كتباً مهمة في النحو، أنه لم يطور النحو ويبلغ به درجة النضج والكمال.

وصل النحو إلى الخليل على الصورة التي رأيناها عليها من التطور في أصول درسه وبحثه وفي مسائله وأبوابه وفي مصطلحاته بفضل شيوخه الذين توفي آخرهم قبله بما يتراوح بين خمس عشرة وعشرين سنة، وكان الخليل متابعاً لأقوالهم عاملاً على تطويرها، وقد بذل في سبيل ذلك جهوداً ضخمة بخروجه إلى بوادي نجد وتهامة والحجاز، وسماعه عن الأعراب المقيمين في وسط هذه الصحراء وتدوينه عنهم وحفظه لمعظم ما سمعه، ولم يقصر رحلاته على البادية وإنما كان كثير الرحلات إلى الحجاز لأداء فريضة الحج وليقابل هناك من تسنح له الفرصة بمقابلته من العلماء المقيمين فيها أو الوافدين عليها لأداء هذه الفريضة الإسلامية. ووصل إلى خراسان وأحواز وزار بغداد، أصله من عمان قدم إلى البصرة وهو شاب.^٢

قيل في الخليل إنه أعظم نحوي حملته الأرض بل أعظم نحوي على مدى العصور وأنه "كان الغاية في استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس فيه" وقد انعقد الاجماع على أنه "لم يكن أعلم بالنحو منه" وأنه أتى في علم النحو بما لم يأت بمثله

^١ - تنتظر في الفهرست ٤٩، والخليل بن أحمد الفراهيدي، ٥٦-٥٧.

^٢ - نور القبس، ٥٩ و ٦٥ و ٥٦، وينظر المزهر ٧٧/١ وما بعدها.

أحد قبله في تصحيح القياس واللطافة والتصريف^١. فهل كانت هذه النعوت صحيحة أو أنها من باب المبالغة وتدبيج العبارات للمدح بما ليس فيه؟. إن الناظر في كتاب سيبويه نظرة تمعن ومقارنة يستطيع أن يرى مبلغ صحة هذه الأقوال، فقد تمت على يد الخليل دراسة النحو العربي وبلغت مرحلة النضج والكمال على يديه ولا نعني بذلك تنظيمه أبواب الكتاب أو ترتيب منهجه وإنما نعني ما ملئ به من آراء في علوم العربية كالنحو والصرف واللغة بدراساتها المختلفة ولا سيما الصوتية كمخارج الحروف وصفاتها وما يحدث فيها من قلب وأعلال وأبدال وإدغام وإمالة ووقف وابتداء وتخفيف همز وما إلى ذلك من موضوعات يبدو أن السبب في تفصيله فيها هذا التفصيل الذي اعترف ببراعته فيه القدماء والمحدثون، أنما كان لحاجة القراء إليه. وهو أحد القراء المطلع على القراءات وأصولها. والقرآن وعلومه، ونجد فيه إلى جانب ذلك أبواباً في الشعر وما يحتمله من تغييرات وفي القوافي وما يجوز فيها عند الأنشاد وما رخمته الشعراء في غير النداء^٢. وربما كان قد تحدث فيها ليبينها للشعراء الذين كانوا يؤمنون حقلته شأنهم شأن القراء والأدباء واللغويين والنحاة، ولو نظرنا إلى آراء الخليل في كل ذلك، لوجدناها تكون العمود الفقري لمعظم أبواب الكتاب إلا النادر الذي بناه على أقوال يونس في النسب والامالة وغيرهما، ولوجدناه قد وضع مصطلحات معظم أبواب الكتاب وما يدور في مسائله مثل المسند والمُسند إليه والحذف والاستغناء والعوض والفاعل والمفعول به والفعل والمبتدأ والخبر والرفع والنصب والجر والجزم والاستفهام والأمر والنهي والتعجب والدعاء وما إليها، ولم يشذ عنه منها إلا مواضع قليلة وضع المتأخرون أسماءها. ولم يقتصر الأمر على الكثرة في المصطلحات وإنما أكمل ما وضعه شيوخه من أصول وأقيسة بناها على كلام

^١ - ينظر في هذه الأقوال وغيرها أخبار النحويين البصريين، ٣٠ والفهرست ٤٨ والمصون، ١١٩.

^٢ - ينظر الكتاب، ٢٦/١ و ٢٠٤/٤ و ٢٥٩.

العرب الذي سمعه ودرسه وتباحث فيه في مجلسه ومع شيوخه وتلاميذه فوضحت واستقرت وتطورت الأصول الأخرى كالتعليل والتأويل والقياس المبني على السماع الكثير المطرد لكلام العرب، وأخذ يعمق الأصول التي وضعوها، والتعليلات لما يعرض من ظواهر اختلف فيها أم يم يختلف وهي في معظمها مما يكون سيبويه الدافع إليها. واتضحت تحليلاته للعبارات ولما يرد فيها من ظواهر أعرابية وضوحاً أبرز مما كان عند شيخه أبي عمرو بن العلاء ولجأ إلى القول بتقدير العوامل التي يستدعيها المعنى اللغوي وتنسجم معه، ويربط بين كل هذه الأنماط والجزئيات ليكون للدراسة النحوية هذا البنيان الشامخ الذي بلغ عنده مرحلة النضج والاكتمال ولكي نوضح هذا بالدليل تمثل لأبرز الظواهر في منهج بحثه النحوي.

كان أول من فصل القول في تحليل التراكيب والعبارات المسموعة عن العرب مثل قولهم: "لاسيما" قال سيبويه: "وسألت الخليل رحمه الله عنه عن قول العرب "ولاسيما زيد" فزعم أنه مثل قولك: "ولا مثل زيد" و "ما" لغو. وقال: "ولاسيما زيد" كقولهم: "دع ما زيد" وكقوله: "مثلاً ما بعوضة" ف "سمي" في هذا الموضع بمنزلة "مثل" فمن ثم عملت فيه "لا" كما تعمل "رب" في "مثل". وذلك قولك: "رب مثل زيد"^١ ومن ذلك تحليله لقول العرب "أحقاً أنك ذاهب" قال سيبويه "وسألت الخليل فقلت: ما منعهم أن يقولوا: "أحقاً إنك ذاهب؟" على القلب، كأنك قلت: "إنك ذاهب حقاً"، و "إنك ذاهب الحق" و "إنك منطلق حقاً؟" فقال: ليس هذا من مواضع "إن" لأن "إن" لا يبتدأ بها في كل موضع، ولو جاز هذا لجاز: "يوم الجمعة إنك ذاهب" تريد: "إنك ذاهب يوم الجمعة"، ولقلت أيضاً "لا محالة إنك ذاهب" تريد "إنك لا محالة ذاهب" فلما لم يجز ذلك حملوه على: "أفي حق أنك ذاهب؟" وعلى "أفي أكبر ظنك أنك ذاهب؟"

^١ - سورة البقرة، ٢٦، والكتاب ٢/٢٨٦.

وصارت "أَنَّ" مبنية عليه كما يبنى "الرحيل" على "غد"، إذا قلت "غداً الرحيل" والدليل على ذلك أنشاد العرب هذا البيت كما أخبرتك، زعم يونس أنه سمع العرب يقولون في بيت الأسود بن يعفر:

أحقا بني أبناء سلمى بن جندل تهذدكم إياي وسط المجالس؟

فزعم الخليل أن "التهدد" هنا بمزلة "الرحيل بعد غد" وأن "أَنَّ" بمنزلة، وموضعه كموضوعه...^١ ففي هذين النصين تحليل وتعليل وقياس واحتجاج بالنظير والقياس عليه. واجتمع كل هذا ليكون هذا الأسلوب من العرض والإيضاح وفي النص الأول تتضح أحكام منها: أن "ما" تجيء زائدة. وإن الفصل بـ "ما" الزائدة بين المضاف والمضاف إليه لا يمنع العمل فهو جاوز. وإن "ما" تأتي موصولة ويحذف صدر صلتها ويبقى الاسم الذي بعدها مرفوعاً دلالة على ذلك كما في قوله تعالى: "مثلاً ما بعوضة" وأن "سي" بمعنى "مثل" ولها حكمها فهي مثلها وما بعدها مجرور باضافتها إليه وليست حرف جر مثل "رب". وإنها تضاف إلى الاسم المعرب وهو "زيد" وإلى الاسم المبني وهو "ما". ونستطيع أن نستخلص من تحليله للعبارة الثانية أحكاماً كثيرة، منها حكم "إن" وجوب الابتداء بها، وحكم "أَنَّ" وجوب كونها معمولة. واتضح فيه اعتماده على العامل وأثره في التقدير والتقديم والتأخير.

ومنه ما تظهر فيه نظرية العمل بأجلي صورها وأنواع العامل من حيث القوة أو الضعف، وما يجوز في معمولاته من تقديم وتأخير مقارناً بين عمل "كان وأخواتها" وهي فعل و "إن وأخواتها" وهي حرف من حيث قوة كل منهما أنها "عملت عملين: الرفع والنصب، كما عملت "كان" الرفع والنصب حين قلت "كان أخاك زيد"، ألا أنه

^١ - الكتاب، ١٣٥/٣، وينظر في هذه العبارة، ص ١٣٤-١٣٧.

ليس لك أن تقول "كأن أخوك عبد الله" وتريد: "كأن عبد الله أخوك"، لأنها لا تصرف تصرف الأفعال، ولا يضم في المرفوع كما يضم في "كان" فمن ثم فرقوا بينهما كما فرقوا بين "ليس" و "ما" فلم يجروها مجراها، ولكن قيل: هي بمنزلة الأفعال فيما بعدها وليست بأفعال^١، وتتضح من هذا نظريته إلى العوامل فـ "كان" فعل وهي عامل أصلي لذلك يجوز التقديم والتأخير بين أسمها وخبرها، ويجوز اضممار اسمها فيها، و "أن" حرف بمنزلة الفعل فهي عامل غير أصلي في هذا العمل وإنما هو محمول على الفعل لذلك ضعف عنه ولم يصح فيه تقديم خبره ولا الإضممار فيه. وظهرت عنده فكرة تعليق العامل وهو أعماله معنى دون لفظ لعروض أداة تمنع تأثيره اللفظي فيما بعده قال في الفرق بين "إن" و "أن": تقول "أشهد إنه لمنطلق" بمنزلة قوله: "إنه لذهاب" و "إن" غير عاملة فيها "أشهد" لأن هذه "اللام" لا تلحق أبداً إلا في الابتداء، ألا ترى أنك تقول: "أشهد لعبد الله خير م زيد" كأنك قلت: "والله لعبد الله خير من زيد؟؟ فصارت "إن" مبتدأة حين ذكرت "اللام" هنا، كما أن "عبدالله" لا يجوز هنا إلا مبتدأ، ولو جاز أن تقول: "أشهد أنك لذهاب" لقلت: "أشهد بلذاك".

فهذه "اللام" لا تكون إلا في الابتداء ... وقال الخليل: "أشهد بأنك لذهاب" غير جائز، من قبل أن حروف الجر لا تعلق وقال: أقول: "أشهد إنه لذهاب وإنه لمنطلق" أتبع آخره أوله، وإن قلت: "أشهد أنه ذاهب، وإنه لمنطلق" لم يجز إلا الكسر في الثاني لأن "اللام" لا تدخل أبداً على "أن" و "أن" محمولة على ما قبلها، ولا تكون إلا مبتدأة باللام^٢.

١ - الكتاب، ١٣١/٢، وينظر في كف العامل عن العمل، ١١٦/٣ و ٣٨٢/١.

٢ - الكتاب، ١٤٦/٣-١٤٧.

ومثله في التعليق قوله متحدثاً عن الآية: "إن الله يعلم ما تدعون من دونه من شيء": فـ "ما" ههنا بمنزلة "أيهم" و "يعلم" معلقة^١.

وكما يعمل العامل ظاهراً عنده يعمل مُقدِّراً في قول سيبويه: "ومن ذلك قولهم "مرحباً" و "أهلاً" و "إن تأتني فأهل الليل والنهار". وزعم الخليل رحمه الله حين مثله أنه بمنزلة رجل رأيته قد سدد سهماً فقلت: "القرطاس" أي: "أصبت القرطاس" أي: أنت عندي ممن سيصيبه، وأن أثبت سهمه قلت: "القرطاس" أي "قد استحق وقوعه بالقرطاس، فإنما رأيته رجلاً قاصداً إلى مكان أو طالباً أمراً فقلت: "مرحباً وأهلاً" أي: أدركت ذلك وأصبت، فحذفوا الفعل لكثرة استعمالهم^٢. ومما قدر فيه الخليل فعلاً محذوفاً لا يحتاج الكلام إليه ما جاء في قول سيبويه: "وسألت الخليل رحمه الله عن قوله:

ألا رجلاً جزاه الله خيراً يدلُّ على محصلة تبيُّت

فزعم أنه ليس على التمني، ولكنه بمنزلة قول الرجل: "فهلاً خيراً من ذلك" كأنه قال: "ألا ترونني رجلاً جزاه الله خيراً؟"^٣ ويمكن أن نعدَّ هذا من باب التفسير بالمعنى.

أما استخدام القياس فكثير جداً ومن أقربه وأكثره اختصاراً قياسه دخول "ما" على "الكاف" وكفها عن العمل وتهيئتها للدخول على الأفعال بدخولها على "رُبَّ" وكفها عن عمل الجر وتهيئتها للدخول على الأفعال. قال سيبويه: "وسألت الخليل عن قول العرب: "انتظرني كما آتيك: و "أرقبني كما ألحقك" فزعم أن "ما" و "الكاف"

^١ - العنكبوت، ٤٢ والكتاب ١٤٨/٣.

^٢ - الكتاب، ٢٩٥/١، وينظر ٢٨٠-٢٩٥ و ٢٩٥-٢٩٧ في مثل ذلك الحذف.

^٣ - الكتاب، ٣٠٨/٢، وينظر ٦٥-٦٦ و ٦٩ و ٧٠-٧٧ وغيرها كثير.

جعلنا بمنزلة حرف واحد وصيرت للفعل كما صيرت للفعل "ربما"، والمعنى "عليّ
أتيتك" فمن ثم لم ينصبوا به الفعل كما لم ينصبوا بـ "ربما"^١ واستخدم التأويل كثيراً
والتقدير للفعل العامل النصب. ولا سيما في باب "ما ينتصب على التعظيم والمدح"
وباب "ما يجري من الشتم مجرى التعظيم وما أشبهه" و "باب ما ينتصب لأنه خبر
للمعروف المبني على ما هو قبله من الأسماء المبهمة" وغيرها كثير، يوضح ذلك
قوله في بيتي ذي الرمة.

لقد حملت قيس بن عيلان حربها على مستقلٍ للنوائب والحرب

أخاها إذا كانت عضاضاً سمالها على كل حالٍ من ذلولٍ ومن صعبٍ

"إن نصب هذا على أنك لم ترد أن تحدث الناس ولا من تخاطب بأمر جهلوه،
ولكنهم قد علموا من ذلك ما قد علمت، فجعله ثناءً وتعظيماً ونصب على الفعل
فكأنه قال: "اذكر أهل ذاك"... ولكنه فعل لا يستعمل إظهاره".

و أوضح من هذا في الدلالة على تخريج العبارة الغريبة الخارجة عن القياس
وردها إلى ما عليه القياس قوله في مجيء المنادي العلم المختوم بالتاء مفتوح الآخر
"وزعم الخليل رحمه الله أن قولهم: "يا طلحة أقبل" يُشبه "يا تيم تيم عدي" من قبل
أنهم قد علموا أنهم لو لم يجيئوا بالهاء لكان آخر الاسم مفتوحاً، فلما الحقوا "الهاء"
تركوا الاسم على حاله التي كان عليها قبل أن يلحقوا الهاء" وقال النابغة الذبياني:

كليني لهم يا أميمة ناصبٍ وليلٍ أقاسيه بطيء الكواكب

فصار "يا تيم تيم عدي"، اسماً واحداً، وكان الثاني بمنزلة "الهاء" في "طلحة"
تحذف مرة ويجاء بها أخرى، والرفع في "طلحة" وفي "يا تيم تيم عدي" القياس^٢ من

^١ - الكتاب، ١١٦/٣، وينظر مثله ٢٨٢/١.

^٢ - الكتاب ٦٥-٦٦. وعضاضاً : عاضة يعني الحرب و ٢٠٧-٢٠٨.

هذه الأمثلة ومن معظم ما لم نذكره يتضح مدى ما وصلت إليه قواعد النحو وأقيسته وأصوله وبحوثه من نضج وكمال. ولو تتبعنا الأصول التي اعتمد عليها الخليل في ذلك كله لوجدناه يعتمد كثيراً على السماء ويعتد به وهو الأصل الذي وضعت عليه الأقيسة وقعدت عليه القواعد بعد النظر إلى كثرة المسموع واطّرداه أو قلته لكنه هو كل ما سمع في الموضوع وذلك ما جاء في قول سيبويه: "زعم الخليل - رحمه الله - أنه سمع من العرب رجلاً يقول: "ما أنا بالذي قاتل لك سوءاً، و "ما أنا بالذي قاتل لك قبيحاً"^١. وفي قوله متحدّثاً عن "كُلِّ" و "أَوَّل" و "خير" وما أشبهها مما يلزم التكرير مع إضافته: "ومما يذُكُّ على أنهنّ نكرة، أنهنّ مضافات إلى نكرة وتوصف بهنّ النكرة، وذلك أنك تقول فيما كان وصفاً: "هذا رجلٌ خيرٌ منك" و "هذا فارسٌ أوّل فارسٍ" و "هذا مالٌ كُُلِّ مالٍ"... وحدثنا الخليل أنه سمع من العرب من يوثق بعربيته يُنشد هذا البيت، وهو قول الشّماخ:

وكلُّ خليلٍ غيرُ هاضِمٍ نفسه لوصلِ خليلٍ صارِمٍ أو مُعارِزٍ^٢

فجعله صفة (كُلِّ). فالخليل يؤكد الحكم بما جاء مسموعاً في الشعر. وقد يكون المسموع في النثر، يرويه ويفترض عبارات أو استعمالات يقيسها على المسموع ويجيزها، ويتضح ذلك في قول سيبويه "وحدثني من لا اتّهم عن الخليل أنه سمع أعرابياً يقول: "إذا بلغ الرجلُ الستين فإياه وإيا الشوابِ" ولهذا قال بانياً عليه: "لو أن رجلاً قال: "إياك نفسِكَ" لم أعنّفه؛ لأن هذه الكاف مجرورة"^٣. فالمسموع هو الأصل عنده. فإذا تعارض السماع والقياس لجأ إلى السماع. يتضح ذلك مما نقله سيبويه عنه، قال: "قال الخليل: كل شيء من ذلك عدلته العرب تركته على ما عدلته عليه، وما جاء تاماً لم تحدث العرب فيه شيئاً فهو على القياس، فمن المعدول الذي

^١ - الكتاب، ١٠٨/٢.

^٢ - المعارز: المنقبض.

^٣ - الكتاب، ١١٠/٢ و ٢٧٩/١.

هو على غير قياس قولهم في "هُدَيْلٍ": "هُدَلِيَّ" وفي "فُتَيْمِ كِنَانَةَ": "فُتَمِيَّ"، وفي "مُلَيْحِ خُزَاعَةَ": "مُلَحِيَّ"، وفي "ثَقِيفٍ" "ثَقَفِيَّ"^١...، وقوله في أمثلة يفترضها سيبويه فيقول: "وسألته عن رجلٍ اسمه "فو" فقال: العرب قد كفتنا أمر هذا، لما أفردوه قالوا "فم" فأبدلوا "الميم" مكاً "الواو" حتى يصير إلى مثال تكون الأسماء عليه... فإذا سميته بهذا فَشَبَّهَهُ بالأسماء كما شبَّهت العرب، ولو لم يكونوا قالوا "فم" لقلت: "قُوَّة" لأنه من الهاء، قالوا: "أفواه" كما قالوا: "سُوْطٌ" و "أَسَاطٌ"^٢...

واستخدم الخليل لوصف هذا المسموع معايير مثل: "مطرِدٌ" و "حسنٌ" و "كثيرٌ" و "غالبٌ" و "نادرٌ" و "شاذٌ" وهذا كثير في وصف الظاهرة أو البناء أو اللغة. واستخدامه القياس والتعليل بأنواعه والتأويل كثير جداً لا يحتاج إلى زيادة تمثيل. ومن منهجه الاعتداد بالقراءات وقد رأينا بداية ذلك عند أبي عمرو بن العلاء من شيوخه فهو لم يطعن بالقراءات كما فعل الفراء والكسائي، ولم يخطيء قراءة وإنما كان يقيس عليها ما يضعه من عبارات أو يقيسها على ما جاء في كلام العرب الفصيح ويكفيها للاستدلال على ذلك قول سيبويه.

"وسألته عن قوله عزوجل: "وما يُشْعِرُكُمْ إنها إذا جاءت لا يؤمنون" ما منعها أن تكون كقولك: "ما يدريك أنه لا يفعل؟" فقال: لا يحسن ذا في ذا الموضع إنما قال: "وما يشعركم" ثم ابتداء فأوجب فقال: "إنها إذا جاءت لا يؤمنون"، ولو قال: "وما يشعركم" "أنها إذا جاءت لا يؤمنون"، كان ذلك عذراً لهم. وأهل المدينة يقولون "أنها"

^١ - الكتاب، ٣/٣٣٥-٣٣٦.

^٢ - الكتاب، ٣/٣٣٦.

فقال الخليل هي بمنزلة قول العرب "إنتِ السوق أنك تشتري لنا شيئاً" أي: "لعلك" فكأنه قال: "لعلها إذا جاءت لا يؤمنون"^١.

أما غير ذلك من دراسات في الابنية والأساليب العربية التي نماها ووسعها فمنه ظاهرة الافتراض التي رأينا أمثلة منها عند يونس وأبي عمرو بن العلاء ونجد هذه الظاهرة عند الخليل عامة شائعة ولاسيما في مسائل التصريف، وفيما يقلب إليه العبارة على الأوجه الجائزة فيها مما ورد عن العرب ومما لم يرد ولو قال به قائل صح. ومنه ظاهرة اهتمامه بالأدوات وتحليلها والقول بتركيب الكثير منها نوجز ذكر أمثلة منها، وذلك قوله في: "ليس" أنها مركبة من "لا أيس" ثم طرحت الهمزة والألف والزقت اللام بالياء، وفي "مهما" أن أصلها "ما" الشرطية ادخلت عليها "ما" الزائدة كما دخلت في: "أينما" و "حيثما" و "كيفما"، وفي "لن" أنها مركبة من "لا أن" ثم خففت بحذف الهمزة، ثم الألف لالتقاء الساكنين ... وغيرها^٢.

وهكذا استتب كثير من موضوعات النحو وأبوابه وأصوله وأقسامه وفروعه على الصرة التي جاءت عند الخليل، واتضحت في كتاب سيبويه، ولم يزد عليه سيبويه ويونس وتلاميذهما ومن جاء بعدهم سوى بعض التفسيرات والمخالفات في التعليل والأحكام، وسوى ما جره تأثر المتأخرين بالفلسفة وعلم الكلام وما ترجم من

^١ سورة الأنعام ١٠٩، وهي في المصحف بفتح الهمزة، والكتاب ١٢٣/٣. وينظر في موقفه من السماع

والقياس والعلة والقراءات والحديث (كتاب الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه)

^٢ - ينظر في ذلك لسان العرب (ليس) والكتاب ٢٣٣/٤ و ٥٩/٣-٦٠ و ٥/٣ و ٢٥/١ و ١٩٥/٢ و ١٩٦ و ٥١/٣ و ١٥١ و ١٦٤ و ٣٣٢ و ٥٣٢ و ٢٢٢/٤ و ٣٢٣ وينظر فيها بتفصيل الخليل بن أحمد الفراهيدي، وعبقر من البصرة، ومدرسة الكوفة.

علوم من إدخال الجدل والتعليل والقياس الجاري على أصول هذه العلوم، وقد اتضح ذلك منذ زمن المبرد. أما الكوفيون فلم يزدوا شيئاً ذا بال إلا إدخالهم بعض المسموع والنادر ضمن المقيس، وقولهم بظواهر جديدة لا تعد شيئاً إذا ما قورنت بما جاء به الخليل، وكان ذلك نتيجة توسّعهم في السماع ورواية الشعر الذي لم يحتجّ به البصريون مما جاءت فيه ظواهر لم يستخدمها الشعراء الجاهليون والإسلاميون. أما ما جاؤا به من مصطلحات فلم يستنبطوا أبوابها وأقيستها وقواعدها وإنما هي الأبواب والبحوث نفسها وأن حدث تغيير في التسميات.

خصائص التحليل النحوي في البصرة

تميز النحو البصري في مراحل نشوئه ونموه وتكامله ونضجه على يدي الخليل بن أحمد بخصائص لمسناها من مناهج النحاة الذين بذلوا الجهد العظيم في سبيل بنائه على أصول سليمة وعلى مادة فصيحة أقرب ما تكون إلى لغة لكتاب العزيز ولغة القبائل التي عدت لغتها قمة الفصاحة والنقاء واتبعوا في سبيل ذلك منهجاً اقتنعوا بسلامته وجودته بعد طول التتبع والمباحثة والمناقشة في مجالسهم. ولهذا فقد وصل إلينا هذا النحو بمجموعه - إلا ما شذ - ممثلاً في كتاب سيبويه الذي حوى آراء السابقين وجهودهم منذ زمن أبي الأسود إلى زمن الخليل ويونس وسيبويه المعاصرين الذي اكتمل في زمانهم بناء النحو وثبتت أركانه وتبينت أبوابه

وفصوله وأقسامه. واتضحت أصولهم التي اعتمدوا عليها في كل هذا. ونيستطيع في ضوء ما تتبعناه في نحوهم أن نجمل خصائص هذا الدرس النحوي عند البصريين بأمور لا نود الإطالة فيها لاتضاحها وظهورها في مناهج النحاة أنفسهم.

١- اعتمدوا على السماء، وقد وجدنا علماء اللغة ورواتها وعلماء النحو عامة وعلى رأسهم عيسى بن عمر و أبو عمرو بن العلاء والخليل يبذلون الجهود الجبارة في السماع عن العرب وتدوين ما يسمعون أو حفظه سواء أكان ذلك بالخروج إلى بوادي نجد وتهامة والحجاز وما جاور البصرة من بوادي الجزيرة العربية التي كانت مقرا للأعراب الفصحاء، أم بالسماع ممن يفدون في المواسم الأدبية إلى المريد من الأعراب والشعراء والخطباء والفصحاء. ثم أخذوا هذا المسموع الذي جمعوه من شعر ونثر فدرسوه وصنفوه إلى فصيح وأفصح وهذا الفصيح منه ما هو مطرد شائع كثير، ومنه ما هو ظواهر قليلة إذا ما قيس إلى الأصل والمسموع في اللغات نفسها، فعدوا المطرد الشائع من الفصيح أصلا يقاس عليه وبنوا عليه الأقيسة التي جعلوها ثابتة ، واتخذت صورتها النهائية على يدي الخليل بعد أن كان سابقوه الذين عاشوا قبل منتصف القرن الثاني للهجرة يعدلون من أقيستهم إذا سمعوا ظاهرة جديدة عن شاعر مطبوع أو أعرابي صحيح السليقة فصيح اللغة، وفي زمن الخليل ثبتت هذه الأقيسة، وسموا ما كان وارداً في لغات العرب أنفسهم مما هو قليل "مسموعاً"، وإن كان مقارباً لأقيستهم عدوه جائزاً إلا أنه لا يصح القياس عليه، وسموا ما خالف هذا الفصيح مما سمعوه من لغات العرب الذين لم يعدوا ظواهر لغتهم مما يصح القياس عليها لمخالفتها الظواهر في اللغات الأخرى، سمو هذا لغة، فإن وقع في شعر وثبر وقل فهو مسموع نادر أو قليل. وإن

كان ظاهرة مفردة فيهما فهو الشاذ، وإن وقع في شعر ولم يقع في نثر فإن أجازوه فيه سموه ضرورة، وما لم يتقبلوه سموه شاذاً، ولم يقيسوا على المفرد الشاذ المخالف للكثير المطرد.

٢- وضعوا الأقيسة كما بينا على الكثير المطرد من كلام العرب المسموع، وأول هذا المسموع كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وجعلوا هذه الأقيسة ثابتة منذ زمن الخليل ولم يغيروا بتغير المسموع الذي يرد إليهم بعد ذلك، فقد وقفوا في اللغة المنثورة المقيس عليها عند منتصف القرن الثاني للهجرة أي بنهاية العصر الأموي وبداية العصر العباسي، واشتروا في اللغات التي يقاس عليها أن تكون فصيحة مختارة لذلك عدوا لغة قريش أفصحها وهي قبيلة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وقد كانت "أجود العرب انتقاداً للأفصح من الألفاظ على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعاً وإبانة عما في النفس" وكانت مع "فصاحتها وحسن لغاتهم وأصفى كلامهم فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلاتقهم التي طبعوا عليها فصاروا بذلك أفصح العرب". ونقلت اللغة العربية عن قبائل أخرى اقتدي بلغتها وهم قيس وتميم وأسد ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين فعن هؤلاء معظم ما أخذ البصريون واعتمدوا عليه في دراسة الغريب والإعراب والتصريف. أما الشعر فقد احتجوا بأشعار الطبقات الثلاث الأولى في تقسيم ابن رشيق في "العمدة" وهي طبقة الشعراء الجاهليين وطبقة المخضرمين وطبقة متقدمي الإسلاميين كجرير والفرزدق والأخطل ومن عاصرهم، وبابن هرمة

^١ - ينظر المزهر، ٢٠٩/١، وما بعدها.

(ت بعد ١٤٠هـ) وقف الاحتجاج عند البصريين^١. على هذين النوعين الموسوعين من كلام العرب وبهذه الشروط وضع النحويون البصريون أقيستهم التي اعتمدوا عليها وأكثروا منها وفرعوها وبنوا عليها قواعد النحو والصرف. وجعلوا للقياس أركاناً ولهذه الأركان شروطاً وقسموها أقساماً^٢، وهكذا وضعوا أقيستهم على أصول ثابتة لا يغيرها ما يجد من مسموع بعد هذه.

٣- وقفوا من القرآن الكريم وقراءاته موقف المدافع عما يرد في الكتاب العظيم فقاوسوا على آياته ما أجازوه من قواعد، وأجازوا ما جاء في قراءاته المتواترة، ولم يصدر عنهم طعن في قراءة أو تخطئة لقارئ شاذة كانت قراءته أم غير شاذة كما قسمها أبو بكر بن مجاهد (٢٤٥-٣٢٤هـ) لم يختلف في ذلك أحد منهم فليس في كتاب سيبويه ما نسبته المتأخرون المتعصبون للكوفيين من أنهم أول من خطأوا القراء، وقد كان هذا اتهاماً باطلاً لهؤلاء النحاة القائمين على لغة القرآن الكريم، وكل ما هنالك أنهم كانوا يخرجون بعض القراءات الشاذة عن أقيستهم إما بتفسير وتقدير يتطلبه المعنى ويوحى به، وإما بعدّها واردة على لغات العرب التي لم يبن البصريون عليها أقيستهم لضعفها وقلتها،

^١ - هو إبراهيم بن علي بن سلمة بن هزيمة بن هذيل: ولد سنة ٩٠هـ، أنشد أبا جعفر المنصور في سنة أربعين ومائة (١٤٠هـ) قصيدة فيه. ثم عمّر بعهدا مدة طويلة (الأغاني ٣٩٧/٤)، انظر ترجمته فيه (٣٩٨-٣١٧-٤) ط طار الكتاب والشعر والشعراء ترجمة رقم ١٧٩. وينظر في شروط اللغة المسموعة التي يقاس عليها ورواتها وزمانها وقبائلها: الصاحبى في فقه اللغة ٥٢-٥٣ و ٦٢-٦٣. والخصائص ٣١/٢-٣٥ و ٢٥ و ٨-٥ و ٣٣٠ و ٩٣/١-٩٤ و ٩٩ وغيرها، ولمع الأدلة ٨٤-٨٥ و ٩٢-٨٠. وكتب السيوطي الاقتراح والمزهر والأشباه والنظائر وهمع الهوامع في مواضع متعقدة منها وخزانة الأدب للبغدادى ٦/١-٨ والعمدة ١/١١٣. والشعر والشعراء، ٦٣/١، والشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه القسم الثاني السماع والقياس.

^٢ - ينظر هذا في الكتاب السابقة وفي الشواهد: كتاب الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه قسم ٢، القياس ٢٢١، وما بعدها.

ومع ذلك فهي لغة عربية يؤخذ بما جاء فيها من ظواهر نحوية وصرفية ولغوية وإن كان لا يقاس عليها.

وأود أن أشير هنا - وإن كان في هذا سبق لما يجب أن يكون عليه هذا البحث- إلى أن الذي صح وثبت بمراجعتي للقراءات التي اتُّهم البصريون بتخطئتها أو الطعن فيها - في كتاب سيبويه ممثل النحو البصري و "معاني القرآن" ممثل آراء الكوفيين ونحوهم، ما أثار دهشتي. وذلك أن أول تخطئة وطعن وجه إلى هذه القراءات كان صادراً عن الكسائي شيخ القراء والنحاة الكوفيين، وتابعه تلميذه الفراء الذي انصرف إلى العمل القرآني فجسر النحاة الذين عاصروه أو جاؤا بعده على تخطئة القراء والطعن في القراءات ابتداء من المازني والمبرد وابن جني، الذين اقتدوا بهذين الشيخين الكوفيين...

أما الاحتجاج بالحديث النبوي فلم يرد في كتب النحاة الأوائل كوفيين كانوا أم بصريين أهم عدوه من أصول الاحتجاج، ولا اعتمدوا عليه في استنباط قاعدة أو إثبات ظاهرة يؤخذ بها ويقاس عليها مما خالف منه الوارد في كتاب الله وكلام العرب الفصحاء منثور ومنظومه، وقد كا أبو الحسن بن الضائع (-٦٩٠هـ) أول من تنبه على أن ابن خروف قد احتج بالحديث وخالف بذلك سنة النحاة السابقين، ثم جاء أبو حيان ولاحظ مبالغة ابن مالك في بناء الأقيسة والقواعد عليه فردّ عليه، وعلل هذا الرد بأن الحديث روي بالمعنى، وإن معظم رواته غير عرب ولا يستطيعون التعبير عن معنى الحديث بعبارات يصح تركيبها وتأتي على أسلوب الرسول ﷺ. وما يزال

الباحثون مختلفين في الأسباب التي دعت إلى أبعاد الحديث عن مجال الاحتجاج وكل منهم يعلل بعلّة يراها، ويقترح رأياً يعرضه ويدافع عنه.^١

وبعد هذا العرض لما بنى عليه البصريون نحوهم نوجز موقفهم من هذين الأصلين وهما السماع والقياس. وذلك أنهم كانوا يعدون السماع الأصل وإن وجد القياس. فإذا اجتمع السماع والقياس في الظاهرة الواحدة أخذوا بكل منهما وإن اختلف السماع والقياس فيها فضلوا السماع على القياس وأخذوا بالمسموع ولم يقيسوا، وإن لم يكن لديهم المسموع فيها لجأوا إلى قياسها على أمثالها. فإن ورد عن العرب الفصحاء أو عن شاعر من الشعراء الذي يحتج بشعرهم أو في قراءة قارئ غير متواترة ما خالف أقيستهم مما لا يستطيعون تخطئته أو رده لجأوا إلى التفسير والتأويل بتقدير محذوف ونحوه ينسجم مع المعنى ويوافق الأقيسة، وقد كثر هذا عندهم، إلا أنه لم يكن كما وصفه بعض الباحثين من أن نحوهم يعتمد على التأويل. أما التعليل، فلم يتضح عندهم ما رموا به من أنهم أفسدوا النحو بتعليلاتهم وإنما كان تعليلهم - كما لاحظنا عند النحاة ومنهم الخليل وسيبويه - يرد على الصورة السهلة الواضحة التي يدعوا إليها البحث في الظاهرة وعرض أحكامها وأصولها من تبين لعل ورود هذه الموضوعات أو الظواهر الإعرابية والصرفية والصوتية على الصورة التي وردت وإيضاح أسباب ذلك للدارسين من العرب وغيرهم من الأقوام التي دخلت في الإسلام والتي وضع النحو ودراسات العربية من أجلهم مما كان لابد منه ولا مفر عنه، وهو ما سماه الزجاجي العلة التعليمية، وهي أول العلل وأوضحها.^٢

^١ - ينظر الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه موضوع الحديث في القسمين، وكذا موضوع القراءات فيهما وينظر ذلك مفصلاً في كتاب: "موقف النحاة من الاحتجاج بالحديث الشريف"

^٢ - ينظر في العلة وأقسامها الإيضاح في علل النحو ٦٤-٦٥ والخصائص ٢٤٩/١ والاعراب في جدل الأعراب في فصول متعددة منه. والاقتراح للسيوطي ٢ و ٤٧-٤٨ و ٥٦-٥٧ وغيرها

سيبويه

حياته:

هو عمرو بن عثمان بن تنبر مولى بني الحارث بن كعب^١، اشتهر بين النحاة بلقبه هذا، ولد في دولة بني العباس ويرجح أن ولادته كانت في حدود سنة ١٣٥هـ، انتقل وأهله من قرية البيضاء بشيراز واستقر في البصرة التي كانت مركزا للثقافة الإسلامية ومقرا للدراسات الدينية والنحوية، وكان صبياً، فأخذ فيها علم القراءات ثم طلب الفقه والحديث على حماد بن سلمة المحدث المشهور الفصيح الذي كان يعني بالعربية، وكان يقول "من لحن في حديثي فقد كذب علي"^٢ وحدث أن قال حماد يوماً "قال رسول الله ﷺ" ليس أحد من أصحابي إلا وقد أخذت عنه ليس أبا

والشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه، في أنواعها ومن بحث فيها وموقف سيبويه والخليل منها ٣١٧ وما بعدها.

^١ - تنظر ترجمته في معظم كتب الطبقات ومنها: مراتب النحويين ٦٥ وأخبار النحويين البصريين ٣٧ وطبقات النحويين واللغويين ٧٣-٧٤ ونزهة الألباء ٣٨ ونور القبس ٩٥-٩٧ وينظر سيبويه أمام النحاة وسيبويه حياته وغيرها كثير ممما اختص به.

^٢ - أخبار النحويين البصريين، ٣٤

الدرء" فقال سيبويه "ليس أبو الدراء" ظانا أنه اسم ليس فقال له حماد "لحنت يا سيبويه، ليس هذا حيث ذهبت، إنما "ليس" "استثنت" فقال سيبويه سأطلب علما لا تلحنني فيه أبدا. وطلب النحو أولا على عيسى بن عمر الثقفي فيما يقال وهو صبي فلما مات لزم حلقة الخليل واختص به. وكان هذا اللحن سبباً لأن يندفع في سماع اللغة ورايتها عن حلقات اللغويين مثل أبي عمرو بن العلاء والأخفش الكبير أبي الخطاب ويونس بن حبيب مع ملازمته حلقة الخليل وأخذه عنه كل ما عنده من آراء ومناهج نحوية اتبعها في تحديد هذه الآراء وتقريرها، فكان يكتب عنه كل ما يسمع منه ويدون كل ما كان يدور في هذه الحلقة من مناقشات بين شيوخه في الآراء النحوية والصرفية واللغوية، ويثبت كل ما يروون من أشعار الشعراء وما يحتجون به من كلام العرب وما يردونه منها، ولا ينصرف إلى تدوين ما يتفقون فيه فقط، وإنما كانوا يدوّنون ما يتفقون فيه وما يختلفون مثباً لكل منهم دليله وحجته، ولم يكتب بما يكتبه عن طريق السماع ولم ين دوره دور المتفرج والمدون وإنما شارك في المناقشات التي كانت تجري في هذه الحلقات وكان مثال التلميذ الواعي يسأل عن كل ما لم يفهمه مما يجري البحث فيه، ويستفسر عن أمور لم يكن الخليل قد تنبه عليها، أو اهتم بشرحها أو توضيحها، ويفترض ظواهر لم ترد في الكلام متوقعاً ورودها طالباً معرفة الحكم فيها، يتضح كل هذا في مسائل كتابه الذي كان موسوعة علمية لرجال النحو البصري وآرائهم واتفاقهم واختلافهم، وكانت شخصية سيبويه ظاهرة بارزة في معظم الأبواب فهو المحور الذي يوجه هذه المناقشات، وبذلك أغنانا بذهنه المتوقد وبحرصه على إلا يضيع شيئاً مما يسمع عن أي من الكتب التي قبل أنها ألّفت في زمانه أو قبله، والتي ربما يكون قد اطلع على بعضها.

لم تذكر كتب التراجم أخباراً تدل على خروجه إلى البوادي للسمع ولتدوين اللغة كما فعل شيخه الخليل ومعاصره الكسائي، إلا أن كثرة ما في كتابه من عبارات تدل على السماع للشعر والنثر اللذين يوردهما مصحوبين بقوله: "سمعنا العرب يقولون" و "وسمعناه ممن ترضى عربيته" و "وسمعنا من يوثق بعربيته يقول...". و "هذا على ما سمعنا العرب تتكلم به رفعا" و "سمعت أعرابياً يقال له أبو مرهب يقول" و "سمعت رجلين عربيين يقولان"، وغيرها من عبارات توضح سماعه عن غير شيوخه، ظل كذلك يرفد العربية حتى توفي سنة ١٨٠ هـ مخلفاً لنا كتابه الذي لا يزال عمدة الدارسين.

الكتاب:

اختص بهذا الاسم من بين الكتب المؤلفة في النحو حتى أصبح هذا علماً عليه بعد موته فلم يحاول أحد من تلاميذه بعده - وفيهم الأخفش سعيد بن مسعدة أبو الحسن الذي كان حامل الكتاب وراويّه - أن يضع له اسماً يعرف به وأبقاه كما تركه صاحبه كتاباً منفرداً في هذا العلم لا ثاني له في عصره لشموله واتساعه وأهميته، فقد أعجلته المنية عن أن يفكر في وضع اسم له، فذاع واشتهر باسم "كتاب سيبويه" أو "الكتاب"، وعرفه النحاة من تلاميذه وتلاميذهم إلى يومنا هذا بهذا الاسم، مع أن سيبويه لم يقرأه على أحد في حياته سوى ما ذكره معاصره وتلميذه أبو الحسن الأخفش من أن سيبويه كان إذا وضع شيئاً من كتابه عرضه عليه^١. وهو الوحيد الذي كان عارفاً بوجوده مالكاً لنسخته الفريدة فيما يروي المؤرخون، إلا أن صالح بن

^١ - مراتب النحويين ٦٩ وطبقات النحويين واللغويين ٦٩، أنباه الرواة، ٣٥٠/٢.

اسحاق أبا عمر الجرمي بذل للأخفش شيئاً من المال على أن يقرئه هو وزميله أبا عثمان المازني كتاب سيبويه فأجاب طلبهما وشرعا في القراءة عليه واستنساخه منه حتى أتماه، ثم أظهره، وأذاعا بين الناس أنه لسيبويه بحسب ما اتفقا عليه^١، ففوتا على أبي الحسن فرصة اخفائه ثم ادعائه أن كتابه كما كانا يظنان. وسواء أصح ما ذهب إليه ظن هذين في الأخفش ونيته أم لم يصح، فقد قاما بأول خطوة خدمت الكتاب وصاحبه ومكنت الدارسين من بعده بصريين وكوفيين، ومن جاء بعدهم من نحاة الأقطار الإسلامية الأخرى - كما سنرى - من الاستفادة منه وعن الأخفش أخذه الكسائي واستنسخ له نسخة منه، وعنها عمل الفراء نسخته واهتما به واستفادا منه في نحوهما من غير أن يظهرهما للناس ذلك^٢. واهتم الناس به وقدروه وعدوه أكبر هدية تقدم إلى الملوك والزوراء. حدث الجاحظ قال "أردت الخروج إلى محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم ففكرت في شيء أهديه له، فلم أجد شيئاً أشرف من كتاب سيبويه، فلما وصلت إليه قلت له: لم أجد شيئاً أهديه لك مثل هذا الكتاب. وقد اشتريته من ميراث الفراء، فقال: والله ما أهديت لي شيئاً أحب إليّ منه. قال ابن خلكان "ورأيت في بعض التواريخ أن الجاحظ لما وصل إلى ابن الزيات بكتاب سيبويه أعلمه به قبل احضاره، فقال له ابن الزيات: أو ظننت أن خزائنا خالية من هذا الكتاب؟ فقال الجاحظ: ما ظننت ذلك، ولكنها بخط الفراء ومقابلة الكسائي وتهذيب عمرو بن بجر الجاحظ - يعني نفسه - فقال ابن الزيات: هذه أجل نسخة

^١ - نزهة الألباء، ٩٧.

^٢ - نزهة الألباء ٩٧، ووفيات الأعيان ١٧٧/٣، وينظر مراتب النحويين ٨٧-٨٨، وأخبار النحويين البصريين ٤٥، وطبقات النحويين واللغويين ٧٣ و ٧٤، ومعظم من ترجم له.

توجد وأعزّها، فأحضرها إليه فسرّ بها ووقعت منه أجل موقع^١. هذه الرواية تدلنا على مبلغ عناية المثقفين وعلماء النحو بالكتاب فالكسائي والفراء والجاحظ وابن الزيات جميعاً من خيرة العلماء والأدباء والوزراء والمثقفين، وهذه هي عنايتهم بالكتاب ورعايتهم له، وقد استمرت هذه العناية وما زال المحدثون مهتمين به وما زالت بحوثهم تتتابع في مختلف فروع العلم فيه.

شهد بحقه ابن خلدون وذهب إلى: أنه سمي: "قرآن النحو" وأصبح علماً عند النحويين ولا غني لإمرئ في أنواع العلوم عنه ولا سيما الإسلامية فإنه فيها أساس وأي أساس". وعده ابن حمزة الاصبهاني "زينة دولة الإسلام"^٢ فهل يستحق "الكتاب" هذا الثناء والتعظيم؟ أن مما يدل على صحة هذه الأقوال ما يلاحظه كل من اطلع على تاريخ المدارس النحوية في الكوفة وبغداد ومصر والشام والأندلس، فقد كان "الكتاب" عدة للدارسين في هذه المدن والأقطار، لأنه لم يكن للبصريين كتاب يجمع نحوهم قبله، ولم يظهر كتاب له قيمته بعده غير "المقتضب" للمبرد الذي كان معظم مسأله وأبوابه مبنياً على الكتاب مستمداً منه، وكانت كتب الصرف للمازني وابن جني وغيرهما مستمدة من أبواب الصرف في الكتاب ولهم فيها فضل الجمع والترتيب والتصنيف الذي ارتأوه^٣.

١ - وفیات الأعيان، ١٣٣/٣

٢ - ومقدمة ابن خلدون ٥٤٧ ومفتاح العلوم ١٣٠ وينظر ضحى الإسلام ٣٨٥/٢.

٣ - تنظر الكتب التي ارخت لنحاة هذه البلدان ومن بينها طبقات النحويين واللغويين ٧٦ و ١١٩ و ٢٣٤ و ٢٥٦ ومقدمة الكتاب لعبد السلام هارون ومقدمة المقتضب، وتاريخ آداب العرب للرافعي، ٣٢٢/٣.

أما نسبته إلى سيبويه فلم يشك فيها أحد منذ أن كان في حوزة أبي الحسن الأخفش وأن اختلفوا في استفادة سيبويه من كتابي عيسى بن عمر "الاكمال" و "الجامع"، ونرجح أنه استفاد منهما أو من أحدهما في الآراء التي أوردها في الكتاب، وهي كثيرة يرجح أنه لم يحفظها عنه عندما كان يرتاد حلقة، لأن عيسى توفي وما يزال سيبويه صبيّاً غير قادر على حفظ هذا المقدار المتنوع من الآراء والروايات والأخبار، إلا أنه كان يسجل ما يدور في حلقة وما يرويه ويقول به من آراء كما كان يفعل بعد ذلك في حلقة الخليل. كما وردت روايات في استفادته من كتاب اسمه "الفصل" قيل إن أبا جعفر الرّؤاسي كان قد ألفه وأن الخليل أخذه منه وحشاه وكون "الكتاب". وهذا القول مردود بأن من ترجموا للرّؤاسي من القدماء والمحدثين عدوه في طبقة المؤدّبين وأنه كان مطروح العلم ليس بشيء^١.

أما زمن تأليفه فيبدو أنه ألف بعضه في حياة شيخه الخليل، وألف بعضه الآخر بعد وفاته، لأنه بدأ يترحم على شيخه في هذا القسم ويلمح من رواية نصر عن أبيه أنه قال لسيبويه حين أراد أن يضع كتابه، تعال نتعاون على أحياء علم الخليل، ما يدل على أنه ألفه جميعه بعد وفاة الخليل، وإن كنا نرجح الأول مع أن رواية نصر لا تتعارض معها. لأنه قد يكون سيبويه ابتداءً بالتأليف قبل عرض أبي نصر ذلك عليه.

منهجه ومادته:

^١ ينظر: مراتب النحويين ٢٣ و ٢٤ وطبقات النحويين واللغويين ٢٣ و ١٣٥ والفهرست ٧١، ونزهة الألباء ١٣ و ٣٤ وإنباه الرواة، ٣٤٦/٢ و ٣٤٧ وبغية الوعاة ٢٣٧/٢ و ٨٢/١ وكشف الظنون ١٤٥/١ و ٥٧٦.

للكتاب منهج واضح بناءً سيبويه وحدده ونظمه ورتب عليه العلوم التي ضمها هذا الكتاب، وإن خلو الكتاب، من مقدمة يشرح فيها سبب التأليف أو زمانه أو مصادره أو سبب أتباعه هذا المنهج في التأليف، ومن خاتمة يبين فيها نتائج بحثه لا يغني خلوه من منهج منظم جارٍ على أسلوب منطقي رتب فيه مواد الكتاب وأبوابه وقدم فيه منها ما رآه يستحق التقديم من الأبواب والبحوث التي تعد مدخلاً لأبواب الكتاب الأخرى. والذي يتضح للناظر فيه أنه عد علوم العربية البارزة ثلاثة هي النحو والصرف والدراسات الصوتية، وعلى هذا الأساس رتب كتابه فجاء الجزء الأول من طبعة بولاق وأول الجزء الثاني خاصاً بموضوعات النحو المستقلة، وجاءت بعدها موضوعات هي مما يدرس دراسة نحوية وصرفية وهي أبواب النسب والتصغير وجمع التكسير ووضع بعدها ما يتعلق بالصرف من ابنية الأفعال وما يشتق منها ومصادرها وختم الكتاب بأبواب في الدراسة الصوتية من الأبدال والأعلال والإمالة والوقف والإدغام، وكان هذا الترتيب فيما نرى واضحاً منطقياً دالاً على عقلية سيبويه التنظيمية، وعلى احساسه بتميز البحوث النحوية عن الصرفية عن اللغوية الصوتية. ولم يكن التنظيم والترتيب المنهجي واضحاً في هذا فقط وإنما اتضح أيضاً بما جعله بداية افتتح به الكتاب من أبواب لا بد من جعلها سابقة لغيرها لأنها مقدمات لما يسجيء بعدها مما يرتكز عليها ويقوم بها، لهذا بدأ كتابه بـ "باب علم ما الكلم من العربية" قسم فيه الكلام إلى اسم وفعل وحرف، وحاول أن يحد كل نوع منها حداً وصفيًا يعتمد على الأمثلة التي توضح المحدود بعيداً عما عرف فيما بعد الحدود المنطقية العقلية النظرية، وقسم فيه الفعل إلى أنواعه الثلاثة، ومثل لكل نوع منها. وهذه المقدمة التي عدها سيبويه فاتحة الكتاب ظلت متبعة حتى عصرنا الحاضر. أو فلنقل حتى زمن ابن مالك الذي استقر في زمانه التأليف النحوي وترتيب

الموضوعات والأبواب فهو يبدأ ألفيته بهذا عينه فيقول مستخدماً التحديد الذي عرف في زمانه متبعاً التقسيم نفسه:

كلامنا لفظ مفيد ك: "استقم" واسم وفعل ثم حرف الكلم

وتبع هذا الباب آخر سماه: "باب مجاري أواخر الكلم من العربية" ذكر فيه أحوال الإعراب وهي أربعة الرفع والجر والنصب والجزم، وأحوال البناء وهي أربعة الفتح والكسر والضم والوقف. وبين أقسام الكلام الذي تدخله علامات الإعراب وهي الأسماء المتمكنة والأفعال المضارعة لأسماء الفاعلين التي في أوائلها الزوائد الأربع الهمزة والتاء والياء والنون... وإن النصب والرفع والجر والتثوين معها تقع في الأسماء، في حين يلحق الفعل المضارع الرفع والنصب والجزم، وهو في هذا كله يمثل لكل نوع. أما علامات البناء فتقع في الأسماء غير المتمكنة المضارعة عندهم ما ليس باسم ولا فعل مما جاء لمعنى ليس غير^١، نحو: سوف وقد. وللأفعال التي لم تجر المضارعة والحروف التي ليست باسماء ولا أفعال ولم تجيء إلا لمعنى^٢، ومثل لك هذا بأمثلة واضحة محددة وبين بعدها علامات بناء الماضي وسبب بنائه على الفتح لا السكون وبين أن الوقف للأمر نحو "اضرب" وذكر علة اختصاصه بالوقف وتابع تمثيله لهذه الأنواع التي تعرب بالحركات أو تبنى^٣ عليها ثم انتقل إلى ما يعرب بعلامات نائبة عن الحركات، وذلك المثني وعلل الأحوال التي جاء عليها رفعا ونصبا وجرًا ولماذا كانت الألف والياء المفتوح ما قبلهما وبعدهما نون مكسورة^٤، وأعقبه بذكر ما جمع على حد التثنية والزائدتين اللتين تلحقانه ومثل

^١ - يقصد به الحرف.

^٢ - الكتاب، ١٢/١-١٥.

^٣ - الكتاب، ١٦/١-١٧.

^٤ - الكتاب، ١٧/١-١٨.

هذا وعَلَّه أيضا^١. ولم يقتصر على هذا وإنما ذكر معه ما جميع بالالف والتاء وحكم اعرابه فجعلوه مقابلاً لإعراب الجمع الذي على حد المثنى. فاضمة في مقابل الواو فرعا، والكسرة في مقابل الياء جرا وأعطيت للمنصوب كما نصب ذاك بالياء أيضا^٢. وتحدث بعد الانتهاء من علامات هذه الأسماء عن علامات إعراب الفعل المضارع إذا لحقته علامة التثنية أو الجمع وفصل فيها وفي كون نونهما تابعة لنون الاسم المشابه لهما وزاد عليه ما ألحقت به علامة التأنيث للمخاطبة وعلل فتح نونها، وذكر حكم النون في هذه الأفعال التي سميت فيما بعد "الأفعال الخمسة" في حالات الرفع والنصب والجزم ومثل لها، ثم تحدث عن علامات إعراب الممنوع من التثوين، وهو في خلال ذلك يذكر أصولاً نحوية لغوية منها قوله "اعلم أن بعض الكلام أثقل من بعض، فالأفعال أثقل من الأسماء، لأن الأسماء هي الأولى وهي أشد تمكناً فمن ثم لم يلحقها تثوين وأحقها الجزم والسكون وإنما هي من الأسماء"، و "اعلم أن النكرة أخف عليهم من المعرفة، وهي أشد تمكناً، لأن النكرة أول ثم يدخل عليها ما تعرّف به، فمن ثم أكثر الكلام ينصرف في النكرة" و "واعلم أن الواحد أشد تمكناً من الجميع، لأن الواحد الأول ومن ثم لم يصرفوا ما جاء من الجميع على مثال ليس يكون للواحد نحو: مساجد ومفاتيح". و "واعلم أن المذكر أخف عليهم من المؤنث لأن المذكر أول، وهو أشد تمكناً، وإنما يخرج التأنيث من التذكير..." ذكر هذه الأصول جميعاً ليبين أنواع الممنوع من الصرف وعلل المنع فيه^٣. ثم عقد باباً تحدث فيه عن ركني الجملة الأصليين وهما "المسند" و "المسند إليه" وبين فيه ما يشمل المبتدأ والخبر وما يدخل عليه من رافع أو ناصب، والفعل والفاعل. وتكلم على "باب

١ - الكتاب، ١/١٨.

٢ - الكتاب، ١/١٨.

٣ - الكتاب، ١/١٩-٢٣ (هرون) و ١/٧ (بولاق)

اللفظ للمعاني" ذكر فيه ما اتفق لفظه واختلف معناه وما اتفق لفظه ومعناه وما
اختلف لفظه ومعناه. ثم "باب ما يكون في اللفظ من الاعراض" ذكر فيه حذف ما
يحذف لغير علة تصريفية أو إعرابية، وأنما هو لمجرد التخفيف لكثرة دورانه على
ألسنتهم، وترك ما ترك من الابنية لاستغنائهم عنها بغيرها لثقلها، وتعويض ما عوض
فيه عن المحذوف. وبعده "باب الاستقامة من الكلام والاحالة" ذكر فيه ما يصح لفظاً
وله في الخارج واقع يطابقه أو لا يطابقه وما لا يصح لفظاً ومعنى سواء أكان له
واقع يطابقه أم لم يكن. نحو: أتيتك أمس" و "سأتيتك غداً" و "أتيتك غداً" و "سأتيتك
أمس" و "حملت الجبل" و "شربت ماء البحر" ونحوها. وختم هذه الأبواب التي عدها
مقدمة لأبواب الكتاب النحوية والصرفية والصوتية بـ "باب ما يحتمل الشعر" مما لا
يجوز في النثر من حذف، أو زيادة بمد أو غيره، أو استعمال أصل متروك، أو
مخالفة الأصل وأجراء الوصل مجرى الوقف، واستخدام الظروف استخدام الأسماء
وغيرها من الأمور التي جاز وقوعها في الشعر ولم تجز في النثر^١. ومما يدل على
أن هذه الأبواب جميعاً كانت مقدمات للكتاب أنه ابتداءً بعدها مباشرة أبواب الكتاب
الأصلية: باب الفاعل للفعل اللازم والمتعدي إلى واحد أو إلى اثنين أو إلى ثلاثة...
وهكذا مضى في ذكر أبواب النحو، وبعدها أبواب الصرف ثم أبواب الدراسات
الصوتية وختمه بباب "ما كان شاذاً مما خففوا على ألسنتهم وليس بمطرود مثل قولهم
: "بَلْعُنْبَر" و "بِلْحَارِث" و "مَسْتُ" في "مَسِست" و "علماء بنو فلان" في "على الماء
بنو فلان"^٢ وأمثالها من عبارات وأبنية متفرقة جرت فيها تغييرات غير قياسية، وبهذه
انتهى الكتاب.

^١ - الكتاب، ١/٢٣-٢٤.

^٢ - الكتاب، ٤/٤٨١-٤٨٥.

أما مادته فقد شملت جميع ما يعرف اليوم من أبواب نحوية وصرفية بتقسيماتها المعروفة، وقد لاحظنا ذلك مما قدمناه من عرض واف للأبواب الأولى ولم يشذ عنه من الأبواب شيء ذوبال.

ولقد تكلمنا على منهج الكتاب ومادته لنبين عقلية سيبويه التنظيمية أولاً، ولنوضح ما وصلت إليه الدراسات النحوية ومنهج التأليف فيها وأبوابها ومادتها من اكتمال ونضج على أيدي هؤلاء النحاة البصريين، ولا عجب بعد هذا أن يشيع الدرس النحوي البصري ويغلب على مناهج الدرس النحوي في الأقطار العربية والإسلامية.

أسلوبه و شواهد:

لكل مؤلف أسلوبه الخاص في التعبير عن آرائه وفي عرض مادته وتوضيحها للقرء مبنياً على ما وصل إليه من ثقافة لغوية وأدبية وعقلية، ولكل علم من العلوم ألفاظه وعباراته الخاصة ومنهج يلتزم به الباحث. ولما كان النحو من العلوم التي يحتاج إليها كل عربي أو دارس للعلوم العربية أو كاتب بها عربياً كان أم غير عربي احتاج من يؤلف فيه إلى أن يتخذ أسهل الأساليب وأوضحها، وأن يستخدم أوضح الألفاظ وأبعدها عن التعقيد، ولأن النحوي يحتاج إلى إيصال الفكرة والقاعدة النحوية إلى ذهن المتكلم بأسرع صورة وأوجزها كان عليه أن يتبع أسلوباً بعيداً عن الإطالة، وأن يتجنب أسلوب الاسترسال والوصف الإنشائي، لكل هذا نجد أسلوب سيبويه في كتابه سهل المتناول قريباً من الإفهام يتقبله الذوق العربي النحوي العلمي في أغلب ما ورد من أبواب نحوية أو صرفية أو صوتية، وكان عرضه لهذه المادة النحوية الضخمة عرضاً يستطيع إدراكه وفهمه كل من يريد الاستفادة منه مبنياً في الغالب على عرض آراء الشيوخ ومناقشاته لهم أو مناقشاتهم لبعضهم، معقوداً بلفظ هؤلاء الشيوخ - في أحيان كثيرة - وهي قريبة من أسلوب سيبويه نفسه لأن

اللغة والموضوعات وطريقة عرضها واحدة. وهو في خلال ذلك كله يعرض شواهدهم وشواهد في الآراء التي يراها للاستدلال بها على هذه القواعد النحوية، والظواهر الإعرابية أو الصرفية أو الصوتية. وقد كانت هذه الشواهد تختلف بحسب الموضوع الذي يعرض له ففي الموضوعات الصرفية معظم شواهد مفردات وأبنية وأسماء منها أعلام ومنها غير أعلام، وأفعال مسموعة عن العرب من مشتقاتها وأبنيتها، وهي في الموضوعات الصوتية تتراوح بين المفردات والعبارات القرآنية التي يرد فيها شاهد على ظاهرة من الظواهر مثل الامالة، أو الإدغام أو الهمز أو تخفيف الهمز أو الوقف وغيره. وقد يستخدم بين هذا وذاك بعض العبارات المنثورة الواردة فيها هذه الظواهر أما في الموضوعات النحوية فقد كان يعتمد على العبارات المنثورة الواردة في فصح الكلام العربي بعد آيات القرآن الكريم وعباراته التي هي أرقى الشواهد واسماها وأفصحها وأعلاها^١ مع الشواهد الشعرية التي كان قائلوها من إحدى الطبقات الثلاث التي كان من منهج النحاة البصريين الاحتجاج بشعرها، وسنوضح ذلك ببعض الأمثلة الدالة على سهولة الأسلوب وسلاسته. ومع هذا فلم يخلُ الكتاب من عبارات معقدة متشابكة كما في قوله عند كلامه على باب "الأمر والنهي": "وأما قول عدي بن زيد:

أرواحٌ مودّعٌ أم بُكورٌ أنت فانظرُ لأيّ ذاك تصيرُ؟

فإنه على أن يكون في الذي يرفع على حالة المنصوب في النصب، يعني: أن الذي من سببه مرفوع فترفعه بفعل هذا يفسره، كما كان المنصوب ما هو من سببه ينتصب، فيكون ما سقط على سببيه تفسيره في الذي ينصب على أنه شيء

^١ - ينظر موقفه من الاحتجاج بالقراءات والحديث ما مر في خصائص المذهب النحوي في البصرة، والتفصيل يرجع إلى كتاب الشاهد وأصول النحو في كتاب سبويه بحث القراءات والحديث في القسمين منه. وكتاب موقف النحاة من الاحتجاج بالحديث النبوي الشريف.

هذا تفسيره، يقول: ترفع "أنت" على فعل مضمر، لأن الذي من سببه مرفوع وهو الاسم المضمر الذي في "انظر"، فهذه العبارة مع سهولة القاعدة التي يعرضها سيبويه فيها جاءت متشابكة متداخلة معقدة التركيب بحيث ضيعت على القارئ ما يريد سيبويه قوله، لكنه فسره بالعبارة الأخيرة وهي قوله "ترفع" أنت على فعل مضمر...؟ وزاد بعده ما يوضح وجهاً آخر أو تفسيراً آخر لرفع "أنت" في البيت، جاء بأسلوب واضح سهل مفهوم هو قوله: "وقد يجوز أن يكون "أنت" على قوله: "أنت الهالك" كما يقال إذا ذكر إنسان لشيء: قال الناس: "زي" وقال الناس: "أنت" ولا يكون على أن تضر "هذا" لأنك لا تشير للمخاطب إلى نفسه ولا تحتاج إلى ذلك، وإنما تشير له إلى غيره، ألا ترى أنك لو أشرت له إلى شخصه فقلت: "هذا أنت" لم يستقم^١، وقد تكون العبارات شواهد نثرية حذف منها كلمات وظل الباقي لا يدل على المحذوف وذلك قليل أيضاً منه ما جاء في قوله: "... وثل ذلك" حينئذ الآن" و إنما تريد: "واسمع الآن" و "ما أغفله عنك، شيئاً" أي: دع الشك عنك، فحذف هذا لكثرة استعمالهم". قال ابن قتيبة فيها: "وقال المازني: سألت الأخفش عن حرف رواه سيبويه عن الخليل في باب "من الابتداء يضم فيه ما بني على الابتداء وهو قوله: "ما أغفله عنك شيئاً" أي: "دع الشك" ما معناه؟ قال الأخفش: "أنا منذ ولدت أسأل عن هذا" وقال المازني: فسألت الأصمعي وأبا زيد وأبا مالك عنه. فقالوا: ما ندري ما هو". وقال السيرافي: "قوله: "ما أغفله عنك شيئاً" الخ، قال أبو سعيد: لم يفسر هذا الحرف فيما مضى إلى أ، مات المبرد ففسره أبو اسحاق الزجاج بعد ذلك فقال: "معناه على كلام تقدم، كأن قائلًا قال: "زيد ليس بغافل عني" فقال المجيب: "بلى ما أغفله عنك، انظر شيئاً" أي: "تفقد أمرك" فاحتج به على الحذف، يريد:

^١ - الكتاب، ١/١٤٠-١٤١.

حذف "انظر" الناصب "شيئاً"^١. فهذه عبارة من كلام العرب احتج بها وفسرها ومع ذلك تحير فيها المتقدمون لأنهم قد تأخر بهم زمنهم عن قائلها فلم يعرفوا أين المحذوف؟ وما تقديره؟ وعلى العموم فقد كان أسلوب سيبويه في معظم كتابه إلا فيما ندر سهلاً متسلسلاً سلساً، تتتابع في الآراء والمناقشات والشواهد آخذاً بعضها برقاب بعض. مثال ذلك قوله في "هذا باب ما ينتصب على التعظيم والمدح" "وإن شئت جعلته صفة فجرى على الأول وإن شئت قطعته فابتدأته. وذلك قولك: "الحمد لله الحميد هو" و "الحمد لله أهل الحمد"، و "الملك لله أهل الملك"، ولو ابتدأته فرفعته كان حسناً كما قال الأخطل:

نفسى فداءً أمير المؤمنين إذا أبدى النواجذ يومٌ باسلٌ ذكر^٢

الخائض الغمر والميمون طائر^٣ خليفة الله يستسقى به المطر^٤

وأما الصفة فإن كثيراً من العرب يجعلونه صفة، فيتبعونه الأول، فيقولون: "أهل الحمد" و "الحميد هو" وكذلك: "الحمد لله أهله" إن شئت جررت وإن شئت نصبت، وإن شئت ابتدأت كما قال مهلهل:

وقد خبطنُ بيوت يشكر خبطة^٥ أخواننا وهم بنو الأعمام^٦

وسمعنا بعض العرب يقول: "الحمد لله رب العالمين" فسألت عنها يونس فزعم أنها عربية. ومثل ذلك قول الله عز وجل: ﴿ولكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة﴾، فلو كان كله رفعا كان جيداً. وقال جل ثناؤه: ﴿ولك البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين

^١ - الكتاب، ١٢٩/٢، وتأويل مشكل القرآن ٦٥، وحاشية السيرافي على الكتاب، ٢٧٩/١ (بولاق)

^٢ - أبداء النواجذ: كناية عن شدة اليوم والباسل: الكرية المنظر. والذكر: الشديد.

^٣ - الغمر: الماء الكثير، وقال: هو ميمون الطائر للكثير الخير الذي يتيمن به، وكانوا يستقون به المطر.

^٤ - خبطن: يعني الخيل وفرسانها، أي: ضربن، والخبط: الضرب الشديد، والبيوت: القبائل والأحياء.

وأتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وأتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس^١.
 لو رفع "الصابرين" على أول الكلام كان جيداً، ولو ابتدأته فرفعته على الابتداء كان جيداً كما ابتدأت في قوله تعالى: "والمؤتون" الزكاة". ونظير هذا النصب من الشعر قول الخرنق:

لا يَبْعَدُنْ فومي الذين هُم سُمُّ العُدَاةِ وَأَنَّهُ الْجُزُرِ
 النازلين بَكْلٍ مُعْتَرِكٍ والطيبون معاقِدِ الأُزُرِ

فرفع "الطيبين" كرفع "المؤتين". ومثل هذا في الابتداء قول ابن خياط العُكْلِي:

وَكُلُّ قَوْمٍ أَطَاعُوا أَمْرَ مُرْشِدِهِمْ إِلَّا نُمَيْرًا أَطَاعَتْ أَمْرَ غَاوِيهَا
 الظاعنين ولما يُظْعِنُوا أَحَدًا والقائلون لِمَنْ دَارَ نُخْلِيهَا

وزعم يونس أن من العرب من يقول: "النازلون بكل معترك والطيبين"، فهذا مثل "والصابرين": ومن العرب من يقول: "والظاعنون والقائلين" فنصبه كنصب: "الطيبين" الا أن هذا شتم لهم ودم كما أن "الطيبين" مدح لهم وتعظيم، وإن شئت أجريت هذا كله على الاسم الأول، وإن شئت ابتدأته جميعاً فكان مرفوعاً على الابتداء كل هذا جائز في ذين البيتين وما أشبههما، كل ذلك واسع. وزعم عيسى أنه سمع ذا الرمة ينشد هذا البيت نصبا:

لقد حملت قيسَ بن عيلانَ حَرْبَهَا على مُسْتَقَلٍّ للنوائبِ والحَرْبِ
 أخاها إذا كانت عِضاضاً سَمَالَهَا على كُلِّ حَالٍ من ذُلُولٍ ومن صَغْبِ

زعم الخليل أن نصب هذا على أنك لم ترد أن تحدث الناس، ولا من تخاطب بأمر جهلوه، ولكنهم قد علموا من ذلك ما قد علمت، فجعله ثناءً وتعظيماً ونصبه

^١ - سورة الفاتحة، ٢، والنساء، ١٦١، والبقرة، ١٧٧، على التوالي.

على الفعل، كأنه قال: "اذكر أهلَ ذاك" و "اذكرِ المقيمين" ولكنه فعل لا يستعمل إظهاره".^١

نكتفي بهذا المثال للدلالة على أسلوب سيبويه وطريقته في عرض الآراء والاحتجاج لها وتفسيرها وسؤاله شيوخه عنها وعرضه لبعض مزاعم شيوخه الآخرين وتبين في كل ذلك أنواع الشواهد التي يحتج بها من القرآن والشعر والنثر، وبدت نظرتة إلى العامل وكيفية تقديره أن كان المعمول للمحذوف مرفوعاً ويختلف أن كان المعمول منصوباً وقد عرض سيبويه كل هذا بأسلوب واضح وتساق الحديث عن كل هذا بسهولة و يسر.

أما ما وقع في بعض عباراته من غموض فقد يكون لعدم وضوح الفكرة أو بسبب النساخ وغلطهم في النسخ وإلا فإن معظم الكتاب سهل يسير. ولا أرى أن هذا الغموض والإبهام متعمد من سيبويه كما يرى علي بن سليمان إذ قال "عمل سيبويه كتابه على لغة العرب وخطبها وبلاغتها، فجعل فيه بيتاً مشروحاً، وجعل فيه مشتبهاً ليكون لمن استنبط ونظر فضل، وعلى هذا خاطبهم الله عزو جل في القرآن" وقد تابعه البغدادي وأيده فقال: "قال أبو جعفر: وهذا الذي قاله علي بن سليمان حسن. لأن بهذا يشرف قدر العالم وتفضل منزلته، إذ كان ينال العلم بالفكرة واستنباط المعرفة، ولو كان كله بَيِّنًا لاستوى في علمه جميع م سمعه فيبطل التفاضل، ولكن يستخرج منه الشيء بالتدبر، ولذلك لا يمل لأنه يزداد في تدبره علماً وفهماً"^٢ فكأن سيبويه في رأي علي بن سليمان والبغدادي قد تعمد جعل بعض عباراته غامضة معقدة حتى يستفيد من هذا الإبهام وبهذه التعمية رفع قيمة الكتاب وإظهار أهميته شأن أبي الحسن الأخفش الذي يقول له الجاحظ: "أنت أعلم الناس بالنحو، فلم لا

^١ - الكتاب، ٦٢/٢-٦٦.

^٢ - خزانة الأدب، ١٧٩/١-١٨٠.

تجعل كتبك مفهومة كلها؟ وما بالناس نفهم بعضها، ولا نفهم أكثرها؟ وما بالك تقدم بعض العويص وتؤخر بعض المفهوم؟ قال: أنا رجل لم أضع كتبني هذه الله، وليست هي من كتب الدين، ولو وضعتها هذا الوضع الذي تدعوني إليه لقلت حاجاتهم إلي فيها، وإنما كانت غايتي المنالة، فأنا أضع بعضها هذا الوضع المفهوم لتدعوهم حلاوة ما فهموا إلى التماس فهم ما لم يفهموا، وإنما قد كسبت في هذا التدبير، إذ كنت إلى التكبس ذهبت^١، ولا ينطبق على سببويه ما قاله الأخفش المتكسب بكتبه والذي يعتمد جعل بعضها غامضاً لهذا السبب باعترافه. وأرى أن سببويه كان يعبر عن أفكاره بأسلوب زمانه وبأسلوبه الخاص، ولكل عالم أسلوبه، وقد عرف سببويه أنه يستعمل "مما" بمعنى "ربما" وشاع ذلك عنه وعرف جاء منه قوله: "اعلم أنهم مما يحذفون الكلم" أي: "ربما يحذفون....".

وهو في بحوثه التي يتكلم فيها على ما لم يرد من الابنية والاسماء ويفترض وجودها يخلط شرح القاعدة وبيان الأحكام معللة موضحة، مع ذكر وجه القياس في كل ظاهرة أو حكم ثم يعرض الآراء المختلفة فيه ويفضل بعضها على حسب ما يراه الصحيح الجاري على القياس من ذلك قوله. "وإذا سميت رجلاً بـ"إِثْمَدَ" لم تصرفه، لأنه يُشَبِّه "اضْرِبَ"، وإذا سميت رجلاً بـ"إِصْبَع" لم تصرفه لأنه يشبه "اصْنَع"، وأن سميته بـ"أُبْلُمَ" لم تصرفه لأنه يُشَبِّه "اقْتُلَ"، ولا تحتاج في هذا إلى ما احتجت إليه في "تُرْتُبَ" وأشباهها لأنها "الف"، وهذا قول الخليل ويونس. وإنما صارت هذه الاسماء بهذه المزمة لأنهم كأنهم ليس أصل الاسماء عندهم على أن تكون في أولها الزوائد، وتكون على هذا البناء. ألا ترى أن "تفعل" و "يفعل" في الاسماء قليل، وكان هذا البناء أنما هو في الأصل للفعل، فلما صار في موضع قد يستثقل فيه التثوين

^١ - الحيوان، ٩١/١-٩٢

استثقلوا فيه ما استثقلوه فيهما هو أولى بهذا البناء منه. والموضع الذي يستثقل فيه التثوين المعرفة. ألا ترى أكثر ما لا ينصرف في المعرفة قد ينصرف في النكرة؟^١.

عنوانات أبوابه ومصطلحاتها:

لم تكن لموضوعات النحو وعلوم العربية الأخرى في زمن سيبويه مصطلحات ثابتة تدل على أبوابه، لأن العلم كان جديداً ولم تكن مصطلحاته قد استقرت بعد لأن أي مصطلح علمي جديد لا يستقر ويعبر عن مضمونه إلا بعد أن يستقر ذلك العلم وتشيع مصطلحاته وتثبت بتتابع الدارسين عليه وتعهدهم إياه بالاستعمال، وتصلقه الألسن والأقلام فيثبتوه أو يغيروه أو يضعوا ما هو أدل منه على مضمونه وما اطلق عليه، ولهذا فإننا نجد في الكتاب مصطلحات وتسميات للأبواب والموضوعات يختلف بعضها عما نعرفه في الكتب المتأخرة، في حين اشتهر بعضها الآخر وعرف كما جاء عليه في الكتاب وبقي مستعملاً على اختلاف الأزمنة وتعاقبها، كما نجد عنوانات قد طالت عند سيبويه واختصرها النحويون المتأخرون بكلمتين مثل ما نعرفه اليوم بـ "إن وأخواتها" فقد عنون لها سيبويه بعنوان استخدم فيه الشرح والتمثيل لكي يقربها من ذهن المتعلم ويوضحها له فجاء على هذا النحو: "هذا بال الحروف الخمسة التي تعمل فيما بعدها كعمل الفعل فيما بعده وهي من الفعل بمنزلة "عشرن" من الاسماء التي هي بمنزلة الفعل، لا تصرف تصرف الأفعال، كما أن "عشرين" لا تصرف تصرف الاسماء التي أخذت من الفعل وكانت بمنزلته، ولكن، يقال: بمنزلة الاسماء التي أخذت من الأفعال وشبهت بها في هذا الموضع، فنبت "درهماً" لأنه ليس من نعتها ولا هي مضافة إليه، ولم ترد أن تحمل "الدرهم" على ما حمل

^١ - الكتاب، ١٩٧/٣.

"العشرون" عليه، ولكنه واحد بين به العدد فعملت فيه كعمل "الضارب"، ولا محمولاً على ما حمل عليه "الضارب".

كما أن هذه الحروف منزلتها بمنزلة الأفعال، وهي: أنّ ولكنّ وليت ولعلّ وكأنّ. وقد يكون الموضوع نفسه غير متميز ولا متحدد ولا اتضحت معالمه والمقصود منه ولهذا نجده يعقد له أبواباً متعددة بحسب نوع ما قبله فتكرر الأبواب وتختلف والموضوع واحد، وذلك يتضح في بحثه لما سمي فيما بعد "التمييز" فقد تحدث عنه في "باب ما ينتصب لأنه قبيح أن يكون صفة" و "باب ما ينتصب لأنه ليس من اسم ما قبله ولا هو هو" و "باب هذا شيء ينتصب على أنه ليس من اسم الأول ولا هو هو". وقد يلجأ إلى التفصيل في وصف الباب وتوضيحه بالأمثلة كما في عنوان "باب أسماء الأفعال" كما نسميها اليوم، قال: "هذا باب من الفعل سمي الفعل فيه بأسماء لم تؤخذ من أمثلة الفعل الحادث، موضعها من الكلام الأمر والنهي، فمنها ما يتعدى الأمور إلى مأمور به، ومنها ما لا يتعدى المأمور، ومنها ما يتعدى المنهي إلى منهي عنه ومنها ما لا يتعدى المنهي" وعقد لها باباً آخر سماه "هذا باب من الفعل سمي الفعل فيه بأسماء مضافة ليست من أمثلة الفعل الحادث ولكنها بمنزلة الاسماء المفردة التي كانت للفعل نحو "رويد" و "حيهل" ومجراهن واحد وموضعهن من الكلام الأمر والنهي إذا كانت للمخاطب المأمور والمنهي". ومثل هذا ما عنون به باب "كان وأخواتها" و "الفعل اللازم" و "المبني للمجهول" وغيرها. وبعض هذه الأبواب جاءت عنواناتها مختصرة مفهومة إلا أنها على هيئة عبارة ولم تكتسب معناها الإصطلاحي بعد، من ذلك تسميته "باب ظن وأخواتها": "باب الأفعال التي تسعمل وتلغي" و "باب المفعول المطلق": "باب ما يكون من المصادر

مفعولاً" و "باب الأعراء والتحذير": "باب ما يجري على الأمر والتحذير". ومنها ما ثبت المصطلح الذي وضعه عليه سيبويه مثل "باب الفاعل" و "باب النداء" و "باب الندة" و "باب الترخيم" و "باب الامالة" و "باب الاضافة وهي باب السبة" و "باب التصغير" وقد يسميه "التحقير".

ويبدو لي أن سبب عدم استقرار المصطلحات وعنوانات الأبواب عنده، أن النحو لم يوضع قبل سيبويه الوضع النهائي، وأن العلم ما زال حديثاً وما زالت بحوثه بحاجة إلى استقرار ووضوح وأن سيبويه لم يضع كتابه على الصورة الأخيرة، وإنما كان في سبيل تغييره وإعادة النظر فيه، إلا أنه مات مبكراً وتركه على الصورة التي نراها. ومع هذا فقد رأيناه منظماً مبوباً ذا منهج واضح ما ؟؟؟؟؟ النحو والصرف ينهجون على منواله وينهلون من موضوعاته وما جاء فيه من آراء.

وبعد هذا كله نستطيع أن نقول أن سيبويه لم يكن يمثل دور الجامع المدون فقط وإنما كانت له شخصيته الواضحة في العرض والمناقشة والترجيح والتفصيل، وقد يكون الموضوع مبنياً على رأيه هو ولم ينقل عن أحد شيوخه فيه كما في قوله: "ولا يحسن في الكلام أن يجعل الفعل مبنياً على الاسم ولا يذكر علامة إضمار الأول حتى يخرج من لفظ الأفعال في الأول ومن حاول بناء الاسم عليه، ويشغله بغير الأول، حتى يمتنع من أن يكون يعمل فيه، ولكنه قد يجوز في الشعر، وهو ضعيف في الكلام، قال الشاعر وهو أبو النجم العجلي:

قد أصبحت أمّ الخيار تدعي عليّ ذنباً كلّ لم أصنع

فهذا ضعيف، وهو بمنزلته في غير الشعر، لأن النصب لا يكسر البيت ولا

يخل به ترك إظهار "الهاء". وكأنه قال "كلّه غيرُ مصنوع". وقال امرؤ القيس:

قافلت زحفا على الركبتين فثوبٌ لبست وثوبٌ أجّر

وقال التتمر بن تولب:

فِيَوْمٍ عَلَيْنَا وَيَوْمٌ لَنَا وَيَوْمٌ نُسَاءُ وَيَوْمٌ نُسَرَّ

سمعناه من العرب ينشدونه، يريدون "نُسَاءُ فيه ونُسَرُّ فيه..."^١

وهو كثيراً ما يرد على شيخه الخليل بأن ما أجازه من ظواهر غير صحيح من ذلك أجازته وصف النكرة بالمعرفة أو ابدال المعرفة من النكرة ورد سيبويه عليه بأنه قبيح قال: "ورغم الخليل أنه يجوز إلا في موضع الاضطرار ولو جاز هذا لقلت: "هذا قصير الطويل" تريد "مثل الطويل" فلم يجز هذا كما قبح أن تكون المعرفة حالاً للنكرة إلا في الشعر، وهو في الصفة أقبح، لأنك تنقض ما تكلمت به، فلم يجامعه في الحال كما فارقه في الصفة"^٢. هذا مع العلم أن الخليل شيخه الذي شهر عنه متابعتة إياه.

وقد اتضحت في الكتاب الأصول التي تحدثنا عنها عند سابقه مثل اهتمامه بالقياس كثيراً واعتماده عليه فيما لم يرد به سماع عن العرب فإن ورد السماع وقف عنده ولم يجاوز. واهتم بالتعليل وأغلب مسائل كتابه معللة بالتعليلات الخالية من التعقيد، التي تبين العلة في وجود الحكم أو الظاهرة الإعرابية والتركيبية مما يحتاج إليه المتعلم والمتلقي، واستخدم الأحكام لتي تميز بها فصاحة الأساليب وضعفها ويفاضل بها بينها، وتتحدد صحة الوجه الأعرابي من خطئه وحكمه على هذا كله بأنه "مطرد" أو "فصيح" أو "ضعيف" أو "جيد" أو "وهو الوجه" أو "حسن" أو "أفضل من غيره" وما إلى هذا. واحتاج إلى استخدام التأويل للشواهد الفصيحة الخارجة عن

^١ - الكتاب، ١/ ٨٥-٨٦.

^٢ - الكتاب، ١/ ٣٦١.

الكثير المطرد في شعر أو قراءة أو نحوهما فيلجأ إلى التفسير والتقدير لكي يرد هذا المخالف إلى القياس المطرد. ورأينا أن سيبويه هو الذي كان يفترض المسائل ويسأل شيوخه عن حكم هذا المفترض كأن يقول: "لو سمينا الرجل" قبائل" كيف تـ=نصرفه؟ أو "لو" سمينا المذكر بالفعل نحو "ضرب" و "ضارب" و "اضرب" و "ضارب" اينون أم يمنع من التنوين؟ "وكل هذه مسائل مفترضة، وقد عقد لها أبواباً كثيرة ولاسيما أبواب "التسمية بالشيء.. الفعل.. الجمع.. الحرف.. وغيرها" وهي كثيرة ومتعددة. ويهتم بالعامل، وقد بني الكتاب بموضوعاته النحوية على العامل، ما يرفع، وما ينصب وما يجر وما يجزم. وكل هذه الأصول واضحة في الكتاب، في أي موضوع يرجع إليه القارئ. فلا نحتاج إلى الاطالة بالتمثيل، لأنه لم يخرج في شيء منه عما في النصوص المتقدمة وعما كان عند سابقيه، ولأن معظم آرائه فيها مبنية على أقوال شيوخه وله في معظمها الاستحسان أو الرد، أو إثارة القضية النحوية. والكتاب بعد هذا وذاك مملوء بالشواهد الشعرية التي عدت أصح الشواهد لوثوق النحاة به ولتوثيقه إياها بتوثيق روايتها وإن كان قد ترك الكثير منها غير منسوب. وهو يزخر بالآيات القرآنية الكريمة. واحتج ببعض الأحاديث ولم يبين عليها رأياً أو يقس عليها إثبات حكم شأنه شأن شيوخه ولاحقيه حتى زمن السهيلي وابن مالك^١. وهكذا كان لسيبويه فضل حصر أقوال شيوخه وآرائهم وتنظيمها وحفظها - بعد مناقشته إياها

^١ - تنظر أمثلة لكل هذه الأصول وموقفه من هذه الشواهد في كتاب "الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه" وفي كتاب "دراسات في كتاب سيبويه" وفي كتاب "موقف النحاة من الاحتجاج بالحديث الشريف".

وحكمه عليها، ولو لم يكن له من رأي إلا عمله الذي بيناه في الكتاب لكفاه ذلك فخراً.

المبرد

حياته:

هو أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي، أبوه من اليمن ثم سكن البصرة. ولد أبو العباس المبرد سنة (٢١٠هـ) وتوفي سنة (٢٨٥هـ)^١. نشأ بالبصرة وشغف بالعلم ولاسيما النحو والتصريف، فأخذهما عن المازني، فلما توفي أخذ عن الجرمي، ونبغ فيهما ولم يكن في وقته ولا بعده مثله. وقد كان آخر أئمة النحو البصري المشهورين - كما يقول السيرافي الذي ختم به كتابه أخبار النحويين البصريين وقد توفي بعد المبرد بحوالي ثمانين سنة ولم ير نحوياً نبغ نبوغ المبرد فعده خاتمة البصريين. وأيد ذلك معظم من ترجموا للمبرد. رويت في علمه الأخبار عن المشهورين في زمانه من علماء المسلمين أشهرهم أبو بكر بن مجاهد الذي قال فيه "ما رأيت أحسن جواباً من المبرد في معاني القرآن فيما ليس فيه قول لمتقدم"، وقل: "لقد فانتني منه علم كثير لقضاء ذمام ثعلب". شهد له المورخون بأنه كان يتصدر حلقة أستاذه المازني وهو حديث السبن يقرأ عليه كتاب سيبويه. والمازني جالس بين المستمعين كأنه واحد منهم يستمع إلى شرح تلميذه الذكي معجباً بقدرته وتمكنه في مسائل الكتاب، حتى أصبح شيوخه يبعثون إليه الطلبة الذين يقصدون البصرة لتعلم

^١ - تنظر ترجمته في مراتب النحويين ٨٢-٨٥ وأخبار النحويين البصريين ٧٢-٨٠ وطبقات النحويين واللغويين ١٠٨-١٢٠ والفهرست ٦٤-٦٥ ونزهة الألباء ١٤٨-١٥٧ وأنباء الرواة ٢٤١/٢-٢٥٣ وبغية الوعاة ٢٦٩/١-٢٧١.

النحو، كما فعل أبو حاتم السجستاني حين أتاه شاب من أهل "نيسابور" فقال له: "إني قدمت بلكم بلد العلم والعلماء وأنت شيخ هذه المدينة، وقد أحببت أن أقرأ عليك كتاب سيبويه" فقال له: الدين النصيحة، أن أردت أن تنتفع بما تقرأ فاقراً على هذا الغلام محمد يزيد".^١

ذاعت شهرة أبي العباس في البصرة ووصلت إلى مجالس الخلفاء في بغداد وسامراء ولم يكن عندهم إلا ثعلب الكوفي الذي كان يحدث بما يحفظ من نحو الكسائي والفراء، ويردد ما يقولان وإذا سئل عن مسألة لم يكن لهما فيها رأي قال: "لا أدري" أو سئل عن الحجة والحقيقة في أقوالهما لم يغرق في النظر.^٢ ولهذا نجد المتوكل يرسل إلى المبرد للقدوم إلى سامراء ليحكم في خلاف وقع بينه وبين وزيره الفتح بن خاقان في قراءة قوله تعالى: "وما يُشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون"^٣ فقد قرأ المتوكل بالفتح - وهي قراءة ضعيفة وإن كانت واردة عن أهل المدينة، وقرأ الفتح بن خاقان بالكسر - وهي - القراءة - المتواترة.^٤

فلما وصل المبرد من البصرة حكم فيها، وظل ملازماً المتوكل يحضر مجالسه ويشارك في ندواته ومنادياته وينال عطاياه حتى قتل المتوكل سنة (٢٤٧هـ) فرحل إلى بغداد ودخلها للمرة الأولى وأقام فيها ولم يكن يعرف أحداً ولا يعرفه أحد فيها، وضاق عليه الرزق إلا أنه كان ذكياً، مُتنبِّهاً استطاع بطريقة ما أن يلفت إليه انتباه المصلين في يوم الجمعة. "فانتظر شهود صلاة الجمعة، فلما قضيت الصلاة أقبل على بعض من حضره وسأله أن يفاتحه السؤال ليتسبب له القول، فلم يكن عد

^١ - طبقات النحويين واللغويين، ١٠٨-١٠٩.

^٢ - ينظر طبقات النحويين واللغويين، ١٥٦.

^٣ - الأنعام، ١٠٩.

^٤ - هذا ما قاله المترجمون والمؤرخون الذي ذكروا الخبر لكن الذي أثبت في المصحف فتح همزة (أنها) ولهذا لا يمكن وصفها بأنها ضعيفة.

من حضره علم، فلما رأى ذلك رفع صوته، وطفق يفسر، يوهم بذلك أنه قد سئل، فصارت حوله حلقة عظيمة، فتشوف أحمد بن يحيى ثعلب إلى الحلقة، وكان كثيراً ما يرد الجامع قوم خراسانيون من ذوي النظر فيتكلمون ويجتمع الناس حولهم فإذا أبصرهم ثعلب أرسل من تلاميذه من يناقشهم، فإذا انقطعوا عن الجواب انفض الناس عنهم. فما نظر ثعلب إلى من حول أبي العباس المبرد أمر الزجاج وابن الخياط بالنهوض إليه وقال لهما: فُضاً حلقة هذا الرجل، ونهض معهما من حضر من أصحابه فلما صاروا بين يديه قال له الزجاج أتأذن - أعزك الله - في المناقشة؟ فقال له المبرد: سل عما أحببت، فسأله عن مسألة فأجابه فيها بجواب أقنعه، فنظر الزجاج في وجوه أصحابه متعباً من تجويد أبي العباس للجواب، ثم سأله عن أخرى وأخرى حتى بلغت مسائله أربع عشرة مسألة وهو يجيب عن كل واحدة منها بما فعله في المسألة الأولى "قال الزبيدي وإذا ما انتهى المبرد من الإجابة عن سؤال سأل الزجال: أقنعت بالجواب؟ فيقول نعم، فيقول: فإن قال لك قائل في جوابنا هذا: كذا، ما أنت راجع إليه؟ ويأخذ المبرد بتوهين جواب المسألة وإفساده ويعتل فيه، فيقول له الزجاج بعد أن يندهش من فعله: أن رأي الشيخ - أعزه الله - أن يقول في ذلك؟ فيقول أبو العباس: فإن القول على نحو كذا فيصح الجواب الأول ويوهن ما كان أفسده به، حتى و إلى بين أربع عشرة مسألة يجيب عن كل واحدة منها بما يقنع، ثم يفسد الجواب، ثم يعود إلى تصحيح القول الأول. فلما رأى الزجاج ذلك منه قال لأصحابه: عودوا إلى الشيخ فليست مفارقاً هذا الرجل ولا بد لي من ملازمته فعاتبه أصحابه وقالوا: تأخذ عن مجهول لا تعرف اسمه وتدع من قد شهر اسمه وانتشر في الآفاق ذكره. فقال لهم: لست أقول بالذكر والخمول ولكني أقول بالعلم والنظر".^١

^١ - نور القيس ٣٢٤-٣٣٣.

وكان هذا مبدأ دخول لمبرد بغداد واستقراره فيها حتى صنفه صاحب نور القبس في نحاة بغداد^١، ثم واصل اشتغاله بتدريس النحو في مسجدتها حيث كون له حلقة أخذ يؤمها تلاميذ ثعلب وغيرهم ممن أعجبه طريقة المبرد في عرض مسائل النحو ورغبوا في الاطلاع على هذا النحو الذي لم يكن لهم به سابق معرفة، وهو النحو البصري المتمثل بكتاب سيبويه فذاع علمه في مجالس الدرس ببغداد بعد هذه الحادثة التي انضم على أثرها كثير من تلاميذ ثعلب وأصحابه إلى مجلس المبرد لقراءة كتاب سيبويه عليه ومنهم أبو علي الدينوري زوج ابنة ثعلب^٢. ولعل سبب اشتهاره في مجالس الدرس ببغداد يرجع إلى قدرته على الجدل والمناقشة، وإلى حفظه لمعظم اللغة، هذا الحفظ الذي مكنه من الاجابة عن كل ما يسأل والإفتاء في أية مسألة لغوية أو نحوية ترد على بال السائلين.

قرأ المبرد ما وصلت إليه يده في حينه من مؤلفات سابقيه واستنسخ ما رغب في استنساخه. فقد وردت الأخبار بأنه قرأ أوراقاً من أحد كتابي عيسى بن عمر فكان كالإشارة إلى الأصول وأنه كا يحتفظ بنسخة من كتاب سيبويه، وهي نسخة نفيسة كان يضمن بها على من يريد نسخها^٣. وهو آخر أئمة المدرسة البصرية في النحو، حمل آراء البصريين ومنهجهم في دراسته وأصولهم التي بنوا عليها نحوهم من البصرة إلى سامراء ومنها إلى بغداد حيث اشتهر نحوه وذاع صيته ولم يأت بعده من تلاميذه الذي حملوا آراءه من له شهرته واطلاعه على نحو البصريين ولا قدرته على الجدل والمناقشة ولا حفظه للغة.

^١ - نور القبس ٣٢٤-٣٣٣.

^٢ - طبقات النحويين واللغويين، ١٥٦، وما بعدها و ٢٣٤، وانباء الرواة ٢٤٩/٣

^٣ - طبقات النحويين واللغويين ٢٣٦.

المقتضب:

وهو أشهر كتاب ظهر في علمي النحو والصرف وما يتبعهما من دراسة صوتية بعد كتاب سيبويه، عالج فيه المبرد مسائل هذين العلمين من غير أن يخلطهما ببحوث أدبية أو لغوية كما فعل في كتابيه "الفاضل" و "الكامل" وإنما جعله كتاباً قائماً برأسه مستغنياً بنفسه، فلم يشر فيه إلى غيره^١. وكان يحيل عليه في المسائل النحوية أو الصرفية التي تعرض لها في كتبه التي ألفها بعده كالكمال، وكان سيبويه "الكتاب المقتضب" وقد كان لسيبويه وكتابه وآرائه أثر ظاهر في جميع أبواب النحو ومسائله وبحوث الصرف التي فيه، فقد اعتمد المبرد اعتماداً كبيراً عليه، وإن خالفه في بعض المسائل والفروع والآراء. وزاد عليه تحديد بعض الأبواب ولمَّ بعض المتشابهات تحت عنوان واحد مستقر وقد تبين الأستاذ محمد عبد الخالق عضيمة فيه هذا التاثر فاهتم بذكر نصوص كتاب سيبويه في كل مسألة عرض لها المبرد وإثباتها في هوامش "المقتضب" ليبين مدى اعتماد المبرد عليه، وليتضح الاختلاف بين آرائهما ولاسيما ما ردَّ به المبرد على سيبويه والمقتضب أقدم وأضخم ما وصل إلينا من كتب النحو والصرف، فالربط بينهما تسجيل لخطوات نشأة النحو وتدرجه في القرنين الثاني والثالث، وفي ذلك كشف عن منابع المقتضب ومصادره، كما يعتبر ذلك دعامة قوية في الدراسات المقارنة^٢ وقد بلغت شواهد المقتضب الشعرية التي أخذها من الكتاب (٣٨٠) شاهداً وبلغ مجموع ما أورده المحقق من نصوص الكتاب التي تضمنها التعليق على المقتضب (١٥٥٠) نصاً^٣. وقد أثبت المحقق أن معظم ما نُسب إلى المبرد من آراء يرد بها على سيبويه أو يعارضه فيها مما نسبته إليه

١ - مقدمة المقتضب، ٥/١.

٢ - مقدمة المقتضب، ٦/١.

٣ - تنظر مقدمة المقتضب ١١٥/١ و ١١٩ و ٦.

كتب التراجم والتاريخ، عار عن الصحة، فقد كان متفقاً مع سيبويه في معظمها وأنما دفعهم إلى وضعها ونسبتها إليه اقدمه على نقد كتاب سيبويه في "مسائل الغلط". فقد نسبت إليه آراء قال بخلافها "وليس أدل على هذا من أن سيبويه استشهد للعطف على الموضع بقول الشاعر:

معاوي، إنا بشرٌ فأُسجَحُ فَلَسنَا بالجبالِ ولا الحديدَا

في أربعة مواضع من كتابه، وجاوزها كلها المبرد في نقده للكتاب، ثم استشهد بهذا البيت للعطف على الموضع في ثلاثة مواضع من المقتضب، وبعد هذا كله يقال: "إن المبرد ردّ على سيبويه روايته لهذا البيت".^١

شهرته:

والمقتضب أكبر كتاب ألف في النحو والصرف ضم أصول هذين العلمين ومسائلهما وبينها بعد كتاب سيبويه، فهو بعد المرجع الثاني لنحو البصريين بعد أن ظهر محققاً.

لقد تهيأ لكتاب سيبويه من الشهرة والذيع والانتشار ما لم يتهيأ لأي كتاب آخر من كتب هذا العلم فاهتم الناس بنسخه وقراءته وحفظه، وتواصل الاهتمام بشرحه وشرح شواهد، وسمائله والرد عليه وأصبح عدة الدارسين في مجالس الدرس ببغداد ومصر والأندلس والشام وبلاد المغرب، وكان المبرد نفسه من أوائل المهتمين به فقد توفر على قراءته ودرسه على شيخه المازني والجرمي، وانصرف إلى تدريسه وشرح مسائله لطلبته منذ أن كان غلاماً في مجلس شيخه المازني، وبعد حمله معه إلى سامراء ومنها إلى بغداد حيث تصدر لقرائه وتفسير مشكلاته وشرح مسائله. ولم يكتب للمقتضب من الذيع والشهرة ما كتب له، فقد طغت شهرة الكتاب عليه وكان

^١ - مقدمة المقتضب، ٦/١

المبرد أحد الذين انصرفوا إلى الاهتمام بالكتاب، ولم يذكر عنه أنه اهتم بتدريس كتابه، أو عرّف به أحداً من أهل زمانه وربما كان رأي النحاة فيه ما جاء في قول أبي علي الفارسي: "نظرت في كتاب "المقتضب" فما انتفعت منه بشيء إلا بمسألة واحدة وهي وقوع "إذا" جواباً للشرط في قوله تعالى: "إن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون".^١ وعلل الأنباري هذا الانصراف عن "المقتضب" بقوله: "وكان السرُّ في عدم الانتفاع به أن أبا العباس المبرد لما صنف هذا الكتاب أخذه عنه ابن الراوندي المشهور بالزندقة وفساد الاعتقاد وأخذه الناس من يد ابن الراوندي وكتبوه منه فكانه عاد عليه شؤمه فلا يكاد ينتفع به".^٢ والظاهر أن انصراف الناس عنه إنما كا لانشغالهم بكتاب سيبويه وربما اطلع عليه بعض الدارسين فلم يجدوا فيه ما يزيدهم علماً بمسائل هذين العلمين، ولعل لطريقته في العرض واستخدامه أسلوب الاحتجاج والمناقشة - مع مجيئه بعقب كثير من أبوابه بمسائل مشكلة - أثرا في نفور الدارسين منه وانصرافهم عنه والتزامهم بكتاب سيبويه.

أما زمن تأليفه فغير معلوم. ويبدو من موضوعاته وطريقة عرضه للمسائل ومناقشته إياها وردوده على سيبويه فيه أنه ألفه بعد أ استقراره في بغداد حيث نضجت آراؤه النحوية واتقن آراء سيبويه وأدرك ما فيها من صحيح وأحس بما في بعضها من قصور وأخطاء لطول ممارسته تدريسه ولكثرة ما سمع في مسائله من آراء تلاميذه ولاسيما البغداديون الذين كانوا قد اطلعوا على نحو الكسائي والفراء وشعلب، وعرفوا آراءهم في مسائل كتاب سيبويه ونبهوا بأسئلتهم ومناقشاتهم المبرد إلى بعض المسائل التي كانت له منها مواقف خاصة في كتابه، ويؤكد ما نذهب إليه ما أحس

^١ - الروم ٣٦، ونزهة الألباء ١٥٦

^٢ - نزهة الألباء ١٥٦، وابن الراوندي هو أحمد بن يحيى بن اسحاق (-٢٤٥هـ)

به الاستاذ المحقق فقال "لم يكن من تأييف زمن الحداثة والصبا وإنما كان في زمن الشيخوخة"^١ لأدلة ذكرها.

منهج التحليل النحوي عند المبرد في كتابه المقتضب

وتميز المقتضب بميزات متعددة منها: إن المبرد وقف في مسائل سيبويه مواقف منها:

١- أنه لجأ فيه إلى اختصار عبارات سيبويه وما ذكره من أبنية في بعض المواقع مع زيادته أمثلة أخرى وذلك أن سيبويه قال: يكون على مثال: "فَعَلَّلَ" في الصفة قالوا: قهلس وجحمرش وصهصلق ولا نعمله جاء اسما. وقال المبرد في "المقتضب" ويكون على "فَعَلَّلَ نعتاً" وذلك قولهم: عجوز جحمرش، وكلب نخورش" قال المحقق: "وقد أخطأ في هذا الاختصار، فقد جاء سيبويه بثلاث كلمات صحيحة، استخدم منها المبرد واحدة وأضاف أخرى أخطأ فيها وهي: "نخورش"، لأنها رباعية مزيدة بحرف".^٢

٢- إنه جاء بآراء كان سيبويه قد سبقه إلى القول بها إلا أنه لم يشر إلى سيبويه أو ينسبها إليه، وربما لم يتنبه عليها، من ذلك: أجازته تصحيح عين اسم المفعول من الأجوف الواوي نحو "مقول" في ضرورة الشعر ونفى أن يكون قد قال به النحاة البصريون السابقون فقال: "فلهذا لم يجز في "الواو" ما جاز في "الياء"، هذا قول البصريين أجمعين، ولست آراه ممتنعاً عند الضرورة" مع سبق سيبويه إلى القول: "قالوا" "مخيوط"، ولا يُستكر أن تجيء الواو على الأصل "وقوله أيضاً: "وبعض العرب يُخرجه على الأصل فيقول "مخيوط" و

^١ - مقدمة المقتضب ٧١/١-٧٢

^٢ - مقدمة المقتضب ١٢٠/١، وينظر كتاب سيبويه ٣٠٢/٤، والمقتضب ٦٨/١

"مبيوع" مع قوله في (الواو) في موضع آخر: "ولا نعلمهم أتموا في الواوات، لأ الواوات أثقل عليهم من الياءات"^١.

٣- إنه تابع سيبويه في أحد قولين قال بهما في كتابه، ولم يشر إلى الآخر، فقال النحويون: إن المبرد خالف سيبويه، من ذلك أنه جعل علة منع الصرف في الصفات مثل: "عطشان" و "سكران" مشابهة "الألف والنون" لألفي التأنيث الممدودة وعدّد وجوه هذا الشبه. وقال في موضع آخر بأن "النون" بدل من "الهمزة" وتابعه المبرد في القول الثاني وذهب إلى أن "النون" بدل من "الهمزة" فنسبت إليه مخالفة سيبويه في القول الأول ولم يتنبهوا على أنه متابع له في قوله هذا^٢، وعلى أن القولين نتيجتهما واحدة، لأن كون "الألف والنون" تقابلان "الفي التأنيث الممدودة" معناه أن "الألف" التي قبل "النون" تقابل "الألف" التي قبل "الهمزة" وأن "النون" تقابل "الهمزة".

٤- أنه يذكر بعض الموضوعات في كتابه مرتين أو أكثر من ذلك. فيأتي به مجملاً في موضع ومفصلاً في مواضع أخرى من ذلك قوله: و "لـ" إذا موضع آخر وهي التي يقال لها "حرف المفاجأة" وذلك قولك: "خرجت فإذا زيدا" و "بينا أسير فإذا زيد" فهذه لا تكون ابتداء وتكون جواباً للجزاء كالفاء. قال الله عزوجل: "وإنّ تصبهم سيئة بما قدّمت أيديهم إذا هم يقنطون"^٣، لأن معناها "قنطوا" كما أن قولك: "إن تأتني فلك درهم" إنما معناه: "أعطك درهماً". فهو هنا يراها حرفاً لا ظرفاً. وتحدث عنها في موضعين آخرين من كتابه

^١ - المقتضب ١٢٠/١ والكتاب ٣٥٥/٤ و ٣٤٨ و ٣٤٩. وقد جاء في طبعة (هرون) (أثقل عليهن)

والتصحيح م طبعة بولاق، ج ٢، ص ٣٦٤.

^٢ - الكتاب ٢١٥-٢١٦، و ٢٤٠/٤ ومقدمة المقتضب ١٢٣/١.

^٣ الروم، ٣٦.

وعدها من الظروف فقال: فأما "إذا" التي للمفاجأة فهي التي تسد مسد الخبر، والاسم بعدها مبتدأ، وذلك قولك: "جئتكَ فإذا زيد..." وهذه تغني عن "الفاء" وتكون جواباً، نحو: "إن تأتني إذا أنا أفرح" على حد قولك: "فأنا أفرح". وقال في الموضع الثاني: "وظروف الزمان لا تضمن" الجثث، وكل ما كان فعلاً أو في معنى الفعل فعمله في ظروف الزمان كعمله في الحال... وتقول "خرجت من الدار فإذا زيد" فمعنى "إذا" هاهنا المفاجأة. فإذا قلت على هذا "خرجت فإذا زيد قائماً" كان جيّداً، لأن معنى "فإذا زيد". أي: فإذا زيد قد وافقني^١. وعلى هذا فإن الواضح من هذين النصين الأخيرين أن المبرد بتسميته "إذا" في النص الأول "حرف المفاجأة" أي: "أداة" وهي تشمل الحرف والاسم المضمن معنى الحرف ظرفاً كان أم اسم استفهام أو شرط أو غيرهما. فيردُّ بهذا المعنى القول الأول إلى القولين الآخرين.

منهجه:

سار المبرد على خطى سيبويه في بحثه لعلوم العربية الثلاثة النحو والصرف والأصوات اللغوية، فقد تحدث عن أبواب نحوية كثيرة وإن لم تكن كل النحو وتحدث عن موضوعات علم الصرف كالمجرد والمزيد وأبنيتها في الاسماء والأفعال وحروف الزوائد وأماكن زيادتها، والصحيح والمعتل من الأفعال وأبنيتها، وتحدث في خلال ذلك عن أبنية اسم الفاعل والمفعول وغيرهما من المشتقات منها، وعن جمع ما يجمع من هذه الاسماء معتلة العين واللام وما يحدث فيها من تغيير بقلب أو حذف أو غيرهما من صور الاعلال والابدال، وعن غيرها من الموضوعات الصرفية^٢، وتكلم

^١ - المقتضب ٥٧/٢ - ٥٨ و ١٧٨/٣ و ٢٧٤ ، وتتنظر المقدمة ١٢٤/١ - ١٢٥.

^٢ - ينظر المقتضب ٣٢/١ - ١٩٢.

على الإدغام وما يتبعه من دراسات لمخارج الحروف، ومواقع الإدغام في الفعل وغيره، وفي الكلمة والكلمتين، وعلى الابدال في الحروف الصحيحة عند الادغام، والاعلال في الحروف المعتلة، وأنواعه، وهي عين المواضع الصرفية والصوتية التي في كتاب سيبويه. ألا أن سيبويه كان أكثر تنظيماً وأحسن تبويباً لموضوعات هذه العلوم في كتابه فجاءت موضوعات النحو أولاً ولم يتحدث عن موضوعات أخرى إلا بعد أن أتى على مسائل النحو وأبوابه جميعها حيث تحدث عن موضوعات الصرف، وختم كتابه بموضوعات صوتية كالاعلال والابدال والادغام وما إليها. أما المبرد فلم يكن له منهج واضح في بحثه لموضوعات هذه العلوم، فلم يتبع طريقة سيبويه، ولا جرى على طريقة واضحة في ترتيب موضوعات كتابه أو أبوابه ولا نحس أنه أدرك الفرق بين موضوعات النحو والصرف والصوت، ويبدو كتابه وكأنه أخلط من هذه وتلك بلا تمييز بينها ولا فصل للمتشابهات منها في مواضع من الكتاب وإنما كان يتحدث عما يعن له الحديث عنه، وهو وأن تحدث عن موضوعات نحوية لا نحس بينها من الترابط ما أحسنه في الكتاب، فأبواب الفعل مشتتة، وأبواب المبتدأ والخبر ونواسخه تفرقت في أكثر من جزئين، ولهذا فيما يبدو كان نفور الدارسين منه وأعراضهم عنه، لأن قراءته متعبة مشتتة لذهن المتعلم، ولم يكتف بهذا وإنما كان يعقد أبواباً في مسائل عويصة مشكلة بين آن وآخر يمتحن بها الدارسين، ونمثل لبعضها لتكون دليلاً على غيرها. فمن أمثلة مسائل باب الفاعل هذه المسألة: "الضارب الشاتم المكرم المعطيه درهماً القائم في داره أخوك سوطاً أكرم الأكل طعامه غلامه زيد عمراً خالد بكرة عبد الله أخوك"^١، هذه كلها مسألة واحدة يطلب فيها من المتعلم أن يعيد كل عامل إلى معموله ويوضح المعنى المقصود بهذه العبارة، ومثلها

^١ - المقتضب، ٢٢/١ وما بعدها.

من المسائل التي يمتحن بها المتعلمون في باب المفعول: "علم المدخل المدخلة السجن زيد أخوه غلامه المظنون الآخذ دراهمه زيد"^١ وأمثالها كثير مما دفع بعضهم إلى شرحها وحدها كأبي سعيد بن سعيد الفارقي (-٣٩١هـ) أو شرح الكتاب بأكمله كما فعل الرماني (-٣٨٤هـ) وابن الباذش (-٥٢٨هـ).

واختلفت عنوانات "المقتضب" عما كانت عليه في كتاب سيبويه إذ تحدد بعضها مثل باب "إياك في الأمر" وهو عند سيبويه "ومن ذلك أيضاً قولك: إياك والأسد وإياي والشر..". و "باب من التسعير" وكان اسمه "ما ينتصب على إضمار الفعل المتروك إظهاره..". و "باب الأحرف الخمسة المشبهة بالأفعال" وقد رأينا سيبويه يعنون لها بما يقرب من عشرة أسطر. واتضحت عنده بعض الأبواب مثل "باب التبيين والتمييز" و "باب النكرة والمعرفة" و "باب المفعول الذي لم يذكر فاعله" وهو أوضح من عنوان سيبويه: "باب المفعول الذي تعداه فعله إلى مفعول".

أما أسلوبه في عرض المسائل النحوية فقد أصبح أكثر أسباباً في الجدل وإطالة في التعليل والاستطراد إلى مسائل جانبية تعرض في أثناء شرح المسألة النحوية أو الصرفية مما كان عند سيبويه فمن أمثلة تعليقاته العقلية البعيدة عن روح تعليقات سيبويه السهلة الموضحة قوله في "باب الفاعل": "هذا باب الفاعل وهو رفع وذلك قولك: "قام عبدالله"، وجس زيد" وإنما كان الفاعل رفعاً لأنه هو والفعل جملة يحسنُ عليها السكوت، وتجب بها الفائدة للمخاطب، فالفاعل والفعل بمنزلة الابتداء والخبر إذا قلت: "قام زيد" فهو بمنزلة قولك: "القائم زيد". والمفعول به نصب إذا ذكرت من فعل به، وذلك لأنه تعدى إليه فعل الفاعل. وإنما كان الفاعل رفعاً والمفعول به نصباً ليعرف الفاعل من المفعول به، مع العلة التي ذكرت لك، فإن قال

^١ - المقتضب، ٥٩/٤ وما بعدها. وينظر فيها وفي أمثالها المقتضب ٢١٦/٤.

قائل: أنت إذا قلت: "قام زيد" فليس ههنا مفعول يجب أن تفصل بينه وبين هذا الفاعل، فإن الجواب في ذلك أن يقال له: لما وجب أن يكون الفاعل رفعاً في الموضع الذي لا لبس فيه للعلة التي ذكرنا، ولما سنذكره من العلل في مواضعها فرأيت مع غيره علمت أن المرفوع هو ذلك الفاعل الذي عهدته مرفوعاً وحده، وأن المفعول الذي لم تعهده مرفوعاً. وكذلك إذا قلت "لم يقيم زيد" و "لم ينطلق عبد الله" و "سيقوم أخوك". فإن قال قائل: إنما رفعت (زيد) أولاً لأنه فاعل، فإذا قلت: "لم يقيم" فقد نفيت عنه الفعل فكيف رفعت؟ قيل له إن النفي إنما يكون على جهة ما كان موجباً، فإنما أعلمت السامع من الذي نفيت عنه أن يكون فاعلاً. فذلك إذا قلت: "لم يضرب عبد الله زيدا" علم بهذا اللفظ من ذكرنا أنه ليس بفاعل، ومن ذكرنا أنه ليس بمفعول، ألا ترى أن القائل إذا قال: "زيد في الدار" فأردت أن نتقي ما قال أنك تقول: "ما زيد في الدار" فتد كلامه ثم تنفيه...". فأين هذا من تحليل سيبويه المختصر الدال وهو قوله: "ضرب عبد الله زيدا" ف "عبدالله" ارتفع ههنا كما ارتفع في "ذهب" وشغلت "ضرب" به كما شغلت "ذهب" وانتصب "زيد" لأنه مفعول تعدى إليه فعل الفاعل^١.

ومن أمثلة استطراده ما جاء في أثناء كلامه على "في" الجارة قال: "ومعناها ما استوعاه الوعاء، نحو قولك: "الناس في مكان كذا" و "فلان في الدار". فأما قولهم: "فيه عيبان" فمشتق من ذا، لأنه جعله كالوعاء للعييبين، والكلام يكون له أصل ثم يُنسَع فيه فيما شاكل أصله، فمن ذلك قولهم: "زيد على الجبل" وتقول: "عليه دين" فإنما أرادوا أن الدين قد ركبته وقد قهره. وقد يكون اللفظ واحداً ويدل على اسم وفعل نحو قولك "زيد على الجبل يا فتى" و "زيد علا الجبل" ومن كلامهم اختلاف اللفظين

^١ - المقتضب ٨/٩-٩ والكتاب ٣٤/١.

لاختلاف المعنيين واختلاف اللفظين والمعنى واحد، واتفاق اللفظين، واختلاف المعنيين، فأما اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين فهو الباب نحو قولك: "قام" و "جلس..."^١ ثم يمضي في شرح هذه الأنواع والتمثيل لها ثم يقول: وكذلك "وجدت" تكون من "وجدان الضالة"... وفي معنى "الموجدة" نحو: "وجدت على زيد" ويبدو أنه لم يكن غافلاً عن هذا الاستطراد الطويل وإنما هو متعمد له ولهذا يقول بعده: "فهذا عارض في الكتاب ثم نعود إلى الباب"^٢ ويتحدث بعده عما كان من حرفين وهو "لم".... ويستخدم التقرير النظري العقلي أكثر من اعتماده اللغة فهو يشرح أموراً نظرية كثيرة ثم يمثل لها على خلاف ما كان واضحاً عند سيبويه وشيوخه من بناء القاعدة على المثال لا المثال على القاعدة. ومن ذلك ما ذكرناه من لجوئه إلى افتراض أمثلة مطولة معقدة التركيب يمتحن بها المتعلمين لكنه مع هذا يشرحها ومن ذلك أيضاً قوله "ما أعجب شيء شيئاً أعجاب زيد ركوب الفرس عمرو"^٣. ولهذا عيب المبرد على جعله هذه المسائل العويصة في أول كتابه مما نفر الناس منه.

واتضح تأثير الفلسفة والمنطق في شرحه مسائل النحو كما مر بنا في كلامه على "الفاعل" واتضح فيه استخدام العلل المركبة وذلك بالسؤال عن العلة وعلتها إلى أن تداخلت أربعة تعليقات فيه، واستخدم المَحَاجَّة في ذلك كله.

وكان أول من أحس باستخدام المبرد للتعليل والاحتجاج وأسلوب المناطق وعلماء الكلام في عرض الحجة والتفكير في أبطالها من الخصم، ثم ابطال حجة الخصم أيضاً، أبو إسحاق الزجاج في أول لقاء له بالمبرد في مسجد بغداد عند قدومه من سامراء. وأحس بذلك الباحثون المحدثون ومنهم الدكتور مازن المبارك

١ - هذا كلام سيبويه عينه في: باب اللفظ للمعاني، ٢٤/١ نقله نصاً وبأمثالته نفسها.

٢ - المقتضب ٤٥-٤٦. وينظر في مثله من الاستطراد، ٦٩/١-٧٠.

٣ - تنظر هذه الأمثلة مجموعة في المقتضب ٢١٦/٤.

الذي تحدث عن تعليقات المبرد فقال إن المبرد ومن عاصره من نحاة القرن الثالث كانوا يعدون العلة رديف الحكم النحوي لاتقارقه ولا ينبغي لها في اعتقادهم أن تقارقه، وكان شديد الاهتمام بالتعليل يتخذ منه سلاحاً للمناقشة والبحث، وكانت له يد طولى وحظ في التعليل لأنه كان من المجتهدين فيه حتى كانت المطالبة بالعلة هي السلاح الذي شهر في مناقشاته مع الزجاج ومن معه من حلقة ثعلب، كما وقف في وجهه سبويه لأنه قبل قول الخليل خالياً من التعليل^١.

ويلاحظ أنه كان يميل إلى التكرار ويبحث الموضوع الواحد في أكثر من موضع كما فعل في بحثه باب "كان وأخواتها" في الجزء الثالث ثم عاد وبحثه في الجزء الرابع. وفي كلامه على التوكيد بالنونين فعل مثل هذا، ومثلها أبنية الأفعال المجردة والمزيدة وما يشتق منها تكلم عليها في الجزء الأول وعاد إلى الكلام عليها في الجزء الثاني^٢ وأظن أن هذا إنما وقع لعدم تنظيم أبواب الكتاب ولاضطراب منهجه فيه.

شواهد:

وكانت معظم شواهد المبرد في المقتضب من آيات الكتاب العزيز وقراءاتها فقد تجاوزت شواهد منه خمسمائة آية^٣ وقد كان يفصل القول في بعض الآيات ويأتي بالقراءات في بعضها الآخر مبيناً ما ورد فيها مما يخص الباب، مخرّجاً إياها على الأوجه الواردة، موجهاً كل وجه، وهو يفاضل بين القراءتين أن وردتا في آية

^١ - النحو العربي ٦٧-٦٩.

^٢ - ينظر في الحديث عنه المقتضب، ٩٧/٣ و ٩٨/٤ و ١١٥/٤، ٣١٧/٤، ومثله الكلام على نوني التوكيد بحثها في المقتضب، ٢٦٠/١ و ١١/٣ وتكلم على الأفعال وأبنيتها وما اشتق منها في ١٣٦/١-١٨١ و ٩٥/٢-١٣١ وغيرها من مواضع متفرقة.

^٣ - تنظر مقدمة المقتضب ١١٦/١.

واحدة فيذكر المفضلة من غير أن يصرح بالقراءة الأخرى، اتضح ذلك في قوله متحدثاً عن "النون" وعدم إدغامها في حروف الحلق: "فإن كان معها حرف من حروف الحلق أمن عليها القلب فكان مخرجها من الفم لا من الخياشيم لتباعد ما بينهما، وذلك قولك: "من هو؟" فتظهر مع "الهاء" وكذلك: "من حاتم؟" ولا تقول: "من حاتم؟" فتخفي، وكذلك "من علي؟"، وأجود القراءتين "ألا يعلم من خلق؟" فتبين "ويعلل تفضيله لهذه القراءة فيقول: "وإنما قلت "أجود القراءتين" لأن قوماً يجيزون إخفاءها مع "الخاء" و "العين" خاصة لأنهما أقرب حروف الحلق إلى الفم، فيقولون "منخل" و "منغل" وهذا عندي لا يجوز، ولا يكون أبداً مع حروف الحلق إلا الاظهار".^١

وقد يذكر القراءتين ويبين أيتهما الأكثر وذلك في قوله متحدثاً عن جواز الفك والإدغام فيما كانت عينه ولامه معتلتين مثل "حيي" يقول: "فأنت فيه مخير إن شئت ادغمت وإن شئت بيّنت... فمثل الإدغام قراءة بعض الناس: "ويحيا من حيّ عن بينة" وهو أكثر ، وترك الإدغام: "من حيي عن بينة"، وقد قرئ بهما جميعاً.^٢ وقد يعرض للقراءة من غير أن يرجحها أو يرجح عليها وذلك في قوله: "فإن كان اللام" ليغير المعرفة جاز الإدغام والإظهار، والإدغام في بعض أحسن منه في بعض، إذا قلت: "هل رأيت زيدا؟" و "جعل راشد"،، والإدغام ههنا أحسن إذا كان الأول ساكناً فإن كان متحركاً اعتدل البيان والإدغام، فإن قلت: "هل طَرَقك؟" أو "هل دَفَعك؟" أو "هل تم لك؟" فالإدغام حسن والبيان حسن، وهو عندي أحسن لتراخي المخرجين. وقرأ أبو عمرو "بُؤْثِرُونَ" فأدغم، وقرأ: "هَتُوبَ الكفار؟".^٣

١ - الملك ١٤ والمقتضب ٢١٥/١-٢١٦.

٢ - الأنفال، ٤٢، والمقتضب ١٨١/١.

٣ - الأعلى ١٦ والمطففين ٣٦ والمقتضب ٢١٤/١.

وقد يعرض لآية ويبين ما يجوز في قراءتها من أوجه من غير إشارة إلى أنها قرئت بها جميعاً أو لم تقرأ، وذلك في مثل قوله متحدثاً عن حكم "النون" في الإدغام فيما بعدها: "اعلم أن "النون" إذا وليها حرف من حروف الفم فإن مخرجها معه من الخياشيم، ولا يصلح غير ذلك... وذلك قولك: "من قال؟" و "من جاء؟" ولا تقول: "مَنْ قال؟" و "مَنْ جاء؟" فتبين، وكذلك "مَنْ سليمان؟" و "ويل يومئذ للمكذبين" ولا تقول: "مَنْ سليمان؟" ولا "ويل يومئذ للمكذبين" فتبين"^١. وقد يصف القراءة بأنها لحن وذلك في قوله: "وأما قراءة من قرأ: "ثم لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ" فإن الاسكان في لام: "فليُنْظَرْ" جيد وفي "لام" لِيَقْطَعْ " لحن، لأن "ثم" منفصلة من الكلمة وقد قرأ بذلك يعقوب بن إسحاق الحضرمي"^٢. وقد يصفها بأنها خطأ في الكلام، قال متحدثاً عن قوله عزو جل "ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين" فإنه على البدل؛ لأنه لما قال: "ثلاثمائة" ثم ذكر السينين لِيُعْلَمَ ما ذلك العدد؟... وقد قرأ بعض القراء بالإضافة، فقال: (ثلاثمائة سنين)^٣ وهذا خطأ في الكلام غير جائز، وإنما يجوز مثله في الشعر للضرورة" وعلل جوازه في الشعر وعدم جوازه في النثر بقوله: "وجوازه في الشعر أنا نحمله على المعنى، لأنه في المعنى جماعة، وقد جاز في الشعر أن تفرد وأنت تريد الجماعة إذا كان في الكلام دليل على الجمع"^٤. وقد يكتفي بوصف القراءة بأنها غير جائزة، قال تحدثاً عن العطف على معمولي عاملين معاً وأنه ممتنع عنده: "وكان أبو الحسن الأخفش يجيزه، وقد قرأ بعض القراء: "واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزقٍ فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آياتٍ لقومٍ يعقلون" فعطف

^١ - المطففين ١٠ والمقتضب ٢١٥/١، وتنتظر مقدمته - وضبطت فيه نون (مَنْ سليمان) بالسكون في

الموضعين والصحيح أنها لا تسكن في الموضع الأول.

^٢ - الحج ١٥ والمقتضب ١٣٤/٢، وتنتظر مقدمته.

^٣ - الكهف ٢٥، والمقتضب

^٤ - ١٧١/٢، وتنتظر مقدمته.

على "إن" و على "في" وهذا عندنا غير جائز^١ وقد جاءت "إن" و "في" في قوله تعالى في آية سابقة "إن في السموات والأرض لآياتٍ للمؤمنين"^٢ وقد يراها غلطاً وذلك في قوله:

"فأما قراءة من قرأ: "معائش" فهمز فإنه غلط" ثم يصف القارئ بها وهو نافع ابن أبي نعيم بأنه لم يكن له علم بالعربية^٣. وعد احدى القراءات لحنا فاحشا فقال: "وأما قراءة أهل المدينة: "هؤلاء بناتي هُنَّ أظهر لكم" فهو لحن فاحش، وإنما هي قراءة ابن مروان، ولم يكن له علم بالعربية"^٤. وهناك قراءات أخرى نسب فيها المبرد القراءة إلى اللحن والخطأ. وقد ذكرها المحقق في مقدمة التحقيق. وذكر قراءات أخرى فاضل المبرد بينها. وقال معلقا على تخطئة المبرد للقراء: "وهذه الحملة الآثمة على القراء بتلحينهم، ورد قراءاتهم استفتح بابها وحمل لواءها نحاة البصرة المتقدمون ثم تطاير شررها إلى بعض نحاة الكوفة فأسهم فيها، فالقراء ينسب الوهم إلى بعض القراء الذين تواترت قراءاتهم في السبعة، كما كان للكسائي مشاركة في هذه الحملة، وقد كان للمازني استاذ المبرد نصيب موفور قي قيادة هذه الحملة الآثمة فقد طاب له أن يختم كتابه "التصريف" بالطعن على القراء والسخرية منهم، وعدهم من الجهلاء الذين يتعلقون بالألفاظ ويجهلون المعاني وقد اقتدى به تلميذه، ونقل في المقتضب ما أثبتته المازني في تصريفه من الطعن على "خارجة" من رواية نافع^٥ "هذا ما قاله الأستاذ محمد عبد الخالق عضيمة، ولنا في تخطئة القراء رأي آخر حيث لاحظنا أن أول من صرح بهذه التخطئة ونسب اللحن إلى القراء الكسائي ثم تلميذه القراء وهما

١ - الجاثية ٥، ولمقتضب ١٩٥/٤، وهي في المصحف "آيات" بالرفع.

٢ - الجاثية ٣.

٣ - الاعراف ١٠، والحجر ٢٠، والمقتضب ١/١٢٣.

٤ - هود ٨٧ والمقتضب ١٠٥/٤.

٥ - تنظر مقدمة المقتضب ١/١١١-١١٣.

تاريخياً قبل المبرد، وعنهما أخذ المبرد هذا الموقف فيما يبدو لا عن البصريين وتابعهما مَنْ بعدهما. أما سيبويه وبما نقله عن سبقه فقد وضع قواعد عامة لما يجوز في اللغة من همز وإدغام وما إليهما ولم يذكرهما في قراءات معينة ولم يلحن قارئاً أو يصرح بنسبة الخطأ إليه كما فعل الكوفيون.

واعتمد المبرد في الاحتجاج لمسائل النحو والصرف والأصوات على ما ورد في كلام العرب الفصحاء من منثور أقوالهم ومنظومها والتزم في الشعر المحتج به ما التزمه شيوخه البصريون من الاحتجاج بشعر الشعراء الجاهلين والمخضرمين والإسلاميين. وكان آخر من احتج بشعرهم منهم جرير والفرزدق والأخطل ومن في طبقتهم^١. أما المنثور من الأمثال والأقوال التي احتج بها فهي لا تخرج عما جاء في كلام العرب الفصحاء ومعظمها مما احتج به سيبويه وشيوخه^٢.

أما الحديث النبوي فلم يكن مما احتج به المبرد أو بنى عليه قاعدة، وقد جاءت عبارات مثل بها مع شواهد أخرى، أو وحدها في مواضع من المقتضب وليس فيها إلا حديث نبوي واحد وهي جميعها من الأخبار وذلك في قوله متحدثاً عن العدد "إذا بلغت المائة قلت: 'كانوا تسعة وتسعين فأمايتهم، إذا جعلتهم مائة' و 'كانوا تسعمائة فألفئهم' إذا أردت: 'فعلئهم' و 'ألفئهم؟' إذا أردت: 'ألفئهم' كل ذلك يقال، وجاء في الحديث: 'أول حي ألف مع رسوال الله - ﷺ - جهينة وقد ألفت معه بنو سليم بعد'^٣. وفي قوله متحدثاً عن جواز جمع ما كان على وزن 'أفعل' و 'فعلاء' من الصفات: 'فإن جعلت 'أحمر' اسماً جمعته بالواو والنون... وقلت في المؤنث

^١ - يراجع فهرس الشعراء في المقتضب ٤/٣٢٤-٣٣١.

^٢ - يراجع فهرس الأقوال والأمثال في المقتضب ٤/٢٦٥-٢٦٦، وتقرن بما ورد في كتاب سيبويه، ٢٥/٣٤-٣٥.

^٣ - المقتضب ٢/١٨٤.

"حمرات" و "صفراوات" وجاء عن النبي صلى الله عليه وسلم: "ليس في الخضراوات صدقة" لأنه ذهب مذهب الاسم، والخضراوات في هذا الموضع ما أكل رطباً، ولم يصلح أن يدخر فيؤكل يابساً^١ وهذا الحديث هو الوحيد الذي كان من كلام النبي ﷺ. وجاء به في موضع احتجاج لم يرد فيه شاهد غيره، وإن كان في موضع يبدو منه أنه جائز و وارد فيما سمي به ولم يُعَدَّ وصفاً. وهناك عبارتان أخريان أوردهما في معرض كلامه ولم يَبَيِّنْ عليهما قاعدة وهما: "وفي الحديث: لما طعن العالج أو العبد عمر -رحمه الله- صاح: يا لله للمسلمين" وقوله: "قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: "العين وكاء السَّه" وفي موضع آخر قال: "وفي الحديث "العين وكاء السَّه".^٢

مصطلحاته:

المبرد بصري ونحوه بصري ومصطلحاته في الاعم الأغلب بصرية، إلا أنه استخدم في المقتضب بعض المصطلحات التي انفرد بها فلم تكن بصرية ولا كوفية من ذلك تسميته "الحال" "المفعول فيه" والضمير المنفصل المؤكد للمتصل: "الصفة" و "جواب الشرط": "الخبر" و "التوكيد المعنوي": "النعته"، و "النهي": "النفى". وقد يتابع سيبويه فيعبر عن "الهمزة" بـ "الالف" وصلاً كانت أم قطعاً، ويصف الحرف المتحرك بأنه حرف "حي" مثل سيبويه، كما أنه سمي الحرف الساكن "الميت" وهو مما وجدته عند سيبويه أيضاً.^٣

^١ - المقتضب ٢١٧/٢-٢١٨.

^٢ - ينظر ذلك في المقتضب ٣٣٤/١، والمقدمة ١١٦/١ وموقف النحاة من الاحتجاج بالحديث الشريف، ص ٥٧، وما بعدها.

^٣ - تنظر هذه في: المقتضب ١٦٦/٤ و ١٦٨ و ١٧١ و ١٠٥/٤ و ٨/٢ و ٢١٠/٣ و ٢٣/٢ و ٤٤ و ١٣٤ و ١٣٥ و ٨٤/٤ و ١/٢ و ٧٤ و ٨٧ و ١٣٣/٣. وينظر الكتاب ٣٠٧/٤ و ٤٥٤/٣ و ٤٢٩ حيث سمي الهمزة كلمة حية، وسمي الواو في جديول "وأمثالها" حية" ينظر الكتاب ٤٧٩/٢ و

أما الكوفيون فلم يرد لمصطلحاتهم ذكر في المقتضب، ولم يصرح باسم الكوفيين إلا في موضع واحد مع أنه عاصر ثعلباً من شيوخهم ونافسه في استقطاب طلبته واطراح كتب الكوفيين عامة. وقد ذكرهم في أثناء كلامه على إعراب الاسماء الستة حيث قال: "وجميع هذه التي يسميها الكوفيون معربة من مكانين لا يصلح في القياس إلا ما ذكرنا". واستخدم كلمة "النحويون" أو تعبير "وزعم قوم من النحويين"،^١ ولم يحدد المقصود بهما فقد يكون المقصود بهما الكوفيين، وقد يكون غيرهم من النحويين وهم كثر في زمانه.

"فعال" للدلالة على صاحب الشيء كالمهنة ونحوها فقال في باب "ما يبني عليه الاسم لمعنى الصناعة لتدل على النسب على ما تدل عليه الياء": "وذلك قولك لصاحب الثياب "تَوَّاب" ولصاحب العطر "عَطَّار" ولصاحب البز "بَزَّاز" وإنما أصل هذا التكرير الفعل كقولك: "هذا رجل ضَرَّاب" و "رجل قَتَّال" أي يكثر هذا منه وكذلك "خَيَّاط". فلما كانت الصناعة كثيرة المعاناة للصنف فعلوا به ذلك وإن لم يكن منه، نحو: "بَزَّاز" و "عَطَّار". فإن كان ذا شيء، أي صاحب شيء بني على "فاعل" كما بني الأول على "فَعَّال" فقلت "رجل فارس" أي "صاحب فرس" و "رجل دارع" و "نابل" و "ناشب" أي هذا آله. قال الشاعر:

وغروتني وزعمت أنك لابن في الصيف تامر

فهو هنا يرى أن القياس في النسب إلى الصناعة "فَعَّال" وفي صاحب الشيء "فاعل" ولذلك قال بعد ذلك: "فأما قوله:

٤٢٣ و ٣٥٥-٣٥٦ و ٤٦٩ و ٣٦٣ و ٤٢٢ و ٤٢٣ وغيرها وفي تسمية الميت.. ينظر اطلاقه إياها على الواو في (عجوز) والالف في (رسالة) والياء في صحيفة الكتاب، ٣٥٦/٤ وعلى الألف في (قُرْزَى) و (مبارك) و (جوالق) (ينظر كتاب ٤١٩/٣ و ٣٥٦ و ٥٤٤ و ٤٢٣) و ينظر تفصيل هذين المصطلحين وغيرهما من المصطلحات الصرفية في كتاب سيبويه.
^١ - المقتضب ١٥٥/٢، وينظر ٣٤٧/٢ و ٣٣٧/٤ ففيها فهرسة لمواضع ذكر هذه الكلمة.

فليس بذى روح فيطعنني به وليس بذى سيفٍ وليس بنبالٍ

فإنه كان حقه أن قول: "وليس بنابل" ولكنه كثر ذلك منه ومعه^١. وعلى هذا خرج قوله تعالى "عيشة راضية" وقول الحطيئة "الطاعم الكاسي" بأنه على معنى: عيشة فيها رضا، ورجل له طعام وكسوة^٢، وقاس النسب إلى ما كان على وزن "تقيف" و "هذيل" بحذف "الياء" وبقائها وعد الحالتين جائزتين. أما ما آخره "الهاء" التي للتأنيث منهما فالقياس حذف "الياء" ولا يجوز غيره^٣. ومن ذلك قياسه عمل "لكن" المخففة على "إن" المخففة، لأنه يرى أن "لكن" بمنزلة "إن" في تخفيفها وتثقلها في النصب والرفع وما يختار فيهما لأنها على الابتداء داخلة^٤. وذهابه إلى أن عمل "إن" النافية عمل "ليس" قياس^٥. ومن أقيسته تجويزه الجمع بين فاعل "نعم" و "بئس" الظاهر وتمييزهما المنصوب. ومن ذلك أيضاً قياسه قلب "الواو" الأصلية المكسورة في أول الأسماء همزة مثل "وسادة" و "اسادة"^٦.

ومما اهتم به المبرد في آرائه النحوية وبحوثه الصرفية التعليل، وقد مر بنا أنه كان يستخدم التعليل المنطقي المبني على إيجاد علة للحكم وعلة للعلة وعلة لثالثة أو رابعة بحسب ما يحتاج إليه احتجاجه للمسألة أو الرأي، واستخدم التأويل في رد ما خالف القياس من الظواهر بتقديرات بعيدة، من ذلك قوله في تخريج استعمال الشاعر كلمة "فمويهما" - بالجمع بين الميم والواو - في قوله:

^١ - المقتضب ١٦١/١-١٦٢.

^٢ - القارعة ٧، والحاقة ٢١، والمقتضب ١٦٣/٣.

^٣ - ينظر المقتضب ١٣٣/٣، وينظر في القياس عنده ١٣٤ و ١٤٥ و ١٤٦.

^٤ - ينظر المقتضب ٥٠/١-٥١.

^٥ - ينظر المقتضب ٣٦٢/٢.

^٦ - ينظر المقتضب ١٥٠/٢ و ٩٤/٢.

هما نفثا في في من فمويهما على النابح العاوي أشد رجام

"فإنما" فم أصله "فوه" لأنه من "تقوهت بكذا"، وجمعه: "أفواه" على الأصل. فإذا قلت: "هذا فو زيد" فقد حذفت موضع اللام، ولو لا الإضافة لم يصلح اسم على حرفين أحدهما حرف لين، ولك تثبت في الإضافة لأنها تمنعه التتوين...". وقوله بعده: "فأما قوله: "فمويهما" فإنه جعل "الواو" بدلاً من "الهاء" لخفائها للين، وأن "الهاء" "خفية".^١

ومما ذهب إلى التأويل فيه من الابنية مجيء "فاعل" قياساً لصاحب الشيء في كل ما جاء من أوصاف المؤنث بلا "هاء" تأنيث، وإن كانت من ألفاظ لا تقع إلا في المؤنث فعدها بمعنى "صاحبه الشيء" وذلك في نحو "طالق" و "متئم" و "مرضع" فهي بلا "هاء" بمعنى: "ذات طلاق" و "ذات توأم" و "ذات ارضاع" فإن أريد الوصف العادي قيل فيها "طالقة" و "مرضعة".^٢

خالط من سلمى خياشيم وفا

فأما "فزك" فإنما حذفوا لامه لموضع الإضافة، ثم أبدلوا منها في الافراد "الميم" لقرب المخرجين فقالوا: "فم" كما ترى. لا يكون في الأفراد غيره، وقد لحن كثير من الناس العجاج في قوله:

خالط من سلمى خياشيم وفا

^١ - المقتضب ١٨٥/٣ وينظر في مثل هذا من التأويل ١٦٣/٣.

^٢ - المقتضب ١٦٤-١٦٥/٣.

وليس عندي بلاحن لأنه حيث اضطر أتى به في قافية لا يلحقه مع التنوين في مذهبه، ومن كان يرى تنوين القوافي فيقول:

أقلي اللوم عاذلّ والعتابن

لم ينون هذا، لأن ترك التنوين هو الأكثر الأغلب لما في هذا الاسم من الاعتلال^١.

هذا هو موقف المبرد من الشاهد النحوي ومن أصول النحو وقد تبين أنه تابع البصريين في معظمها وخالف سيبويه في بعض الأقيسة، وزاد عليهم ما جد في عصره من ميل إلى الاحتجاج واكثار من التعليل والتأويل.

^١ - المقتضب ١/٢٤٠، وينظر في التأويل ١/٢٣٨-٢٣٩ و ٣/٧١-٧٢.

المدرسة الكوفية

نشأة النحو الكوفي وأوائل رجاله

لقد لاحظنا بتتبعنا لكتب التراجم والطبقات التي أرخَتْ للنحو العربي منذ نشأ أنه لم ينكر أحد وجود مدرسة نحوية بهذا الاسم فجميعهم يثبتون لها وجوداً وآراءً ونحاة طوروا هذا النحو وكونوا منه مذهباً مستقلاً أو مدرسة ثانية بعد البصرية وساء في ذلك من أرخ لنحاة المدرستين ومن ذكر الخلاف بينهما، ومن أرخ للبصريين فقط كالسيرافي الذي اعترف بوجود مذهب آخر يقابل المذهب البصري واعترف بنحاتهم ولاسيما الكسائي والفراء^١.

أما المحدثون فقد اعترف معظم الباحثين بوجود مدرسة نحوية كوفية تقابل مدرسة البصرة النحوية - سواء في ذلك من أجاز اطلاق لفظ مدرسة عليها ومن لم يجز، واكتفى بإطلاق تعبير الدرس النحوي أو ما يقاربه - وذهب بعض المحدثين إلى الشك في وجود مدرسة كوفية وكان أولهم "جوتولد فايل" وتابعه في ذلك كاتب مادة "ثعلب" في دائرة المعارف الإسلامية، و "بروكلمان" في كتابه "تاريخ الشعوب الإسلامية".

قال جوتولد فايل: "ومع عظيم الاجلال لمناقبهم في غير ذلك من النواحي فإنهم لم يؤسسوا مدرسة نحوية خاصة" وعلل ذلك بكثرة الخلافات بين شيوخها الكسائي والفراء مما يدل على أنهما لا يكونان مدرسة واحدة، ومتابعتهما ليونس في

^١ - ينظر أخبار النحويين البصريين ٢٧ و ٢٨ و ٣٢ و ٣٥ و ٤٠ و ٤٤ و ٤٦ و ٤٨ و ٨١،

بعض آرائه وهو بصري. أما ما جاء في دائرة المعارف الإسلامية فقول الباحث:
"على أننا لا نستطيع في الحقيقة أن نقول بوجود وذهب مكتمل لنحاة الكوفة"، أما
بروكلمان فقد كان شكه أقرب إلى القول بوجودها.^١

وقد نشأ النحو في الكوفة نشأته في معظم الأمصار الإسلامية بعد نشوء
العلوم الدينية وانتشارها وعلى أيدي علماء القرآن وقراءاته. وقد اهتمت الكوفة منذ
تأسيسها بالعلوم الدينية، وكان الأساتذة القائمون بهذا جماعة من الصحابة الذي بعث
بهم عمر بن الخطاب إلى الكوفة لتعليم أهلها القرآن وعلوم الدين كما كان مُتَّبِعاً على
عهد رسول الله ﷺ حيث كان يرسل إلى كل مصر من الأمصار الإسلامية التي
يحررونها مجموعة من الصحابة لتولي هذه المهمة. وكان في الكوفة الإمام علي بن
أبي طالب رضي الله عنه الذي انصرف إلى الشؤون السياسية وعمار بن ياسر،
وانصرف عبدالله بن مسعود إلى الناحية التعليمية الدينية وكان يحفظ القرآن كله
ويعرف أسباب نزوله و أوقاته وأماكنه لطول ملازمته للرسول ﷺ، فالتف الناس حوله
في الكوفة يسمعون قراءة القرآن ويتعلمونها، ويسمعون فتاواه الشرعية ويأخذون بها،
وتكونت من هؤلاء مدرستان تخصصت الأولى في علوم القرآن من قراءة وإقراء
وتفسير وشرح، واشتهر فيها خمسة عرفت بهم الكوفة وهم: يحيى بن وثاب (-)
١٠٣هـ) وعاصم بن أبي النجود (-١٢٧هـ) وحمزة بن حبيب الزيات (-١٥٦هـ)
وسليمان الأعمش والكسائي (-١٨٩هـ) الذي لازم حمزة وتصدر للأقراء في مجلسه
بعد وفاته. وكان عاصم وحمزة والكسائي من القراء السبعة المشهورين. وتخصصت
المدرسة الثانية بالتشريع و برز من رجالها إبراهيم بن يزيد النخعي (-٩٦هـ) وتلميذه

^١ - ينظر مقدمة الانصاف (طبعة أوربا) نقلا عن مدرسة الكوفة ٤٠١، وتاريخ الشعوب الإسلامية
٢٨/٢ ودائرة المعارف الإسلامية ٢٨/٦، والمدارس النحوية ١٥٧ وأبو زكريا القراء ٣٥٤ وما
بعدها.

حماد ابن أبي سليمان (-١٢٠هـ) الذي لازمه أبو حنيفة النعمان (-١٥٠هـ) ثماني عشرة سنة ثم جلس في مجلسه بعد وفاته. واشتهرت هذه المدرسة التي كان زعيمها الأكبر عبدالله بن مسعود باتباع منهج الخليفة عمر بن الخطاب في الاجتهاد بالرأي في الشريعة فيما لم يكن فيه نص من قرآن أو سنة^١. ومن هؤلاء تكونت مدرسة الرأي الفقهية في الكوفة، فكانت مدرسة الرأي في العالم الإسلامي^٢.

هذان هما الاتجاهان اللذان اتجهت إليهما مدرسة الكوفة الدينية، والذي يهمنها منهما هنا اتجاه مدرسة الأقرء التي نشأت عنها مدرسة الكوفة النحوية. فقد أخذ الكسائي وشيوخه القراءة عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه وعن عدد من الصحابة منهم عبدالرحمن السلمي (-٧٤هـ) أول من أقرأ القرآن في مسجد الكوفة وقعد للأقرء فيه أربعين سنة وكان قد أخذ القرآن عن الإمام علي بن أبي طالب. وزر بن حبيش (-٨٢هـ) وكان من شيوخ الاقرء في الكوفة أخذاً قراءته عن عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما. وعاصم بن أبي النجود (-١٢٧هـ) الذي كان ممن أخذ عنه حمزة ابن حبيب الزيات (-١٥٦هـ) وأصبح إمام الاقرء في الكوفة. وعنه أخذ الكسائي علي بن حمزة (-١١٩-١٨٩هـ) الذي انتهت إليه رئاسة الاقرء في الكوفة بعد شيخه حمزة بن حبيب الزيات فتصدر حلقة فكان أوجد زمانه في القراءات وأعلمهم بها. فكان الناس "يكثررون عليه حتى لا يضبط الأخذ عليهم فيجمعهم في مجلس، ويجلس على كرسي ويتلو القرآن من أوله إلى آخره، وهم يسمعون ويضبطون عنه"^٣.

^١ - ينظر فجر الإسلام ٢٩٢/١، وما بعدها، وحياة الشعر في الكوفة ٢٤٨ وما بعدها.

^٢ - ينظر حياة الشعر في الكوفة ٢٤٨-٢٥٣.

^٣ - النشر في القراءات العشر لابن الجزري ١/١٧٣، ومدرسة الكوفة ٤٢.

وكان إلى جانب هذا الاهتمام الواسع بالقرآن وقرأته وعلومه وبالتشريع وتطويره ووضع أصوله وأحكامه اهتمام من نوع آخر، اهتمام باللغة العربية من منثور ومنظوم فاختصت بذلك جماعة من العلماء الذين عنوا بالخروج إلى البوادي لجمع اللغة وتدوينها، والسماع عن الاعراب والشعراء والخطباء الوافدين إلى المريد في المواسم، وقد تكونت من هؤلاء طائفة من الرواة واللغويين اشتهروا في البصرة التي كانت سباقة إلى الاهتمام بالعلوم اللغوية والتي بذل علماءها الجهد الأكبر في إرساء قواعد النحو والصرف وغيرهما من العلوم اللغوية. وشاركت الكوفة بنوع آخر من الرواية اللغوية، تلك هي رواية الشعر والاهتمام به نظراً لما اختصت به من وجود القبائل العربية المتمسكة بالعصبية القبلية والتي كانت تمثل الطبقة العليا في المجتمع الكوفي. فكانت تهتم برواية الشعر للتغني بمفاخر الآباء والأجداد والمناظرة والمساجلة فيما بينها، فانصرف أهل الكوفة عن شؤون الحياة الأخرى واهتموا بالشعر وأسهموا في إيجاد هذا التراث الضخم من أشعار العرب جاهلين وإسلاميين، هذا الشعر الذي أصبح عدة الدارسين وعمدتهم في الدرس اللغوي والنحوي الذي شاركت فيه الكوفة في عهد متأخر عن البصرة التي سبقتها إلى ذلك بمائة عام مع أنهما انشئت في عهد واحد ولم يكن بينهما أكثر من سنتين.

كان الكسائي أبرز من اهتم بالدراسات النحوية وأدخلها في الكوفة ونشطها - وإن كان قبله عدد ممن سمو بالنحاة إلا أن دورهم لم يكن ظاهراً في ذلك - فقد وجد الكسائي نفسه محتاجاً إلى الألمان بعلوم اللغة ليقدم قراءته وليمساعدته على تفسير القرآن الكريم لمن كان يلم بحلقته من الدارسين الذين كثر فيهم الموالى الذين كونوا الطبقة الثانية من سكان الكوفة، وليستطيع أن يشرح لهم ألفاظه ومعانيه معتمداً على ما جاء في كلام العرب منظومه ومنثوره، وما وجد في غريبه وما عرف في أساليبه

من دراسات لضبط الابنية أو العبارات أو لمعرفة ما فيها من ظواهر صوتية تختلف باختلاف الناطقين بهذه اللغة وتتنوع بتنوع بيئتهم وقبائلهم مثل الاعلال والابدال والادغام والامالة والوقف والابتداء والهمز وأصولها وقواعدها، فعزم على تعلم مبادئ ذلك كله على أيدي من كان بالكوفة من النحويين الصغار الذين هم بمنزلة المؤدبين ولهم ألامام بالنحو واللغة وعلومها الأخرى أكثر من غيرهم فأخذ عنهم ما عندهم كأبي جعفر الرؤاسي وأبي مسلم معاذ الهراء الذي أخذ عن أبي معاوية شيبان بن عبدالرحمن التميمي^١. ثم شد الرحال إلى البصرة ليطلع على علم الخليل وشيوخه وعلى ما عند الرواة واللغويين فيها فجلس في حلقة الخليل وأخذ عنه نحواً كثيراً ثم خرج إلى البادية وسمع عن الاعراب ودون ما سمعه حتى انفذ خمس عشرة قنينة، وعاد إلى البصرة وجلس في حلقة يونس حيث كان الخليل قد مات، ومنها عاد إلى الكوفة وأخذ يبحث في نحو الخليل ويحاول تنمية الدرس النحوي وتطويره، وبه بدأت الدراسات النحوية بالكوفة وبتلميذه الفراء نمت وتطورت حتى أصبح للكوفة نحو يعرف بها.

أوائل النحاة:

ليس بين أيدينا من أخبار مدرسة الكوفة ونشأتها وأوائل رجالها من وجدنا في نحو البصرة، وذلك لأن الدرس النحوي نشأ بالبصرة وقام على أكتاف رجال بصريين بذلوا ما وسعهم الجهد والوقت في سبيل ارساء قواعده وضع أصوله وتحديد أقيسته بعد العمل على جمع مادته ودرسها بحرص وأمانه ووعي. وأما الكوفة فلم يكن لها

^١ - طبقات النحويين واللغويين ١٣٨ وما بعدها و ١٣٧ ونور القيس ٢٧٦ و ٢٧٩ ونزهة الالباء ١٩ و ٣٤ و ٤٢-٤٨ ومعجم الادباء ١٨٤/٥، وينظر ١٨٢-٢٠٠ وتاريخ النحو العربي ١٠١، والدرس لنحوي في بغداد ١٦-١٧.

تاريخ في الدرس النحوي، والنحاة الذين عرفتهم الكوفة كانوا تلاميذ البصريين لم يتعمقوا في الدرس ولم يبرعوا فيه، واكتفوا من محصولهم النحوي بأن يشتغلوا في الكوفة بتأديب أولاد الأخرء والموسرين. ولم يضيفوا إلى ما تلقوه عن أشياخهم البصريين جديداً ولم يغيروا من أسلوبه شيئاً^١ فَمَنْ أوائل رجال هذا الدرس النحوي الكوفي؟ لقد ظلت نشأة الدراسة النحوية في الكوفة غامضة لا نعلم عنها أكثر من روايات متفرقة لا تكون مادة تؤرخ لهذه المدرسة، وذلك لقلة ما وصل إلينا من أخبار الكوفيين ومصنفاتهم. وقد رجعنا إلى كتب الطبقات والتاريخ نستقيها في هؤلاء النحويين فلم نجد إلا نتفا من أخبار، وإشارات استهدينها بها في معرفة بعض هؤلاء النحاة الذين يحق لهم أن نعدهم أوائل من سمي نحاة كوفيين، وأشهر هؤلاء سعد بن شداد الكوفي النحوي كما سماه السيوطي ويعرف (سعد الراية) قيل إنه لقب بموضع كان يعلم فيه النحو. أخذ النحو عن أبي الأسود الدؤلي^٢. وتوبة الملاي ذكره أبو بكر بن مجاهد وقال عنه "كان من أعلم أهل الكوفة بالنحو"^٣ وكان معاصراً لعاصم المقرئ (-١٢٧هـ)، وهذا يعني أنه ممن أخذ عن أبي الأسود كما أخذ عنه سابقه، وربما كان من شيوخ الرؤاسي والهرء، وحمرا بن أعين الطائي المقرئ النحوي أبو عبدالله، قال المرزباني: قرأ على حمرا حمزة بن حبيب، وقرأ حمرا على أبي الأسود، وقرأ أبو الأسود على علي وعثمان رضي الله عنهما، ويبدو أنه كان ضعيفاً في النحو مع أن الفراء وصفه بأنه قارئ نحوي^٤. و زهير الفرقبي من أوائل من أشارت إليه كتب الطبقات وعدته من النحويين الكوفيين، ويبدو أنه جاء بعد تلاميذ

^١ - الدرس النحوي في بغداد ١٤.

^٢ - بغية الوعاة ٥٧٩/١، ونور القبس ٢٤.

^٣ - كتاب السبعة في القراءات ٧٠، وينظر المفصل في تاريخ النحو العربي ٨٨-٨٩.

^٤ - نور القبس ٢٦٧، وانباه الرواة ٣٣٩/١-٣٤٠.

أبي الأسود السابقين لأنه لم يأخذ عن أبي الأسود وإنما أخذ النحو من أصحاب أبي الأسود ومات سنة (١٥٦هـ) نحوي قارئ كان من أهل الكوفة وسافر إلى مكة كما روى الهيثم بن عدي قال "رأيت زهيراً الفرقي وقد اجتمع عليه ناس يسألونه عن القراءات والعربية ويحببهم ويحتج على ما يقول بأشعار العرب، وكان يروي كثيراً عن ميمون الاقرن تلميذ أبي الأسود ويبدو أنه أخذ القراءة عنه، وكان أبو جعفر الرؤاسي يأخذ عنه، وقال عنه الفراء: من أهل القرآن^١. وكان ممن عاصره نحوي اسمه **العلاء بن سيابة** لم تترجم له كتب الطبقات لأنه فيما يبدو من المعلمين، قال الفراء في كلامه على نصب المضارع بعد "الفاء": "والانتفاف بالفاء على جواب الأمر حسن، وكان شيخ لنا يقال له **العلاء بن سيابة**، وهو الذي علم مُعَاذاً الهراء وأصحابه يقول: لا انصب بالفاء جواباً للأمر^٢" فهو إذن متأخر عن زهير الفرقي لأنه علم مُعَاذاً الهراء، والفراء كما يظهر من قوله فيه "شيخ لنا" وربما يقصد به أنه شيخ شيخه فهو من معلمي معاذ الكوفيين، ومعاذ شيخ الفراء. وهو مثل الفرقي ممن أخذ عن طبقة تلاميذ أبي الأسود. وممن سمي نحويّاً أيضاً من الكوفيين قارئ الكوفة وأحد القراء السبعة **عاصم بن أبي النجود** المتوفي (١٢٧هـ) قال فيه أبو الطيب اللغوي: فأما ما يذكر عن عاصم القارئ أنه كان نحويّاً، فلعل ذلك شيئاً يسيراً من جليل النحو فلم يذكر قوله ولم يحفظ^٣. وهذه الإشارة لا تعني أنه درس النحو وأنما يفهم منها تعلم النحو كما يتعلمه كل قارئ للقرآن، وربما أجاده فعرف به. ومنهم أيضاً **محمد بن عبدالرحمن بن محيصن** (-١٢٣هـ) قال عنه أبو الطيب اللغوي: "وكذلك ابن

^١ - نور القبس ٢٦٧، وانباه الرواة ١٨/٢-١٩، ومعجم البلدان ٢٥٤/٤.

^٢ - معاني القرآن ٧٩/٢.

^٣ - مراتب النحويين ٢٤.

محيصن، وكان يحسن شيئاً يسيراً من جليل النحو، واسمه محمد وأهل الكوفة يعظمون من شأنه ويزعمون أن كثيراً من علمهم وقراءاتهم مأخوذة عنه^١.

هذه الاشارات العابرة إلى بعض الأعلام في كتب التاريخ والقراءات والنحو تدلنا على أنه كان بين الكوفيين ممن أخذوا عن أبي الأسود الدؤلي من عرفوا بالنحو، وإن كنا لا نعلم مبلغ اطلاعهم على النحو أو معرفتهم به إلا أنها على كل حال ظاهرة نستطيع أن نتتبع بها تاريخ النحو في الكوفة، وجاء بعدهم من كانوا من تلاميذ أصحاب أبي الأسود مثل زهير الفرقي والعلاء بن رابة ممن علموا أبا جعفر الرؤاسي ومعاذاً الهراء فكانا بهذا معاصرين لشيخ آخر لهما اشتهر بالنحو وعرفت أخباره فيه هو أبو معاوية شيبان بن عبدالرحمن التميمي النحوي المتوفي (١٦٤هـ) وقيل (١٧٠هـ) عالم بصري اشتغل بالقراءة والحديث والنحو، انتقل من البصرة إلى الكوفة وفتح أمام تلاميذه الكوفيين ميدان الدرس النحوي الجديد على بيئة الكوفة فعلم أولاد داود بن علي بن عبدالله بن عباس. ووجد من الكوفيين مَنْ شُغِفُوا بالاطلاع على العلم الجديد الذي ظهر في البصرة فأخذوا عنه وتعلّموا عليه واشتهر منهم معاذ بن مسلم الهراء وربما أخذوا عنه الرؤاسي والكسائي وإن لم يرد ذلك في ترجمته. ثم رحل إلى بغداد وما فيها سنة ١٧٠هـ في خلافة الهادي^٢. فهذا النحوي وإن لم يكن كوفياً قد انصرف إلى تدريس الكوفيين علم النحو الذي أخذه في البصرة حيث كان من طبقة أبي عمرو بن العلاء والخليل، ولا ندري إن كان قد لقي الخليل واستفاد من علمه أولاً. وهكذا يتصل نحو أبي الأسود المؤسس والمنشيء لهذا العلم بشيوخ

^١ - مراتب النحويين ٢٥.

^٢ - نزهة الالباء ١٩-٢١، وابناء الرواة ٧٢/٢-٧٣، ووفيات الأعيان ٢٦٣/٤، وتاريخ النحو العربي، ص ٩٩، وما بعدها.

المدرسة الكوفية عن طريق هؤلاء التلاميذ الذين حاولنا أن نصل بأخبارهم ما جهل من تاريخ النحو في الكوفة، ولا يعني ذلك أنهم في منزلة معاصريهم من تلاميذ أبي الأسود وتلاميذهم من البصريين وإنما عرفوا بتعليم النحو وبأخذهم أيضاً عن أبي الأسود وأصحابه. ومن تلاميذ شيبان الذي نصّ المؤرخون على أنه أخذ عنه أبو مسلم الهراء المتوفي سنة (١٨٧هـ) وقيل (١٩٠هـ) عاش عمراً طويلاً، وكان تاجراً ونحوياً. وقال ابن خلكان قرأ عليه الكسائي وروى عنه، وحكى عنه في القراءات حكايات كثيرة، وصنف في النحو كثيراً، ولم يظهر له شيء من التصانيف. ولم يورد أحد من المترجمين أن له مصنفات في النحو أو آراءً نحوية تعرف عنه سوى ابن خلكان، مع أن ابن التديم المتقدم عليه والمتم بذكر المصنفات قال: "ولا كتاب له يعرف^١" وقد أورد الزبيدي في طبقاته هذا الخبر في ترجمة أبي مسلم مؤدب عبدالملك بن مروان الذي كان قد نظر في النحو فلما أحدث الناس التصريف لم يحسنه، وانكره فهجا أصحاب النحو فقال:

حتى تعاطوا كلامَ الزنج والروم

كأنه زجلُ الغريان والبوم

من التقم في تلك الجرائم

شبت ولم تحسن أبا جامها

يصدرها من بعد إيرادها

طوراً علا القرن من أطواها

قد كان أخذهم في النحو يُعجبني

لما سمعت كلاماً لست أفهمه

تركت نحوهم والله يُعصمني

فأجابه معاذ الهراء أستاذ الكسائي فقال:

عالتها أمرد حتى إذا

سمت من يعرفها جاهلاً

سهل منها كل مستصعب

^١ - طبقات النحويين واللغويين ١٣٥، ونور القبس ٢٧٦، والفهرست ٧٢، ونزهة الالباء ٣٤ ووفيات الأعيان ٣٠٩/٤.

وكان أبو مسلم جلس إلى معاذ بن مسلم الهراء النحوي فسمعه يناظر رجلاً في النحو فقال له معاذ: كيف تقول من "تَوَزَّهْمُ أَزًّا". "يا فاعِلُ أَفْعَلُ" وصلُّها بـ "يا فاعِلُ أَفْعَلُ" من: "وإذا المودَّةُ سُئِلَتْ"^١ فسمع أبو مسلم كلاماً لم يعرفه فقام عنهم وقال الأبيات".

فقال الزبيدي: وجواب هذه المسألة: "يا أَرُ أَرَّ" و "إِنْ شئتَ: "أَرَّ" وإن شئتَ "أَرَّ" وإن شئتَ "أَوَزَّ"، فالفتح لأنه أخف الحركات والكسر لأنه أحق بالتقاء الساكنين، والضم للاتباع، وكذلك "يا وائِدُ إِدْ" مثل: "يا واعدُ عِدْ". وقد نقل السيوطي هذا الخبر عنه وعلق عليه بقوله: "ومن هنا لمحت أن أول من وضع التصريف معاذ هذا"^٢. ولم تورد لنا كتب النحو آراءً تدل على علم معاذ الهراء هذا في النحو أو الصرف، وعدت إلى كتاب تلميذه الفراء "معاني القرآن" في هذه الآية فلم أجده يذكر ما يؤيد هذه الرواية، وكان كل ما أثبتته له المترجمون هذا الخبر، وأنه أستاذ الكسائي والفراء الذي لزمه حتى أنفد ما عنده وأنه قال لمن سأله: "إنما كتبوا" و "الذي هو يطعمني" بياء لأنها رأس آية وكتبوا "ويسقين" بلا ياء، لأنها رأس آية"^٣. وعدوا هذا القول رأياً صرفياً يضاف إلى الرأي الصرفي السابق اللذين اشتهر من أجلهما بعلم النحو والصرف وبأنه من مؤسسي مدرسة الكوفة النحوية. هذا ما عند القدماء في "معاذ الهراء". أما المحدثون فقد اختلفوا فيه فذهب الشيخ الطنطاوي إلى أن ولوعه بالابنية غلب عليه حتى عده المؤرخون واضع الصرف. وقال بروكلمان بأسلوب الشاك: "كما قيل إن... معاذ بن مسلم الهراء... هو الذي وضع علم الصرف" ولم يناقش القول. أما الدكتور أحمد مكي الأنصاري فلم يبد رأيه في معرفته بالنحو،

^١ - التكوير ٨.

^٢ - طبقات النحويين واللغويين ١٣٦-١٣٧، وبغية الوعاة ٢/٢٩١.

^٣ - بغية الوعاة ٢/١٦٣، وينظر انباه الرواة ٣/٢٩٥ و ٢٨٩-٢٩٥، الشعراء ٧٩.

وأثبت له عمله بالصرف فقال: "ومن قبيل الدراسات النحوية ما سمي أخيراً بـ (علم الصرف)... وقد ضرب الفراء فيه بسهم وافر وليس غريباً عليه ذلك بل ليس غريباً على أهل الكوفة جمعاء، فقد عرفوا بهذا العناية الصرفية وربما كان مرّ ذلك إلى أن مبتكر علم الصرف كان من الكوفيين - إذا صحت الروايات التاريخية - وهو معاذ بن مسلم الهراء..." فجعلها روايات وهي رواية. ونفى الدكتور المخزومي نفياً قاطعاً أن يكون هناك كوفي كان نحويّاً بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة قبل الكسائي فلا معاذ الهراء ولا أبو جعفر الرّؤاسي ممن نضعهم في طبقة المؤسسين لهذه المدرسة النحوية الناشئة..." وقد رد بهذا على أصحاب الطبقات وعلى "أوليري" من المستشرقين. وعرض الدكتور شوقي ضيف لرواية الزبيدي ولتعليق السيوطي وغيره عليها وقال: "ويظهر أنه اختلف إلى نحاة البصرة فتلقى عنهم النحو والصرف ثم رجع إلى الكوفة وقعد للاملاء، وأخذ عنه فيمن أخذوا الفراء. وكل ما أثر عنه أنه كان يعرض لبعض مسائل التصريف "ثم قال" وبنى السيوطي على هذا الخبر أنه واضع علم الصرف، والخبر لا يسنده كتاب وضعه في هذا العلم، وهو لا يعدو معرفته بالتصريف، وكتاب سيوبه زاخر به وبما لا يكاد يحصى من أمثله وأبنيته، ومنه خلاصها المازني ووضع فيها كتابه "التصريف، ووما يؤكد وهم السيوطي فيما ادعاه أنه ليس لمعاذ في كتب التصريف آراء تنسب إليه ذات قيمة، وكأن علمه بالصرف مثل علم الرّؤاسي في النحو كان علماً محدوداً لا غناء فيه ولا شيء يميزه من علم البصرة.^١

ولم يثبت أحد من الباحثين المحدثين علم معاذ بالنحو والصرف مثل الدكتور علي أبو المكارم الذي ذكر اضطرابات الباحثين في إثبات ذلك له، و دافع عنه فقال:

^١ - ينظر نشأة النحو ٩٠، وتاريخ الأدب العربي ١٩٧/٢، وأبو زكريا الفراء ٣٥٧ و ٤١٧، ومدرسة الكوفة ٨٨، والدرس النحوي في بغداد ١٤، والمدارس النحوية ١٥٣-١٥٤.

"ودور معاذ الهراء في النحو محور خلاف كبير، فعلى حين يذكر بعض المؤرخين أنه "لا كتاب له يعرف" يقرر إسحاق بن الجصاص أنه كان "يصنف كتب النحو في أيام بني أمية. وهي دعوى عريضة لا شاهد عليها، وابن الجصاص نفسه لم يرو شيئاً عن كتبه، بل أنه لم يذكر حتى اسمائها مما يضعف روايته ويشكك في صحتها وبخاصة أن الكثير من محققي المؤرخين يقررون أن أول من وضع من الكوفيين كتاباً في النحو هو تلميذ معاذ، أبو جعفر محمد بن الحسن بن أبي سارة الرؤاسي الذي ألف كتاب "الفصل"... وإذا كان معاذ ممن لم يسهموا في التأليف النحوي فقد أسهم في جوانب أخرى من البحث النحوي، إذ كان يفضل نشر معلوماته عن طريقين: أولهما: تلقين تلاميذه، وثانيهما: المشاركة في مناظرات علمية تكون المناقشة فيها نابعة عن موردين يتضافران على إظهار مدى التألق الفكري أمام جمهور يشهد ويتابع، وهذان الموردان هما: حفظ المادة اللغوية، ثم القدرة الفعلية على استخدام هذه المادة وتقريعها، وهذه القدرة حفزته إلى درس الصيغ والمفردات، ووضع بذلك في الصف الأول من علماء الصرف في نشأته الباكرة"^١ هذا الدفاع الحار عن معاذ وعن كونه من المؤسسين لعلم الصرف لا يثبت أمام الواقع فقد سبق أن تحدثت في "ابنية الصرف في كتاب سيبويه" عن نشأة الصرف وبينت أن تكلم معاذ الهراء في بعض المسائل الاشتقاقية - التي لم تصل إلينا منها إلا رواية واحدة في بعض كتب التراجم، ولم يوردها معظم المؤرخين - لا يتخذ مُستنداً للقول بما قال به الدكتور علي أبو المكارم من وضعه في الصف الأول من علماء الصرف في نشأته المبكرة، ودليلنا على هذا أن معاذاً الهراء توفي في أقرب التواريخ سنة (١٨٧هـ) وقيل (١٩٠هـ) ومعنى هذا أنه متأخر عن الكسائي من أصحابه وعن جميع شيوخ المدرسة

^١ - تاريخ النحو العربي ١٠٢.

البصرية كسيبويه والخليل وأساتذتهما، ونحن نعلم ما وضعه هؤلاء من آراء في علم الصرف بمختلف أبوابه بحيث لم يزد عليها من جاء بعد سيبويه من البصريين أو الكوفيين ما يمكن أن يعد ابتكاراً أو تأسيساً لعلم صرف كوفي يختلف عن الذي وجد، وكل ما زاده المتأخرون مخالافات في كون بعض الأبنية مقيسة أو مسموعة وفي بعض ما فيها من ظواهر أعلال أو إدغام أهي قياسية مطردة أم ممتعة. والذي يمكن أن نخلص إليه أن معاذاً الهراء كان مثل سابقه من أمثال أبي معاوية شيبان التميمي أو زهير الفرقبي تعلم النحو والصرف عن ورد من البصريين إلى الكوفة حاملين علم البصريين المتقدم في ذلك الزمان من نحو وصرف، فقد أخذ عن شيبان هذا وهو من جيل أبي عمرو بن العلاء والخليل وسيبويه، ولا شك أنه كما مطلقاً اطلاعاً كافياً على آرائهم فاستفاد معاذ من هذه الآراء إن لم يكن قد رحل إلى البصرة وأخذ عن العلاء بن سبابه وهو معاصر لشيبان هذا ومعروف بأنه من نحاة الكوفة الأوائل، وأنه جلس للتدريس والتعليم في الكوفة فأخذ عنه أبو جعفر الرؤاسي والكسائي والفراء ما أخذ هو عن السابقين. ألا أن العلم ينمو بالدرس والتدريس والمناقشات بين الطلبة وشيوخهم، فنما ما عند معاذ من معرفة بعلم الاشتقاق والتصريف مع وجود الرغبة في متابعته والتكلم في مسائل منه، فذاعت عنه أقوال معدودة أخذها لاحق عن سابق وبالغوا فيها حتى أصبحت ابتكاراً وتأسيساً.

وكان أبو جعفر الرؤاسي **محمد بن أبي سارة** أحد النحاة الثلاثة الذين ذكرت المصادر أنهم تتلمذوا على معاذ الهراء^١ وهو ابن أخيه، أخذ العربية عن أبي عمرو بن العلاء وتقدم في النحو حتى قال السكائي: ما وجدت بالكوفة أحداً أعلم بالنحو

^١ - تنظر ترجمته في مراتب النحويين ٢٤ وطبقات النحويين واللغويين ١٣٥. ونور القبس ٢٧٩، والفهرست ٧١، ونزهة الالباء ٣٤-٣٥، وانباه الرواة ٩٩/٤-١٠٣، وبغية الوعاة ٨٢/١ وما بعدها.

من أبي جعفر الرّؤاسي، وقال: كنت آخذ المسائل فأقدمها وأؤخرها فلا يحسنها أحد إلا الرّؤاسي. وقال ثعلب: كان الرّؤاسي أستاذ الكسائي والفراء، وزعم أن أول من وضع من الكوفيين كتب النحو أبو جعفر الرّؤاسي وإن له كتاباً معروفاً عندهم بعد موته، وسئل الفراء عن الرّؤاسي فأثنى عليه وقال: قد كان دخل البصرة دخلتين وقل مقامه بالكوفة، فذلك قل أخذ الناس عنه، ومما يؤيد زعم ثعلب أن أول من وضع في النحو كتباً الرّؤاسي ما جاء في أقوال معظم المترجمين له فقد تكرر قولهم "وهو أول من وضع من الكوفيين كتاباً في النحو". وذكر له الزبيدي كتاباً واحداً هو "كتاب في الجمع والأفراد" أما ابن النديم فقد ذكر له عدداً من الكتب هي: "الفصل" رواه جماعة، و "كتاب التصغير" و "كتاب معاني القرآن" يروى إلى زمن ابن النديم وكتاب "الوقف والابتداء الكبير" و "الوقف والابتداء الصغير" وقال أيضاً نقلاً عن أبي الطيب أخي الشافعي: إن الرّؤاسي قال: "بعث إلي الخليل بطلب كتابي فبعثت به إليه فقرأه ووضع كتابه، قال: وفي كتاب سيبويه قال الكوفي يعني الرّؤاسي: أما المرزباني فأورد الرواية عن الرّؤاسي في طلب الخليل كتابه بهذه الصورة: ".. فبعثت به إليه فوضع كتاب "العين" وإذا قال في كتابه: قال الكوفي كذا فإنما يعني به الرّؤاسي "وهذا أول نص يورده المترجمون للرّؤاسي يشار فيه إلى أن الكتاب الذي استفاد منه الخليل كتاب لغة، قد يكون منظم المادة اللغوية على هيئة معجم بدائي بترتيب ما، وقد يكون حاوياً لمادة لغوية مدونة. جمعها من سفراته إلى البصرة وإقامته الطويلة فيها مما سمعه من الأعراب والشعراء واللغويين الوافدين على المربد في مواسمه. أو الذين قابلهم في حلقات الشيوخ الموجودين في زمانه وهم: الخليل ويونس وسيبويه، في أغلب الظن، وقد كان يحضر هذه الحلقات ولاسيما حلقة الخليل الذي تعرف عليه فيها وأخذ منه كتاباً واستفاد منه. ويلاحظ أن هذه الروايات لم

تتص على اسم الكتاب الذي تحدث عنه الرؤاسي بقوله كتابي، ولم تقل الرواية أنه كتاب: "الفصل" كما لم تتص على أنه قال "كتاب في النحو" مثلاً، ومعنى هذا أنه قد يكون للرؤاسي كتاب في النحو هو "الفصل" إلا أنه له كتباً لغوية أخرى، وإن الخليل أخذ عنه أحد كتبه ووضع عليه كتابه "العين" ولم يذكر أحد أن للخليل كتاباً معروفاً في النحو، فانص على كتابه يعني "العين" فيما اذهب إليه، ويعني أن الخليل هو المستفيد، أما تعليق أخي الشافعي بـ "وفي كتاب سيبويه..." فقد كان تحلية للخبر وتأكيداً له، وربما يكون بغير دليل. والذي يرجح لديّ أنه أقرب إلى العقل والصحة، قول المرزباني بعد هذا مباشرة "وهو أول من وضع النحو من الكوفيين" ولو كان الكتاب الذي تحدث عنه قبل هذا في النحو لقدم هذه العبارة عليه، ولأنه مع تعدد من قال بأن الخليل طلبه واستفاد منه في كتابه فأنهم يصدرون عن قائل واحد نقل عنه ابن النديم هو أبو الطيب أخو الشافعي وهو الذي علق على قول الكسائي بقوله "وفي كتاب سيبويه: قال الكوفي، يعني الرؤاسي"، ويؤيدني فيما أقول - وأن عُدّ قولي غريباً لكثرة الروايات التي تثبت أنه في النحو - أن المبرد قال: "ما عرف الرؤاسي بالبصرة، وقد زعم بعض الناس أنه صنف كتاباً في النحو فدخل البصرة ليعرضه على أصحابنا فما التفت إليه، ولم يجسر على إظهاره لما سمع كلامهم"^١. وهذا يدل على أن كتاب النحو الذي لم يلتفت إليه غير الكتاب الذي أخذه الخليل واستفاد منه. والمبرد أقرب الرواة زمنياً منهما، وهو ثقة يصح الاعتماد على قوله إلا إن كان التعصب للبصريين هو الدافع إلى ما ذهب إليه. ومع هذا فإنه لن يغير من الواقع شيئاً. وقد جاء أبو الطيب اللغوي برواية عن أبي حاتم يصف فيها الرؤاسي بأنه "مطروح العلم ليس بشيء". ومهما يكن أمر الكتاب الذي أخذه الخليل ومهما تكن

^١ - انباه الرواة ١٠٣/٤.

استفادته من فإننا لا نستطيع أن ننكر أن أبا جعفر الرؤاسي كان على علم بالنحو،
وإنه أول الكوفيين عناية به بعد هذه الأقوال، وبعد ما حكاه الأنباري من أن الفراء
ذهب إلى بغداد بتحريض من الرؤاسي الذي لم يكن يريد بقاء الفراء في الكوفة
منافساً له، فقال له: لقد خرج الكسائي إلى بغداد وأنت أميز منه. يقول الفراء: "فجئت
إلى بغداد فرأيت الكسائي فسألته عن مسائل الرؤاسي فأجابني بخلاف ما عندي
فغمزت قوماً من علماء الكوفة كانوا معي فقال: ملك قد انكرت؟ لعلك من أهل
الكوفة. فقلت: نعم، فقال: الرؤاسي يقول كذا وكذا وليس صواباً، وسمعت العرب
تقول: كذا وكذا. حتى أتى على مسائلي، فلزمته" فهذه الرواية تشير إلى أن أبا
جعفر الرؤاسي تكلم في النحو وكانت له مسائل كثيرة بدلالة قول الفراء: "فسألته عن
مسائل من مسائل الرؤاسي".

وإن هذه المسائل أخذها الكسائي عنه كما أخذها الفراء بعده، إلا أن الكسائي
كان قد سافر إلى البصرة بعد أخذه عن الرؤاسي وجلس في حلقة الخليل وأخذ عنه
علماً كثيراً وخرج إلى البادية وشافه الأعراب فصحح ما كان أخذه عن الرؤاسي وهو
في بغداد التي رحل إليها أثر عودته من البادية. وتخطئة الكسائي لا تعني أن ليس
للرؤاسي نحو، وقد كانت آراؤه تتداول في مجالس الدرس في بغداد ويقارن الدارسون
بينها وبين آراء شيوخ الكوفيين، روى القفطي أن شيخاً كان يتوكأ على عصاً دخل
حلقة أحمد بن يحيى ثعلب وسأله عن مسألة فقال ثعلب: قال أبو جعفر الرؤاسي فيها
كذا، وقال الكسائي فيها كذا، وقال هشام فيها كذا، وقلت أنا فيها كذا...^٢ وله آراء

١ - نزهة الالباء ٣٥، وانباه الرواة ١٠٠/٤.

٢ - انباه الرواة ١٥٧/٣.

نحوية وصرفية ماثورة في كتب التراجم تدل على مشاركته فيها^١ ولهذا عدوه شيخ المدرسة الكوفية ومؤسسها^٢.

هذه أقوال القدماء في علم أبي جعفر الرؤاسي بالنحو، ولكن أقوال المحدثين لا يثبت معظمها للرؤاسي هذه المنزلة التي ارتأها القدماء، وهم أقرب منا زماناً إليه، وأصبحوا فيه فريقين، الأول يثبت له هذه الرئاسة وممن يمثله الشيخ محمد الطنطاوي الذي عدّه في الطبقة الأولى من الكوفيين ومؤسس مدرسة الكوفة النحوية^٣.

وذكر بروكلمان رواية القدماء بأنه مؤسس مدرسة الكوفة ولم يعلق عليها مما يوحى باقتناعه^٤ بها. وأيد الأستاذ أحمد أمين نشوء مدرسة كوفية على رأسها الرؤاسي والكسائي والفراء^٥، وعدّه الدكتور يوسف خليف أستاذ المدرسة الكوفية مع قول البصريين فيه أنه مطروح العلم^٦ وذكر الدكتور أحمد مكي الأنصاري مثل ذلك^٧. ويمثل الفريق الراض لفكرة أن الرؤاسي مؤسس هذه المدرسة عدد من الباحثين منهم الدكتور شوقي ضيف الذي يرى أن النحو "إنما بدأ بدءاً حقيقياً بالكسائي وتلميذه الفراء فهما اللذان رسما صورة هذا النحو ووضعاً أسسه وأصوله وأعداه بحذقهما وفطنتهما لتكون له خواصه التي يستقل بها عن النحو البصري، مرتبين لمقدماته

^١ - ينظر انباه الرواة ١٠٣/٤ و ٩٩ وبغية الوعاة ٨٣/١، ونور القبس ٢٧٩ ومعاني القرآن للفراء ٩/١.

^٢ - ينظر طبقات النحويين واللغويين ١٣٥ ومعظم المصادر التي ترجمت له.

^٣ - ينظر نشأة النحو ٩٠ و ٣٠.

^٤ - ينظر تاريخ الأدب العربي ١٩٧/٢.

^٥ - ينظر ضحى الإسلام ٢٩٤/٢.

^٦ - ينظر حياة الشعر في الكوفة ٢٦٢-٢٦٣.

^٧ - ينظر أبو زكريا الفراء ٣٥٧-٣٥٨.

ومدققين في قواعده ومتخذين له الأسباب التي ترفع بنيانه"^١، والدكتور مهدي المخزومي الذي كا أكثر المحدثين معارضة لفكرة كون الهراء أو الرؤاسي مؤسس مدرسة الكوفة النحوية ولهذا ردّ على القدماء مجرد مزاعم تطلق، وإن الذين أشأؤوها الكوفيون بعد المنافسة بينهم وبين البصريين، ورد على الذين رأوا الرؤاسي مؤسس المدرسة الكوفية بأن كل ما قيل مبالغات دفع إليها التنافس بين المدرستين في زمن المبرد وثعلب، وإن الكوفيين هم مصدر هذه المزاعم، وأنه لم يقف على آراء للرؤاسي أو أقوال نحوية يستطيع بها الدارس أن يكون منها رأياً واضحاً أو فكرة معينة عن منزلته العلمية، وليس هناك إلا القليل النادر^٢. وانتهى إلى القول بأننا "لا نعلم كوفياً كان نحويّاً بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة قبل الكسائي، فلا معاذ الهراء ولا أبو جعفر الرؤاسي ممن نصنفهم في طبقة المؤسسين لهذه المدرسة النحوية الناشئة، ولم نسمع أن أحداً من الكوفيين تخرج بهما أو اكتفى بما تلقاه عنهما، وعرف بنحو خاص استمده منهما لا ينتمي إلى نحو أهل البصرة، والكسائي والفراء، وهما عماد المدرسة الكوفية إنما عرفا النحو الإصطلاحي بدراستهما نحو البصرة، وتخرجهما بشيوخ بصريين"^٣.

فقول الدكتور شوقي ضيف والدكتور مهدي المخزومي بأن الكسائي شيخ المدرسة الكوفية ولا يعني أنه لم يكن هناك نحاة قبله، فقد رأينا عدداً من الدارسين سمي كل منهم كوفياً ولم تصل إلينا آراؤهم، إلا أن بعضهم أخذ عن بعض حتى

^١ - المدارس النحوية ١٥٣-١٥٤.

^٢ - ينظر مدرسة الكوفة ٨٧-٨٨ و ٩٦-٩٨ و ١٠١-١٠٢ و ٩٨-١٠٣،

^٣ - مدرسة الكوفة ٨٧-٨٨.

اتصلت حلقتهم بمعاذ الهراء وأبي جعفر الرؤاسي اللذين كانا أول من نقل عن القدماء عدّهم إياهما من مؤسسي المدرسة الكوفية واتضحت للرؤاسي - آراء و قراءات و أقوال نحوية وصرفية، إلا أننا نعد الكسائي والفراء قمة النضج والتكامل في النحو الكوفي كما كان الخليل قمة نضج النحو البصري وشيخ المدرسة البصرية فقد طور هذان الكوفيان النحو البصري وجددا في منهج درسه وفي كثير من مصطلحاته.

خصائص التحليل النحوي الكوفي

"مرحلة النمو والنضج"

١- كان الكسائي أول من تنبه على أن ما عند المؤدبين والمعلمين من النحاة الكوفيين أمثال معاذ والرؤاسي لا يمثل النحو العربي الذي ظهر في البصرة وبلغ أوج نضجه واكتماله على يد الخليل وسيبويه ووجد أن علمهم بالنحو ما زال قاصراً عن أن يفي بحاجة الدراسات القرآنية التي كان مهتماً بها منصرفاً إليها عاملاً على أن يفيها حقها من الفهم والضبط والتفسير. ولهذا فقد شد الرحال إلى البصرة مدينة النحو وعلوم العربية الأخرى وحضر حلقات الدرس فيها على اختلافها لكنه اقتصر بعد حين على حلقة الخليل لما رآه عنده من علم لا ينضب وجديد لا ينتهي فأعجب به وبنحوه وبما حفظه من شواهد لغوية كانت عدته في هذا الدرس وفي تثبيت أصوله واستنباط قواعده ووضع أقيسته. فاستقر منه عن مصادر علمه، وعرف أنه من بوادي الحجاز ونجد وتهامة

فاقتدى بشيخ النحو وخرج إلى البادية يسمع أعرابها ويدون ما يسمع ثم عاد بكل هذا المسموع المدون إلى البصرة ليعرضه على الخليل لكنه لم يجده، فقد رحل وخلف يونس على حلقة فجلس فيها ورجع منها إلى الكوفة بلده الأصلي لينشر ما أخذه من الخليل، وليدرس ما وصل إليه من لغة جديدة يستنبط منها ما فيها من ظواهر وأساليب تعبيرية إعرابية وصرفية وصوتية، وقبل أن يستتر به الحال في الكوفة أوعز إليه بالسفر إلى بغداد حيث طلبه الخليفة المهدي ليسأله في مسألة نحوية صرفية، فأعجب به وجعله مؤدباً للرشد ثم جعله الرشد مؤدباً للأمين والمأمون من بعده. واستقر في بغداد يوسع سماعه عن يرد إلى مجالس الخلفاء من الشعراء والخطباء والأدباء والأعراب، ويسمع عن يجاور بغداد من قبائل سكنت في الحواضر فسدت ألسنتها بهذه المجاورة أم لم تقسد. فتجمع لديه من هذه محصول كبير ومادة لغوية كثيرة أضيفت إلى ما كان عنده مما سمعه من أعراب الكوفة وشعرائها - فقد كان للكوفة عناية بالشعر وروايته وكان بعض رواة اللغة من البصريين يرحلون إلى الكوفة للسمع عن شعرائها - وقد كان للكسائي حلقة في مسجد الكوفة روي أنها أكبر الحلقات وأكثرها طلاباً. كان يتلو عليهم القرآن وهم يسمعون ويضبطون عنه^١، وكان الشعراء والأدباء يفدون إلى حلقة للاستماع والاستفادة والرواية والانشاد. ولم يكن الكسائي الوحيد من علماء الكوفة الذي رحل إلى البصرة وأخذ عن شيوخها ثم عا ووسع سماعه في اللغة وإنما تتبع تلميذه الفراء خطاه فرحل إلى البصرة وسمع من يونس بن حبيب شيخ البصرة في أيامه، ولقي في حلقة من لقي من الرواة واللغويين والشعراء ولأدباء وعاد إلى الكوفة واسقر فيها وأخذ

^١ - النشر في القراءات العشر ١/١٧٣. وينظر نزهة الالباء ٤٢ وما بعدها.

بوسع روايته من أشعار ولغة اختصت بها الكوفة. فنما ما عنده من مسموع غير مدروس كما نما ذلك عند شيخ الكسائي قبله. وكان يتنازع الكسائي منهجان أحدهما: ما شب عليه ونشأ وهو منهج مقيد بالنقل والرواية وليس للعقل أو يحكمونه فيما روي من قراءات لأن عمادهم السماع والأخذ به كما ورد عن الرسول الله صلى عليه وسلم. ومنهج مقيد بالعقل يحاول اخضاع المسموع لأحكامه وهو منهج علماء النحو القائم على القياس وتنظيم ما تشابه من ظواهر ودراستها دراسة عقلية ووضع الأحكام والأصول التي تحكمها وتقيدها ولهذا فقد اتخذ له منهجاً وسطاً بين المنهجين اتضح في اختياره قراءاته من بين قراءات كثيرة جميعها تعتمد النقل، إلا أنه حكّم مقاييس النحاة في التمييز بينها، وحكم الرواية والسماع في منهج درسه اللغوي النحوي فوسع مسموعه من لغات الاعراب المحيطين بالكوفة وبغداد حتى قال فيه البصريون: "قدم علينا الكسائي فلقى عيسى والخليل وغيرهما، وأخذ منهم نحواً كثيراً ثم صار إلى بغداد فلقى أعراب الحطمة، فأخذ عنهم الفساد من الخطأ واللحن، فأفسد بذلك ما كان أخذه بالبصرة كله"^١ ولم يكونوا يدركون أن للقراءة ومنهجه فيها أثراً فيما مال إليه من توسيع روايته. وهكذا كان لهذين الشيخين الكوفيين اللذين وضعاً أسس المنهج النحوي الكوفي وقواعده أثرهما في تغيير منهج الدرس عما كان عليه عند البصريين وكان هذا التوسع في السماع والرواية أول ما اتصف به منهج الكوفيين من تطور عن المنهج البصري ولهذا عابوهم عليه.

^١ - معجم الأدباء ١٩٠/٥.

٢- أما التطور الثاني فقد بدا في موقفهم من القياس حيث أدى بهم هذا المسموع إلى تغيير كثير من الأقيسة التي وضعها البصريون وعدوها مقدسة لا تتقضى ولا تغير ولا تخالف تبعاً لما سمعوه بعد وضعها من ظواهر، وذلك لأنهم لم يضعوها إلا بعد أن خرجوا إلى البوادي وشافوها العرب وجمعوا كل ما وجدوه عندهم وعند غيرهم ممن يرد إلى المريد أو ما روه عن شعراء الكوفة وكوّنوا حصيلة لغوية وجدوها كافية للدرس وبناء القواعد والأقيسة على ما وجدوه في هذا المسموع الذي كان من أول شروطه عندهم الفصاحة والنقاء. ثم الكثرة والأطراد والشمول، ولما لم تكن أقيستهم وأصولهم قد وضعت إلا بعد تفكير وموازنة وتدبر ولم توضع ارتجالاً واعتباطاً لم يجيزوا تغييرها أو الاستدراك عليها بما يجد من صور قليلة واردة عن الفصحاء أو كثيرة مأخوذة عن غيرهم. ولهذا عدوا ما جاء في لغاتها مسموعاً أو نادراً، وإن قل وفارق ما عليه بقية بابه وانفرد عن ذلك إلى غيره عدّوه شاذاً، وسمى ياقوت الشاذ: بالخطأ واللحن^١، وإن قل وكان لغة قبيلة فصيحة لكنها لم تشع عدّوه لغة واستخدموها إلا أن غيرها أفضل منها، فإن وقع وكان مما يكثر في الشعر أو يقل ولم يرد في النثر فهو الضرورة ولهذا كثرت عند البصريين الضرورات والشواذ واللغات وما عدوه مما يسمع ويحفظ ولا يقاس عليه مع كونه لغة قبيلة عربية فصيحة إلا أنها مع فصاحتها ليست لغتها من الشيوخ والكثرة بمنزلة المقيس عليها وهذا ما أشار إليه الباحثون من القدماء والمحدثين بأعداد البصريين بالقياس، أي احترامهم لما وضعوه من أقيسة على ما أطردهم وشاع وكان لغة قوم فصحاء أما

^١ - معجم الأدباء (ترجمة الكسائي ١٩٠/٥) وينظر في معنى الشاذ: ظاهرة الشذوذ في النحو العربي ١٧ وما بعدها.

الكوفيون فقد كسروا هذه القاعدة البصرية، ولم يهتموا بهذا التقديس الذي فرضه البصريون لأقيستهم، بعد أن وجدوا في اللغة التي جمعوها ظواهر وردت في مجموعة كبيرة من الشواهد وجدت عند البصريين وعدوها من المسموع أو استنبطوها من اللغة التي لم يسمعها البصريون ولم يطلعوا عليها إما لعدم اعتدادهم بلغات الناطقين بها، أو لأنها لغات قبائل تسكن في مناطق لم يمتد إليها سماع البصريين وروايتهم. درس الكوفيون هذه المادة الجديدة ووضعوا لها أقيسة جديدة أطلقوا بها الاستعمال، ولم يكتفوا بهذا بل توسعوا في القياس على كل ظاهرة واردة في هذا المسموع إن اقتنعوا بصحتها وجواز القياس عليها، ولهذا كثير أقيستهم على ما ورد لأن النحو عندهم ابتاع لكل ما سمع والقياس عليه وهذا منهج الكسائي الذي يقول:

إنما النحو قياس يتبع وبه في كل علم ينتفع

ولهذا قال قائل البصريين: إن الكسائي كان يسمع الشاذ الذي لا يجوز من الخطأ واللحن وشعر غير أهل الفصاحة والضرورات فيجعل ذلك أصلاً يقيس عليه حتى أفسد النحو^١. وبالغ الكسائي في أقيسته فأجاز وضع أقيسة لا تعتمد على مسموع في الظاهرة نفسها وإنما بناها على المشابة والمخالف والمعاكس. أما الفراء فقد خالف شيخه في هذا الموقف من القياس وكان يلتزم الكثرة فيما لم يكن لغة فصيحة ويأخذ بالشاهد الواحد أيضاً بشرط التأكد من فصاحة قائله وراويه، غير أنه لم يطلق القياس النظري الذي لا شاهد فيه، ولم يقس على كل ما ورد في اللغة المسموعة، واعترف بوجود نادر وشاذ ووهم، وما لم يسمع عن

^١ - ينظر معجم الأدباء ١٩٤/٥ و ١٩٠.

العرب من الظواهر النحوية والصرفية والصوتية وبهذا اختلف مع شيخه في كثير من الآراء والأحكام والأقيسة التي سنبين أمثلة منها.

٣- أما التطور الثالث فهو مبني على التطورين السابقين، وهو الأخذ بالقراءات الشاذة وإجازة القياس عليها تطبيقاً لما وضعوه من قاعدة القياس على كل مسموع فأى شيء أولى بالاتباع من هذه القراءات التي مهما بلغ شذوذها فلن تصل إلى ما أجاز الكسائي القياس عليه من أحاد الشواهد ومفردات الظواهر من غير تمحيص وتدقيق. وهي على كل حال أصل موجود ثابت تداوله الناس وهي أفضل وأصح في القياس عليه من أن يفترضوا الأقيسة افتراضاً بلا برهان أو دليل مما عدّه بعض الباحثين تطوراً جاء به الكوفيون لأجل مخالفة البصريين حسب، وليس وراءه دافع آخر ليباهوا بهذه المخالفة ويثبتوا للنحو الكوفي آراءاً كثيرة منهجاً جديداً ونحواً متطوراً عن نحو البصريين الموضوع على القواعد الدقيقة المحكمة التي لا يفسدها شذوذ، مما أدى إلى اختلاط قواعدهم وتشويشها^١. قال الدكتور شوقي ضيف: "إن المدرسة الكوفية توسعت في الرواية وفي القياس توسعاً جعل البصرة أصح قياساً منها.. وهذا هو السر في استمرار نحو البصريين وثبوته وبقائه مسيطراً على مجالس الدرس النحوي حتى يومنا هذا^٢."

٤- وتطور النحو الكوفي تطوراً آخر واضحاً وذلك في وضع مصطلحات خاصة به لمسائل النحو والصرف وفروعهما أو لأبوابهما يبدو أنهم رأوها أقرب دلالة على صفات ما اصطالحوا عليه من مصطلحات البصريين مثل تسميتهم

^١ - ينظر رأي الدكتور شوقي ضيف هذا في المدارس النحوية ١٩٥ و ١٦١ وما بعدها.

^٢ - المدارس النحوية ١٦٣ وينظر ١٦١.

التمييز - تبييناً وتفسيراً، والصفة نعتاً، والمضارع مستقبلاً، والعطف نسقاً، والنفي جحداً والمصروف ما يجري وغير المصروف ما لا يجري، والبدل ترجمة، والجر خفضاً، والضمير مكنياً أو كناية، وضمير الفصل، وضمير الشأن: المجهول أو العماد، وحروف الجر: حروف الصفات، والحال قطعاً وغير ذلك من المصطلحات التي كان للبصريين ما يقابلها، وربما كانت هذه المخالفة في التسميات للتوضيح والتسهيل، وربما كانت لمجر المخالفة، ولإثبات وجود بارز للنحو الكوفي، علماً بأن الكثير من هذه المصطلحات قد استعملها سيبويه بالصيغ نفسها أو بصيغة فعلية يشرح بها المقصود بالباب، ومن المصطلحات ما لم يكن له مصطلح يقابله في النحو البصري وإنما كانت الظاهرة الإعرابية التي أطلق عليها هذا المصطلح متفرقة في أبواب متعددة من النحو البصري وذلك مثل مصطلح "الخلاف" أو "الصرف" وهو عامل النصب عند الكوفيين في أبواب متعددة منها: نصب الظرف الواقع خبراً في مثل "زيد أمامك" ونصب المفعول معه في مثل: "استوى الماء والخشبة" و "لو تركت الناقة وفصيلها لرضعها" و "لو تركت والأسد لأكلك" وهو الناصب للفعل أيضاً بعد "الواو" و "الفاء" و "ثم" في جواب النفي والطلب وبعد "أو" مما عده البصريون منصوباً بـ "أن" مضمرة في مثل "لا تته عن خلقٍ وتأتي مثله" و "لأستسهلن الصعب أو أدرك المنى" و "ما تأتينا فتحدثنا" وأمثالها^١. ويبدو أن القول بهذا المصطلح مأخوذ من إشارات سيبويه في أبواب متعددة إلى مخالفة المنصوب لما قبله ومغايرته له، وذلك في "باب ما ينتصب لأنه قبيح أن يكون صفة" و "باب ما ينتصب لأنه ليس من اسم الأول ولا هو هو"، ومثل للأول بـ

^١ - ينظر معاني القرآن ١/٣٣-٣٤. و ٣٤-٣٥ و ٢٣٥-٢٣٦.

"هذا راقود خلا" وللثاني ب"هو جاري بيت بيت" و "باب ما ينتصب على أنه ليس من اسم الأول ولا هو و" ومثل له ب "هذا عربي محضاً"، قد قال بعد ذكرها: "اعلم أن جميع ما ينتصب في هذا الباب ينتصب على أنه ليس من اسم الأول ولا هو هو"^١ واتضح في قول الخليل: "لا يكون المستثنى فيه إلا نصباً لأنه مخرج مما ادخلت فيه غيره"^٢. غير أن سيبويه ذهب إلى البحث عن عامل له في العبارة مع قوله بمخالفته لما قبله، وعد الكوفيون الخلاف هو العامل فهو عامل معنوي يؤدي إلى النصب، وهو نفسه الذي سماه الفراء: "الصرف" أيضاً من حيث المعنى، قال في شرحه قوله تعالى: "ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون" "إن شئت جعلت "وتكتموا" في موضع جزم تريد به "ولا تلبسوا الحق بالباطل ولا تكتموا الحق"... وإن شئت جعلت هذه الأحرف المعطوفة بالواو نصباً على ما يقول النحويون من الصرف"^٣. ثم أوضح "الصرف" بقوله: "فإن قلت" وما الصرف؟ قلت أن تأتي بـ "الواو" معطوفة على كلام في أوله حادثة لا تستقيم إعادتها على ما عطف عليها، فإذا كان كذلك فهو الصرف كقول الشاعر:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

ألا ترى أنه لا يجوز إعادة "لا" في "وتأتي مثله" فلذلك سمّي "صرفاً" إذ كان معطوفاً ولم يستقم أن يعاد فيه الحادث الذي قبله. ومثله من الأسماء التي نصبتها العرب وهي معطوفة على مرفوع قولهم: "لو تُركت والأسد لأكلك" و "لو خُلِيت ورأيك لضللت" لما لم يحسن في الثاني أن تقول: "لو تُركت وتُرك رأيك

^١ - ينظر الكتاب ١١٧/٢ و ١١٨ و ١٢٠ و ١٢١.

^٢ - الكتاب ٣٣٠/٢.

^٣ - سورة البقرة ٤٢ ومعاني القرآن ٣٣/١-٣٤.

لضللت"، تهيبوا أن يعطفوا حرفاً لا يستقيم فيه ما حدث في الذي قبله...^١. هذا في الاسم، وقد تحدث الفراء عنه في الفعل وذلك عند شرحه قوله تعالى: "ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين" فقال: "فخض الحسن" ويعلم الصابرين" يريد الجزم، والقراء بعد ذلك تنصبه وهو الذي يسميه النحويون "الصرف" كقولك: "لم آتِه وأُكْرِمَهُ إلا استخف به" و "الصرف أن يجتمع الفعلان بالواو أو ثم أو الفاء أو "أو" وفي أوله جحد أو استفهام ثم ترى ذلك الجحد أو الاستفهام ممتنعاً أن يكر في العطف، فذلك "الصرف" ... وكذلك يقولون: "لا يسعني شيء ويضيق عنك"، ولا تكرر "لا" في "يضيق" فهذا تفسير الصرف.^٢ ومصطلح "التقريب" واختصوا به اسم الإشارة المتبوع باسم معرفة بعده نكرة منصوبة على أنها حال عند البصريين وباسم الإشارة الذي سموه "التقريب" عند الكوفيين، فهم يعدونه عاملاً عمل "كان" وأخواتها وذلك في مثل قوله تعالى: "هذا بعلي شيخاً"^٣ قال الفراء: "... وكقوله في حرف عبدالله: "أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخ" وهو في قراءتنا "شيخاً".. واعلم أن "هذا" إذا كان بعد اسم فيه الألف واللام جرى على ثلاثة معان: أحدها: أن ترى الاسم بعد "هذا" كما ترى "هذا" إذا كانا حاضرين، ولا يجوز ها هنا النصب. والوجه الآخر: أن يكون ما بعد "هذا" واحداً يؤدي عن جميع جنسه، فالفعل حينئذ منصوب، كقولك: "ما كان من السباع غير مخوف فهذا الأسد مخوفاً" ألا ترى أنك تخبر عن الأسد كلها بالمخوف؟

^١ - معاني القرآن ٣٣/١-٣٤.

^٢ - آل عمران ١٤٢ ومعاني القرآن ٢٣٥-٢٣٦ وينظر ٣٤-٣٥.

^٣ - هود ٧٢.

والمعنى الثالث: أن يكون ما بعد "هذا" واحداً لا نظير له فالفعل حينئذ أيضاً منصوب، وإنما نصبت الفعل لأن "هذا" ليست بصفة للأسد وإنما دخلت تقريباً، وكان الخبر بطرح "هذا" أجود، ألا ترى أنك لو قلت: "ما لا يضر من السباع فالأسد ضار" كان أبين؟ وأما معنى "التقريب" فـ "هذا" أول ما أخبركم عنه، فلما يجدوا بُدأ من أن يرفعوا "هذا" بـ "الأسد" وخبره منتظر، فلما شغل "الأسد" بمرافعة "هذا" نصب فعله الذي كان يرافعه لخلوته، ومثله: "والله غفور رحيم"^١ فإذا ادخلت عليه "كان" ارتفع بها والخبر منتظر يتم به الكلام فنصبته لخلوته".^٢

ومصطلح "الدائم" أو "الفعل الدائم" ويعنون به "اسم الفاعل" العامل عمل فعله، حيث عدوه قسيماً للاسم والفعل عندهم، ودل عليه قول الفراء "قال الكسائي في إدخالهم "أن" في "مالك": هو بمنزلة قوله: "ما لكم ألا تقاتلوا؟" ولو كان ذلك على "قال" لجاز في الكلام أن تقول: "مالك أن قمت؟" و "مالك أنك قائم؟". وذلك غير جائز لأن المنع أنما يأتي بالاسقبال، وتقول: "منعتك أن تقوم" ولا تقول: "منعتك أن قمت" فلذلك جاءت في "مالك" في "المستقبل" ولم تأت في "ماض" ولا "دائم"^٣ فالمستقبل المضارع "تقوم" والماضي "قمت" والدائم اسم الفاعل منهما ولم يمثل له.

^١ - جاءت في آيات كثيرة منها: سورة البقرة ٢١٨ و ٢٢٥ وآل عمران ٣١ و ٢١٢٩ والمائدة ٧٤.

^٢ - معاني القرآن ١٢/١-١٣ وننظر في مثل هذا مجلس ثعلب ٤٢/١ والخزانة ٣٥٩/١-٣٦٥، ٤٣/١ هـ من مجالس ثعلب ومعاني القرآن ٢١/٢٣١-٢٣٢.

^٣ - معاني القرآن ورقة ٢٠ نقلاً عن مدرسة الكوفة ٢٧٧-٢٧٨ ولم استطع العثور على هذا النص في معاني القرآن المطبوع وينظر في تسميته "الفعل" مجالس ثعلب ٤٧٧/٢.

هذه أهم المصطلحات التي بدا لنا ذكرها، وهناك مصطلحات أخرى دلت على تطور الدلالات والتسميات في النحو الكوفي و أوجدت له هيكلاً خاصاً به يختلف عما كان عليه عند البصريين.

٥- وآخر ما يلاحظ من تطورات في النحو الكوفي تركهم القول بالتأويل البعيد والتعليل الذي اضطر إليه البصريون عندما وجدوا أن شواهد كثيرة من قراءات آيات الله البينات أو من الشعر الفصيح الصحيح الذي لا يمكن أن يقع الخطأ من قائله، أو في عبارات واردة عن العرب الفصحاة، قد خالفت أقيستهم التي وضعوها والتزموا بها ولم يكن من مبدئهم كسرهما أو الاستدراك عليها، في حين لم يحتج إليه الكوفيون لأنهم جعلوا باب القياس مفتوحاً يدخلون فيه ما أرادوا مما عدوه مقيساً.

٦- إن النحو الكوفي قد تطور في أمور أخرى غير ما ذكرناه منها: أقسام الكلام وتأصيلها، فقد خالف الكوفيون البصريون في ما قسموا إليه الكلام، ونحن نعرف أنها ثلاثة عند البصريين، وهي الاسم والفعل والحرف، وجعلها الكوفيون ثلاثة أيضاً هي: الاسم والفعل والاداة. وقد آمنوا في تسميتهم الحرف الدال على معنى - عاملاً كان أم غير عامل - "الأداة" الالتباس الذي قد يقع بين حرف الهجاء وحرف المعنى، وقسم البصريون الفعل إلى ماضٍ ومضارع وأمر، أما الكوفيون فقسموه إلى ماضٍ ومستقبل ودائم. فالمستقبل المضارع والآخر، لأن الأمر عندهم هو المضارع المسبوق بـ "لام الأمر" يوضح ذلك قول الفراء في تفسيره قوله تعالى: "قل بفضل الله ورحمته فبذلك فليفرحوا": هذه قراءة العامة، وقد ذكر عن زيد بن ثابت أنه قرأ: "فبذلك فلتفرحوا" أي: يا أصحاب محمد - بالتاء وقوي قول زيد أنها في قراءة أبي: "فبذلك فافرحوا" وهو البناء الذي خلق

للأمر إذا واجهت به أو لم تواجهه، إلا أن العرب حذفت "اللام" من فعل المأمور المواجه لكثرة الأمر خاصة في كلامهم فحذفوا "اللام" كما حذفوا "التاء" من الفعل، وأنت تعلم أن الجازم أو الناصب لا يقعان إلا على الفعل الذي أوله "الياء" و "التاء" و "النون" و "الألف" فلما حذفت "التاء" ذهب باللام وأحدثت "الألف" في قولك: "اضرب" و "افرح". لأن "الضاد" ساكنة فلم ييسقم أن تستأنف بحرف ساكن، فأدخلوا "ألفاً" خفيفة يقع بها الابتداء كما قال: "اداركوا" و "اثاقلتم"^١. وكان الكسائي يعيب قولهم: "فلتفرحوا" لأنه وجده قليلاً فجعله عيباً، وهو الأصل، ولقد سمعت عن النبي ﷺ أنه قال في بعض المشاهد: "لتأخذوا مصافكم" يريد: "خذوا مصافكم"^٢. وهذا القول للفراء ولا يراه الكسائي ومع ذلك عد رأي الكوفيين، لأن الفراء ونحوه يثملان الكوفيين لأنهما قمة النحو الكوفي كما يمثل الخليل أو سيبويه البصريين لذلك.

أما عدهم اسم الفاعل فعلاً قسيماً للماضي والمستقبل فقد جاء في مواضع كثيرة في كتب الكوفيين وآرائهم من ذلك قول ثعلب: "وأملى علينا: إذا قلت: "ما فيك راغب زيد" و "ما طعامك أكل زيد" كان الاختيار هكذا الرفع، لأن "الفعل" أولى بالجد من المفعول والصفة، وكان كأن "الفعل" مع الجحد فإذا أدخلوا "الباء" فيهما كان قبيحاً، لأنه قد جاء الاسم بعدهما لأنه لما جاء ثانياً احتاجوا إلى أن يعلموا أنه "الفعل"، وإنما تدخل "الباء" "للفعل" فإذا أخوا "الفعل" فقالوا: "ما طعامك زيد يأكل" و "ما فيك زيد براغب" ثم نزعوا "الباء" كان الاختيار الرفع، لأن "الباء" قد حالت بين الاسم و "ما" فكان "الفعل" معها، وكذلك اختاروا الرفع. فإن نصبوا فقالوا: "ما طعامك

^١ - الأعراف ٣٨. والتوبة ٣٨.

^٢ - معاني القرآن ٤٦٩/١ - ٤٧٠.

زيد آكلًا" و "ما فيك زيد راغبًا" لم يعبأوا بالصفة ولا المفعول لأنها من صلة "الفعل" فكأنهم قالوا "ما زيد آكلًا طعامك" و "ما زيد راغبًا فيك" ، وهذا النص وإن كانت كلمة "الفعل" فيه تعني "آكلًا" وهو اسم الفاعل إلا أنها توحى بأن المقصود بها الخبر. وقد جاء في مجالس العلماء من قول ثعلب ما يوضحه، قال ثعلب: "كلمت ذات يوم محمد بن يزيد البصري، فقال: كان الفراء يناقض: يقول "قائم" فعل، وهو اسم لدخول التثوين عليه. فإن كان "فعالًا" لم يكن اسمًا، وإن كان اسمًا فلا ينبغي أن تسميه فعالًا. فقلت: الفراء يقول: "قائم" فعل دائم، لفظه لفظ الأسماء لدخول دلالات الأسماء عليه، ومعناه معنى الفعل لأنه ينصب فيقال: "قائم قيامًا" و "ضارب زيدًا"، فالجهة التي هو فيها اسم ليس هو فيها فعالًا، والجهة التي هو فيها فعل ليس هو فيها اسمًا...؟ وسماه ثعلب "الدائم" فقال: "ولا يحال بين الدائم والاسم بـ "ما" "طعامك ما آكل عبدالله" قال: جائز في وقول الكسائي^٢. وهذا التقسيم عند الكوفيين لم يفد النحو تسهيلًا وتيسيرًا وإنما زاده إلbasاً وتعقيداً وبعداً في التقدير والتأويل للمحذوفات. ففي الحين الذي يذهب فيه البصريون إلى أن صيغة الأمر فعل قائم بذاته ويعربونه مبنياً على السكون أو ما ناب عنه، يذهب فيه الكوفيون إلى عده مضارعاً مجزوماً بلام الأمر التي حذفت للتخفيف وحذفت تاء المضارعة منعاً للالباس بالمرفوع وجيء بهمة وصل لبقاء الأول ساكنًا، وهذه اطالة في تعدد التغيير وتقدير المحذوفات. وكذا قول البصريين أن بناء "آكل" وما أشبهه في المثال السابق "اسم" وأنه اسم فاعل عامل عمل الفعل طرداً لباب عمل الأسماء عمل أفعالها من مصدر واسم مصدر واسم فاعل واسم مفعول وصيغة مبالغة وصفة مشبهة، وطردا للقول بأن الاسم يتميز

^١ - مجالس ثعلب ٤٧٧/٢. والصفة: الجار والمجرور. وصلة الفعل: معموله

^٢ - مجالس العلماء ٣٤٩-٣٥٠ و معاني القرآن ٤٢٠/٢، ومجالس ثعلب ٢٧١/١ وينظر ٤٤/١ ومدرسة الكوفة ٢٧٩.

بـ "أل" والتنوين والاضافة وكونه يُجمع ويثنى ويصغر ويقع فاعلاً ومفعولاً وما إلى ذلك من خصائص الأسماء كلها تدخل "اسم الفاعل" مع الأسماء الأخرى لتمييزه بقبول هذه العلامات، ولكي لا يتحير الباحثون في عدّه اسماً مرة وعده فعلاً أخرى، مع عدم استقرار قوله هذا.

ومن البحوث التي تطورت عندهم موقفهم من العامل النحوي، فقد قال البصريون بالعامل النحوي في كل ظاهرة تمر بهم مما يجدون فيه معمولاً وليس في الكلام عامل فيها، أو يجدون فعلاً عاملاً وليس معه معمول، ولهذا قالوا: بأنه لا بد لكل معمول من عامل إن لم يكن ظاهراً فهو مقدر. في حين أجاز الكوفيون مجيء أسماء وأفعال كثيرة منصوبة على المعنى لا بتقدير لفظ عامل كما رأينا في قولهم بـ "الخلاف" أو "الصرف". وذهب البصريون إلى أنه لا بد لكل فعل من فاعل ظاهر أو مقدر أو سمتتر ولا يجيزون كونه محذوفاً، وأجاز الكسائي خلو الفعل من الفاعل في باب التنازع إذا عمل ثاني المتنازعين في مثل "قام وقعد زيد". وقال البصريون بأنه لا يتوالى عاملان على معمول واحد. وأجازه الكوفيون في القول بأن الفعل والفاعل عملاً معاً في المفعول. وقال البصريون إن العامل لا يعمل من جهة واحدة في الظاهر وضميره، ولذلك عدوا الاسم المشغول عنه العامل في ضميره منصوباً بفعل محذوف وجوباً في قولنا "زيداً ضربته" أو مرفوعاً بفعل محذوف وجوباً في مثل: "وإن أجد من المشركين استجارك فأجزه...".^١ إلى آخر ما هنالك من مواضع يطول

^١ - التوبة ٦.

حصرها أدى إلى القول بها التزام البصريين بنظرية العامل، أما الكوفيون فقد تساهلوا في ذلك. هذا وغيره نمى النحو الكوفي وطوره منهجاً كما طوره مادة وآراءً.

خصائص التحليل النحوي عند الكوفيين التي تميزوا بها عن البصريين في الاستدلال والجمع والتنظير

أخذ الكوفيون ولاسيما شيخاهما الكسائي والفراء النحو من البصريين سواء بالرحلة إلى البصرة وحضور مجلس الخليل ويونس كما فعل الكسائي^١، أو حضور مجلس يونس كما فعل الفراء، أم بالاتصال بعلماء النحو البصري كالأخفش سعيد بن مسعدة الذي رحل إلى بغداد للأخذ بثأر سيبويه من الكسائي، فاستعماله هذا وأحرى له راتباً وجعله مؤدياً لأولاده واستفاد منه هو والفراء في الحصول على نسخة من كتاب سيبويه سرّاً، أم باطلاعهما على نحو شيوخ المدرسة البصرية بدءاً بعبد الله بن أبي اسحاق وانتهاء بيونس مجموعاً في كتاب سيبويه، وزادوا فيه. ولهذا فلم يكونوا قد عانوا ما عاني نحاة البصرة في سبيل تكوين هذا النحو وجمع لغته ودراستها واستنباط الظواهر منها والتمييز بينهما في القيمة والقوة وجمع المتشابه منها في أبواب معينة، وتحديد الأصول التي يسيرون عليها في كل هذا، وتقعيد الأقيسة وفرض الأحكام وما إلى ذلك مما يحتاج إليه أي علم في بداية نشأته. ووجد الكوفيون هذا كله بين أيديهم، فانصرفوا إلى أمور جديدة ميزت نحوهم بخصائص تفرد به عن النحو البصري بنوها على مادة مهيأة هي:

^١ - ينظر في ذلك: معجم الأدباء ١٨٤/٤ و ١٩٠ و ٣١٠/٧.

١- النحو البصري كما تلقوه عن عيسى بن عمر والخليل ويونس بن حبيب والأخفش وكما سمعوه في مجالسهم ودونوه عنهم، وكما وجدوه في كتاب سيبويه الذي كان لا يفارقهم، وكان الفراء ينام وهو تحت وسادته.

٢- لغات الأعراب التي اعتمد عليها البصريون في وضع قواعدهم وإرساء أصول نحوهم وهي متوافرة فيما أخذه الكوفيون عنهم وألفوا فيه مصنفاتهم وفيما أثبتته البصريون في مصنفاتهم اللغوية، وهي اللغات الفصيحة التي لم تختلط بلغات الحواضر^١.

٣- مادة لغوية مكونة من لغات القبائل الأخرى التي كانت تسكن بجوار الكوفة كتميم وأسد ونزار ومن جاور بغداد من أعراب الحطمية وغيرهم، وما جمعه الكسائي عند خروجه إلى بوادي الحجاز ونجد وتهامة مما لم يكن قد سمع بعضه البصريون.

٤- الشعر العربي الذي احتج به البصريون من شعر شعراء الطبقات الثلاث الأولى- الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين من طبقة جرير والفرزدق والأخطل ومن عاصرهم مضيفين إليه ما كان يروي في الكوفة من أشعار القبائل التميمية أو النزارية التي كان يتفاخر بها سكان الكوفة من العرب، وما كان يرويه الرواة في الكوفة من أشعار الطبقات الثلاث السابقة ومن أشعار المعاصرين ممن يحضرون مجالس الخلفاء والوزراء والولاة.

٥- الاحتجاج بالقراءات القرآنية مطلقاً متواترها وشاذها، لأن ذلك داخل في منهجهم المبني على التوسع في الرواية والأخذ بمعظم ما ورد في اللغة.

^١ - ينظر فيها: الاقتراح والمزهر في أبواب وفصول متعددة.

هذه هي النظرة العامة إلى موقف الكوفيين من القراءات، ونسب إلى البصريين في مقابل هذا تخطئة القراء ونسبة اللحن إليهم، وتوجيه الطعن إليهم، وقع هذا من القدماء، وربما كان ذلك صحيحاً في القراءات الشاذة التي كان شيوخ الاقراء ولاسيما ابن مجاهد أول من ضعّفها ومنع القراءة ببعضها وحرّم بعضها الآخر. أما في القراءة المتواترة فلم أجد ما يوحى بهذا - مع كثرة مراجعتي لكتاب سيبويه واطلاعي على آرائه واستشاداته بالقراءات، ومع تعدي جمع كل ما ورد في الكتاب من نصوص قرآنية صريحة متواترة قراءاتها أو غير متواترة وتصنيفها للعثور على ما وجه إلى سيبويه وشيوخه من تهم - ما يمكن أن يعد أساساً لمثل هذه الحملة الظالمة التي أرى أنها وجهت إليهم في عهد متأخر عن سيبويه وربما في عصر المبرد وثعلب نتيجة التنافس الشديد بين الشيخين، هذا التنافس الذي أدى إلى غلبة المذهب البصري وهيمنته على مجالس الدرس النحوي في بغداد وغيرها. وجاء المحدثون فتابعوا القدماء في ذلك من غير دراسة لمعرفة وجه الحق وأخذوا يكيلون التهم للبصريين ويمجدون الكوفيين بمناسبة وبلا مناسبة وإن كان فيهم بعض المنصفين الذين لم يحملوا كلام سيبويه في أبواب كتابه في منع بعض الظواهر النحوية أو الصرفية، ويفسروها بأنها موجهة إلى القراءات القرآنية توجيهاً خفياً وكان بعضها خطأ أو لحناً وكان بعضهم الآخر غير منصب كالدكتور أحمد مكي الأنصاري في كتابه عن القراءات، إذ فسّر كل حكم ذكره سيبويه أو أحد شيوخه وحكموا عليه بأنه لا يجوز أو ضعيف أو لحن أو خطأ بأنه موجه إلى قراءة من القراءات التي قد تكون معروفة في زمنهم أو لا تكون وإنما عرفت عند الكوفيين الذين اشتهر في بلادهم علم القراءات وعلم الفقه المستنبط من القرآن وقراءاته مع

اعتماد الرأي فيه وكان الدكتور مهدي المخزومي متابعاً لهؤلاء من غير نظر في كتاب سيبويه أو كما يسميه "نحو الخليل" قال متحدثاً عن موقف الكوفيين من القراءات: "والقراءات مصدر هام من مصادر النحو الكوفي، ولكن البصريين قد وقفوا منها موقفهم من سائر النصوص اللغوية وأخضعوها لأصولهم وأقيستهم فما وافق منها أصولهم ولو بالتأويل قبلوه وما أبأها رفضوا الاحتجاج به ووصفوه بالشذوذ كما رفضوا الاحتجاج بكثير من الروايات اللغوية وعدوها شاذة تحفظ ولا يقاس عليها. ولا ننسى موقفهم من ابن عامر مقرئ أهل الشام ونافع مقرئ أهل المدينة وحمزة مقرئ أهل الكوفة. فقد غلط البصريون ابن عامر في قراءته: "وكذلك زين كثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم"، بنصب "أولادهم" وخفض "شركائهم" لأنه فصل بين لمصدر المضاف إلى الفاعل بالمفعول، فقد منع ذلك جمهور البصريين ورموا ابن عامر بالجهل بأصول العربية ورفضوا الاحتجاج بقراءته، لأن الاجماع واقع على امتناع الفصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول في غير ضرورة الشعر، والقرآن ليس فيه ضرورة، وإذا وقع الاجماع على امتناع الفصل بينهما في حال الاختيار سقط الاحتجاج بها على حالة الاضطرار^١ ويكفي أن أرد على الدكتور المخزومي ومن قال بقولهم أو قالوا بقوله بأن البصريين الأوائل الذي ظهروا قبل الفراء والكسائي من شيوخ مدرسته الكوفية لم يصرحوا بالطعن على الفراء أو بنسبة اللحن أو الخطأ إلى الفراء، وكان القائلون بهذا يحملون نصوص كتابه وآراءه فوق ما تحمل وذلك ما لا يجوز، وإن كان سيبويه أو أحد من شيوخه قد قصد إلى ذلك وتخرج من الافصاح والتصريح فهو فضل أدب

^١ - مدرسة الكوفة ٣٨٤ وينظر ما بعدها، والبحر المحيط ٣٢٩/٤ والانصاف مسألة ٦٠.

منهم ودليل على إجلالهم كتاب الله وقراءه. أما الذين صرحوا بالتخطئة ونسبوا إلى القراء اللحن وإلى القراءات الخروج عن العربية، في الحقيقة فهم شيخا المدرسة الكوفية الكسائي والفراء، وقد عدت إلى "معاني القرآن" الذي كان المفترض في مؤلفه أن يتخرج من التخطئة والعيب على القراء ونسبة الوهم إليهم في كثير من هذه المسائل فوجدته هو وشيخه أول الرادين على القراءات ولا سيما التي نسب فيها القدماء هذه التهمة إلى البصريين وألصقوها بهم وهما اللذان فتحا للنحاة المتأخرين عنهما من كوفيين وبصريين باب هذا الطعن وسأمثل بقراءات آية واحدة لكي لا أطيل، وذلك قوله: "... وزعم الكسائي أنهم يؤثرون النصب إذا حالوا بين الفعل المضاف بصفة، فيقولون: "هو ضارب في غير شيء أخاه" يتوهمون إذا حالوا بينهما أنهم نونوا، وليس قول من قال "مخلف وعدّه رسله" ولا "زَيْنَ لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم" بشيء - وقد فسر ذلك، ونحويو أهل المدينة ينشدون قوله:

فَرَجَتْهُا مُتَمَكِّنَا زَجَّ القُلُوصَ أَبِي مَزَادَه

قال الفراء: باطل، والصوب "زَجَّ القُلُوصَ أَبُو مَزَادَه"^١ أفبعد هذه التخطئة الصريحة من الفراء وعدّه هذه القراءة المشبهة لرواية البيت باطلة، وتخطئة الكسائي لها وقوله فيها: "وليس قوله من قال... بشيء" يقول قائل إنهم احتجوا بالقراءات وقاسوا عليها إجلالاً لها؟ إن كانوا فعلوا ذلك فليس للتحرج والتأثم، وإنما لأن قواعدهم أوجبت عليهم الأخذ بكل مسموع فدخلت فيه القراءات. ولم يكن هذا هو الموضوع الوحيد الذي تعرض فيه لقراءة هذه الآية، وإنما تعرض لها في قوله: "... وكان

^١ - معاني القرآن ٨١/٢-٨٢ وسورة إبراهيم ٤٨. وهي في المصحف بجر "وعده" بالإضافة ونصب "رسله" وسورة الأنعام ١٣٧. وهي في المصحف... "زين" بالبناء للمعلوم وجر "أولادهم" بالإضافة ورفع "شركائهم" بالفاعلية.

بعضهم يقرأ: "وكذلك زَيْنٌ لكثير من المشركين قتل أولادهم" فيرفع "القتل" إذا لم يسم فاعله، ويرفع "الشركاء" بفعل ينوبه كأنه قال: زينه شركاؤهم^١، ومثله قوله: "يُسَبِّحُ له فيها بالغدو والآصال" ثم قال: "رجالٌ لا تلهيهم تجارة"^٢. وفي بعض مصاحف أهل الشام "وشركايمهم" - بالياء - فإن تكن مثبتة عن الأولين فينبغي أن يقرأ: "زَيْنٌ" وتكون "الشركاء" هم "الأولاد" لأنهم منهم في النسب والميراث، فإن كانوا يقرأون "زَيْنٌ" قلت أعرف جهتها، إلا أن يكونوا آخذين بلغة قوم يقولون: "أتيتها عشايا"^٣ ثم يقولون في تشية "الحمراء": "حمرايان" فهذا وجه أن يكونوا قالوا: "زَيْنٌ لكثير من المشركين قتل أولادهم شركايمهم" وإن شئت جعلت "زين" - إذا فتحته - فعلاً لإبليس، ثم تخفض "الشركاء" باتباع "الأولاد" وليس قول من قال: "إنما أرادوا مثل قول الشاعر:

فَرَجَّجْتُهَا مَتَمَكْنًا زَجَّ الْقُلُوصِ أَبِي مَزَادَةَ

بشيء، وهذا مما كان يقوله نحويو أهل الحجاز، ولم نجد في العربية^٤ وهكذا يعود شيخ النحو الكوفي الآخذ بالقراءات والمحتج بها إلى القول: "وليس قول من قال... بشيء" ولا يكتفي بهذا وإنما يقول بعده: "ولم نجد مثله في العربية"، أليس في هذا دلالة لذي نظر بعيد عن التعصب على أن الفراء أول من وصف القراءات بأنها لا وجه لها في العربية؟ ومعناها في الوقت نفسه أن القارئ بهذه القراءة أو القائل بها

^١ - وقد خرج سيبويه القراءة نفسها التخريج نفسه في الكتاب ٢٩٠/١.

^٢ - النور ٣٦ و ٣٧. وهي في المصحف "يُسَبِّحُ" بالبناء للمعلوم.

^٣ يعني بالبناء للمعلوم

^٤ أي لغة من لا يقبلون لام الناقص همزة بعد الألف الزائدة.

^٥ - ينظر معني القرآن ٢٥٢/١-٢٥٣ و ٨٦/٢ في آية آل عمران ١٣ والكتاب ٤٢١/١-٤٢٧ ومعاني

القرآن ٢٧٣/١-٢٧٤ (في الأعراف ١٠ وفي الحجر ٢٠) و ٨٦/٢ و ١٤٨ و ٩/١ و ٢٤ و ٣٨ و

٧٥/٢ وفي تخطئة القراء أو نسبتهم إلى الوهم. وينظر كذلك ١/٢ و ٦٤ و ٧٥ و ٨٨ و ٨٩ و

٨٧-٨٨ في قريب من افتراض قراءات وردّها أو تخطئتها.

لا يعرف وجه العربية؟ ثم ألا يدل قوله في الموضع الأول "ونحويو أهل المدينة ينشدون"، وقوله في الموضع الثاني: "وهذا مما كن يقوله تحويو أهل الحجاز" اصرار منه وتعمد لتخطئتهم، وتصريح بأنه يعلم أن القراءة التي أنشد نحويو أهل المدينة أو نحويو أهل الحجاز بموجبها هذا البيت هي قراءة ابن ع امر؟ يكفي هذا دلالة على أن الكسائي القارئ الوفي المعدود من السبعة المخطئ لابن عامر قارئ السبعة في المدينة هو أول من جسّر النحاة الآخرين وجرأهم على هذا الفعل الذي ألصق بلا تدبر بسببويه وشيوخه مع عدم وجود شيء من ذلك عندهم. ومثل هذا، التهم الأخرى في قراءات قراء آخرين.

هذه أصول الاستشهاد ومصادره عد الكوفيين موقفهم منها. وقد تميز منهجهم النحوي في عرض الآراء وإطلاق الأحكام وبناء الأقيسة بأمور تبينت فيما سبق نعود إلى إيجازها هنا وهي: توسعهم في الرواية والشواهد والسماع زماناً ومكاناً فلم يحددوا لشواهدهم زماناً معيناً يقف عند فجاوزوا به عصر الكسائي والفراء وأجازوا الاحتجاج باللغة والشعر من أية بيئة كان المتكلمون بهما بلا تحديد لحواضر أو بواد، فأخذوا عن أعراب بغداد والكوفة وشعرائهما ولم يحددوا ولا سيما الكسائي نوع المسموع من حيث فصاحة المتكلم به وكونه من قبائل معينة، ولا كيفية هذا السماع من حيث القائل والناقل لهذا المسموع. وتبعاً لهذا توسعوا في القياس وأجازوا وضع الأقيسة الجديدة على ما جاء في هذا المسموع ومخالفة الأقيسة التي وضعها البصريون، وأخذوها عنهم، واستدركوا عليهم وقد جرهم هذا إلى القياس على الشاهد الواحد أو الطاهرة الواحدة وإن خالفت القياس، وفتحوا لها قياساً جديداً واعتدوا بها وأطلقوا للمتكلم والكاتب القياس عليها والتكلم بموجبها إن اقتنعوا بفصاحة هذا الشاهد المفرد، وبالغ الكسائي في هذا وخالفه فيه الفراء في أقوال. ووضع الكسائي أقيسة على أمور

نظرية لا دليل عليها من اللغة^١. وإنما حَكَمَ فيها العقل لا النقل. أو وضعها على المخالف والمضاد والمقابل لا على المشابه والنظير. وتبع كل هذه الأصول تركهم التأويل والتقدير لانتفاء حاجتهم إليه بعد أن وضعوا قياساً لكل ما اعتدوا بصحته من شواهد استدركوا به على أقيسته البصريين ومع هذا التوسع كله نجدهم في مواضع يردون أقيسة وضعها البصريون واحتجوا بها، كما في ردهم أعمال صيغ المبالغة^٢.
واتضح من خصائص نحوهم وضعهم مصطلحات جديدة ضموا فيها أبواباً من النحو عند البصريين وأخرى وضع البصريون لها مصطلحات إلا أن الكوفيين سموها بأسماء جديدة لا لسبب إلا ليثبتوا لنحوهم تسميات ومصطلحات خاصة يعرف بها ويستقل عن النحو البصري^٣ وإن كانت هذه التسميات في أغلبها مأخوذة من عبارات الكتاب لسيبويه.

^١ - ينظر أمثلة أقيستهم النظرية شرح الرضي على الكافية باب التأكيد، وحروف النسق. ومغني اللبيب باب "كذا". ١٥٩/١-١٦٠.

^٢ - ينظر مجالس ثعلب ١٢٣/١-١٢٤ والكتاب ١١٠/١ وما بعدها.

^٣ - تنظر آراء الكوفيين عامة في "الموفي في النحو الكوفي".

المبحث الثالث

النحو في بغداد (التقاء المذهبين)

بغداد:

كانت بغداد قرية صغيرة فيها سوق تجاري عظيم تحيط به قرى صغيرة تتعامل معها، وأصبحت بعد التحرير الإسلامي من أرض الخراج التي جعلها عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقفاً، وبقيت كذلك حتى جاء أبو جعفر المنصور فأسس فيها عاصمة ملكه سنة ١٤٥هـ وانتقف إليها سنة ١٤٩هـ.^١ وقد بناها ليجعلها مقراً لخلافته ينتقل إليها من "الهاشمية" التي اختطها أخوه أبو العباس السفاح قرب الكوفة وجعلها عاصمة الخلافة العباسية فلما مات السفاح بقي المنصور فيها إلى أن انتقل إلى بغداد^٢ بعد أن أحس أن مقامه بين أهل الكوفة أو قريب منهم يعرضه لمخاطر كثيرة ومتاعب متنوعة بسبب ستئثار العباسيين بالخلافة دون أبناء عمهم من العلويين الذين كان أهل الكوفة يشايعونهم.

بنيت بغداد على آثار قرى قديمة، وكانت الهجرة إليها متوالية متتابعة من مدن العراق كالكوفة والبصرة وواسط والجزيرة عدا من اصطحبهم أبو جعفر المنصور من رجال الدولة، وبهذا اختلط السكان وتقاربوا وامتزجت حضاراتهم وثقافتهم وطبائهم التي تكونت منها حضارة بغداد^٣.

^١ - ينظر معجم البلدان (بغداد) ٤٥٧/١ ، وتاريخ بغداد ٢٥-٢٦/١ والشعر في بغداد ١٤-١٧.

^٢ - معجم البلدان (بغداد) ٤٥٧/١.

^٣ - ينظر تاريخ بغداد ٦٧/١ والكامل لابن الأثير ٤٣٩/٥ وتاريخ الطبري ٢٧٩/٩ ومروج الذهب ٢٣٦/٣ و ٢٨٠ و ٢١٤-٢١٥ و ٨٠/١، والشعر في بغداد ٣٥-٣٩.

كانت نشأة الاعتزال وعلم الكلام ودراساته في البصرة ونشأة الدراسات النحوية واللغوية والأدبية وتطورها منذ زمن أبي الأسود وتلاميذه في البصرة والكوفة ونهضة الرواية اللغوية وأشعر العربي في الكوفة، بواكير الثقافة العقلية الواسعة التي شهدها العراق منذ بداية انتشار الإسلام فيه وانتشرت وتنوعت بعد تمصير المدينتين العظيمتين. وكان لتشجيع الخلفاء العباسيين منذ زمن أبي جعفر المنصور العلماء والأئمة أثر ظاهر في مواصلة العمل والبحث والتعمق فيه فاشتهروا وازدهرت علومهم في بغداد، وقد جاوز تشجيع الخلفاء هؤلاء العلماء إلى المشتغلين بالطب والفلك، والرياضة وغيرها من العلوم. وتم نقل علوم هؤلاء من اليونانية وغيرها في عصر الخلفاء العباسيين، أما قبل هذا فقد كان اهتمام العرب منصبا على العلوم الإسلامية واللغوية على اختلاف فروعها التي نشأت ونمت وتحددت معالمها وأصولها في عصر الدولة الأموية كعلم القراءات والتفسير والحديث وعلومه والفقه وعلوم اللغة العربية من أدب وغلة ورواية ونحو، وعلم التاريخ وما يتعلق به من دراسات كل هذه كانت قد نشأت ونمت وبلغت حداً من التطور والنضج قبل عصر الترجمة ودخول الثقافات الأجنبية واختلاطها في أذهان علماء هذه الأمصار الإسلامية فبقيت علومها عربية إسلامية أصيلة في نشأتها ومادتها ومناهج الدرس فيها. ولم تؤثر فيها هذه الترجمات تأثيراً مباشراً^١. ومرت الترجمة الثقافات الأجنبية بثلاث مراحل تبدأ الأولى بالمنسور وتنتهي بالرشيد (١٣٦-١٩٣هـ) وفيها وضعت الأصول والتقاليد العامة للترجمة والمترجمين، وكانت الترجمة فيها من علوم متنوعة كالأدب والمنطق والطب والفلك والهندسة من ثقافات مختلفة اغريقية وهندية وفارسية وغيرها وكانت الدولة هي

^١ - ينظر مسالك الثقافة الاغريقية إلى العرب ٢٤٢ والتراث اليوناني في الحضارة الإسلامية ١٧٣-٢١٧.

التي ترعى هذه الحركة وتشجع القائمين بها^١ وبدأت المرحلة الثانية بعصر المأمون واستمرت إلى آخر القرن الثالث (١٩٨-٣٠٠هـ) وقد سمي هذا العصر: العصر الذهبي للترجمة، وتميز بالاتصال المباشر بالثقافات الأجنبية عن طريق العرب أنفسهم بعد أن كانت تعتمد على السريانية ولا سيما الفلسفة والمنطق بتأثير المأمون نفسه الذي بلغت الترجمة لهذه العلوم في زمانه أوج نشاطها. وكانت المرحلة الثالثة (بعد ٣٠٠هـ) امتداداً لعصر المأمون. وكان الاهتمام فيها بالتراث الاغريقي والعناية بالعلوم الإنسانية^٢. هذه العناية التي وجهها الخلفاء إلى الترجمة والمترجمين أثارت غضب العلماء المسلمين فاغلظوا القول للخلفاء الذين أخذوا يجهدون في استرضائهم ولاسيما الفقهاء منهم والمحدثون والمتكلمون، وشمل علماء اللغة وأهل الأدب ورواة الأخبار والنحة، واختص الرشيد بتقريب الفقهاء والنحاة^٣ وكان المأمون أكثر من أبيه اهتماماً بالعلماء ورعايتهم ولاسيما الفقهاء والنحاة^٤ وعلماء العربية، وكان يتتبع ما يقع في مكاتباته من لحن حتى قال لأحدهم: "لا تكتبن إليّ كتاباً حتى تعرضه"^٥ أي على علماء العربية لما وقع فيه من اللحن.

^١ - ينظر مقدمة ابن خلدون ٤٨٠-٤٨١ وعيون الانباء في طبقات الأطباء ١/١٧٨، ومسالك الثقافة الاغريقية إلى العرب ٢٣٦-٢٣٧ والحيوان للجاحظ ١/٥٥-٥٦.

^٢ - ينظر طبقات الأمم ٧٦. والفهرست لابن النديم - في علوم متعددة - ومسالك الثقافة الاغريقية إلى العرب ٢٥٦، وعيون الأنباء ١/٢٣٥ وما بعدها و ٢٣٢ و ٢٣٤ وتقويم الفكر النحوي ٤٥ وما بعدها.

^٣ - ينظر مروج الذهب ٣/٢٦٣ ومجالس ثعلب ٢/٣٥٤-٣٥٥ و ٣٧٩.

^٤ - ينظر مروج الذهب ٣/٢٦٣ ومجالس ثعلب ٢/٣٥٤-٣٥٥، ٣٧٩.

^٥ - مجالس ثعلب ١/١٢ وينظر ٣٩. والشعر في بغداد ٤١ وما بعدها.

بدأ علماء الدراسات الإسلامية والعربية بتدوين علومهم في الوقت الذي جرى فيه انشاء مدينة بغداد، وتم تصنيف كتب الفقه والحديث والدراسات القرآنية في مكة والمدينة والشام والبصرة والكوفة، ودونت كتب الأدب واللغة والنحو والتاريخ وأيام العرب، أما بغداد فقد بدأ تصنيف الفقه فيها بأبي حنيفة وهو كوفي المولد والمنشأ، وتسربت الثقافة إلى بغداد عن طريق علماء الكوفة وفقهائها وأصحاب اللغة والنحو فيها لأن الكوفة أقرب إلى بغداد من البصرة، ولأن أهلها أقرب إلى العباسيين وأسهل انقياداً لهم من أهل البصرة الذين كانوا عثمانيين فنشأ منهم الخوارج والمعتزلة، إلى غير ذلك من الأسباب^١ التي جعلت العباسيين يتخذون من علماء الكوفة حاشيتهم ومؤدبي أبنائهم ومستشاريهم في الأمور الفقهية والشرعية واللغوية والنحوية كالكسائي الذي استدعاه لمهدي إلى بغداد وهو في أوج نشاطه العلمي ورعاه وجعله مؤدباً لابنه الرشيد الذي لازمه ملازمة الظل وشجعه على أن يواصل بحثه ودرسه وتدرسه فاشتهر اسمه في بغداد وأشاع النحو الكوفي بين الدارسين في عاصمة الخلافة الإسلامية، وأعقبه على مجالس الدرس النحوي الكوفي ببغداد تلميذه الفراء الذي سمع بما وصل إليه الكسائي من عز وجاه على يد الخلفاء فترك بلده الكوفة ورحل إلى بغداد يتعلم على الكسائي ويصاحبه ثم يتصدر مجلس الدرس بعد وفاته، ثم خلقهما ثعلب على مجالس الدرس النحوي في بغداد.

^١ - ينظر ضحى الإسلام ١١/٢ والشعر في بغداد ٤٠-٤٤.

التقاء المذهبين النحويين في بغداد (اتجاهات التحليل النحوي البغدادي بشكل عام)

كان لهذا التشجيع الذي لقيه العلماء ومنهم النحاة من خلفاء الحاضرة الإسلامية أكبر الأثر في انتشار النحو الكوفي فيها على يد الكسائي وتلاميذه حيث ظل مسيطراً على مجالس الدرس فيها لسنوات طويلة، وقد أدى هذا إلى نشوء صراع شديد بين البصريين حملة النحو البصري ذي الأسبقية والتقدم والأصالة الذي قامت أصوله وثبتت أركانه ونمت وتطورت وبغلت مرحلة النضج والاكتمال قبل أن تعرفه الكوفة بمائة عام أو يزيد، ونشأت دراساته ونمت قبل تمصير بغداد والكوفيين الذين بنوا نحوهم على أصول الدرس النحوي البصري وطوروا فيه بتغيير منهج درسه على ما ألفوه في مناهج بحثهم للعلوم الإسلامية من توسع في الرواية وتعميم للقياس. هذا الصراع الذي أوجده ونماه الخلفاء العباسيون ابتداء من المهدي الذي شجع الكسائي وأصحابه وجعل الغلبة في عاصمة الدول الإسلامية للمذهب الكوفي الذي نما على أكتاف المذهب البصري. ولم يجد علماء النحو البصريون لهم مكاناً في بغداد التي احتل الكوفيون مجالس الدرس فيها، فقد جاء إليها سيبويه، ورجع خائباً لتغلب الكسائي عليه بمعونة أصحابه في مناظرة حُكِّم فيها أعراب بغداد الذين كان الكسائي يأخذ بلغتهم ويستتبط منها ومن أمثالها أقيسته وأحكامه في تجويز بعض الظواهر النحوية مما لم يكن من منهج سيبويه وأشياخه الأخذ بها وإنما أخذوا عن العرب الخالص الفصحاء الذين نزل بلغتهم القرآن وهكذا كتب لسيبويه أن يعود من حيث أتى، وكان مما تسبب في نتائج هذه المناظرة تشجيع الوزراء له وهم أصحابه وجماعته وأهل مسكنه. وجاء الأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة محملاً بعلم سيبويه وشيوخه مدفوعاً بالحق على لكوفيين لما فعلوه مع أستاذه سيبويه ولتسببهم في موته،

جاء إلى بغداد ليثأر من الكسائي ويحاول أن يذهب هيئته بين الخلفاء وأصحاب السلطان فيها وبين تلاميذه وأصحابه، إلا أن الكسائي بما يملكه من دهاء وبما يحيط به من جاه وثراء استطاع أن يستميل الأخفش وأن يرغبه بالمل ويجعله مدرساً لأولاده ويطفئ في نفسه الحماسة لنشر المذهب البصري، والرغبة في الثأر لشيخه فاكتفى بذلك واستقر وأصبح مناصراً للكسائي متأثراً بمنهجه في أمور كثيرة مما دعاه إلى مخالفة سيبويه في مسائل كثيرة ترونها كتب النحو والصرف، ونبه النحاة على عوار كتاب سيبويه كما يروى عن الكسائي^١ بعد أن كان المدافع عن آرائه ومنهجه. ولم ينجح من البصريين في أن يجد له مكاناً في بغداد غير المبرد أبي العباس محمد بن يزيد المتوفي (٢٨٥هـ) الذي رحل من البصرة لاستدعاء المتوكل إياه إلى سامراء للإفتاء في مشكلة نحوية في قراءة آية من كتاب الله حصلت بينه وبين وزيره الفتح بن خاقان. بقي المبرد في سامراء مدة حياة المتوكل وغادرها بعد مقتله قاصداً بغداد حيث حل فيها غريباً وضاق به الحال وهو إمام البصريين لزمانه في النحو وعلوم العربية الأخرى، وحامل لواء مذهبهم فيه، فاستطاع بما عرف عنه من سعة اطلاع وتضلع في علم النحو اللغة وتمرس بأساليب الحجاج والتعليل والقياس والتأويل أن يفسح له مكاناً بين النحاة الكوفيين وأصحابهم في بغداد، وعرف كيف يجتذب إليه أكبر مجموعة من تلاميذ ثعلب الذين أذهلهم وأثار دهشتهم وإعجابهم بما عرضه أمامهم من أساليب جديدة على الدرس النحوي في بغداد فانحازوا إليه وانصرفوا عن شيخهم ثعلب، ونبذوا كتب المذهب النحوي الكوفي - بطلب من المبرد كما تروي كتب الطبقات ولازموا المبرد ملازمة مكنتهم من الاطلاع على ما في هذا النحو الأصل الذي كان معزولاً عن مجالس الدرس في بغداد، ولم يصل إليهم منه إلا ما

^١ - ينظر مراتب النحويين ٦٨ وجمع الهوامع في مواضع كثيرة والمدارس النحوية ٩٥ و ٩٦.

تعرض له نحاة الكوفة برد أو تخطئة أو استدراك أو تصحيح مما شوه صورته في أذهانهم وربما رغبتهم عنه. وشهدت بغداد بعد هذا اشتداد المنافسة بين أنصار المذهبين البصري والكوفي واتباعهما ممثلين في علمين من أعلامهما، عُدّا آخر شيوخ المدرستين وعلميها الشهيرين اللذين انتهت إليهما رئاسة الدرس النحوي وهما: أبو العباس محمد بن يزيد المبرد (-٢٨٥هـ) ممثل النحو البصري، وأبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب (-٢٩١هـ) ممثل النحو الكوفي.

كان أول لقاء بين المبرد وأصحاب ثعلب في مسجد بغداد الذي كانوا يلتقون بشيخهم ثعلب فيه يتحلّقون حوله ويسمعون منه ما قال الكسائي وما قال الفراء، وما روي من شواهد شعرية ونثرية جاءت على آرائهم هذه، فإذا حاول طلبته أن يستوضحوه عما يطرأ على أذهانه من علل وتخريجات قال: لا أدري، فحلّ هذا الغريب بينهم وأخذ يتحدث في مسائل نحوية محاولاً إيهام الناس بأنه سئل عنها، وكان يرفع صوته بذلك جاذباً إليه انتباه من في حلقات الدرس المتعددة المتنوعة من دارسين وغيرهم، فتحلقوا حوله، وكان ممن تنبه عليه ثعلب الذي لم يكن يرغب في أن يحل في المدينة من ينافسه في علمه هذا، فطلب من تلاميذه أن يذهبوا لمناقشة هذا الغريب ومحاولة إسكاته وكان على رأس الذاهبين أبو إسحاق الزجاج الذي ناقش المبرد في عدد من المسائل كان أبو إسحاق الزجاج يسأل عنها والمبرد يجيب حتى إذا اقتنع الزجاج بالجواب عاد على جوابه بالنقض وبناء حجة معارضة يقيمها على ما عرف عنه من حجة واضحة وبيان فصيح وتمرس بالعلل، وبقي الحال بهما على هذا، أبو إسحاق يسأل والمرد يجيب حتى و إلى بين أربع عشرة مسألة يجيب عن كل منها الجواب المقنع ثم يعود عليه بالنقض فيفسد جوابه الأول، ثم يعود إلى إفساد النقيض وتصحيح الجواب الأول. والناس الذين تحلقوا حولها معجبون مندهشون لقدرة

هذا الشيخ وتمكنه مما يشرح وفصاحته فيما يقول وقوة حجته التي يستطيع بها اقناع السامع نقضاً وإيجاباً. وهكذا انصرف كثير من الدارسين عن ثعلب وانحازوا إلى المبرد ولازموه، وكان أولهم إلى هذا أبو اسحاق الزجاج الذي طرح المذهب الكوفي أطراحاً تاماً من درسه ومن مؤلفاته وأبو علي الدينوري ختن ثعلب الساكن في داره الذي كان يجتاز حلقة ثعلب متوجهاً إلى حلقة المبرد وهو يحمل أوراقه ومحبرته ليثبت ما جد عليه من مسائل هذا النحو. ومنذ هذا اليوم غداً شيخاً جديداً يحمل أصولاً جديدة ونحواً جديداً يختلف في منهجه عن المنهج الكوفي المعروف في بغداد. هذا الاختلاف الذي أوجدته طبيعة الدرس النحوي الذي سار عليه كل منهما منذ التحق بمجالس درس هذا العلم وتعلقا بأصوله حتى أصبحا شيخي مدرستيها في سن مبكرة عما عرف في أمثالهما من شيوخهما وتلاميذهما، فجذباً إليهما منذ صباهما أنظار الشيوخ والتلاميذ وأثارا دهشتهم وإعجابهم بما كانا عليه من علم بنحو بلديهما وحفظ لكتب شيوخهما ولشواهد اللغة شعرية ونثرية. إلا أن المنهج الذي شبا عليه أثر في تفكيرهما وفي طريقة استفادتهما من المخزون اللغوي الذي لديهما، إلا أن منهج الدرس النحوي البصري واعتماده على الاحتجاج والتعليل والتأويل والأقيسة الثابتة حرك عقل المبرد ومرنه على هذه الأصول التي لم يكن منهج ثعلب ومدرسته الكوفية يسير عليها أو يتبعها إلا في النادر وإنما كان يعتمد الحفظ والرواية ونقل المحفوظات كما هي إلى الطلبة وأدى هذا بثعلب إلى ركود الذهن وعدم شحذه بالتنظير والقياس والبحث عن العلل واستنباط الأقيسة. وكان لهذا المنهج الجديد الذي طرأ على الدرس النحوي في بغداد الأثر البعيد في اجتذاب الدارسين إليه لكي يطلعوا عليه - بعد اطلاعهم على النحو الكوفي وأصوله وأقيسته وآراء شيوخه ومنهجه - ويستطيعوا المقارنة بين النحوين والتمييز بينهما على أساس من المعرفة بكل منهما.

ولهذا وجدنا علماء عصرهما يتركون لنا فيهما أقوالاً. فقال الأزهري: "وكان محمد بن يزيد أعذب الرجلين بياناً واحفظهما للشعر المحدث والنادرة الطريفة والأخبار الفصيحة، وكان أعلم الناس بمذاهب البصريين في النحو ومقاييسه^١. وقال فيه أبو بكر بن مجاهد: "ما رأيت أحسن جواباً من المبرد في معاني القرآن فيما ليس فيه قول لمتقدم، ولقد فاتني منه علم كثير لقضاء ذمام ثعلب"^٢ وقال المبرد نفسه في ثعلب: أعلم الكوفيين ثعلب، فذكر له الفراء فقال: "لا يعشره" ولكونهما زعيمي مدرستيهما وامامين في علم واحد على اختلاف منهجيه قال فيهما أبو بكر بن السراج وقد نيل: أي الرجلين أعلم؟ أثعلب أم المبرد؟ فقال: ما أقول في رجلين العالم بينهما؟"^٣

مدرسة بغداد النحوية:

وردت في الكتب النحوية المتأخرة تسميات مثل: "مدرسة بغداد النحوية" أو "النحو البغدادي" أو "النحاة البغداديين" أو "البغداديين" أو "نحاة بغداد". ولكي نقف على هذه المسألة لا بد من أن نتعرض لموقف القدماء والمعاصرين منها لتتضح الرؤية وينجلي الموضوع.

١ - موقف القدماء:

كان أول من ترجم للنحاة وتحدث عن نشأة النحو محمد بن سلام الجمحي (- ٢٣١هـ)، ولم يتحدث إلا عن النحاة البصريين الأوائل وأولهم أبو الأسود الدؤلي

^١ - مقدمة التهذيب للأزهري

^٢ - أخبار النحويين البصريين ٧٧ ونزهة الالباء ١٤٩.

^٣ - تاريخ بغداد ٢٠٩/٥ ونزهة الالباء ١٥٨ ومعظم الكتب التي ترجمت لهما.

وانتهى بالخليل، ولم يتطرق لذكر من بعد البصريين ممن وجد في زمانه من النحاة ولا تعدى الخليل شيخ النحاة البصريين (-١٧٠هـ). وجاء بعده ابن قتيبة الدينوري (-٢٧٦هـ) وتحدث في كتابه "المعارف" عن النحويين لكنه لم يجاوز بهم الكسائي (-١٨٩هـ) والفراء (٢٠٧هـ) من النحاة الكوفيين، والأخفش الأوسط^١ سعيد بن مسعدة (-٢٧١هـ). وكان أبو الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي الحلبي (-٣٥١هـ) أول من وصل إلينا له كتاب في طبقات النحويين، سماه "مراتب النحويين" ولم يرتبه بحسب طبقات النحاة، ولا قسمه إلى مذاهب أو مدارس وإنما تحدث عن البصريين والكوفيين بادئاً بأبي الأسود الدؤلي مترجماً لأوائل النحاة البصريين ممن لم يكن في زمانهم أحد من النحاة الكوفيين، وكان أول من ترجم له منهم أبو جعفر الرؤاسي الذي قدّم ترجمته على الخليل، ثم أخذ يترجم لمن يقابل البصريين من الكوفيين ويعود إلى البصريين ثم من يقابلهم، وهكذا حتى ينتهي الكتاب بالقاسم الأنباري والد أبي بكر بن الأنباري من النحويين الكوفيين، ولم يتطرق لذكر مدرسة بغدادية ولا لنحاة بغداديين إلا أنه وردت عنده إشارتان إلى مدينة بغداد أولاها بعد ترجمته للفراء قال فيها: "فلم يزل أهل المصرين على هذا حتى انتقل العلم إلى بغداد قريباً، وغلب أهل الكوفة على بغداد، وحدثوا الملوك فقدموهم، ورغب الناس في الروايات الشاذة، وتفاخروا بالنوادر وتباهوا بالترخيصات، وتركوا الأصول واعتمدوا على الفروع. فاختلط العلم"^٢ وليس في هذه الإشارة تحديد للمقصودين بأهل الكوفة، أهم الكسائي والفراء من شيوخ الكوفيين اللذان استقرا في بغداد، أم غيرهما من الكوفيين أمثال ثعلب ومن تعصب لهم من تلاميذه؟ عدت إلى ترجمة كل من الكسائي والفراء التي أوردها لهما

١ - سماه الأخفش الأصغر (المعارف ٥٤٥)

٢ - مراتب النحويين ٩٠

أبو الطيب، لعلّي أجد إشارة أتبين منها انطباق قوله عليهما أو ذكره أنهما من البغداديين، فوجدته يقول في ترجمة الكسائي: "... حدثنا أبو حاتم قال: "لم يكن لجميع الكوفيين عالم بالقرآن ولا كلام العرب، و لو لا أن الكسائي دنا من الخلفاء فرفعوا من ذكره لم يكن شيئاً، وعلمه مختلط بلا حجج ولا علل إلا حكايات عن الاعراب مطروحة، لأنه كان يلقنهم ما يريد، وهو على ذلك أعلم الكوفيين بالعربية والقرآن، وهو قدوتهم وإليه يرجعون..."^١ أما في ترجمة الفراء فلم يورد مثل هذا وإنما كان ما قاله عنه: "وقد أخذ علمه عن الكسائي وهو عمدته، ثم أخذ عن اعراب وثق بهم مثل أبي الجراح وأبي ثروان وغيرهما وأخذ يُبذّر عن يونس..."^٢ ومع هذه الإشارات فإن كلام أبي حاتم (-٢٦٥هـ) على الكسائي شبيه بكلام أبي الطيب على اختلاط العلم في بغداد بعد غلبة أهل الكوفة عليه، وبين أبي الطيب (-٣٥١هـ) وأبي حاتم (-٢٦٥هـ) حوالي تسعين سنة ولهذا فإنني لا أظن المقصود بكلام أبي الطيب: الكسائي والفراء لقوله: "حتى انتقل العلم إلى بغداد قريباً..." وانتقال العلم إلى بغداد كان منذ أيام الكسائي المتوفي (١٨٩هـ) أي قبل أبي الطيب بزمان طويل، ولهذا فإنني أرجح أن يكون قصد بأهل الكوفة ثعلباً المتوفي (٢٩١هـ) وتلاميذه من بعده وهم الذي اختلط بهم العلم. وقد تعرض أبو الطيب للكلام على مدينة بغداد في موضع آخر فقال: "وأما بغداد فمدينة ملك، وليس بمدينة علم وما فيها من العلم فمنقول إليها، ومجلوب للخلفاء واتباعهم ورعيّتهم، ونيتهم بعد ذلك في العلم ضعيفة، لأن العلم جد، وهم قوم الهزل أغلب عليهم واللعب أملك لهم، فإن تعاطي بعضهم شيئاً أو شدا منه، فإنما همه المساماة به وبغيته المباهاة فيه فتري أحدهم يتكلم بغير

^١ - مراتب النحويين ٧٤-٧٥.

^٢ - مراتب النحويين ٨٦.

علم، ويهزم ليعد في العلماء، ويذكر رغبته في أطراف العلم ودواوينه وفروعه وغرائب، ويسامح نفسه في أصوله وسهله وذلوله فهو يبني على غير أسس "ويحب الرئاسة بأهون مس، فلا جرم أنهم يوّهمون ولا يفهمون، ويسألون فيستبهمون" هذا رأيّه في أهل بغداد في زمانه - فيما يبدو، أما من هم قبل زمانه فقد ورد وصفهم في قول أبي حاتم: "أهل بغداد حشو عسكر الخليفة، لم يكن بها من يوثق به في كلام العرب، ولا من يرتضى روايته، فإن ادعى أحد منهم شيئاً رأيته مُخَلِّطاً صاحب تطويل وكثرة كلام ومكابرة، ولا يفصل بين علماء البصرة بال نحو بلا علل ولا تفسير فيكثر كلامه عند من يختلف إليه، وإنما همّ أحدهم إذا سبق إلى العلم أن يسيّر اسماً يخترعه لينسب إليه، فيسمي الجر خفضاً والظرف صفة، ويسمون حروف الجر حروف الصفات، والعطف النسق، و "مفاعيلن" العروض "فَعُولان" ونحو هذا من التخليط".^١ وكلام أبي حاتم هنا متضارب فأوله يوحي بأنه لا يشمل الكسائي ومن في زمانه من الكوفيين الذين نقلوا العلم إلى بغداد، وآخره يوحي بذلك لأنه هو أول من بدأ بوضع مصطلحات الصفة والنسق والخفض وما إليها. ولذلك يبدو أن المقصود بهؤلاء هم من بعد الفراء من تلاميذه الذين لم ينبه فيهم أحد، وينسحب هذا على ثعلب وتلاميذه لتعليق أبي الطيب على عبارة أبي حاتم بقوله: "قال اللغوي": والأمر في زماننا هذا - أصلحك الله - على أضعاف ما عرف أبو حاتم".^٢ فأهل بغداد إذن عند أبي الطيب اللغوي لا يقصد بهم الكوفيون، وإلا لما سمى الكسائي "عالم أهل الكوفة وأمامهم غير مدافع"، ولا قال في الفراء "وأما علماء الكوفيين بعد الكسائي فأعلمهم بالنحو أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء" ولقوله: "فلم يزل أهل المصرين على

^١ - مراتب النحويين ١٠١-١٠٢.

^٢ - مراتب النحويين ١٠٢.

هذا حتى انتقل العلم إلى بغداد قريباً، وغلب أهل الكوفة على بغداد^١. فأهل الكوفة هم الكسائي والفراء والافمن أين للكوفة علماء مشهورون قبل الكسائي والفراء؟ ويدل على اعترافه بهما بالنحو في مدينتهما وبأنهما غير مقصودين بمن خلط، أو اختلط بهم العلم قوله أيضاً "ولا علم للعرب إلا في هاتين المدينتين"^٢. قال هذا بعد الانتهاء من الكلام على نحاة البصرة والكوفة، ولذلك أرجح أن المقصود بأهل بغداد الذين اختلط بهم العلم هم تلاميذ الكسائي والفراء من بعده الذين كانوا ببغداد ومن أخذوا عنهم في بغداد وهم المعاصرون لأبي حاتم ممن ينطبق عليهم هذا الوصف. ويستمر هذا الوصف باختلاط العلم وفساده حتى زمن ثعلب وتلاميذه من الذين درسوا عليهم في بغداد، أما تلاميذهم الكوفيون الذي أخذوا عنهم في الكوفة فيبدو أنهم غير مشمولين بهذه التسمية أو هذه الأوصاف لصدق نيتهم في العلم وإخلاصهم له. ومع ذلك فإنه لم يسمهم البغداديين ولا نحاة بغداد، لأنهم لم يكونوا مجموعة معروفة من النحاة في زمن أبي حاتم وزمن أبي الطيب، وليسوا على وجه التحديد، الذين يُعَنَّوَن عند اطلاق مصطلح "البغداديين"، وإن جازت في بعضهم.

وجاء بعد أبي الطيب، أبو سعيد السيرافي (٢٨٤-٣٦٨هـ) الذي ألف كتابه "أخبار النحويين البصريين" وقد قصره على ذكر نحاة البصرة ولغويها وسماهم "مشاهير النحويين" بدأه بأبي الأسود وختمه بأصحاب المبرد ممن خلط المذهبين أو لم يخلط قال في ترجمتهم: "ومن أصحاب أبي العباس محمد ابن يزيد المبرد: أبو اسحاق إبراهيم بن السري الزجاج وأبو الحسن بن كيسان وإليهما انتهت الرياسة في النحو بعد أبي العباس محمد بن يزيد، غير أن أبا اسحاق كان أشد لزوماً لمذهب

١ - مراتب النحويين ٧٤ و ٧٦ و ٩٠.

٢ - مراتب النحويين ٩٨.

البصريين وكان ابن كيسان يخلط المذهبين. وكان بعدهما أبو بكر محمد بن علي المعروف بمَبْرَمَان، وعنهما أخذت أكثر النحو وعليهما قرأت كتاب سيبويه، وفي طبقتهما ممن يخلط علم البصريين بعلم الكوفيين أبو بكر بن شقير، وأبو بكر بن الخياط^١ ولم يتطرق السيرافي لأي كلام عن بغداد أو أهل بغداد، أو إشارة إلى التسمية بالبغداديين. وجاء بعده الزبيدي (-٣٧٩هـ) وقسم كتابه "طبقات النحويين واللغويين" إلى خمس مجموعات هي: "البصريون" و "الكوفيون" و "المصريون" و "القرويون" و "الأندلسيون" ولم يفرد طبقة باسم "البغداديين" ولا سمى نحوياً "البغدادى". وكان أول من أفرد قسماً من طبقاته لنحاة بغداديين المرزباني (-٣٨٦هـ) الذي قسم كتابه "نور القبس" إلى ثلاث مجموعات الأولى: "من أخبار العلماء والنحاة والرواة من أهل البصرة" والثانية: "من رواة الكوفة وعلمائها وقرائها" والثالثة "من أخبار العلماء والنحاة والرواة من أهل بغداد ومن طرأ عليها من الأمصار" بدأهم بمن دخل العراق ثم بغداد قادماً من المدينة من المحدثين والرواة والقضاة واللغويين والنحاة، وكل من سكن ببغداد وارتحل إليها ممن اشتهر أمره فيها، ومع ذلك فلم يذكر الكسائي والفراء فيهم، وهما من أوائل الداخلين إلى بغداد والمقيمين بها "وذكر المبرد وثعلباً مع أن المبرد بصري درس وتعلم ونبغ بالبصرة ودخل بغداد على كبر أن كان ثعلب ممن نشأ بها واشتهر، وربما قصد بهذا أنه شيخ من سمي فيما بعد "النحاة البغداديين" أو "نحاة بغداد". ولا إشارة عنده توضح هذا أو غيره، ووقف عند أبي بكر بن الأنباري من النحويين وأبي بكر الصولي من الرواة الأخباريين (-٣٣٦هـ).

لقد كان المرزباني أول من أفرد قسماً لأهل بغداد، لكنه لم يذكر شيئاً عن نحوهم في ترجماته لهم، ولم يبين من أخذوا عنهم من النحاة أهم من البصريين

^١ - أخبار النحويين البصريين ٨٠-٨١.

والكوفيين معاً أم من إحدى المدرستين؟، المهم في التقسيم أنهم ممن سكنوا بغداد أصلاً أو من الطائرين عليها. وتابعه على هذا التقسيم ابن النديم (-٣٨٥هـ) الذي قسم كلامه على النحويين واللغويين وفصحاء الاعراب إلى ثلاثة مجموعات ضمتهم المقالة الثانية من كتاب "الفهرست" وسمي كل مجموعة فنا وهي: "الفن الأول في ابتداء النحو وأخبار النحويين البصريين وفصحاء الاعراب وأسماء كتبهم" و "الفن الثاني في أخبار النحويين واللغويين من الكوفيين وأسماء كتبهم". و "الفن الثالث" : في ذكر قوم من النحويين خلطوا المذهبين وأسماء كتبهم. ولم يفسر المقصود بقوله: "من خلطوا المذهبين" ولا سماهم "البغداديين" لا في الفهرسة ولا في الترجمة الخاصة بهم واكتفى بهذا الاسم. أما أبو البركات الأنباري ومن جاء بعده من أصحاب الطبقات فلم يقسموا كتبهم إلى طبقات ولا سموهم بأسماء البلدان ولا صنفوهم بحسب المذهب وإنما رتبوهم بأحدى طريقتين أما بحسب القدم وأما بحسب الأسماء مرتبين ترتيباً الفبائياً.

هذا ما كان من أمر القدماء وذكرهم لمذهب أو مدرسة أو مجموعة ثالثة تسمى "البغداديين".

٢ - موقف المعاصرين:

لقد ترددت في مؤلفات المحدثين تسميات مثل "مدرسة بغداد" أو "نحاة بغداد" أو "المدرسة البغدادية" أو "المذهب البغدادى" أو "البغداديين" وهم يعنون بذلك مذهباً نحوياً خاصاً لا هو بالبصري الخالص، ولا بالكوفي الصراح، وإنما هو مذهب يقوم على الاطلاع على النحويين، والخلط بينهما ثم الانتخاب منهما لتكوين آراء خاصة بهذا الدارس أو ذاك انتخبها من آراء الفريقين فقد يكون أكثر ما اختاره من البصريين فيصفونه بأنه إلى البصريين أميل، أو أنه يميل إلى البصريين، وقد يقع العكس فيقال

فيه: يميل إلى الكوفيين، أو إلى مذهب هو تلاقي المذهبين البصري والكوفي في بغداد على يد شيخين من شيوخهما تنافسا على رئاسة النحو في بغداد وعملا على نشر مذهبهما بين الدارسين وهذان الشخان هما أبو العباس ثعلب الكوفي وأبو العباس المبرد البصري. وقد ذهب الدكتور مهدي المخزومي إلى أن قول المحدثين بهذين القولين وتسميتهم لهؤلاء الذين خلطوا المذهبين بالبغداديين إنما كانوا يصدرون فيه عما جاء في "الفهرست" بـ "جماعة من علماء النحويين واللغويين ممن خلطوا المذهبين" ودليلا على هذا أن المحدثين كانوا يقيمون المذهب الجديد على أساس الاختيار والانتخاب من كلا المذهبين القديمين وهو الذي كان ابن النديم يعبر عنه بـ "خلط المذهبين"^١. وقد وقفت المحدثون من هذه المجموعة أكثر من موقف: فذهب بعضهم إلى وجود مدرسة ثالثة مع البصريين والكوفيين وهم البغداديون، وكان من أوائل القائلين بهذا جماعة من المستشرقين منهم "فلوجل" ناشر كتاب "الفهرست" لابن النديم المتوفي (١٨٧٠م)^٢ الذي نشر بحثاً في المدارس النحوية عام ١٨٦٢م. وتابعه بروكلمان الذي قال: "وقد قسم علماء العربية مذاهب النحاة إلى ثلاث مدارس: البصريون والكوفيون ومن مزجوا المذهبين من علماء بغداد" ثم قال: وسنحتفظ نحن أيضاً بهذا التقسيم على الرغم مما يبدو فيه من أن الخلاف المزعوم بين مناهج تلك المذاهب لم ينشأ إلا على أساس المنافسة بين المبرد وثلث^٣ ويبدو أنه يرى أن كل من نزل ببغداد، قال: "وقد كان كثير ممن ذكرناهم أخيراً في مدرسة البصرة نزلوا ببغداد التي أخذت مدرستها النحوية تحاول التوفيق بين مدرستي البصرة والكوفة منذ

^١ - الدرس النحوي في بغداد ١٨٦ وما بعدها.

^٢ - ينظر تاريخ الأدب العربي ١٢٧/٢، والدرس النحوي في بغداد ١٨٨-١٨٩.

^٣ - تاريخ الأدب العربي ١٢٤/٢، ١٢٥.

القرن الرابع الهجري، وإذا فقد كان ممكناً أن يعدوا أيضاً من رجال مدرسة بغداد^١. أما الجيل الذي جاء من البصرة والكوفة فلا يسمى بهذا الاسم يقول بروكلمان: "بقي كثير من العلماء الذي اجتذبتهم عاصمة الخلافة إليها شديدي التمسك والتعصب لمأثورات مدارسهم الأصيلة، ولكن الجيل الذي تلا هؤلاء، والذي تهيأت له فرصة الاستماع إلى ممثلي كلا المذهبين، لم يُلقِ كبير اهتمام للخلافات القديمة، بل عمد إلى انتخاب مزايا كلتا المدرستين، وتوحيد هذه المزايا في مذهب جديد مختار"^٢.
وذهب المسشرق "Howell" إلى وجود مدرسة بغدادية، وقال أن ابن السراج ومبرمان يمثلانها^٣.

وكان أول من تكلم على مدرسة بغداد من الباحثين العرب الأستاذ أحمد أمين حيث قال بعد أن تحدث عن مدرستي البصرة والكوفة: "ومع هذا فقد كان التقاء الكوفيين والبصريين في بغداد سبباً في عرض المذهبين ونقدهما والانتخاب منهما، ووجود مذهب منتخب كان من ممثليه ابن قتيبة" ثم نقل عبارة ابن النديم وقال "ومثله في ذلك أبو حنيفة الدينوري فقد أخذ عن البصريين والكوفيين جميعاً"^٤. وكان أكثر المتحدثين عن هذا المذهب وخصائصه وضوحاً وإيجازاً الشيخ محمد الطنطاوي الذي صرح بوجود "فرق خالط" بين البصري والكوفي، وسماه في موضع آخر "مازجاً بين المذهبين" ورأى أن هؤلاء الذين خلطوا النحو أو مزجوه وإن قلوا يمثلون مدرسة جديدة لها خصائصها، وذلك حيث كانت: حدة الخلاف بين الفريقين مع كثرة عديدهم وعظيم شأنهم في حياة المجتهدين من دواعي تغلب الانحياز إلى أحد الطرفين على

١ - تاريخ الأدب العربي ١٢٤/٢-١٢٥.

٢ - تاريخ الأدب العربي ٢٢١/٢.

٣ - ينظر أبو علي الفارسي ٤٤٥-٤٤٧.

٤ - ضحى الإسلام ١٩٣/٢.

اختيار مذهب خليط، حتى إذا قضى المجتهدون نحبه في أواخر القرن الثالث الهجري أسدل الستار عليهم وانكسرت حدة النعرة الحزبية عرض العلماء المذهبيين على بساط البحث والنقد، فاستعرضوا دعائم القواعد التي تركزت عليها الرواية والشواهد والأقيسة ليتعرفوا مقدار هذه القواعد من الصحة والضعف حتى يُبَيَّنَ حكمهم في الاختيار على أساس غير منهار، وهم ما يزال فيهم فئة تلتفت عن البصري وأخرى عن الكوفي بينما أخذت عن الفريقين فئة ثالثة. على الرغم من أنهم بعد هذا في أنفسهم بين محافظ على ترسم خطى سلفه فغلبت عليه النزعة الطائفية، وبين منصف تحلل من قيود الحزبية، ونظر إلى العلم نظرة خالصة لا يشوبها عاطفة، فأثر ما رجح عنده وتمذهب به، فلم يكن غريباً على من لقنه عن بصري أن ينجح بعد إلى إثارة المذهب الكوفي أو المكون منهما والعكس بالعكس، كما لم يكن بدعاً على من تتلمذ لهما أن يؤازر أحدهما، نجم عن ذلك كله أنهم اختلفوا طرائق قِداد، فكان منهم من غلبت عليه النزعة البصرية ومنهم من غلبت عليه النزعة الكوفية، ومنهم من جمع بين النزعتين" وهذا أوضح ما وجدته مما فسرت به عبارات المتقدمين "خط المذهبيين" "خط النحويين وهو للمذهب البصري أميل" "خط المذهبيين وكان ميله مع الكوفيين" و "كان قِيماً بعلم البصريين وبعلم الكوفيين". وأجاب عن تساؤلات بعض المحدثين عن سبب تسمية الزجاج بصرياً مع أخذه عن الكوفيين والبصريين، في حين عد ابن قتيبة بغدادياً مع أخذه عن بصريين فقط، ظانين أن كل من أخذ عن الشيخين المبرد وثعلب يكون خالطاً بين المذهبيين، أو كل من خلط بين المذهبيين لا بد من أن يكون قد أخذ عن الشيخين. وذهب الأستاذ سعيد الأفغاني إلى أن الكوفيين نشروا نحوهم في بغداد التي قصدوها البصريون بعدهم ونشأت عن هذين الفريقين طبقة جديدة في بغداد اتسمت بالاختيار من المذهبيين

وكونت ما عرف بالمذهب البغدادي، وجعل من خصائصه ما جاء في قول أبي الطيب اللغوي: "فلم يزل أهل المصريين على هذا حتى انتقل العلم إلى بغداد قريباً وغلب أهل الكوفة على بغداد وحدثوا الملوك فقدّموهم ورغب الناس في الروايات الشاذة، وتفاخروا بالنوادر وتباهوا بالترخيصات وتركوا الأصول واعتمدوا على الفروع فاختلف بهم العلم" وعلق عليه بقوله: "وما أصدق ما قال هذا اللغوي الحلبي في تصوير الحال.."^١. وكان أشدهم دفاعاً عن وجود مدرسة بغدادية خلطت بين المذهبين واتخذت منهما بعض خصائصها ليكون مذهباً جديداً أو مدرسة جديدة هي التي سميت "المدرسة البغدادية" الدكتور أحمد مكي الأنصاري الذي قال إن خصائص المدرسة البغدادية "ما هي إلا امتزاج خصائص المدرستين البصرية والكوفية معاً وظهور أثر المدرستين في هذا المذهب الجديد الذي عدّ الفراء مؤسسه لما يقوم عليه مذهبه من تحرر ومزج وتجديد"^٢. وكان الدكتور محيي الدين توفيق من الذين ذهبوا إلى وجود هذه المدرسة بعد انتقال الدرس النحوي إلى بغداد حيث أدى هذا الانتقال إلى تطور الدراسات النحوية واللغوية مكوّناً مدرسة بغداد النحوية التي يقوم منهجها على الانتخاب من المدرستين^٣. وسلم الدكتور شوقي ضيف بوجود مدرسة بغدادية يقوم منهجها على الانتخاب من آراء المدرستين البصرية والكوفية مع فتح أبواب الاجتهاد والخلوص إلى آراء مبتكرة، وقد تداول هذه المدرسة جيلان: جيل أول كانت تغلب عليه النزعة الكوفية وهو الذي يدور في كتابات ابن جني باسم البغداديين من أمثال ابن كيسان، ثم جيل ثان خلف هذا الجيل كانت تغلب عليه

^١ - في أصول النحو ٢١٧-٢٢٠.

^٢ - ينظر أبو زكريا الفراء ٣٩٥-٣٩٧.

^٣ - ينظر أبو البركات بن الأنباري في كتابه الإنصاب ٢٨٨-٢٨٩.

النزعة البصرية على نحو ما يلقانا عند الزجاجي ثم أبي علي الفارسي وابن جني.^١ وأثبت الدكتور مازن المبارك وجود مدرسة بغدادية ورأى أن الزجاجي بغدادي النزعة مع ميله إلى الأخذ بأقوال البصريين فهو يحيط علماً بالمذهبيين إلا أنه يعتدل بينها بلا تعصب فلبغداديون هم الذين أخذوا بآراء الفريقين ووقفوا بين المذهبيين إلا أن ميلهم مع أحدهما في الغالب.^٢ ويتضح من كلام الأستاذ طه الراوي أنه ممن يثبتون وجود مدرسة بغدادية.^٣ ومثل هذا كان رأي الدكتور يوسف خليف الذي قال: "وكان التقاء الكوفيين بالبصريين سبباً في عرض مذاهب المدرستين واتجاهاتهما ثم نقدها والانتخاب منها".^٤ وقد أثبت الدكتور الجوّاري وجود مدرسة بغدادية ولم يقل كما قال الآخرون بأنها خلطت بين المذهبيين وإنما تقرد بين القدماء والمحدثين بالقول بأن النحو البغدادي إنما هو نحو أبي العباس أحمد بن يحيى الشيباني المعروف بثعلب^٥ وهذا رأي غير معروف وهو أول من قال به فيما أعلم.

وذهب بعض آخر من المحدثين إلى نفي وجود مدرسة نحوية باسم "مدرسة بغداد" أو التشكك في وجودها، وقد مثل هذا الرأي بعض الباحثين منهم "جوتولدفايل" محقق كتاب الانصاف الذي شكك في وجود مدرسة جديدة قامت على أساس الانتخاب من مزايا كلتا المدرستين لأنه - وإن كان يرى أن لستمية تلاميذ ثعلب والمبرد بالبغداديين وجهاً من الحق - كان يرى أن البغداديين لم يكونوا ليمثلوا مدرسة ذات اتجاه خاص أساسه المزج أو الاختيار ولكنهم يمثلون دراسة في دائرة النحو

^١ - المدارس النحوية - ٧ وينظر في مثله ٢٤٥ و ٢٤٦-٢٤٧ و ٢٤٨.

^٢ - ينظر الإيضاح في علل النحو، الزجاجي ٩-١٠ و ٦٨-٧٩ و ١٣١ و ١٠ و ١١ و ١٢ و ١٣ و ١٤ و ١٥.

^٣ - ينظر نظرات في اللغة والنحو ٩.

^٤ - حياة الشعر في الكوفة ٢٤٢.

^٥ - الشعر في بغداد ١٧٦.

البصري، وإذا كان البغداديون في المواضيع القليلة التي يرد ذكرهم فيها عند النحاة يمثلون رأي الكوفيين فلا يجوز أن يضللنا ذلك عن حقيقة أمرهم، لأنه أنما يذكر رأيهم الخاص في الأحوال التي يخالفون فيها آراء البصريين العامة^١. وقال بما يقرب من هذا الرأي الدكتور عبد الفتاح شلبي الذي ذهب إلى أنه لم تكن هناك "مدرسة بغدادية قائمة بنفسها لها تعاليمها، غاية ما في الأمر أن رجالاً خطوا بين المدرستين البصرية والكوفية، فرأوا رأياً من هذه ورأياً من الأخرى وإن كانوا في مذهبهم الأصل يميلون إلى هذه أو يميلون إلى تلك فيكونون بصريين أو كوفيين حسب، فابن كيسان يخلط المذهبين لأنه أخذ عن المبرد وثعلب، وكان ميله إلى البصريين أكثر، وكذلك ابن قتيبة، وابن شقير شديد التعصب مع الكوفيين مع اعتقاده مذهب البصريين. ويضع الدكتور عبد الفتاح شلبي - بناء على هذا التفسير - أبا علي الفارسي فيمن يخلطون المذهبين، لأنه "على الرغم من نزعته التي تميل به إلى البصرية، كان يرى رأي الكوفيين في بعض المسائل النحوية"^٢. وكان من بين المتعرضين للكلام على المدرسة البغدادية الدكتور فاضل صالح السامرائي وقد عرض لأقوال المثبتين وجود هذه المدرسة والنافين ذلك الوجود من القدماء والمحدثين، ورأى "أنه لا يصح إطلاق اسم مذهب أو مدرسة إلا أن تكون هناك أسس مستقلة وآراء متميزة واضحة محددة وإلا فهو مذهب أما بصري وأما كوفي أو نحوهما و... أن المكان وحده لا يصح أن يسم المدرسة باسم ما فتعد مدرسة نحوية مستقلة كما لا يصح أن يسم القائمين بها، فلا يصح مثلاً عدّ المبرد إلا من البصريين، وثعلب من الكوفيين مع أنهما سكنا في بغداد وهب أن نحويّاً بصريّاً سكن مدينة ما وبقي محتفظاً بآرائه البصرية فهل يعد

^١ - مقدمة كتاب الانصاف (نقلا عن الدرس النحوي في بغداد ١٩٣).

^٢ - أبو علي الفارسي ٤٤٧ وينظر ٤٤٥-٤٤٧.

هذا إلا بصرياً؟" ثم قال: "وينبغي أن ينظر في هذا الأمر من ثلاث نواح حتى يمكن إطلاق اسم مدرسة عليه: من حيث الأسس التي تتبعها في أصول البحث، ومن حيث المصطلحات ومن حيث المسائل الخلافية، فإن استقلت بكل ذلك فهي مدرسة خاصة، وإلا فهي تبع. وينظر إلى النحوي من هذه الأمور كذلك، ويمكن أن نضيف ناحية أخرى هي نظرتة إلى نفسه، اين يعد نفسه في البصريين مثلاً أم في غيرهم؟" ثم قال إنه لا يشترط في النحوي أن يقول بجميع آراء مذهبه فله أن يجتهد ضمن حدود هذا المذهب فيوافق رأي الكوفيين، أو ينفرد بطائفة من المسائل وهذا الاجتهاد لا ينفي عنه صفته في انتمائه إلى مدرسة، وقال بأنه لا يثبت وجود مدرسة بغدادية إلا إذا ثبت أنها مدرسة مستقلة ذات أسس مستقلة وكيان خاص وآراء مستقلة، وإن نحاتها يتصفون بهذه الصفات أيضاً، وإن وجود مثل هذا لم يثبت عنده فيما لديه من مصادر.^١

وهناك من الباحثين المحدثين من ذهب في مدرسة بغداد أكثر من مذهب، ومثل هذا الاتجاه الدكتور المخزومي، فقد أثبت في "مدرسة الكوفة" وجود مذهب نحوي يسمى "المذهب البغدادي" وسماها أيضاً "المدرسة البغدادية" وذكر ذلك في مواضع متعددة من الكتاب سأوردها بلفظه كي لا يدخلها تغيير أو تحريف، وكان أول ما يلاحظه القارئ هذه العبارة: "وأما البغداديون، فقد أخذوا عن البصريين والكوفيين، ومادة الدرس عند هؤلاء وهؤلاء أنما هو النحو البصري المتمثل في كتاب سيبويه، وكل ما في الأمر أنهم خلطوا أقوال هؤلاء وهؤلاء، وانتخبوا من هؤلاء وهؤلاء ويسر لهم هذا أن بغداد كانت مقصد البصريين والكوفيين جميعاً لأنها عاصمة

^١ - ابن جني النحوي ٢٥١-٢٥٢ و ٢٥٤-٢٥٥.

الخلافة الإسلامية وموطن الأعمال واكتساب الرزق، فكان يفد عليها بصريون وكوفيون وغيرهم من سائر الأمصار، فلما اجتمعت هذه العناصر في صعيد بغداد وانحاز إلى كل فريق تلاميذ وأصحاب وجد من هؤلاء التلاميذ من لم يقصر الأخذ على بصري وحده، وإنما كان يأخذ عن هذا ويرجع إلى ذلك، ومن البغداديين ناس كثيرون درسوا النحويين وتخرجوا في المدرستين" ثم أكد مبدأه هذا بقوله: "فليس المذهب البغدادى إلا مذهباً انتخابياً فيه الخصائص المنهجية للمدرستين جميعاً على نحو ما فعل ابن مالك في محاولته الجمع بين المذهبين، وانتهاجه منهجاً وسطاً بينهما، فإن مذهب البصريين اتباع التأويلات البعيدة التي خالفها الظاهر. وابن مالك يحكم بوقوع ذلك من غير حكم عليه بقياس ولا تأويل بل يقول إنه شاذ أو ضرورة"^١ ومضى بعد تقرير هذا الواقع في الاتجاه نفسه مؤكداً كثرة من خلط المذهبين ويبين أسماء بعض منهم، محتجاً لتسمية ابن النديم لهؤلاء "من خلط المذهبين" فقال: "والذين خلطوا المذهبين كثيرون ذكرهم أصحاب الطبقات، فذكر الزبيدي جماعة كبيرة عدتهم واحد وأربعون نحويّاً أولهم ابن قتيبة أبو محمد عبدالله بن مسلم الكوفي الدينوري توفي سنة سبعين ومائتين للهجرة. وعقد ابن النديم في "الفهرست" مقالة في أخبار العلماء وأسماء ما صنفوه من الكتب، وذكر أسماء جماعة من النحويين واللغويين ممن خلط المذهبين وأخبارهم ذكر في مقدمتهم ابن قتيبة، وذكر منهم أبا حنيفة الدينوري صاحب "الأخبار الطوال" والسكري أبا سعيد الحسن بن الحسين وابن

^١ - مدرسة الكوفة ٩٠-٩١.

كيسان وأبا بكر بن شقير ونفطويه وابن خالويه وغيرهم كما فعل الزبيدي^١ ولا أدري ما الذي فعله الزبيدي وهو الذي لم يتكلم على مدرسة بغداد، ولم يشعر إلى وجود بغداديين. وأن لنا أخيراً بعد هذا العرض لأقواله المؤدية إلى نتيجة واحدة أن نختتم هذه الأقوال بأوضح أقواله وأكثرها إصراراً على وجود مدرسة بغدادية وذلك قوله: "أما أصحاب ثعلب الذين ذيلنا اسمه بأسمائهم فليسوا جميعاً كوفيين، بل أكثرهم ينتمون إلى مدرسة جديدة هي مدرسة بغداد، وهي المدرسة الانتخابية التي قامت على خلط المنهجين من المدرستين البصرية والكوفية، لأنهم أخذوا عن بصريين وكوفيين، وتأثروا بهؤلاء وهؤلاء، ولا نستثني منهم إلا أبا بكر الأنباري الذي ترسم خطى الكوفيين وتأثر أستاذه أبا العباس، وعرف بتعصبه لمدرسته ونقوله الكثيرة عن شيوخها"^٢.

هذه الأقوال جميعها تدلنا على اعتراف الدكتور المخزومي بوجود مدرسة نحوية بغدادية قائمة على الانتخاب من المذهبين البصري والكوفي نتيجة لأخذ الدارسين فيها عن المبرد البصري وثلعب الكوفي حيث كان وجود المبرد في بغداد نقطة تحول في تاريخ المدرسة الكوفية فقد تسرب إلى مجلس المبرد كثير من أصحاب ثعلب وتلاميذه فنشأت عنهم "مدرسة بغداد". وقد خالف الدكتور المخزومي

^١ - مدرسة الكوفة ٩١-٩٢.

^٢ - مدرسة الكوفة ١٠٩. وتنتظر أقواله الأخرى التي لا تخرج عن هذه إلا في تحديد بعض النحاة بأنهم بغداديون أو غير بغداديين في الكتاب نفسه. ١١٠ و ١٨٧ وفي الكلام على نشوء المدرسة البغدادية تنظر ص ١٠٣ و ٤٤٦-٤٤٧.

ما قاله في كتابه "مدرسة الكوفة" ونفى أن تكون هناك مدرسة بغدادية أو مذهب يصح أن يسمى بالمذهب البغدادي، وذلك في كتاب "الدرس النحوي في بغداد"^١.

فمن هم البغداديون إذن في رأي الدكتور مهدي المخزومي الجديد؟ إنه يرى أن الذين ترددت تسميتهم في كتب التراجم والتاريخ وفي كتب النحاة كابن جني بـ "البغداديين" إنما هم "الكوفيون" أنفسهم. إذ لم يعرفوا في أول اشتعارهم باسم "الكوفيين" لأنهم لم يُنشئوا نحوهم في "الكوفة"، ولم تعرف الكوفة - مصرًا - درساً نحويًا مستقلاً يقف بإزاء الدرس البصري، ولم تكن منافسة للبصرة في الدرس اللغوي عامة، والمصر الذي وقف ينافس البصرة هو "بغداد" وفي بغداد ومجالس الدرس فيها رسمت حدود الدرس الذي سُمِّي فيما بعد وفي غضون القرن الرابع بـ "الدرس الكوفي" وسمي حملته والداعون إليه بـ "الكوفيين" ولم تخلص "الكوفة" لاتباع "البغداديين" الأوائل إلا في العصور المتأخرة لأن أكثر أتباع المذهب البصري في القرن الرابع كابن جني ظلوا يسمون مخالفيهم "البغداديين" في موضع، ثم يورده منسوباً إلى "الكوفيين" في موضع، وهم هم، والرأي نفس الرأي، وأخيراً استخلص الدكتور المخزومي أن "البغداديين" هم الكوفيون، وطريقة البغداديين في الدرس النحوي هي طريقة الكوفيين، ولم تمثل البغدادية مذهباً يختلف عن مذهب الكوفة، فالمذهب واحد والطريقة واحدة^٢. ودليله على أن "الكوفيين" و "البغداديين" جماعة واحدة - غير ما قدمنا - إن الدارس لا يكاد يقف على خلاف مذهبي بين "البغداديين" و "الكوفيين" وإن الخلاف إنما يتمثل فيما بين "الكوفيين" و "البصريين" وبين "البغداديين" و "البصريين"، وإن الدارسين المتأخرين الذين عنوا بأمر الخلاف كانوا يعرضون

^١ - تنظر فيه ص ٥ و ٧ و ١٨٦.

^٢ - الدرس النحوي في بغداد ٧ وينظره ٥-٧.

للخلاف بين "الكوفيين" و "البصريين"، ولم يشيروا قط إلى خلاف بين البغداديين والكوفيين^١ فالكوفيون عندهم البغداديون، والبغداديون هم الكوفيون ومع أنني لا أنكر صحة ما يذهب إليه الدكتور المخزومي من أن "البغداديين" هم "الكوفيون" فإني أحب أن أعلق على عبارته الأخيرة التي استدلت بها على هذا بأنه لم يرد كذلك أنهم أشاروا إلى وجود خلاف بين البصريين والبغداديين، مع أنه لم يقل أحد بأنهما فريق واحد، فاستدلّاه هذا لم يقدم ولا يؤخر في إثبات فكرته. وعرض الدكتور المخزومي لأقوال أصحاب الطبقات والمؤرخين والباحثين القدماء والمحدثين عرباً ومستشرقين في وجود مذهب ثالث يقوم على خلط المذهبين وناقش آراءهم وحلل عباراتهم و رأى أن المقصود بالخلط بين المذهبين عند القدماء ليس هو ما فهمه المحدثون من الدارسين، وإنما يعني ترخيص الدارسين في الأخذ من الفريقين أي: عن البصريين - وقد كان هذا موجوداً ومعروفاً - وعن الكوفيين وهو الذي كان مُستغرباً عند النحاة الأوائل الذي ما كانوا يرون البصري يأخذ عن الكوفي عدا ما أخذه أبو زيد الأنصاري ورواه من اللغة عن المفضل الضبي الكوفي. وقال: "إن خلط المذهبين الذي جاء نتيجة لتلاقي المذهبين في مجالس الدرس في بغداد لم يكن يغني أحداث مذهب نحوي أو رسم خطة لمزج المذهبين، ولكنه كان يعني ترخص الدارسين في الأخذ عن الفريقين بعد زوال أسباب التعصب المذهبي والاقليمي، ولا يعني ترخص الدارسين في الرواية عن هؤلاء وهؤلاء غير محض التلاقي واتصال الآراء والأخذ ببعضها للتعبير عن رأي خاص في الأحوال التي تقتضي ابداء هذا الرأي كأن يكون تعبيراً عن وجهة نظر خاصة وجدت في نفس الدارسين قبُولاً، وقد يكون هذا الدارس بصرياً تتفق وجهة نظره مع وجهة نظر كوفي في هذه المسألة أو تلك، وقد يكون

^١ - الدرس النحوي في بغداد ٧ و ينظره ٥-٧.

كوفياً يلتقي مع هذا البصري في هذا القول أو ذاك، ومثل هذا الخلاف قد يقع بين تلاميذ المدرسة الواحدة فلا يخرج بهم عن حدود المذهب الذي ينتمون إليه"، وعلى هذا فإن "الذين خلطوا بين المذهبين ما زالوا ينتمون إلى المذهب الذي انتسبوا إليه سواء أكان هذا المذهب كوفياً أو بصرياً"^١ وهذا معنى "الخلط بين المذهبين" عند الدكتور المخزومي، أما التسمية بـ "المدرسة البغدادية" أو بـ "البغداديين" فيرى أنها وضعت في الأصل لمن نسميهم اليوم بـ "الكوفيين" وهم نحاة مدرسة الكوفة ابتداء بالكسائي وانتهاء بثعلب، وأثبت ذلك بما ورد في كتب النحويين واللغويين الأوائل ممن عاصروا المبرد وثعلب من تسميتهم سابقهم بـ "البغداديين" فقد سمى المبرد ابن السكيت من البغداديين مع أنه ممن سبقه وتقدم عليه توفي سنة (٢٤٤هـ) في حين توفي المبرد (٢٨٥هـ) ويحكي عن الفراء بعض آرائه مسمياً إياه بـ "بعض البغداديين" وليس من المعقول أن يحكي أقوال الطبقة التي جاءت بعده وإنما المقصود بهم "الكوفيون" ولم يذكرهم بهذا الاسم في كتبهم إلا مرة واحدة قد تكون من فعل النساخ الذين وجدوه رأياً كوفياً فنسبوه إليهم، وهو قول المبرد متحدثاً عن الأسماء الستة ورأى الكوفيين فيها: "وجميع هذه التي يسميها الكوفيون معربة من مكانين لا يصلح في القياس إلا ما ذكرناه"^٢. وأخيراً يقر أن المقصود بـ "البغداديين" عند هؤلاء هم أوائل الكوفيين ويقول: "قاسم البغداديين على هذا إنما يطلق على الدارسين الذين أقاموا في بغداد، وهذا ينجر إلى أوائل الدارسين في بغداد وهم الكسائي والفراء وأصحابه، وثعلب وأصحابه ولا يقتصر الاسم على الجيل الذي أعقب ثعلباً والمبرد كما زعم المحدثون"^٣. ويرى أن هذه الأزواجية في التسمية لنحاة المذهب الكوفي بـ

١ - الدرس النحوي في بغداد ٢٠٤-٢٠٦.

٢ - المقتضب ١٥٥/٢.

٣ - الدرس النحوي في بغداد ٢١٦-٢١٨.

"البغداديين" مرة و ب "الكوفيين" أخرى هي التي أدت إلى إيقاع المحدثين في وهم وجود مدرسة بغدادية تكمل المدرستين البصرية والكوفية، وإن التسمية المتأخرة لنحاة هذه المدرسة بـ "الكوفيين" إنما جاءت نسبة إلى البلد الأصلي لهؤلاء الأئمة، فالكسائي إنما ولد ونشأ في الكوفة، وكانت ثقافته في الكوفة ولكنه سمّي "بغدادياً" لأنه لم يستقر في الكوفة للتدريس بعد عودته من البادية ومشافهة الإعراب وإنما عرف أستاذاً أو شيخاً في بغداد فسمي مذهبه بـ "مذهب البغداديين" أولاً، ولما خيف التباس هؤلاء بتلاميذ ثعلب لم يجدوا أفضل من العودة إلى تسميتهم ببلدهم الأصلي وهو الكوفة وسموا بـ "الكوفيين" وكذلك كان الفراء كوفي المولد والمنشأ ولكنه أقام ببغداد كالكسائي فانسحب عليه من حيث التسمية ما انسحب عليهما^١. أما ثعلب فهو بغدادي المولد والمنشأ، إلا أنه كوفي المشايخ والدراسة والمنهج والآراء، فسمّي بالكوفي من أجل ذلك وألحق بشيخه وبالمدرسة التي عمل على بث آرائها فهو بغدادي - كوفي. أما تلاميذ المبرد وثعلب فجميعهم من "البغداديين" منشأ ودراسة، فقد درسوا ببغداد بعد أن جاء المبرد يحمل النحو البصري ويذيعه فيها، ولكي يُميز أصحابه ومنهجهم عن منهج ثعلب سمّي مذهبه النحوي بالبصري، وسمي ثعلب وأتباعه المخالفون لهم في المنهج بـ "الكوفيين" اعتزازاً من كل من الفريقين بالمذهب الذي يحمله ويتبعه ويقوم بتدريسه فمن انتسب إلى البصريين واعتز بمذهبهم سمّي "بصرياً" ومن انتسب إلى الكوفيين وأخذ بمذهبهم سمّي "كوفياً" فاعادوا وجودهما، وأعادتا التسمية "الكوفية" إلى البلد الإسلامي "الكوفة" هيبتها، وأعطتا للنحو الكوفي تميزه واستقلاله الذي اشتهر به ولم يذهب جهد شيوخها ويندرس مع من اندرست علومهم في بغداد وغيرها.

^١ - ينظر الدرس النحوي في بغداد ٢٢٤-٢٢٥.

وهكذا كان للتنافس بين ثعلب والمبرد الفضل الأول في إعادة التسمية بالبلد الأصلي الذي خرج منه علماء الدرس النحوي المقابل للمذهب البصري. أما "البغداديون" فستمية خلصت بعد هذا للذين لم يكونوا بصريين خالصين ولا كوفيين خالصين ولا متعصبين لأي من هذين المذهبين ولا عرفوا بالتعصب لأي من البلدين لأنهم بغداديون منشأً وعلماً وثقافة ولأنه تساوى لديهم الميل إلى أي من الفريقين إذا ما وجدوا لديه من الآراء والأصول ما يقنعهم ويستهوهم فيأخذون بها في أقوالهم أو في مصنفاتهم ولهذا فقد يكون معظم ما قال به البغداي من الآراء بصرياً فيقال إنه بغداي يميل إلى البصريين، وقد يكون معظمها من الآراء الكوفية فيقال إنه يميل إلى الكوفيين، وقد يتوازن اختياره ولا يلحظ فيه الميل إلى أحدهما فيقال فيها أنه قِيم بعلم البصريين والكوفيين. ولا تقتصر هذه التسميات على من أخذ عن ثعلب والمبرد - ولا تجب لهم، فقد يكون جميع شيوخ البغداي من البصريين، وقد يكون جميع شيوخه من الكوفيين لكنه ينحو في مؤلفاته نحو الاختيار من المذهبين قلّ أو كثر فينتسب إلى البغداديين مع ميل إلى جهة أو توسط بين الجهتين، كما قد يكون الدارس آخذاً عن شيوخ المدرستين لكنه لا يميل إلى الاختيار من النحويين وإنما يأخذ عن أحدهما فيبقى كوفياً أو بصرياً. وهذا ما يفسر وضع ابن قتيبة مع البغداديين مع أن شيوخه بصريون ولم يأخذ عن كوفي، ويفسر وضع الزجاج مع البصريين مع أخذه عن شيخي المدرستين. وينسحب هذا على من لم يأخذ عن شيوخ بصريين ولم يختار من الآراء البصرية وهو كوفي أو بغداي يبقي بصرياً ويتضح هذا في النحاة الذين سمو بصريين مع قضاء حياتهم ببغداد أو سمو كوفيين منهم، إلا أن هذه التسمية "البغداديين" انسحبت فيما بعد على من كان ببغداد وأخذ عن تلاميذ المبرد

وثعلب كوفيين كانوا أم بصريين لهم اختيار أم ليسوا ممن خلطوا المذهبين ما دام
الشيخو بغداديين والدرس في بغداد مستقراً.

غلبة المذهب البصري

قال أبو الطيب اللغوي: "فلم يزل أهل المصريين على هذا حتى انتقل العلم إلى
بغداد قريباً وغلب أهل الكوفة على بغداد، وحدثوا الملوك فقدموهم، ورغب الناس في
الروايات الشاذة وتفاخروا بالنوادر، وتباهوا بالترخيصات، وتركوا الأصول واعتمدوا
على الفروع فاختلف العلم"^١. كان هذا رأي أول من أفرد في طبقات النحويين كتاباً
تحدث فيه عن نحاة المدرستين البصرية والكوفية، وكان يقدم تراجم البصريين ثم يأتي
بتراجم من عاصروهم من الكوفيين، غير أن قوله هذا لا ينسحب على النحو في بغداد
منذ نشوئها حتى عصورها المتأخرة وإنما كان ذلك عند تأسيس مدينة بغداد واجتلاب
العلماء والأدباء إليها من مختلف الأمصار الإسلامية ولا سيما البصرة والكوفة، فقد
كان للكوفيين في هذه المرحلة الحظوة عند الخلفاء والأمراء أكثر مما كان للبصريين،
فالكسائي رئيس مدرسة الكوفة النحوية ذو الحظوة العظمى عند المهدي ثم عند
الرشيد الذي لازمه ملازمة الظل واعتمد عليه في مسائل كثيرة تخرج أحياناً عن
نطاق الدرس النحوي واللغوي وبقيت له هذه الحظوة عند ولديه ولاسيما الأمين،
والفراء تلميذه الذي اتصل بالخلفاء والأمراء والوزراء عن طريق الكسائي حيث كان
يصحبه معه فأصبح معلماً لأولاد المأمون واختص بهم، وابن السكيت تلميذ الفراء
كان معلم أولاد المتوكل قبل المبرد، وقد حاول البصريون مزاحمة الكوفيين في قصور
الخلفاء فحظي بعضهم بذلك، منهم أبو محمد يحيى بن المبارك الذي كان معلماً ليزيد

^١ - مراتب النحويين ٩٠.

ابن منصور الحميري خال المهدي ونسب إليه فسمى "اليزيدي"^١ وكان قدومه إلى بغداد ونيله هذه الحظوة قبل احتدام الخلاف بين البصريين والكوفيين^٢. وليس معنى هذا أن البصريين كانوا بمعزل عن بغداد، بل كانوا يفدون إليها فقد وفد إليها سيبويه للمناظرة، والأخفش الأوسط والرياشي وغيرهم، ولذلك التقى المذهبان فيها، وكان هذا الالتقاء سبباً في عرض مذهبي المدرستين واتجاهاتهما ثم نقدهما والانتخاب منهما^٣ ولا سيما بعد قدوم المبرد إليها واستقراره فيها. وكان لسيطرة الكوفيين على مجالس الدرس النحوي في بغداد أول نشأتها أسباب كثيرة دعت إلى أن يؤثر الخلفاء العباسيون ثقافة الكوفة على ثقافة البصرة حتى صار أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب الشيباني وهو كوفي المذهب امام النحاة فيها لعصره، وكان من أهم هذه الأسباب:

- ١- أن انتقال الخلافة العباسية إلى بغداد كان من الكوفة ومن الهاشمية بالذات القريبة منها فتبع علماء الكوفة انتقال الخلافة وواكبوها.
- ٢- أن أهل الكوفة كانوا أقرب إلى نفوس العباسيين من أهل البصرة، لأن أهل الكوفة شيعة الإمام علي ومؤازروه وأعوانه عندما كانت الكوفة مقراً لخلافته، وتبعاً لذلك فهم شيعة آل البيت، في حين كانت البصرة عثمانية زبيرية وموطناً للخوارج، ثم أصبحت فيما بعد موطناً للمعتزلة وغيرهم من الطوائف.
- ٣- أن الكوفة كنت أدنى إلى العروبة وأقرب من البصرة بمن نزل فيها من القبائل العربية الذين حافظوا على عصبيتهم القبلية و صفاتهم الموروثة ولم يندمجوا بالأجناس غير العربية، كما حافظوا على عاداتهم وطبائعهم، وكان

^١ - طبقات النحويين واللغويين ٦٠-٦١.

^٢ - ينظر ضحى الإسلام ٢٩٧/٢-٢٩٨ وحياة الشعر في الكوفة ٢٤١-٢٤٢.

^٣ - ينظر حياة الشعر في الكوفة ٢٤٢ وضحى الإسلام ٢٩٨/٢.

المنصور قد أراد لحاضرتة أن تكون مثلاً يحتذى في السياسة والحضارة والثقافة ولهذا كان يولي توازن العرب وغيرهم في مدينته الكثير من الاهتمام.

٤- أن البصرة كانت موطن الآراء الجديدة والمذاهب والنحل الدخيلة، والفرق الجريئة في العقيدة كالمعتزلة، وكان أهلها بحكم موقعها الجغرافي متأثرين بالأفكار الأجنبية، ولهذا فهم أصعب قياداً وطاعة وخضوعاً للسلطان من أهل الكوفة، والسلطان أقل اطمئناناً إليهم وأكثر حذراً منهم وأضعف ثقة بهم ولهذا ابتعدوا عن استقدامهم إلى بغداد.

٥- أن الكوفة أقرب مسافة إلى بغداد فهي في منتصف الطريق بين البصرة وبغداد، وربما كانت المسافة أقل من ذلك، مما جعل استقدام العلماء منها أسهل وأسرع.^١

هذه الأسباب، وربما يكون هناك غيرها، دفعت الخلفاء إلى الاعتماد على الكوفيين في علومهم، وربما تكون معرفة الوزراء ورجال الدولة بمن في الكوفة من العلماء لقرب عهدهم بهم ولمجاورتهم لهم الدافع الأول لأن يستقدموهم يذكرون العلماء المرغوب فيهم بأسمائهم ويبعثون بطلب حضورهم إلى بغداد - كما كان من أمر المهدي حينما طلب من أصحابه أن يلتمسوا له أحد النحاة الذي يفهمون بأمر النحو واللغة، فذكروا علي بن حمزة الكسائي من أهل الكوفة فكتب باستدعائه منها^٢، وكما في خبر المتوكل الذي يسأل عن عالم في النحو والقراءات يحكم في نزاع حدث بينه وبين وزيره الفتح بن خاقان في قراءة آية كريمة ف قيل له: ما نعرف أحداً يتقدم فتى بالبصرة يعرف بالمبرد، فأشخص إلى سامراء مكراً^٣. هذان الخبران وغيرهما

١ - ينظر الشعر في بغداد ٤٤ و ١٩-٢١.

٢ - نزهة الالباء ٤٥.

٣ - ينظر طبقات النحويين واللغويين ٩٤ وما بعدها و ١٠٣ وما بعدها و ١٦٣.

كثير مع علماء العلوم الأخرى تدل على أن الخلفاء ومن يحيط بهم من الوزراء والمؤدبين يعرفون من بالمراكز الثقافية الأخرى ولما كان معظم المتقذين في بغداد من الكوفيين أو ممن عاش في الكوفة والهاشمية كانت معرفتهم بالعلماء الكوفيين أوسع واستقدامهم منها أسهل، ولما لم يكن في سامراء من في بغداد من الكوفيين أشير على المتوكل باستقدام نحوي بصري شاب وصلت شهرته إلى سامراء. وقد كان الكسائي أول الكوفيين القادمين إلى بغداد بطلب من خليفته، وقد استقر يعلم أولاده وأولادهم وعقدت له حلقة خاصة للأقراء، وكان أول مقرئ تعرفه هذه العاصمة العامرة كما كن أول نحوي فيها، ولذا فقد شاعت قراءته التي اختارها من قراءات متعددة وعرف بها كما شاعت آراؤه النحوية وأصول مدرسته ومنهجها وذاعت أخبار ما لقيه من حظوة لدى الخلفاء ووصلت إلى الكوفة والبصرة فعزم علماؤها على الرحيل إليها ولما لم يكن في الكوفة من ينافس الكسائي في ذلك الحين لم يرحل منها أحد حتى نبغ الفراء فتوجه إليها بتحريض من معلمه الرؤاسي، أما البصرة فقد كان فيها سيبويه ويونس وكان سيبويه ما يزال شاباً طموحاً دفعه طموحه إلى مناظرة الكسائي أملاً في التغلب عليه ونيل الحظوة في دار الخلافة، إلا أنه عاد مهزوماً لتغلب منهج الدرس النحوي الكوفي الذي أذاعه الكسائي على عقول الدارسين وأذهانهم من أصحابه ومن وزراء الدولة الملتزمين جانبه الواصلين بيمين يثق بهم من الاعراب - الذين حكموهم في المناظرة التي فاز فيها الكسائي لأنه يقول بعقولهم ويأخذ بلغتهم. وقد تبع محاولة سيبويه هذه محاولات أخرى من النحاة البصريين كالمازني في أيام الواثق والمتوكل في سامراء وكالرياشي ثم الأخفش الأوسط الذي كان همهم الوصول إلى مجالس الخلفاء والوزراء ومنافسة الكوفيين فيها، وجرت بينهم مناظرات اشتهرت وذاعت غير

مناظرة سيبويه والكسائي، أشهرها: مناظرة الكسائي مع اليزيدي والكسائي مع الأصمعي وثعلب مع الرياشي وثعلب من المازني وثعلب مع المبرد.^١

هذه المناظرات وغيرها تدل على اشتداد المنافسة بين علماء هذين البلدين الإسلاميين المتنافسين، البصرة والكوفة حاول فيها البصريون عرض آرائهم وعلمهم لنيل الحظوة عند الخلفاء، إلا أن محاولاتهم باءت بالخيبة حتى جاء أبو العباس محمد بن يزيد المبرد (-٢٨٥هـ) إلى بغداد عائداً من سامراء بعد مقتل المتوكل الذي استدعاه ولازمه بقية حياته، فاستخدم نباهته وذكاءه ولباقة وسعة علمه وتطور منهجه في البحث النحوي واستخدامه وسائل الاحتجاج والاستدلال والتعليل والنقض والاعادة في تدريسه ومحاضراته فاستطاع أن يشق له طريقاً وسط هذا الزحام الكوفي المتسلط على مجالس الدرس وأوجد له مكاناً بين المحاضرين في مسجد بغداد، واستقطب إلى درسه عدداً كبيراً من الدارسين من بينهم الكثير من أصحاب ثعلب وكان من أشهرهم أبو اسحاق الزجاج الذي كان أول من ناظره وأعجب بطريقته في الاحتجاج والتعليل والشرح والنقاش فلزمه مطراً ما كان معه من كتب المذهب الكوفي قاطعاً صلته بشيخه الأول ثعلب. وفعل مثل ذلك أبو علي الدينوري ختن ثعلب، وكثر حوله الدارسون، منهم من لازمه ومنهم من بقي ينتقل بين حلقاته وحلقة ثعلب ليطلع على نحو المذهبين ومنهج المدرستين وليوازن بين علم الشيخين وأسلوب الدرس عندهما فنشأت حركة علمية نحوية تقوم على التنافس بين الشيخين وبين أصحابهما المتعصبين لها وقويت هذه المنافسة واشتدت وزاد عدد المتعصبين للمبرد، وبتعبير أدق المنحازين إليه ووجد النحو البصري على أيديهم من بعده من العناية

^١ - أو بين علماء من الفريقين. تنظر في مجالس العلماء للزجاجي مع غيرها من مناظرات جرت بين اللغويين، وبين النحاة.

والاهتمام ما كان يحل به شيوخه الراحلون مثل سيبويه والمازني والأخفش وغيرهم ونال كتاب سيبويه حظوة عظيمة، فقد كان عليه اعتماد الدارسين في مجالس درسهم أقرأهم المبرد أياه وشرحه لهم وجسرهم على الخوض فيه ومن ثم التعمق في فهمه ونقده والاختيار منه. واختفت كتب النحو الكوفي ولا سيما كتب الفراء بعد أن انزاح أثره واطرح لاطلاعهم على ما هو أوسع وأشمل وأثبت وأصح وهو النحو البصري ممثلاً بكتاب سيبويه. وهكذا خبت سيطرة النحو الكوفي على مجالس الدرس النحوي في بغداد أن استمرت حوالي قرن ونصف وتوهجت شعلة النحو البصري بأرائه وكتابه وشيوخه من البغداديين الذين اقتفوا أثر أستاذهم المبرد في العناية بهذا النحو الأصيل.

أشهر الدارسين من البغداديين

تكونت من رجال الشيخين المبرد وثعلب طبقة جديدة من الدارسين تنوعت ميولهم ونزعاتهم واحتدم الصراع بينهم فترة من الزمن، فمنهم من كان بصري النزعة في التعلم والتلقي، وفي الآراء والاتجاه، ومنهم من كان كوفي المذهب، ومنهم من أخذ عن هذا وذلك، أو اختار من آراء المذهبين. إلا أن الاختيار من المذهبين والتوسط بين النزعتين بلا انحياز إلى جهة كان قليلاً وكان الانحياز الطابع الغالب على الدارسين على الشيخين والمازجين بين المذهبين بسبب حدة الخلاف التي كانت قائمة بينهما ورغبة مؤيدي كل منهما في التفوق والتقدم ولاشتهار، وبقي الأمر كذلك حتى قضى الشخان نحبهما وخلا الدارسون إلى أنفسهم وعادوا إلى النحو الذي تعلموه والعلم الذي أخذوه بعد انكسرت حدة العصبية لأحد الفريقين. عادوا في بداية القرن الرابع الهجري لعرض علم المذهبين ومنهجهما وآرائهما ونظروا في شواهد المدرستين وأصولهما وأقيستهما ليتعرفوا عليها ويتعمقوا النظر فيها ويقارنوا بينها من حيث الصحة والخطأ والقوة والضعف كي يستطيعوا أن يبنوا أحكامهم على أسس متينة صلبة وكان ما يزال في هؤلاء الدارسين فئة تلت من البصريين وحدهم، وأخرى تلت عن الكوفيين، ونشأ نحوهم بصرياً أو كوفياً خالصاً، أو اختاروا مع هذا من آراء

الفرق المخالف كابن قتيبة الذي تلقى عن البصريين ولم يأذ عن كوفي ومع ذلك خلط في كتبه فأخذ عن الكوفيين مع غلوه في البصريين^١. ووجدت فئة ثالثة معهما أخذت النحو عن الفريقين، خلطت المذهبين وانحاز فريق منها إلى البصريين وآخر على الكوفيين، أو لم تخلط المذهبين وظل منهم البصري ومنهم الكوفي مع سماعهم عن الشيخين وأخذهم بنحو المدرستين. كالزجاج الذي أخذ في أول عهده عن ثعلب أمام الكوفيين ولازمه وأخذ عنه كتب الكسائي والفراء وكان معتمد شيخه في مجادلة كل من يحاول الجلوس للدرس النحوي في مسجد بغداد وفض حلقة وابعاد الناس عنه، فلما ظهر المبرد الرجل الغريب المتحدث في مسجد بغداد وذهب الزجاج ليناقشه ويفض حلقة - على عادته - انحاز إليه ولازمه وجر نحو الكوفيين ومصنفاتهم، ولم يخلط مع ذلك المذهبين في كتبه وظل بصرياً نحواً وآراءً واعتقاداً^٢. وقد اتضحت من بين هذه الفئات المتنوعة ثلاثة اتجاهات في الدارسين البغداديين:

١- من ظل اتجاهه بصرياً سواء أكان بصرياً أم لم يكن، وسواء أخذ عن شيوخ المدرستين أم عن البصريين فقط.

٢- من ظل اتجاهه كوفياً سواء أكان ممن أخذ عن شيوخ المدرستين أم ممن أخذ عن الكوفيين فقط.

٣- من خلط المذهبين البصري والكوفي في مؤلفاته وآرائه واختار منهما، سواء أخذ عن شيوخ المدرستين، أم اقتصر في الأخذ عن شيوخ احدهما.

^١ الفهرست ٨٥.

^٢ طبقات النحويين واللغويين ١٢٠-١٢٢.

من ظل بصرياً:

فمن أشهر الذين غلب عليهم الاتجاه البصري وعدوا من البصريين ولم يخلطوا:

١ - الزجاج

أبو اسحاق إبراهيم بن السري من أكابر أهل العربية قال: "وكنيت أخرط الزجاج فاشتبهت النحو فلزمت أبا العباس المبرد.. فلزمته وكنيت أخدمه في أمور كثيرة... وينصحنى بالعلم حتى استقلت فجاءه كتاب من الأكابر يلتمسون معلماً نحويّاً لأولادهم فقلت له: اسمني إليهم فأسماني فكنت أعلمهم وبقيت مدة على ذلك فطلب عبيد الله بن سليمان مؤدّباً لابنه القاسم، فقال: لا أعرف إلا رجلاً زجاجاً عند قوم فكتب إليهم عبيد الله فاستنزلهم عني وأحضرني وأسلم إلى القاسم فكان ذلك سبب غناي. كان قد أخذ على ثعلب أول حياته العلمية النحو الكوفي، وكان لا يتأخر عن حضور حلقاته، ووثق به ثعلب فكان يساعده على فض حلقات الذي يطراون على بغداد ويحاولون أن يتصدروا لتدريس النحو، حتى ورد المبرد فكان أول من ناقشه وأعجب به وتعصب له وللبصريين ونحوهم ولسيبيويه وكتابه، وكان مشغولاً بتدريسه لمن يريد من البغداديين بعد بعد شيخه المبرد. وأصبح متعصباً على الكوفيين فإذا سمع المتعصبين للكوفيين كأبي موسى الحامض يذم المبرد أو سيبيويه أو يونس يستشيط غضباً ويبدا بتخطئة شيخه الول ثعلب. له اعتراض على "الفصيح" لثعلب شمل نصب مسائل الكتاب مما دعا متعصبي الكوفيين كابن خالويه إلى الرد على اعتراضاته. توفي ببغداد سنة ٣١٠هـ أو ٣١٦هـ، وله كتب منها: "المعاني في القرآن" وكتاب "الفرق بين المؤنث والمذكر" وكتاب "فعلت وأفعلت" و "الرد على ثعلب في الفصيح" و "شرح أبيات سيبيويه" و "ما ينصرف وما لا ينصرف" و "النوادر". ذكره

أبو سعيد السيرافي في أصحاب المبرد وقال فيه وفي ابن كيسان: "وإليهما انتهت
الرياسة في النحو بعد أبي العباس محمد بن يزيد المبرد، إلا أن أبا إسحاق كان أشد
لزوماً لمذهب البصريين، وكان ابن كيسان يخلط المذهبيين"^١.

٢- ابن السراج:

أبو بكر محمد بن السري كان أحدث غلمان المبرد سناً مع ذكائه وفطنته وكان
المبرد يميل إليه ويقربه ويشرح له ويأنس به. قرأ كتاب سيبويه على المبرد ثم عاود
قراءته بعد موته وإليه انتهت الرياسة في النحو بعد موت الزجاج. توفي سنة ٣١٦هـ،
أخذ عنه جماعة من النحويين كتاب سيبويه منهم أبو سعيد السيرافي وعلي بن
عيسى الرماني. صنف كتباً مشهورة في النحو أشهرها:
كتاب "الجمال" وكتاب "الأصول في النحو" و "الاشتقاق" و "وشرح كتاب
سيبويه" ذكره أبو سعيد السيرافي في أصحاب المبرد وهو شيخه^٢.

٣- الزجاجي:

أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق، سمي بالزجاجي نسبة إلى شيخه الزجاج
لملازمته إياه واتصاله الدائم به، كان من أفاضل أهل النحو، وأخذ عن أبي إسحاق
الزجاج وأبي بكر بن السراج وعلي بن سليمان الأخفش الأصغر. سكن دمشق وانتفع
الناس بعلمه، وتوفي سنة ٣٣٧هـ.

^١ أخبار النحويين البصريين ٨٠-٨١. وتنتظر ترجمته في نور القبس ٣٤٢ وطبقات النحويين واللغويين
١١١-١١٢ والفهرست ٦٦، ونزهة الألباء ١٦٧، ومعجم الأدباء ١٣٠/١ وإنباه الرواة ١٥٩/١
ووفيات الأعيان ٣١/١-٣٣.

^٢ تنتظر ترجمته في: أخبار النحويين البصريين ٨١ وطبقات النحويين واللغويين ١٢٢-١٢٥ ونور القبس
٣٤٢ والفهرست ٦٧-٦٨ ونزهة الألباء ١٧٠-١٧١ ووفيات الأعيان ٣/٤٦٢-٤٦٣.

ترجم له ابن النديم فيمن خلط المذهبين، والزبيدي في النحويين البصريين من أصحاب الزجاج. ألف كتباً في النحو من أهمها: كتاب "الجمال" و "الايضاح في علل النحو" و "شرح خطبة أدب الكاتب" لابن قتيبة^١.

٤ - المبرمان:

أبو بكر محمد بن علي العسكري. سمع من المبرد وأكثر من الأخذ عن الزجاج. قال ابن أبي العباس المبرد "في تلاميذ أبي رجلان": أحدهما يسفل والآخر يعلو، فقليل له: من هما؟ فقال أحدهما يعلو وهو الكلابزي يقرأ على أبي ثم يقول: قال المازني: والآخر المبرمان، يقرأ على أبي ويأخذ عنه كتاب سيبويه ثم يقول: قال الزجاج. بَعْدَ صيته في النحو ومن مؤلفاته: "شرح شواهد سيبويه" و "شرح الكتاب" لم يتم. توفي سنة خمس وأربعين وثلثمائة. قرأ عليه أبو سعيد السيرافي كتاب سيبويه، وأخذ عنه وعن ابن السراج^٢. النحو، وترجم له في أصحاب المبرد.

٥ - ابن درستويه:

أبو محمد عبدالله بن جعفر بن درستويه الفسوي قرأ على المبرد كتاب سيبويه وبرع، وكان نظّاراً، لقي ثعلباً وأخذ عنه أيضاً، كان فاضلاً متقناً في علوم كثيرة من علوم البصريين، ويتعصب لهم عصبية شديدة.

ولد سنة ٢٥٨هـ وتوفي سنة ٣٤٧هـ. ألف كتباً كثيرة في النحو والأدب والعلوم القرآنية، ومن أشهر كتبه النحوية، كتاب "شرح الفصيح" و كتاب "المذكر والمؤنث" و

^١ - ترجمته في طبقات النحويين واللغويين ١٢٩ والفهرست ٧٨ ونزهة الالباء ٢١١.

^٢ - ترجمته في طبقات النحويين واللغويين ١٢٥. وينظر أخبار النحويين البصريين ٨١ وبغية الوعاة ١٧٥-١٧٧.

"المقصود والممدود" وكتاب "الكتاب" و "أسرار النحو" لم يُتِمَّه، و "شرح المقتضب" لم يُتِمَّه و "النصرة لسيبويه على جماعة النحويين"^١.

وقد عد الدكتور شوقي ضيف من البغداديين المتعصبين اثنين من أكابر النحويين هما:

٦- أبو علي الفارسي:

الحسن بن أحمد بن عبد الغفار النحوي، من أكابر أئمة النحويين أخذ عن الأخفش الصغير والمبرمان ونفطويه ومن أشهر شيوخه أبو بكر بن السراج وأبو اسحاق الزجاج، علت منزلته في النحو حتى فضله كثير من النحويين على أبي العباس المبرد، وقد حضر حلقات البغداديين كابن الخياط، وخالط الكوفيين والبصريين والبغداديين، قرأ كتاب سيبويه وتمثل آراءه وتثقف بثقافات عصره ثقافة واسعة توفي سنة ٣٧٧هـ. ولم يعده أكثر من ترجم له من البغداديين وذلك لأنه لم ينشأ في بغداد ولم يقيم بها وإنما ولد بـ "فسا" من أرض فارس، وانتقل إلى بغداد سنة ٣٠٧هـ في حدود العشرين من العمر ورحل إلى عسكر مكرم والموصل ودرس بهما ثم بحلب وبمدين أخرى من الشام ثم عاد إلى بغداد حيث رحل إلى شيراز. فهو ممن لا ينطبق عليه التسمية بالبغداي وإن عدّه الدكتور شوقي ضيف منهم. له كتب كثيرة من أشهرها.

"الاغفال" و "شرح أبيات الايضاح" و "الشيرازيات" و "الجلبيات" و "التذكرة" و "الايضاح في النحو"^١. وقد جعله الدكتور عبد الفتاح شلبي من البغداديين فقال بعد

^١ - ترجمته في طبقات النحويين واللغويين ١٢٧ والفهرست ٦٨-٦٩. ونزهة الالباء ١٩٧-٢٠٠ وبغية الوعاة ٣٦/٢.

كلامه على المدرسة البغدادية واتجاهات الدارسين فيها: "وأبو علي نفسه أحد هؤلاء فعلى الرغم من نزعته التي تميل إلى البصرية كان يرى رأي الكوفيين في بعض المسائل النحوية"^٢.

٧- ابن جني:

أبو الفتح عثمان بن جني النحوي الموصل، ولد في الموصل وبها نشأ ودرس على أحمد بن محمد الموصل موطنه. دخل بغداد في سن مبكرة فيما يبدو وقد تردد في كتبه ذكر بعض تلاميذ المبرد وثلعب مثل محمد بن سلمة وابن مقسم، لكنه سرعان ما عاد على الموصل وأخذ يدرّس الطلاب في مسجدها وهو شاب. أخذ عن أبي علي الفارسي بعد تعرفه عليه عند زيارته للموصل وصاحبه منذ ذلك الحين ولازمه وتبحر في علم التصريف لأنه كان السبب في تعرفه على أبي علي الفارسي حيث أخطأ في مسألة تصريفية هي قلب "الواو" "ألفاً" في "قام" و"قال" ولهذا أحب التصريف وبالغ فيه، وتوفي سنة ٣٩٢هـ. بلغت مصنفاته نحو الخمسين، أشهرها: "الخصائص" و "اللمع" و "التصريف الملوكي" و "شرح تصريف المازني" المسمى بـ "المنصف". و "المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها" وهو أميل إلى علم النحو، و "التمام في شرح أشعار هذيل" وهو شرح نحوي لغوي. و "سر صناعة الاعراب". وقد عده الدكتور شوقي ضيف في البغداديين لأنه كان يوافق البصريين في مسائل كثيرة ويأخذ بوجهة النظر الكوفية في مسائل مختلفة. لكن من ترجموا له من القدماء والمحدثين لم يعدوه منهم غير ابن النديم الذي جعله فيمن خلط

^١ - ترجمته في طبقات النحويين واللغويين ١٣٠ والفهرست ٦٩ ونزهة الالباء ٢١٦-٢١٧ وغيرها، والمدراس النحوية ٢٥٥ وما بعدها.

^٢ - أبو علي الفارسي ٤٤٨.

المذهبيين. وقد عده الدكتور فاضل صالح السامرائي من البصريين، قال: "أن الناظر في كتب أبي الفتح لا شك واجد أنه يعد نفسه من البصريين لا من البغداديين ولا من غيرهم".^١

من ظل كوفيًا:

١ - الحامض:

أبو موسى سليمان بن محمد بن أحمد، من أصحاب ثعلب و مختص به ومن أكابر أصحابه، كان نحويًا مذكورًا وبارعًا مشهورًا من نحاة الكوفيين. وقد أخذ عن البصريين إلا أنه مع هذا شديد العصبية لثعلب وللكوفيين، ضيق الصدر سيء الخلق حتى قيل له: "مثلك لا يصلح أن يصلي على أبي العباس" عندما صلى على جنازة ثعلب. يوصف بصحة الخط ويحسن المذهب في الضبط. له كتاب "مختصر في النحو" و كتاب "خلق الإنسان" وكتاب "الوحوش" و "النبات". توفي سنة ٣٠٥هـ. ترجم له ابن النديم فيمن خلط المذهبيين.

٢ - ابن الأنباري:

أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري المتوفي سنة ٣٢٧هـ. وسنتكلم عليه بإيضاح.

من خلط المذهبيين:

١ - ابن قتيبة:

أبو محمد عبدالله بن مسلم قتيبة الدينوري، ولذي في الكوفة، ونسب إلى "الدينور" من بلاد فارس لتوليه القضاء بها، أخذ عن أبي حاتم السجستاني والرياشي وعبد الرحمن بن أخي الأصمعي. يغلو في البريين إلا أنه خلط المذهبيين وحكى في

^١ ابن جني النحوي ٢٦٨ وما بعدها.

كتبه عن الكوفيين. وكان صادقاً فيما كان يرويّه، عالماً باللغة والنحو وغريب القرآن ومعانيه والشعر والفقه، كثير التصنيف والتأليف وكتبه بالجبل مرغوب فيها. وقال أبو الطيب اللغوي فيه:

"أخذ عن أبي حاتم والرياشي وعبد الرحمن ابن أخي الأصمعي، وقد أخذ ابن دريد عن هؤلاء وعن الاشناندي، إلا أن ابن قتيبة خلط عليه بحكايات عن الكوفيين لم يكن أخذها عن ثقات، وكان يستترع في أشياء لا يقوم بها نحو تعرضه لتأليف كتابه في النحو، وكتابته في "تعبير الرؤيا" وكتابته "في معجزات النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله" و "عيون الخبر" و "المعارف" و "الشعراء" ونحو ذلك مما أزرى به عند العلماء، وإن كان نفق بها عند العامة ومن لا بصيرة له" ويبدو من هذا الكلام أن أبا الطيب اللغوي متحامل عليه، وعلة ذلك على ما يظهر أنه بصري وأخذ بعض الآراء عن الكوفيين وكان أبو الطيب وأبو حاتم السجستاني وغيرهما من النحاة واللغويين الأوائل لا يجيزون أن يأخذ البصري عن كوفيين ويعيبونه على ذلك كما فعلوا مع أبي زيد الأنصاري وكما فعل هذا، مع قول الخطيب البغدادي فيه وكان رأساً في العربية واللغة والأخبار وأيام الناس ثقة، ديناً، فاضلاً".

كتبه كثيرة، وذكر أبو الطيب فيما قدمناه من قوله أشهرها. توفي سنة ٦٧٠ هـ وعده ابن النديم أول الذين خلطوا المذهبين^١.

٢- ابن كيسان:

^١ - ترجمته في مراتب النحويين ٨٤-٨٥ والفهرست ٨٥-٨٦ ونزهة الالباء ١٤٣-١٤٤ وتاريخ

بغداد ١٧٠/١٠-١٧١.

أبو الحسن محمد بن أحمد بن إبراهيم المتوفى سنة ٢٩٩ هـ وقيل ٣٢٠ هـ.
وسنتحدث عنه بإيضاح.

٣ - الأخفش الصغير:

أبو الحن علي بن سليمان الأخفش النحوي أخذ عن المبرد وثعلب واليزيدي أبي العيناء، ولم يبلغ حد الكمال في النحو، وكان يتبرم لو سأل أحد فيه. ورد مصر واستقر فيها ثلاث عشرة سنة ثم عاد إلى حالب، ومنها عاد إلى بغداد حيث توفي فيها سنة ٣١٥ هـ. وله من المصنفات كتاب "الأنواء" وكتاب "التثنية والجمع" وكتاب "الجراد" وذكر ياقوت أنه ألف رسالة في خمس كراريس سماها: "تفسير رسالة سيويه" وهي شرح لمقدمة الكتاب "باب علم ما الكلم من العربية). وقد سبقه محمد بن الوليد بن ولاد إلى ذلك^١.

٤ - ابن شقير

أبو بكر أحمد بن الفرّج بن شقير النحوي كان عالماً بالنحو وكان على مذهب الكوفيين. هذا ما قاله فيه الأنباري وهو يريد أنه بغدادى على مذهب الكوفيين لأنه قال بعده وكان من طبقة أبي بكر بن السراج وأبي بكر المعروف بمبرمان وأبي بكر الخياط وكان مثله في الميل إلى مذهب الكوفيين. أما السيرافي فقال فيه وهو يتحدث عن ابن السراج ومبرمان من أصحاب المبرد: "وفي طبقتهما من يخلط علم البصريين بعلم الكوفيين أبو بكر بن شقير وأبو بكر بن الخياط، وعده ابن النديم من خلط

^١ - ترجمته في طبقات النحويين واللغويين ١٢٥-١٢٧ والفهرست ٩١، ونزهة الالباء ١٧٠.

المذهبيين. وله من الكتب: كتاب "مختصر نحو" وكتاب "المقصود والممدود" و
"المذكر والمؤنث"، توفي سنة ٣١٧هـ. ولم يذكر الزبيدي سوى اسمه.^١

٥- ابن الخياط:

أبو بكر محمد بن أحمد بن منصور المعروف بابن الخياط، من أهل سمرقند،
قدم بغداد واجتمع بأبي اسحاق الزجاج وجرى بينهما مناظرة، وكان يخط المذهبيين
توفي سنة ٣٢٠هـ. له من الكتب: كتاب "النحو الكبير" وكتاب "معاني القرآن" وكتاب
"المقنع" وكتاب "الموجز". ولم يذكر الزبيدي سوى اسمه.^٢

٦- نفطويه:

أبو عبدالله إبراهيم بن محمد بن عرفة بن سليمان العتكي الأزدي أخذ عن ثعلب
والمبرد وسمع من محمد بن الجهم، وعبيدالله بن اسحاق بن سلام. مولده سنة ٢٤٤ هـ
وكان طاهر الأخلاق حسن المجالسة، خلط المذهبيين. كان عالماً بالحديث وأديباً
متفناً في الأدب حافظاً لنقائض جرير والفرزدق وغيرهم من الشعراء، وكان ضعيفاً
في النحو، وتوفي ببغداد سنة ٣٢٣هـ. له الكتب "المقنع في النحو" وكتاب "القوافي"
و "الرد على من زعم أن العرب تشتق الكلام بعضه من بعض" وكتاب "الرد على
من قال بخلق القرآن" وكتاب "الرد على المفضل في نقضه على الخليل" وكتاب
"الملح" وكتاب "المصادر" وكتاب "في أن العرب تتكلم طبعاً لا تعلماً".^٣

^١ - ترجمته في طبقات النحويين واللغويين ٨١. وطبقات النحويين واللغويين ١٢٨، والفهرست ٩١،
ونزهة الالباء ١٧١.

^٢ - ترجمته في طبقات النحويين واللغويين ٨١. وطبقات النحويين واللغويين ١٢٨، والفهرست ٨٩،
ونزهة الالباء ١٦٩

^٣ - ترجمته في طبقات النحويين واللغويين ١٧٢، والفهرست ٩٠، ونزهة الالباء ١٧٨-١٨١

٧- الخزاز:

أبو الحسن عبدالله بن محمد بن سفين الخزاز، كان معلماً مليح الخط ومن النحويين ممن خلط المذهبين.

ذكر ابن النديم عدداً كبيراً من النحويين واللغويين ممن خلط المذهبين في كتبه^١. وأشهرهم ابن خالويه المتوفى ٣٧٠هـ^٢. ونختتم الكلام على نحاة مدرسة بغداد المشهورين برأي غريب ذهب إليه الدكتور أحمد مكي الأنصاري حيث عد أبا زكريا يحيى بن زياد الفراء المؤسس الحقيقي لمدرسة بغداد النحوية. وقد حاول البرهنة على ذلك بعرض آرائه النحوية بعد ذكر خصائص كل من مدرسة البصرة النحوية ومدرسة الكوفة النحوية والمدرسة البغدادية، وبدء تأثر الفراء بكل منها وظهور هذا التأثير في نحوه، ثم تحدث عن مظاهر استقلاله بعد أن قال: "إن الفراء في النحو كان نسيج وحده، وكان يؤسس مذهباً خاصاً به ذلك هو المذهب البغدادي فيا أرى"^٣ واستخلص من دراسته الموسعة ما جاء في قوله: "وأخيراً هديت إلى أن أبا زكريا يحيى بن زياد الفراء المؤسس الحقيقي للمدرسة البغدادية، فأثبت ما رأيت، فإن أكن قد وقفت فذلك الذي أبغي، وإن تكن الأخرى فما على المحسنين من سبيل"^٤.

وقد سبق لنا أن ترجمنا للفراء ترجمة مفصلة في المدرسة الكوفية، لأنه بهذا المنهج الذي اتبعه والأصول التي استخدمها والآراء التي قال بها والمصطلحات التي وضعها شيخ مدرسة الكوفة النحوية ولا علاقة له بمدرسة بغداد النحوية التي اتفق الباحثون على أنها نشأت من تلاميذ المبرد وثعلب.

المبحث الرابع:

^١ - الفهرست ٩٠، وتتنظر فيمن خلط المذهبين ٨٥-٩٢ وفيمن لا تعرف أنسابهم منهم ٩٢-٩٥.

^٢ - الفهرست ٩٢.

^٣ - أبو زكريا الفراء ٣٥١-٣٥٢ وينظر الاستدلال على ذلك ص ٣٥٢-٤٥٤.

^٤ - أبو زكريا الفراء ٤٥٥.

النحو في أقطار الوطن العربي

النحو في مصر

مصر:

مصر بلد عريق في الحضارة، عرفت منذ فجر التاريخ بحضارات تميزت بكثير من العلوم والفنون. وقد مرت بعهود مختلفة وبمراحل ازدهار ونمو وبمراحل ظلام وفوضى وتتابعت فيها دول فرعونية لوبية وآشورية ثم رومانية ظلت تحكم البلاد حوالي ثلاثة قرون ونصب حتى حررها المسلمون ما بين عامي ١٨ و ٢٠ للهجرة في خلافة عمر ابن الخطاب رضي الله عنه وعلى يد القائد العربي عمرو بن العاص قاهر الرومان حيث أصبحت مصر منذ هذا التاريخ جزءاً من الدولة العربية الإسلامية فوفدت عليها وفود، وجلت إليها جاليات كثيرة من مختلف القبائل العربية. وتوالى على مصر أمراء من العرب يحكمونها من قبل الخلفاء الراشدين، ثم من قبل خلفاء بني أمية ولم يجد العباسيون صعوبة في مد سلطانهم إليها بعد زوال الدولة الأموية وتتابع عليها في أيامهم ولاية كان معظمهم من الترك الذين يفضلون الإقامة ببغداد وينيبون عنهم من يقوم بأمرها حتى أدى هذا إلى ظلم أهلها واغفال عمرانها وفساد الحاكمين فيها فقامت فيها ثورات متعددة تضعف حيناً وتشتد أحياناً شارك فيها العرب والأقباط بدافع من المصلحة المشتركة، إلا أنه مع كل ذلك حرر العرب المسلمون مصر وشعبها من الفرعونية حتى نسيت، بعد أن أنشأها العهد الإسلامي إنشاءً جديداً إذ دخل المصريون على اختلاف جنسياتهم وأديانهم في دين الله أفواجاً ولا سيما في زمن الوليد بن عبد الملك الذي خفف الضرائب عن الشعب واتخذ لهم العربية اللغة الرسمية وأحلها محل ما كان سائداً فيها من لغات. ولا سيما ما كان في

ضبط الدواوين، فساد الإسلام بسيادتها لأنها لغة هذا الدين الحنيف الذي يقوى بقوتها ويزدهر بإزدهارها على ألسن الشعوب المحررة. وغلبت على المصريين بغلبة اللغة العربية على ألسنتهم مقومات عربية كثيرة ونمت عادات وتقاليد عربية إسلامية بعد أن نعموا بهذا الدين العظيم، مع أنهم ظلوا تابعين لغيرهم من البلدان في التوجيه السياسي وما يتبعه من ظروف تحسن أو تسوء تبعاً لذلك حتى جاء أحمد بن طولون عام ١٠٥٤هـ نائباً عن واليها التركي "بقبق" أو "بكباك" فأخذ في تحسين أمور البلاد، ثم استقل بها سنة ٢٦٩هـ حيث حذف اسم الخليفة من خطبة الجمعة، ومنع إرسال الخراج إلى بغداد ليُنْفَق في تحسين أمور البلاد، وبنى مدينة "القطائع" والجامع المعروف باسمه "مسجد ابن طولون"، وفي زمانه استقلت مصر سياسياً. غير أن خلفاءه لم يستطيعوا المحافظة على هذا الاستقلال ولا سيما ابنه خمارويه الذي انصرف إلى اللهو والملذات وانفق عليها ما في خزائن الدولة فعادت تابعة للدولة العباسية سنة ٢٩٣هـ بعد أن زوج خمارويه ابنته للخليفة المعتضد العباسي وبعد حكم ولديه أبي العساكر وأبي موسى فكثر فيها الاضطرابات حتى جاء محمد بن طغج الأخشيدي الذي ولاه عليها الخليفة العباسي عام ٣٢٤هـ فاستطاع أن ينهض بالبلاد نهضة جديدة وأبدى مقدرة كبيرة في حكمها وصد الطامعين فيها والخارجين عليها وامتد حكمه إلى الشام، وحكم مكة والمدينة باسم الخليفة واستمر كافور الأخشيدي المملوك الحبشي الذي عين وصياً على أبي القاسم بن أحمد بن طولون في حكم البلاد بكفاءة حتى مات وضعفت دولته من بعده وسارع الفاطميون الذين كانوا قد نشروا دعوتهم في بلاد المغرب وأسسوا دولتهم إلى نشر هيمنتهم على مصر وانتقلوا إليها واتخذوها دار إقامتهم وبنوا "القاهرة المعزية" و "الجامع الأزهر" وسموا أنفسهم بالخلفاء تشبهاً بالعباسيين الأوائل ونظّموا دولتهم وأحاطوها بمختلف مظاهر الابهة

والسلطان وأشاعوا المواليد الدينية والأعياد والمواسم متخذين منها فرصة للسر والإحسان ولشعل الشعب المحمري عنهم بها، وقربوا العلماء والأدباء والشعراء، وفي عهدهم وجدت العربية فيهم أكبر عون ونصير لها فازدهرت بعلومها ورجالها ولم يهمل الفاطميون مع هذا تعمير البلاد فأحبهم المصريون مع مخالفتهم إياهم في مذهبهم الذي أخذوا يعملون على نشره في البلاد مستخدمين اللين حيناً والقوة والشدة أحياناً أخرى. فأصاب البلد القحط والجدة والغلاء إلا إنها مع ذلك بقيت مستقلة عن غيرها عزيزة الجانب حتى ضعف أمر الفاطميين ودالت دولتهم على يد القائد الشجاع صلاح الدين الأيوبي الذي استطاع أن يجمع السلطة في يده فحكم مصر نائباً عن أمير الشام - نور الدين زنكي - فاستقل بها وأعلن نفسه سلطاناً عليها وبه ابتدأت الدولة الأيوبية في مصر والشام، انصرف صلاح الدين إلى سياسة البلاد بمهارة وقدرة وأصلح أمرها وعمل على نشر المذهب الشافعي فيها وقوى جيشه الذي استطاع به أن يخوض غمار الحروب الصليبية وبها استرجع بيت المقدس وأربع الصليبيين، وظل الأيوبيون حماة الدين الإسلامي ذائدين عن المسلمين ضد المتعصبين الراغبين في الاستحواذ على بلاد المسلمين. فاستقرت البلاد وانتشر الدين الإسلامي وعلومه ولا سيما ما كان في عهد مؤسس دولتهم صلاح الدين القائد المحرر الذي كسر شوكة الغزاة في عهده ووقعت بعده معركة المنصورة التي أذلتهم بعد أن أسر فيها المصريون ملك فرنسا لويس التاسع الذي حاول مد نفوذه لها وسجنوه سنة ٦٤٨هـ. ولم يقتصر أثر الدولة الأيوبية على الناحية السياسية والاجتماعية وإنما امتد أثرهم إلى الناحية الثقافية فاقربوا العلماء، واهتموا ببناء المساجد لنشر الدين ورتبوا الدروس في العلوم الدينية واللغة العربية وشجعوا علماءها. وظل الأمر كذلك حتى ضعف ملوكهم وتسلم الحكم عن آخر ملوكها "شجرة الدر" زوجة

الملك الصالح الأيوبي - زوجها الثاني المملوكي "عز الدين بن ابيك" عام ٦٤٨هـ وبه بدأ بعهد المماليك في مصر، الذين حكموها حكماً مضطرباً، لكنه دام مع ذلك حوالي ثلاثة قرون حيث تسلم مقاليد الحكم فيها الأتراك العثمانيون عام ٩٣٣هـ وبه بدأ عصر جديد.^١

لقد حرر العرب المسلمون مصر من سيطرة الحكم الروماني وكانت الثقافة اليونانية والرومانية منتشرة فيهما وكثر العرب النازحون إلى مصر في أول عهد الدولة الإسلامية فخططوا "مدينة الفسطاط" واستوطنوا المدن والأرياف، مشغولين بالزراعة، واختلطوا بأهل مصر من الأقباط الذين دخلوا في الإسلام عن طريق التزواج.^٢ أصبحت مصر مركزاً عالياً منذ نشر الإسلام ظلالة على ربوعها، وبدأت الحركة العلمية كما بدأت في أقطار العالم الإسلامي الأخرى بالعلوم الدينية التي سادت غيرها مما كان منتشراً في هذه البلدان من ثقافات يونانية أو رومانية أو فارسية، هذه الثقافات التي أذهلها هذا الانتشار السريع لهذا الدين العظيم فتراجعت وانكمشت ولم تستعد نشاطها إلا بعد أن عدلت من تعاليمها وغيرتها بما يتفق وتعاليم الإسلام الحنيف. لقد كان الصحابة مؤسسي مدرسة مصر الدينية وأولهم عبدالله بن عمرو بن العاص الذي نزل مصر مع الحملة الإسلامية التي قادها أبوه، ولما توفي أبوه أقره معاوية على حكم مصر ثم عزله، اشتهر عبدالله بأنه أكثر الناس حديثاً عن رسول الله ﷺ وكان يدون عنه ما يسمع في صحيفته التي سماها "الصادقة"^٣ وكان

^١ - ينظر في هذا العرض التاريخي بدائع الزهور ج ٢ وخطط المقرئ بأجزائه، وصبح الأعشى للقلقشندي ج ٢ وحسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، وغيرها من كتب التاريخ.

^٢ - ينظر خطط المقرئ ٨٢/١.

^٣ - ينظر طبقات ابن سعد ١٨٩/٧ وفجر الإسلام ٣٣٣/١-٣٣٤.

كثير الاطلاع في غير الحديث، وكان يقرأ التوراة ويقرأ بالسريانية، روى عنه الحديث كثير من الصحابة والتابعين في المدينة والشام ومصر^١، واشتهر في مصر غيره من علماء الدين منهم يزيد بن أبي حبيب من التابعين، وتلميذاه عبدالله بن لهيعة، والليث بن سعد الذي كان له مذهب خاص به يقابل مذهب مالك في المدينة والأوزاعي في الشام. وهكذا كان للصحابة أينما حلوا الأثر المباشر في نشر الدين الإسلامي وعلومه والاهتمام بالقرآن وقراءاته فكان منهم عبد الله بن عمر في المدينة وعبدالله بن مسعود في الكوفة وعبدالله بن عباس في مكة وعبدالله بن عمرو بن العاص في مصر. وجاء بعدهم التابعون الذي تلقوا عنهم وحلوا محلهم في نشر العلوم الإسلامية عن طريق الرحلات بين بلدان العالم الإسلامي يومذاك.

لقد أصبح لمصر منذ بداية العهد الإسلامي دور كبير في نشر العلوم، ولاسيما الإسلامية منها حتى أصبحت جامعة إسلامية بما توافد عليها من العلماء من مختلف الأقطار الإسلامية، وفي مختلف فروع العلم، وكان للصحابة فضل الريادة في نشر العلوم الإسلامية وتمييزها، وكان بينهم علماء اشتهروا بقراءاتهم في بلدانهم وآخرون اشتهروا بعلوم إسلامية غير القراءات، وشارك في الدراسات القرآنية في مصر ثلاثة من أشهر الصحابة هم عبدالله بن عمرو بن العاص (-٦٥هـ) الذي كان مقرئاً مشهوراً إلى جانب كونه محدثاً. وعبدالله بن عمر بن الخطاب (-٧٣هـ) الذي اشتهر من تلاميذه نافع بن أبي نعيم العدوي (-١١٧) مقرئ المدينة وأحد القراء السبعة. وعبدالله بن عباس (-٦٨هـ) الذي اشتهر بالتفسير الذي طغى على شهرته

^١ - ينظر خطط المقرئ ٣٣٣/٢.

بالقراءة. وكان لهؤلاء الصحابة الأثر الأكبر في قيام نهضة في القراءات^١. وكان لكل منهم مصحفه الخاص وقراءته بحروفه الخاصة، لهذا لم يستطيعوا أن يكونوا مدرسة موحدة لاختلاف مصاحفهم، وإنما نشأت أول مدرسة مصرية لاقراء القرآن على يد قارئ مصري ذاع صيته في داخل مصر وخارجها هو عثمان بن سعيد المقلب بـ "وَرَش" (١١٠-١٩٧هـ) الذي أخذ القراءة عن نافع بن أبي نعيم مقرئ المدينة (-) ١٦٧هـ) الذي لجأ إليه ورش ليتعلم منه القرآن بقراءته التي اشتهر بها وأصبح بها إمام المدرسة المصرية في القراءات، إذ تواترت قراءة نافع عن رسول الله ﷺ بروايته عن مجموعة كبيرة من التابعين بلغوا سبعين تابعياً فيما روى نافع نفسه، وأخذ عن خمسة من أشهر القراء في زمانه، وأخذ عنه الكثيرون وأشهرهم وَرَش الذي ختم القرآن على نافع أربع ختمات^٢.

اشتهرت قراءة وَرَش في الأمصار الإسلامية، وتميزت عن غيرها من القراءات القرآنية التي أخذ أصحابها عن نافع بن أبي نعيم كما أخذ وَرَش، وأصبح وَرَش صاحب مدرسة في الاقراء امتدت قروناً وكثر تلاميذها في أنحاء العالم الإسلامي يومئذ، وقرأ بها المغاربة والأندلسيون قاطبة وجماعة من أهل بغداد واليمن، وكان لشيوعها وانتشارها أسباب كثيرة أشهرها أنه كان له اختيار خالف فيه أستاذه، لأنه تعمق في ملاحظة القراءات التي أخذها عنه والقراءات المتواترة الأخرى فكّون من مجموع قراءاته على نافع ومخالفاته له، واختياراته من غيره قراءة خاصة به اعتقد

^١ - ينظر فتوح مصر ٩٦ وحسن المحاضرة ٢١٥/١ و ٢٦٣ وغاية النهاية في طبقات القراء ٤٣١/١ والقرآن وعلومه في مصر ١٥-١٦ و ١٨٤ والدراسات اللغوية والنحوية في مصر ٢٧ و ٢٨.

^٢ - ينظر معرفة القراء الكبار على الطبقات والأمصار ٨٩ والقرآن وعلومه في مصر ١٩٥ وما بعدها.

أنها متقنة وأعجب بها القراء في مختلف الأمصار وعلى مرور السنين تميزت بتعمقه في النحو وإتقانه لاعتماد القراءات على الناحية الصوتية والتغيرات الصرفية والظواهر الاعرابية التي ينبغي عليها المعنى الكلي المفهوم من الآية، ويتغير هذا المعنى بتغير القراءة فكان لا بد لمن يمارس القراءة من الاطلاع على النحو والتعمق فيه وبغيره لا يمكن تصور القراءة المتقنة، كان هذا مبدأ ورّش في قراءته التي وصفت بأن من خصائص منهجه فيها أنه "إذا قرأ يهمز ويمد ويشدد ويبين الإعراب" وقرنت بها قراءة نافع فقليل فيها "كان لا يهمز همزاً شديداً ويمد ولا يشدد، ويقرب بين الممدود وغير الممدود".^١

وقد ساعد في نشر قراءة ورّش وما فيها من ظواهر نحوية مجموعة من تلاميذه الأذكياء الذين حملوها ونشروها وألفوا فيها وشرحوا خصائصها وبيّنوا مميزاتها وادّاعوها بين الناس وصنّفوا فيما فيها من ظواهر نحوية ولغوية دراسات مهمة عدت أساساً لقيام مدرسة نحوية مصرية نشأت في مصر عند طبقة القراء، وكانت تقابلها مدرسة نحوية أخرى نشأت في مصر لكنها أدخلت النحو من الأمصار الإسلامية الأخرى.^٢

خصائص التحليل النحوي عند مدرسة القراء النحوية المصرية:

كانت قراءة ورّش وما تميزت به من اعتماد الأصول اللغوية والنحوية في ميدان القراءات والدراسات اللغوية التي قامت عليها تمثل الإصالة المصرية في هذه الحقبة المبكرة من تاريخ نشأة العلوم العربية في مصر أكثر مما تمثلها الدراسات

^١ - ينظر كتاب السبعة في القراءات ١٣٢ وغاية النهاية في طبقات القراء ٥٠٣/١.

^٢ - ينظر الدراسات اللغوية والنحوية في مصر ٣٤.

اللغوية والنحوية الوافدة إلى مصر من المشرق في حدود القرن الثالث للهجرة لأن هذه تمثل النحو في بيئاته الأصلية البصرة والكوفة وبغداد ولا تمثل البيئة المصرية التي كانت لها دراسات اللغوية والنحوية المستنبطة من قراءات ورش، وكان لكل من هذين النوعين من الدراسات في مصر خصائص مستقلة ظلت ظاهرة حتى امتزجت على يدي أبي جعفر النحاس (-٣٣٨هـ). منهج التحليل النحوي عند ورش في القراءات القرآنية والذي يمثل منهج المدرسة المصرية بشكل أو بآخر، تميزت قراءة ورش بمنهج معين في أمور متعددة أهمها:

- ١- منهجه في الرءاءات واللامات وقد ألفت فيه كتب مستقلة وأبواب في كتب ألفها علماء القراءات منهم من كان من مصر ومنهم من كان من بيئات أخرى، وكان من ألف فيها: زهير بن أحمد المعروف بـ "شعرانة". وقد شاع كتابه هذا، ووصفه ابن الجزري (-٨٢٣هـ) بأنه "صحب الرءاءات واللامات على مذهب ورش"^١. وخصص طاهر بن عبد المنعم بن غلبون (-٣٩٩هـ) بابين من كتابه "التذكرة في القراءات الثماني" أحدهما للرءاءات والآخر للامات^٢. وعالج الموضوع من غير المصريين أبو الاصبغ عيسى بن محمد فتوح ابن المرابط (-٤٠٣هـ) حيث عقد بابين أحدهما للرءاءات والآخر للامات

^١ - غاية النهاية في طبقات القراء ٢٩٥/١.

^٢ - التذكرة في القراءات الثماني ١٢٨ و ١٤٣ (مخطوط) نقلاً عن: الدراسات اللغوية والنحوية في مصر ٣٩.

في كتابه "التقريب والحَرْش في قراءة قالون و وَرْش"^١. وألف الإمام مكي بن أبي طالب (-٤٣٧هـ) كتابه في شرح الرءاء واللامات على قراءة وَرْش^٢.

٢- منهجه في الادغام.

٣- منهجه في الامالة. ولم يُفردا بتصانيف خاصة وإنما كُتب فيهما ونُبّه إليهما في الكتب التي تناولت القراءات^٣.

اتضحت معالم المدرسة المصرية الأصلية في النحو، واشتهر أعلامها من القراء الكبار الذين ظهرت لهم مجموعة من الدراسات اللغوية والنحوية المتصلة بالقراءات وهي دراسات ضخمة إذا ما قيست بالدراسات اللغوية والنحوية التي ظهرت بمصر لدى النحاة الوافدين إليها بعلم النحو من الأقطار الأخرى في الحقبة نفسها، من أشهرها: "كتاب الاستكمال في التفخيم والامالة" وقد سماه ابن خير: "اكمال الفائدة" و "استكمال الفائدة" لأبي الطيب عبد المنعم بن عبيدالله بن غلبون (-٢٨٩هـ) ألفه لطلاب القراءات الذين رآهم يضطربون في معرفة التفخيم والامالية فيفخمون ما هو ممال، ويميلون ما هو مفخم لعد وجود أصل ثابت يرجعون إليه. وهو في أبواب تتضمن الأصول، ذكر فيه باب أصول القراء في الأفعال التي من ذوات الواو، ثم باب ما جاء في كتاب الله عزو جل من قوله: "وجاء"، ثم باب "حاق"، ثم ما جاء في كتاب الله عزو جل من الفتح والامالة في الأفعال الثلاثية من غير اعتلال فيها، ثم لما جاء على وزن "يفعل" و "تفعل" و "نفعل". والقسم الآخر منه

^١ - غاية النهاية في طبقات القراء ١/٦١٤؟

^٢ - غاية النهاية في طبقات القراء ٢/٣٠٦ وينظر الكشف عن وجوه القراءات السبع ١/٢٠٩ و ٢١٨.

^٣ - ينظر الدراسات اللغوية والنحوية في مصر ٣٨-٤٥.

ذكر فيه الحروف الممالة والمفتوحة مرتبة حسب السور^١. وكان من خصائصه عدم التكرار والميل إلى التعليل اللغوي للظواهر الواردة في القراءات كقوله في تعليل ما جاء من نحو "جاء" و "زاد" و "زاغ": "فيها علتان، إحداهما: أنك إذ أخبرت عن نفسك يفعل ماض كسرت "فاء" الفعل، وذلك قولك: "جئت وزدت وزغت" ففاء الفعل نجدها مكسورة. والعلة الأخرى أن الألف منقلبة عن "ياء" فلذلك اميلت "فاء" الفعل. وعُلِّ إمالة القراء "الألف التي بعدها لام الفعل أمالوا لام الفعل فأتبعوا الامالة، فإمالة لام الفعل من أجل الزائدة التي بعدها"^٢. وتبينت فيه أمور أخرى منها عنايته بإحصاء حروف القراءات، واهتمامه بمواقف القراء من كل حرف من الحروف التي يذكرها. وبيان الضوابط والأصول كقوله: "لا قياس في القرآن لا في فتح ولا إمالة"^٣ ويبدو من هذا العرض لموضوعات الكتاب أنه دراسة قرآنية تبين وتوضح الكثير من الموضوعات اللغوية والصوتية والبحوث التصريفية المعللة تعليلات علل بمثلها النحاة المشاركة موضوع الامالة ابتداء من سيبويه الذي عقد في كتابه أبواباً لكل ما ذكره ابن غلبون. وكتاب "الاستكمال" بعد كل هذا دراسة تميل إلى النضج في بحث هذا الموضوع الذي يعتمد عليه القراء من ظواهر التصريف والنحو وغيرها، واتضح فيها وضع الأقيسة والضوابط العامة التي تطرد في أمثالها، واتبع فيها طريقة البصريين في البحث فيما يبدو ونهج فيه منهجهم.

^١ - ينظر الدراسات اللغوية والنحوية في مصر ٦٠-٦٨.

^٢ - كتاب الاستكمال في التقخير والامالة ورقة ١٨ ب و ١٣٣ (مخطوط) ونقلًا عن كتاب الدراسات اللغوية والنحوية في مصر ٦٤.

^٣ - كتاب الاستكمال في التقخير والامالة ١٥٤ وينظر ١٢٠-ب (نقلًا عن كتاب الدراسات اللغوية والنحوية في مصر ٦٦).

"والتذكرة في القراءات الثماني"، وسمي ب (التذكرة في القراءات) تناول فيه مؤلفه قراءات القراء السبعة المعروفين عند ابن مجاهد، والثامن يعقوب بن اسحاق الحضرمي. ومؤلفه هو أبو الحسن ظاهر بن عبد المنعم بن غلبون المقرئ المتوفي سنة ٣٩٩ هـ وهو ابن مؤلف "الاستكمال" المتقدم، وقد شارك أباه في القراءة على عدي بن عبد العزيز بن الإمام (-٣٨١ هـ) مقرئ مدرسة ورش بمصر وعنه أخذ القراءة جماعة أشهرهم أبو عمرو الداني (-٤٤٤ هـ) الذي رحل إليه من الأندلس إلى مصر^١. وقد تميز منهج كتاب التذكرة بأمور أهمها: الإيجاز في فنون القراءات، ومناقب الأئمة لتقريبه على المتعلم ليسهل حفظه، ولأن من سبقوه من العلماء فصلوا فيه، ومنها: ذكره أسانيد القراءات في كل رواية من روايات الأئمة الثمانية، واهتمامه بأصول القراءات التي ذكر فيها خمسة وعشرين باباً منها ما يتعلق بالادغام والمد والقصر والهمز واجتماع الهمزتين من كلمتين أو من كلمة واحد والوقف، أما اهتمامه بالقضايا النحوية المتصلة بالقراءات فقد كان كبيراً واتضح في ثلاثة أمور، الأول: اهتمامه بالتعليل النحوي ويتبين أسلوبه فيه بما ورد في قوله متحدثاً عن مواقف القراء العثمانية من الآية الكريمة: "يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم وريشاً ولباسُ التقوى ذلك خير"^٢ فقال: "قرأ نافع وابن عامر والكسائي " ولس التقوى" بالنصب ورفع الباقون" ثم علل هذين الموقفين بقوله: "من نصب لم يبتدئ به لأنه متعلق بقوله: "لباساً يواري" بالعطف عليه، ولكن يقف على قوله: "ذلك خير" ومن رفعه ابتدأ به لأنه منقطع مما قبله، وذلك أنه مرتفع بالابتداء وقوله: "ذلك" نعت له، وخير الابتداء قوله: "خير" والتقدير: "ولباس التقوى المشار إليه خير لمن أخذ به من

^١ - تنتظر غاية النهاية في طبقات القراء ٣٣٩/١ و ٢٨٨/٢ و ٥٠٣/١ و ٣٣٩/١ على التوالي.

^٢ - الأعراف ٢٦.

الكسوة والأثاث"^١. وحين تحدث عن مواقف القراء الثمانية من قوله تعالى: "وإن تُبدوا ما في أنفسكم أو تُخفوه يُحاسِبْكُمْ به الله فيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ"^٢. قال: قرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب: "فيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ" - برفع الراء والياء - وجزمهما الباكون" وعلل ذلك بقوله: "فمن جزم لم يبتدئ به لأنه حمل الكلام على قوله: "يحاسبكم" ولم يقطعه فهو متصل به. وأما من رفع فإنه يجوز أن يبتدئ به لأنه قط قطعه مما قبله وجعله جملة معطوفة على جملة، فهو استئناف وأخبار عن الله تعالى بذلك^٣، الأمر الثاني: اهتمامه بالقطع والاستئناف، فقد أعطي المؤلف موضوع "القطع والاستئناف" أو ما يسمى عند بضعمهم "الوقف والابتداء"، من الاهتمام أكثر مما أعطاه لغيره من الموضوعات الأخرى، وقد كان اهتمامه بها لافتاً للنظر بحيث تحدث عنه في أكثر السور وغيرها، ولا سيما في السبع الطوال، ومن الآيات التي وضح فيها اهتمامه بهذا الموضوع ما جاء في توجيه مواقف القراء من الآية الكريمة: "إن تبدوا الصدقات فنعماً هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير"^٤. إذ قرأ ابن عامر وحفص "ويكفر عنكم - بالياء - وقرأ الباكون بالنون، وجزم "الراء" نافع وحمزة والكسائي، ورفعها الباكون، قال: "من جزم لم يبتدئ بقوله: "يكفر" لأنه معطوف على موضع "الفاء" فهو خير لكم" فهو متعلق به، أما من رفع فله تقديران: أحدهما: أن يجعل "الواو" في قوله "ويكفر" واو عطف للاشتراك، فعلى هذا لا يبتدئ به لأنه متعلق بما قبله من

^١ - التذكرة في القراءات الثمان ٢١-١٤٣ (مخطوط) نقلاً عن الدراسات اللغوية والنحوية في مصر ٧٤.

^٢ - سورة البقرة ٢٨٤.

^٣ - التذكرة في القراءات الثمان ١٦٦-١٦٧ وينظر ١٥٥ و ١٥٨ و ١٦٥ و ١٧١ (نقلاً عن الدراسات

اللغوية والنحوية في مصر ٧٤ و ٧٥)

^٤ - سورة البقرة ٣٧١.

المبتدأ والخبر في قوله: "فهو خير لكم" عطفاً على تقدير: "ونحن نكفر عنكم". والآخر: ألا يجعل "الواو" عطفاً للاشتراك، بل يجعلها لعطف جملة على جملة، فعلى هذا يجوز أن يبتدىء به لأنه مستأنف منقطع مما قبله^١. فموضع القطع والاستئناف في هذه الآية مما فسر به القراءات إنما هي موضوعات نحوية يؤدي كل وجه منها معنى معيناً ويثبت به حكم إعرابي يختلف عنه في القراءة الأخرى، التي اختلف فيها موضع القطع والابتداء. الأمر الثالث الذي بدا واضحاً في كتاب "التذكرة" التفات مؤلفه إلى المشكلات النحوية ويتضح ذلك في التفاته إلى مسأله: "العطف بالاسم الظاهر على الضمير لمجرور من غير إعادة حرف الجر" وذلك عند توجيه قراءة حمزة بجر "الأرحام" في قوله تعالى: "واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام^٢ حيث قال: من جرّها على العطف إلى "الهاء" في قوله "به" أم يبتدىء بها لتعلقها بـ "هاء" الضمير ودخولها معها في عمل "الباء الجارة" وأجاز أن يكون بالقسم^٣، والقراءة الأولى أشهر وهي قراءة متواترة، وقد قرأ بها أئمة آخرون غير حمزة هم إبراهيم النخعي (-٩٦هـ) وقتادة بن دعامة السدوسي (-١١٧هـ) وسليمان بن مهران الأعمش (-١٤٨هـ)^٤ ولكن النحاة رفضوها، فالقراء حين تحدث عن قراءة جر "الأرحام" قال: "فيه قبح لأن العرب لا ترد مخفوضاً على مخفوض وقد كني عنه.. وإنما يجوز هذا في الشعر لضيقه"^٥ وقد أطنب النحاس في الحديث عن هذه المسألة في "أعراب القرآن" وبيّن اجماع البصريين والكوفيين على أن هذه القراءة خطأ، للسبب

^١ - التذكرة في القراءات الثمان ١٦٥ وينظر ١٥١ (نقلاً عن الدراسات اللغوية والنحوية في مصر ٧٥ و ٧٦)

^٢ - النساء ١.

^٣ - التذكرة في القراءات الثمان ١٨١ (نقلاً عن الدراسات اللغوية والنحوية في مصر ٧٦).

^٤ - أعراب القرآن للنحاس ٣٩٠/١.

^٥ - معاني القرآن ٢٥٢/١.

الذي ذكره الفراء^١. ومع ما عرف عن ابن مالك من تجويزه كثيراً من المسائل التي منعها النحاة لاعتمادها على القراءات فإنه مع العطف على الضمير المجرور اختار إعادة الجار بلا لزوم^٢. وقد علق الدكتور أحمد نصيف الجنابي على هذه الآراء بمذهبه في تجويزها فقال: "والصحيح جواز العطف على الضمير المجرور بالاسم الظاهر دون إعادة حرف الجر إستاداً إلى هذه الآية: "فاتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام"، والآية الكريمة: "يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبيرٌ وصدُّ عن سبيلِ الله وكفرٌ به والمسجدِ الحرام"^٣ على رأي من ذهب إلى أن "المسجد الحرام" معطوف على "الهاء" من "به" ولأنه جاء في الشعر كثيراً ولم يأت في بيت واحد حتى يعد شاذاً"^٤.

والوقف على الهمز: ألف عدد كبير من النحاة واللغويين والقراء في الهمز، بعضهم كان يريد به الهمز في القرآن وبعضهم يريد به الهمز في القرآن وغيره. وقد ألف طاهر بن غلبون كتاباً بهذا الاسم إلا أنه ضاع ولم يصل منه إلا ما نقله عنه ابن الجزري في كتابه: "النشر في القراءات العشر" في مواضع من الباب الذي خصصه للوقف على الهمز: وقد تناولت هذه النصوص من كتاب "الوقف على الهمز" موضوع الهمز، وقسم فيه الهمز إلى أقسام: إلى ساكن ومتحرك، والساكن إلى متطرف ومتوسط، وإلى ساكن عارض وساكن لازم، والمتوسط المتحرك إلى أقسام.

^١ - اعراب القرآن ٣٩٠/١-٣٩١.

^٢ - تسهيل الفوائد ٢١٧.

^٣ - سورة البقرة ٢١٧.

^٤ - الدراسات اللغوية والنحوية في مصر ٧٨.

وهذا الكتاب كما تبين من عرض الجنباني لبعض نصوصه، وكما يظهر من اسمه، كتاب في الدراسات الصوتية القرآنية وغيرها وليس من النحو في شيء.^١

هذه أهم الدراسات الصوتية واللغوية والنحوية التي قام بها تلاميذ مدرسة ورش للاقراء سواء أخذوا القراءة عن تلاميذه أم عن تلاميذهم، ولم يكن اهتمامهم منصّباً على ما في كلام العرب المنظوم والمنثور ولا على أبواب النحو والصرف المعروفة في كتب النحو المشرقي ككتاب سيبويه وغيره، وإنما كان اهتمامهم لا يتعدى ما تتطلبه قراءة القرآن وآياته قراءة صحيحة متبعين ما يجب أن تكون عليه ألفاظها وعباراتها من حيث النطق الصوتي السليم وما يجب أن يعرفه القارئ من أصول الإدغام والمد والهمز وما إليها مع اهتمامهم بصحة ما جاء متواتراً فيها من ظواهر إعرابية يفرضها المعنى المفهوم من الآية وبنوا هذه الدراسات فيما يبدو بقواعدها وأصولها على ما عرفه القراء أنفسهم من أحوالها بتتبعهم ما ظهر من دراسات نحوية ولغوية وصرفية وصوتية في أمصار العالم الإسلامي كمكة والمدينة والبصرة والكوفة وبغداد حيث كان الاتصال مستمراً والرحلات مفتوحة بين مصر وهذه المراكز الثقافية، ولم ينقل هؤلاء الدارسون النحو المشرقي كما هو وإنما استفادوا منه في إنشاء دراسات مصرية أصيلة مبنية على قراءات خاصة بقارئ مصري اشتهر بالاهتمام بمسائل النحو والصرف والتأكيد عليها في قراءته، وكان القائمون بهذه الدراسات من تلاميذ مدرسة الاقراء هذه في مصر وغيرها.

^١ - الدراسات اللغوية والنحوية في مصر ٧٨-٩٠.

منهج التحليل النحوي في المدرسة المصرية "الآراء العامة"

مدرسة مصر النحوية:

كان للقراء، ولا سيما ورش المصري وتلاميذ مدرسته في الاقراء، الأثر الأكبر في ظهور مدرسة القراء النحوية التي قامت بدراسات لغوية نحوية تبين ما جاء في قراءات ورش أو في قراءات القراء السبعة وغيرهم من ظواهر نحوية وصرفية وعرضها وشرحها ووضع قواعد وأصول عامة يتبعها من لا يعرف ذلك من الطلبة، الذين يقرأون بهذه القراءات، وكونت بحوثهم ودراساتهم نواة مدرسة مصر النحوية الأصلية التي اتجهت نحو القراءات وما فيها من ظواهر خاصة بها، وظهرت في مقابل هذه مدرسة نحوية أخرى تهتم بالبحوث النحوية التي ظهرت في مراكز الثقافة في العراق كالبصرة والكوفة وبغداد من بعدهما، وقد نقلت نتائج هذه البحوث والدراسات إلى مصر وغيرها من بلدان العالم الإسلامي عن طريق العلماء الذين درسوا فيها ورحلوا إلى مصر كما فعل عبدالرحمن بن هرمز (-١١٧هـ) الذي أخذ النحو عن أبي الأسود الدؤلي ورحل إلى المدينة حيث قام بتدريس القراءات والعربية ومنها رحل إلى مصر حيث توفي بالاسكندرية^١. فلا بد من أن يكون قد علم القراءات والعربية فيها وأذاع نقط الإعراب الذي وضعه أبو الأسود ونقط الاعجام الذي وضعه نصر بن عاصم الليثي تلميذ أبي الأسود أيضاً وكان عبد الرحمن بن هرمز قد أخذ القراءة عن ابن عباس وعن أبي هريرة وأخذ عنه نافع بن أبي نعيم مقرئ أهل المدينة شيخ ورش القارئ المصري الذي رحل إلى المدينة، ومن المرجح أن يكون قد أخذ ما اشتهر به من عناية بالنحو والصرف والأصوات في قراءته عن

^١ - طبقات النحويين واللغويين ١٩-٢٠ والطبقات الكبرى لابن سعد ٢٨٣/٥ (نقلاً عن الحلقة المفودة في تاريخ النحو العربي ٥٦).

نافع ابن أبي نعيم عن عبدالرحمن بن هرمز عن أبي الأسود الدؤلي وزاد فيها كل منهما وطور الكلام على ظواهرها. ولم يكن عبد الرحمن بن هرمز الوحيد الذي رحل من العراق وإنما كان أبو عمرو بن العلاء (-١٥٤هـ) قد رحل إلى دمشق يحتذي عبد الوهاب بن إبراهيم وتوفي في الطريق^١. وكان الخليل بن أحمد الفراهيدي (-١٧٠هـ) يحج سنة ويغزو سنة^٢، ولا بد من أن يكون هؤلاء العلماء قد التقوا في رحلاتهم بعلماء وقراء من أهل مصر وغيرها من الأمصار الإسلامية وأن يكونوا قد تدارسوا القراءات وما جد من علوم ولا سيما النحو الذي اشتهرت أخبار نشوئه في البصرة، ويدل على صحة هذا ما رواه الزبيدي في أخبار ولاد المصايري التميمي من أنه بصري سكن مصر، وأنه كان يأخذ النحو عن رجل من أهل المدينة، لم يكن من الحذاق، فلما سمع بالخليل بن أحمد رحل إليه ولقيه بالبصرة وسمع منه ولازمه، ثم انصرف إلى مصر وجعل طريقه على المدينة فلقية معلمه وناظره، فلما رأى المدني تدقيق ولاد للمعاني وتعليقه في النحو قال: قد ثقت بعدنا الخردل، وقد كان هذا المدني هو المهلب تلميذ الخليل^٣ أيضاً. مما يدل دلالة واضحة على انتشار علم النحو البصري بدراساته وشيوخه ودارسيه ووصوله إلى مختلف الأمصار الإسلامية، ومنها مصر عن طريق من رحل إلى العراق من المصريين ثم عادوا يحملون معهم ما دونوا وما سمعوا من دراسات قرآنية وآراء لشيوخ العربية ولا سيما النحاة. أو عن طريق من رحل إلى مصر وغيرها من العراقيين أو عن طريق التقائهم جميعاً في مكة أو المدينة أو في أي من الأقطار الإسلامية المشهورة بعلمائها ورحلاتهم، وكنا قد ذكرنا في أثناء كلامنا على الحالة الثقافية في مصر في أول عهد الدولة الإسلامية

١ - طبقات النحويين واللغويين ٣٤ و انباه الرواة ١٩/٤.

٢ - طبقات النحويين واللغويين ٤٢ وما بعدها وبغية الوعاة ٥٥٨/١.

٣ - طبقات النحويين واللغويين ٢٣٣.

أنه نرح إلى مصر كثير من العلماء من القراء وغيرهم. وإن رحلاتهم إليها كانت مستمرة ولم تنقطع على اختلاف العصور السياسية التي مرت بها مصر، ولم تكن هذه الرحلات قد جرت في عصر متأخر وإنما كان معظمها في القرن الثاني وفي زمن نضج النحو البصري وإزدهاره وإن ما جرى من لقاءات بين علماء مصر والأندلس والشام في البصرة أو في الكوفة والمدينة أو غيرها في القرون التالية كثير جداً تزخر به كتب الطبقات وأخبار النحاة واللغويين، ولذلك فإنه من الطبيعي أن يكون ما نقله المصريون الذي رحلوا للسمع عن البصريين وغيرهم، وما جاء به القادمون من البصرة أو الكوفة أو المدينة أو غيرها من الأمصار الإسلامية مما سمعوه ودونوه من دراسات قرآنية أو لغوية أو نحوية أو صرفية، قد عرض في مجالس إلقاء القرآن التي كانت منتشرة في مساجد القاهرة والفسطاط والاسكندرية وغيرها، وإن تكون هذه المجموعات أو المدونات قد نوقشت وفسرت واطلع عليها من لم يكن له علم بها ووضحها أو درسها من نقلها من العلماء الذين سمعوا عن الشيوخ الأصليين، ونشأ من ذلك كله نوع جديد من البحث والدرس لم يكن معهوداً بينهم، وقد حمل بعض الراحلين إلى العراق وبعض ما ألف من كتب لغوية أو نحوية معهم إلى مصر سواء أكانت عن بصريين درسوا عليهم وهو الغالب، أم عن كوفيين كالكسائي الذي أخذ عنه أبو الحسن الأعز الذي سمع عنه بعض الأندلسيين سنة ٢٢٧هـ، أو قاموا هم أنفسهم بتأليفها في النحويين البصري والكوفي كما فعل أبو علي أحمد بن جعفر الدينوري المتوفى سنة ٢٨٩هـ^١ الذي كان قد أخذ عن المبرد ويبدو أنه اطلع على نحو المدرستين ورحل إلى مصر ونزل بها واستقر لأنه ألف كتاباً في النحو سماه "المهذب" ذكر في صدره المسائل التي اختلف فيها البصريون والكوفيون،

^١ - طبقات النحويين واللغويين ٢٣٣ و ٢٣٤.

وَأَلَّفَ كِتَاباً آخَرَ مُخْتَصِراً فِي ضَمَائِرِ الْقُرْآنِ اسْتَخْرَجَهُ مِنْ كِتَابِ "مَعَانِي الْقُرْآنِ" لِلْفَرَاءِ. وَبِهَؤُلَاءِ وَغَيْرِهِمْ عَرَفَ الدَّرْسَ النُّحَوِيَّ فِي مِصْرَ أُسْلُوباً جَدِيداً يَعْتَمِدُ عَلَى قِرَاءَةِ مُؤَلَّفَاتِ النُّحَاةِ الْمَشَارِقَةِ وَعَرَضَ آرَائِهِمْ لِلْبَحْثِ وَالْمُنَاقَشَةِ وَالنَّقْدِ وَالِاسْتِدْرَاكِ، أَوْ التَّأْلِيفِ فِي نَحْوِهِمُ الَّذِي سَمِعُوهُ مِنْهُمْ وَدَرَسُوهُ عَلَيْهِمْ وَسَجَلُوا فِيهِ مِلَاحِظَاتِهِمْ وَرَحَلُوا إِلَى مِصْرَ وَاسْتَقَرُّوا وَأَلَّفُوا فِي هَذَا النُّحُوِّ وَنَشَرُوهُ عَنْ طَرِيقِ مُؤَلَّفَاتِهِمُ الَّتِي دَرَّسُوهَا طُلَّابَهُمْ فِي مَجَالِسِ الدَّرْسِ النُّحَوِيِّ فِي مِصْرَ. لَقَدْ كَانَ النُّحُوُّ الْبَصْرِيُّ أَوَّلَ نَحْوٍ يَدْخُلُ مَجَالِسَ الدَّرْسِ فِي مِصْرَ سِوَاءِ عَلَى يَدِ مَنْ أَخَذَ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ هَرْمَازٍ فِي الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ أَوْ الْمَدِينَةِ أَوْ مَنْ أَخَذَ عَنِ الْخَلِيلِ وَتَلَامِيذِهِ كَالْمَهْلَبِيِّ مِثْلَ ابْنِ وَهَّابٍ الَّذِي حَمَلَ مَعَهُ نَحْوَ الْبَصْرَةِ وَالْمَدِينَةِ وَمَرَجَعَهُ النُّحُوُّ الْبَصْرِيُّ أَيْضاً إِذْ لَمْ يَكُنِ النُّحُوُّ الْكُوفِيُّ قَدْ عَرَفَ فِي زَمَنِ هَؤُلَاءِ، وَإِنَّمَا عَرَفَ بَعْدَ الرَّبْعِ الْأَوَّلِ مِنَ الْقَرْنِ الثَّالِثِ عَنْ طَرِيقِ أَبِي الْحَسَنِ الْأَعَزِّ الَّذِي قَرَأَهُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ عَلَى الْكِسَائِيِّ، وَلَمْ يَكُنِ نَحْوً نَاضِجاً مُسْتَقِلاً وَإِنَّمَا تَمَّ وَنَضَجَ فِيمَا بَعْدَ وَرَبَّمَا يَكُونُ قَدْ دَخَلَ لِلْمَرَّةِ الْأُولَى بِدُخُولِ أَبِي عَلِيٍّ الدِّينَوْرِيِّ الَّذِي حَمَلَ نَحْوَ شَيْوْخِ الْمَدْرَسَةِ الْبَصْرِيَّةِ حَتَّى زَمَنِ الْمُبَرِّدِ مِمَثْلاً بِكِتَابِ سَيَّبُوهِ وَتَعْلِيْقَاتِ أَمْثَالِ الْمُبَرِّدِ عَلَيْهِ وَتَفْسِيرَاتِهِمْ لَهُ، وَيَبْدُو مِنْ تَأْلِيفِهِ كِتَابُ "الْمَهْذَبِ" الَّذِي أُورِدَ فِي صَدْرِهِ مَسَائِلُ اخْتِلَافِ الْبَصْرِيِّينَ وَالْكُوفِيِّينَ، وَمِنْ تَأْلِيفِهِ مُخْتَصَرٌ فِي ضَمَائِرِ الْقُرْآنِ اعْتَمَدَ فِيهِ عَلَى "مَعَانِي الْقُرْآنِ" لِلْفَرَاءِ، أَنَّهُ اطَّلَعَ عَلَى النُّحُوِّ الْكُوفِيِّ وَاطَّلَعَ عَلَى رَدُودِ أَمْثَالِ الْأَخْفَشِ وَالْكِسَائِيِّ وَتَغَلَّبَ عَلَى بَعْضِ مَسَائِلِ الْبَصْرِيِّينَ وَبِهَذَا يَكُونُ النُّحُوُّ الْبَصْرِيُّ أَوَّلَ نَحْوٍ يَعْضُدُ فِي مَجَالِسِ الدَّرْسِ بِمِصْرَ. وَكَمَا كَانَ نَحْوُ الْبَصْرَةِ السَّابِقَ إِلَى مِصْرَ كَانَ كِتَابُ سَيَّبُوهِ أَوَّلَ كِتَابٍ دَخَلَ إِلَى مِصْرَ فِيمَا نَرَجِّحُ عَنْ طَرِيقِ أَبِي عَلِيٍّ الدِّينَوْرِيِّ (-٢٨٩هـ) الَّذِي حَمَلَ كِتَابَ سَيَّبُوهِ عَنِ الْمَازَنِِيِّ وَأَخَذَ عَنِ الْمُبَرِّدِ ثُمَّ

نزل مصر. وإلا فعلى يد أبي الحسين محمد بن ولاد التميمي المتوفى سنة ٢٩٨هـ^١ الذي جهد نفسه في الحصول على نسخة من كتاب سيبويه على أصل مكان المبرد يضمن به ضمناً شديداً، حملها معه إلى مصر حيث أصبحت عدته في مجالس الدرس النحوي بمصر وظلت هذه النسخة من الكتاب تنتقل بين أبنائه. فاعتنى بها الدارسون المصريون كما اعتنى به غيرهم من الدارسين من مشارق الأرض ومغاربها وكان أول شرح يظهر لبعض موضوعاته أملاه أبو جعفر النحاس شيخ النحاة المصريين على قول سيبويه: "هذا باب علم ما الكلم من العربية" وجعله كتاباً كاملاً يستفيد منه تلاميذه والدارسون من بعده ولم تقتصر العناية به على شرحه فقط، وإنما أحبه الدارسون المصريون وانحازوا إليه وعارضوا من استدرك عليه أو خطأه كما فعل أحمد بن محمد بن ولاد المتوفى سنة ٣٣٢هـ حيث ألف كتاب "الانتصار" للرد على المبرد في رده على سيبويه الذي سماه "مسائل الغلط" قال ابن ولاد في مقدمته: "قال أبو العباس أحمد بن أحمد بن ولاد النحوي: هذا كتاب نذكر فيه المسائل التي زعم أبو العباس محمد بن يزيد أن سيبويه غلط فيها. ونبينها، ونرد الشبهة التي لحقت فيها، ولعل بعض من يقرأ كتابنا هذا ينكر ردنا على أبي العباس وليس ردنا بأشنع من رده على سيبويه فإنه رد عليه برأي نفسه، ورأي من دون سيبويه، ومع ردنا عليه فنحن معترفون بالانتفاع به لأنه نبه على وجوه السؤال ومواضع الشكوك، إلا أنه إذا تبين الحق، كان أولى بنا وأعود بالنفع علينا"^٢. وهذا الرد يدل ضمناً على مبلغ ما وصلت إليه الدراسات النحوية في مصر في زمن ابن ولاد حيث استطاع أن يفهم مسائل سيبويه، ويرد على المبرد فهمه لها واستدراكه عليه فيها. واستطاع أيضاً أن

^١ - طبقات النحويين واللغويين ٢٣٤ و ٢٣٦.

^٢ - مقدمة المقتضب ٩٥/١.

يدرك ما كان الحق فيه مع المبرد من هذه المسائل فينبه عليها ويقول بأنه لم يرد عليه فيها لأن الصواب مع المبرد^١. ويظهر أن عناية المصريين بالكتاب جاوزت حدود بلدهم إلى بلدان المغرب العربي وعبرت البحر إلى الأندلس فرحل نفر من علماء هذين البلدين لأخذ الكتاب عن المصريين والعراقيين.

وخلاصة القول إننا لو تتبعنا أخبار النحويين الذين نسبوا إلى مدرسة مصر النحوية لوجدنا أن معظمهم من البصريين الذين رحلوا إليها حاملين كتاب سيبويه أو علمه أو من غير المصريين ممن نزحوا إليها من الأندلس أو المغرب أو غيرهما، ولا تضح أنه لم يدخل مصر كتاب في النحو الكوفي، ولا شيخ درس على الكوفيين إلا ما ذكر من دارسة أبي الحسن الأعز (-٢٢٧هـ) على الكسائي، وإلا ما قام به أبو علي الدينوري من تأليف في بعض مسائل الخلاف بين المدرستين، وما قيل من كونه املى كتاباً مختصراً في الضمائر في القرآن استخرجه من كتاب "معاني القرآن" للفراء، ومع هذا فلا يعد هذان الكتابان من كتب النحو الكوفي لأن مؤلفه كان من البصريين المنحازين إلى المبرد والنحو البصري ولا يعرف موقفه في كتابيه هذين من النحو الكوفي، وإلا ما كان من دخول علي بن سليمان الأخفش الصغير مصر سنة ٢٨٠هـ في المرة الأولى ثم عاد إليها مرة أخرى سنة ٢٨٧هـ ومنها رجع إلى حلب فبغداد حيث توفي سنة ٣١٥هـ وكان ممن أخذ عن ثعلب والمبرد أيضاً ولا يعلم أن كان قد مارس التدريس بمصر أم لا؟ وإن كنا يرجح ذلك إلا أنه لم يدخل معه شيئاً من الكتب في أي من النحويين لعدم إشارة المصادر التاريخية التي بين أيدينا إلى ذلك.

^١ - مقدمة المقتضب ٩٥/١.

أوائل النحاة المصريين:

نشأ في مصر نحاة كثيرون اهتموا بتدريس النحو المشرقي ولا سيما البصري منه، ورحل إليها من العراق والمغرب والأندلس والشام نحاة آخرون أخذوا العلم بالنحو من بلدانهم ونشروه ودرّسوه في مصر أم دخلوا مصر ليحضروا حلقات شيوخه أو مجالس درسهم فيها. وقد حظيت مصر بعدد من النحاة لم يحظ بلد عربي بمثله لا في القديم ولا في الحديث، وظل النحو يدرس وتؤلف فيه المتون والشروح والتعليقات والحواشي والمختصرات وفي شواهد وشروحا منذ نشأته حتى يومنا هذا ما يزيد على ما ألف فيه في جميع البلدان العربية الأخرى في المدة نفسها، ولهذا فإننا سنكتفي بالتعريف بأوائل النحاة المصريين الذين دخل على أيديهم النحو العربي إلى مصر ونما وانتشر واكتمل نضجه بالجهود التي بذلوها والدراسات التي اعتنوا بتأليفها. وسنتابع الزبيدي في رحلته مع هؤلاء النحاة في كتابه "طبقات النحويين واللغويين" لأنه تحدث عن المشهورين منهم وقسمهم طبقات ثلاثاً مرتبين بحسب تواريخ وفياتهم، وقد جعل بعض أصحاب الطبقات أولهم ابن هشام عبد الملك بن هشام بن أيوب الذهلي، الذي لقبه القفطي بالنحو^١ وهو كاتب "السيرة النبوية" معروف ومشهور بها ولم يعرف نحويّاً ولم يترجم له في كتب طبقات النحويين المتقدمة توفي بمصر سنة ٢٢٨هـ. وكان القفطي أول من عده فيهم، ولم يعده السيوطي في "بغية لوعة" من النحويين، وقال في "حسن المحاضرة" أنه "كان إماماً في اللغة والنحو أديباً نسابة أخبارياً"^٢ ولما لم يكن له مؤلف في النحو يمكن أن يعد به نحويّاً ولا آراء في كتب النحويين، نقول إنه ليس من النحاة مع تأليفه في غريب أشعار السيرة، لأن

^١ - انباه الرواة ٢/٢١١-٢١٢.

^٢ - تنظر بغية لوعة ٢/٣١٨، وحسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ١/٥٣١.

الغريب والتأليف فيه ليس من علم النحو. ولهذا فإننا نعد أول النحاة من اتفق عليه المترجمون وتواترت أخبار رحلاته لسماع النحو وأخذه عن شيوخه ومنهم:

١ - ولاد المصادري التميمي:

وهو الوليد بن محمد التميمي المصادري المشهور بـ "ابن ولاد المصري"، بصري نشأ في مصر ورحل إلى العراق، وسمع بها على العلماء. وكان سبب رحلته إليها رغبته في تعلم النحو الذي ذاعت أخباره وانتشرت وسمع بها القاصي والداني، ولم يكن قد عرف في مصر بغداد، لأنه لم يكن في مصر كبير شيء من كتب اللغة والنحو، روى الزبيدي أن "ولاداً كان يأخذ النحو عن رجل من أهل مدينة النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يكن المدني من الحذاق بالعربية، فسمع ولاد بالخليل ابن أحمد، فرحل إليه فلقية بالبصرة وسمع منه ولازمه، ثم انصرف إلى مصر وجعل طريقه على المدينة فلقى شيخه فناظره، فلما رأى المدني تدقيق ولاد المعاني وتعليقه في النحو قال: قد ثقت بعدنا الخردل. وهذا المدني الذي لقيه ولاد وناظره هو المهلب تلميذ الخليل^١. لم يؤرخ الزبيدي وفاته، وأرخها السيوطي بسنة ٢٦٣هـ، وهذا التاريخ غير مقبول ولا معقول ولا يتفق مع الخبر الذي أثبتته الزبيدي في كونه أخذ عن الخليل ونقل السيوطي هذا الخبر مع إثباته لوفاته ذلك التاريخ لأن الخليل توفي سنة ١٧٠هـ أو ١٧٥هـ على أبعد الروايات فكيف يعقل أن يكون قد رحل إلى البصرة وسمع من الخليل وبين تاريخ وفاته وتاريخ سماعه ما يقارب مائة عام؟ ولم يرحل ابن ولاد هذه الرحلة وهو طفل وإنما لا بد من أن يكون قد بلغ سن الرحلة في طلب العلم والسماع عن الشيوخ في أقطار مختلفة كالمدينة والبصرة فلا بد من خطأ وقع فيه السيوطي.

^١ - طبقات النحويين واللغويين ٢٢٣ وبغية الوعاة ٣١٨/١.

ومع هذا فقد حمل الوليد بن ولاد نحو البصر سماعاً - دَوْنَهُ أَمْ لَمْ يُدَوِّنْهُ - عن الخليل وعن تلميذه المهلب وعمل على نشره وتعليمه، وكان لأبنائه دور كبير في نشر هذا العلم في البلد الذي كان مقر إقامته..

٢ - أبو الحسن الأعز:

ذكره الزبيدي في الطبقة الأولى، واهتم بإيضاح أنه "أخذ عن علي بن حمزة الكسائي، ولقيه قوم من أهل الأندلس وحملوا عنه، وكان ذلك سنة ٢٢٧هـ.^١ ولم نجد له ترجمة غير هذه توضح أخباره.

٣ - أبو علي الدينوري:

أحمد بن جعفر أبو علي، أصله من دينور، قدم البصرة وأخذ عن المازني وحمل معه كتاب سيبويه، ثم دخل بغداد فقرأ على أبي العباس المبرد، وهو ختن أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب وكان يخرج من منزل ختته أبي العباس ثعلب فيتخطى أصحابه ويمضي ومعه محبرتا ودفتره يقرأ كتاب سيبويه على أبي العباس المبرد، فكان أبو العباس ثعلب يعاتبه ويقول له إذا رآك الناس تمضي إلى هذا الرجل وتقرأ عليه يقولون ماذا؟ فلم يكن يلتفت إلى قوله. كان أبو علي حسن المعرفة بالنحو ويبدو أنه لم يجد له مكاناً في بغداد وفيها الشيخان: ثعلب والمبرد فاتجه غرباً قاصداً مصر حيث استقر بها ولهذا سماه القفطي: "نزيل مصر النحوي"^٢ كان متعصباً للمذهب البصري في النحو لأنه لم يقرأ فيما تذكر كتب التراجم إلا كتاب سيبويه في البصرة وفي بغداد، وإن كان فيما يبدو قد قرأ كتب الفراء والكسائي التي كانت عند

^١ - طبقات النحويين واللغويين ٢٣٣.

^٢ - انباء الرواة ٢٢/١-٢٣ وينظر في ترجمته طبقات النحويين واللغويين ٢٣٤.

ثعلب وإن لم يقرأها عليه وذلك طبيعي وهو ختته ويعيش معه في دار واحدة فلما رآها لا تعد شيئاً إذا ما قورنت بـ "الكتاب" والنحو لذي يحويه، وهو العارف به لم يجلس في حلقة ثعلب، ولا بد من أن يكون أبو علي قد حمل "الكتاب" معه إلى مصر وهو عازم على الاستقرار فيها والجلوس لتدريس النحو البصري هناك وليس له من عدة أو عمدة غير "الكتاب". وهناك ألف "المهذب" الذي جلب في صدره اختلاف البصريين والكوفيين وعزا كل مسألة إلى صاحبها ولم يعتل لواحد منهم، وعول في ذلك على كتاب الأخفش سعيد، وألف كذلك كتاباً مختصراً في ضمائر القرآن استخرجه من كتاب المعاني للفراء^١. ومما يؤكد انصرافه عن الكوفيين ما روي من أنه كان قد رحل إلى مصر ليقم فيها، ولما قدم علي بن سليمان الأخفش الصغير مصر خرج أبو علي منها، ثم عاد إليها بعد عودة الأخفش إلى بغداد^٢ ولا أظن أن هذا يحدث مصادفة، وربما يكون لاعتماد الدينوري على كتاب الأخفش في تأليف كتاب "المهذب" أثر في هذه الجفوة وإن لم يصرح رواية أخبرهما بشيء. أخذ عن الدينوري من المشهورين أبو الحسين بين ولاد بن الوليد - الذي تقدم ذكره - وكان هذا الأخذ في مصر، لأن أولاد ابن ولاد استقروا هناك مع أبيهم. توفي أبو علي سنة ٢٨٩هـ، وذكر أبو جعفر النحاس في كتابه "القطع والانتخاب" أن لأبي علي كتاباً

^١ - ينظر طبقات النحويين واللغويين ٢٣٤ وانباه الرواة ٣٤/١. وقد شكك الدكتور أحمد نصيف الجنابي في صحة ذلك، ينظر الدراسات اللغوية والنحوية في مصر ٥٨ أو ١٥٧ و ١٣٣ في كتبه اللغوية.

^٢ - طبقات النحويين واللغويين ٢٣٤ وانباه الرواة ٣٤/١.

في: "وقف التمام" ونقل عنه في مواضع منه^١. ومن هذا يبدو أن الدينوري وهو من أوائل من دخل مصر من النحاة المشاركة قد أثار نشاطاً كبيراً في مجالس الدرس النحوي في مصر بما حمله وما ألفه في النحو وفي القراءات مما يكون للنحو فيه النصيب الأكبر في صحة القراءة وتوجيهها وذلك بتأليفه "وقف التمام" أو كلامه عليه في كتبه الأخرى.

٤ - أبو بكر بن المزرع:

ذكره الزبيدي في الطبقة الثانية ويبدو من أخباره أنه لم يكن نحوياً، غير أن الحموي، قال فيه: "نحوي أديب راوية". وقال القفطي أنه دخل مصر وروى عنه أهلها أمالي له ثم نزل بطبرية من أرض الشام وروى بها الكثير، واستوطنها إلى أن مات سنة ٣٠٣هـ^٢. ولم تشر كتب التراجم إلى موضوع هذه الأمالي أهو النحو أم غيره من الدراسات؟ ويبدو أنها في مسائل متفرقة.

٥ - أبو الحسن محمد بن الوليد بن ولاد التميمي المتوفى سنة ٢٩٨هـ:

أخذ عن أبي علي الدينوري وعن محمود بن حسان وغيرهما بمصر، ثم رحل إلى العراق وأقام بها ثمانية أعوام ولقي فيها المبرد وثعلباً. وله في النحو كتاب سماه

^١ - ينظر القطع والانتشاف ٧٥، وتتنظر المواضع التي نقل منها النحاس عن أبي علي في كتاب القطع والانتشاف ص ٨٨٦ و ٥٣٩ وغيرها.

^٢ - تنظر ترجمته في طبقات النحويين واللغويين ٢٣٥-٢٣٦ ومعجم الأدباء ٥٧/٢ وانباء الرواة ٧٤/٤

"المنق" يلول الزبيدي: "ولم يصنع فيه شيئاً"، وقرأ كتاب سيبويه على المبرد. حدث ابنه أبو القاسم بن ولاد قال: "رحل أبي محمد بن ولاد إلى العراق، وفيها أهله لأخذ كتاب سيبويه عن أبي العباس المبرد، وكان المبرد لا يمكّن أحداً من نسخه، وكان يضمن بها ضناً شديداً فكلّم ابنه فيه على أن يجعل له في كل كتاب منه جُعلاً قد سماه، فأجابه إلى ذلك، فأكمل نسخه، ثم أن أبا العباس ظهر على ذلك يعد فسعى بأبي الحسين إلى بعض خدمة السلطان ليحبسه له ويعاقبه في ذلك، فامتنع منه أبو الحسين بصاحب خراج بغداد فيها يومئذ، وكان فيها أبو الحسين يؤدب ولده فأجاره منه، ثم إن صاحب الخراج أَلْظَّ^١ بأبي العباس يطلب إليه أن يقرأ أبو الحسين الكتاب حتى فعل^٢. فكان أبو الحسين هذا أول من أدخل كتاب سيبويه إلى مصر وهو الذي استنسخه من نسخة المبرد وقد تكون عليها تعليقاته على المسائل التي غلطه فيها، وجلس في مصر لأقراءه على تلاميذه بعد أن درسه على المبرد في رحلته هذه إلى بغداد. ثم شرح منه "باب علم ما انكلم من العربية" وهو أول شرح يوضع على موضوع من موضوعات الكتاب وألّف أيضاً في "وقف التمام" كتاباً ذكره النحاس في كتابه "القطع والائتلاف"^٣ ولم ينقل عنه شيئاً كي نتعرف على ما فيه وإن كان واضحاً أنه في قراءة القرآن وتبيين مواضع الوقف فيه وهو في الأغلب مما تطغى فيه البحوث النحوية لأنها المؤثرة في المعاني التي يوقف عندها أو يستأنف، وله كتاب اسمه "المقصود والممدود" ذكره ياقوت.

^١ - أَلْظَّ به: ألحّ عليه.

^٢ - طبقات النحويين واللغويين ٢٣٦.

^٣ - القطع والائتلاف ٧٥.

٦- أبو العباس أحمد بن محمد بن ولاد حفيد الوليد بن ولاد:

وأبوه محمد بن ولاد حامل كتاب سيبويه إلى مصر فهو نحوي ابن نحوي ابن نحوي، كما يقول القفطي فيه: خرج إلى العراق وسمع من أبي اسحاق الزجاج وطبقته ورجع إلى مصر وأقام بها يفيد ويصنف إلى أن مات. وكان يروي عن أبيه عن جده. أُلّف كتاب "الانتصار لسيبويه من المبرد" وهو من أحسن الكتب ويدل على أنه قد أتقن مسائل كتاب سيبويه وردود المبرد عليه وأتقن النحو عامة حتى استطاع أن يميز بين الصحيح من مسائل هذين الشيخين فيرد بعضها ويعترف ببعضها الآخر^١، وكان أبو اسحاق الزجاج يسأله عن مسائل في النحو فيستنبط لها أجوبة يستفيدها أبو اسحاق منه. له كتاب "المقصود والممدود" وكان قد املأ كتاباً في "معاني القرآن" توفي ولم يخرج منه إلا سورة البقرة، وذلك في سنة ٣٣٢هـ. وقد روى الزبيدي والقفطي أخباراً في تفضيل العلماء والفقهاء لأبي العباس بن ولاد علي أبي جعفر النحاس في العلم والذكاء^٢.

٧- أبو زهرة عبد الله بن فزارة النحوي المتوفى (٢٨٢هـ):

^١ - ينظر تفصيل ذلك في مقدمة "المقتضب" ٩٤/١-٩٥.

^٢ - تنظر ترجمته وكثير من أخباره في طبقات النحويين واللغويين ٢٣٨-٢٣٩ و ٢٤٠ وانباه الرواة ٩٩/١ و ١٠٣.

ذكره الزبيدي ولم يورد في أخباره ما يدل على مبلغ علمه بالنحو وإنما اكتفى بتلقيه بالنحوي^١.

٨- أبو القاسم بن ولاد عبد الله بن محمد بن الوليد:

أخو أبي العباس وكان دونه في العلم، انتقل إليه عن أخيه كتاب سيبويه الذي انتسخه أبوهما عن نسخة المبرد، وكان يقرأ عليه بعد وفاة أخيه^٢.

٩- أبو النضر محمد بن اسحاق بن اسباط:

أخذ عن الزجاج، وله كتاب في النحو سماه "كتاب العيون والنكت" ذهب فيه إلى حد الاسم والفعل والحرف وتلا ذلك بشيء من أبواب الناء والواو، ولم يصنع فيه شيئاً. ويبدو أن كتابه هذا مؤلف على كتاب سيبويه، لأنه أخذ عن الزجاج ، والزجاج معروف بإقراءه وبأنه من أهله^٣.

١٠- علان:

علي بن الحسن المتوفى بمصر سنة ٣٣٧هـ. قال فيه الزبيدي "كان علان من ذوي النظر والادقاق في المعاني، وكان قليل الحفظ لأصول النحو، فإذا حفظ

^١ - طبقات النحويين واللغويين ٢٣٦.

^٢ طبقات النحويين واللغويين ٢٣٩.

^٣ - طبقات النحويين واللغويين ٢٤١ و ١٧١.

الأصل تكلم عليه بكلام حسن، وجوّد في التعليل ودقّق القول ما شاء^١. بعد هذا العرض يصل بنا الكلام إلى علم مشهور من أعلام المدرسة المصرية مثل النحو المصري وما وصل إليه في زمانه من الاستقرار والنضج ذلك هو أبو جعفر النحاس.



^١ - طبقات النحويين واللغويين ٢٤١.

المبحث الخامس

النحو في الأندلس

الأندلس:

تم لطارق بن زياد تحرير الأندلس من حكم القوط سنة ٩٢ هـ حيث دخلها بحيش معظمه من شمال إفريقية، ولحقه موسى بن نصير بجيش مكون من قبائل عربية متعددة، ثم ازداد عدد المهاجرين إلى الأندلس وأصبح العرب فيها يمثلون القحطانيين والعدنانيين وبدخول العرب المسلمين الأندلس بدأ الشعب الإسلامي بالدخول في الدين العظيم وانضوا تحت لوائه، إلا أن هذا التزايد في عدد المسلمين لم يؤثر أول الأمر في الحالة الثقافية للأندلس، واستمرت للحال كذلك لانشغال الولاة بما أحاط حكمهم من حروب ومنازعات واستمرت هذه المنازعات خمساً وأربعين سنة تعاقب فيها على حكم البلاد أربعة وعشرون والياً حتى دخلها عبد الرحمن بن معاوية سنة (١٣٨ هـ) بعد زوال عهد الأمويين في الشام وقيام الدولة العباسية في بغداد فانقذ الحكم العربي الإسلامي في الأندلس من الانهيار وأقام الدولة الأموية في الأندلس واستقرت الأحوال السياسية وتحسنت أمور البلاد اجتماعياً وثقافياً، وفي عهده بدأ اتصال أهل البلاد بالثقافة الإسلامية اتصالاً منظماً واهتم أهل البلاد باللغة العربية لغة الدين والدولة. وشجع الخليفة الثاني هشام بن عبدالرحمن (١٧٢-١٨٠ هـ) الفقهاء والمؤدبين، وفي زمانه دخل مذهب مالك الأندلس وثبت فيها، وجاء بعده هشام بن عبد الملك المعروف بالريضي (١٨٠-٢٠٦ هـ) فشجع العلماء وطور الثقافة العربية الأندلسية التي بلغت أوج نشاطها في زمن خليفته عبدالرحمن الثاني (٢٠٦-

٢٣٨هـ) الذي أدخل إلى بلاطه الأدباء والشعراء واهتم خلفاؤه بأن يكون لقصورهم مجد أدبي وثقافي يخساهي ما كان لقصور العباسيين مما أثر في تطوير الحياة الثقافية في مختلف المجالات وقوى العنصر العربي حتى كان عنصر المستعمرين يتلاشى ويختفي وتختفي معه الآداب اللاتينية التي كانت ذائعة معروفة. وقد مرت الامارة في زمن خليفته الأمير محمد بن عبدالرحمن (٢٣٨-٢٧٣هـ) بأيام عصبية إلا أنه استعان بالفقهاء واستطاع أن يُرهبَ الثائرين من رعاياه ويخضعهم لسلطانه، غير أن نفراً من شيوخ المسلمين الاسبان ورؤسئهم لم يذعنوا بالطاعة لسلطان أمير قرطبة، فاستعان الأمير بشيوخ القبائل العربية ورؤسائهم على محاربة الخارجين عليه، فاستغل هؤلاء الشيوخ العرب الفرصة ومكنوا لأنفسهم في نواحيهم وأنشأوا لهم سلطاناً مناهضاً لسلطان الأمير. واشتد النزاع بين هذه الطوائف من عرب الأندلس والامارة القوطية، وطال النزاع واشتد أمره حتى كاد يقضي على هذه الامارة في عهد الأمير عبد الله (٢٧٥-٣٠٠هـ) لولا أن منَّ الله عليها بعبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ) فانقذ الحضارة الإسلامية الزاهرة في الأندلس مما كان يتعدها من الأخطار الجارجية أو يضعفها من الخلافات الداخلية فتمكن من اخضاع جماعات العرب لسلطانه وأعاد للدولة الإسلامية هيبتها في الخارج ونشر الرخاء والنظام والأمن في الداخل وزاد في موارد ثروة البلاد بتشجيع الزراعة والصناعة والتجارة والعلوم والفنون. وقد صحب هذا التشجيع لعناصر الحضارة تطور في نواحي العلم والأدب وعلوم اللغة العربية، واستمر الحكم الأموي في الأندلس قوياً في زمن ابنه الحكم المستنصر (٣٥٠-٣٦٦هـ) إلا أنه ضعف في زمن ولده هشام الملقب بالمؤيد (٣٦٦-٣٩٦هـ) لتطامنه وضعف شخصيته فاستطاع المنصور بن أبي عامر بما كان له من قوة الشخصية وبمن كان يؤازره من عناصر جيش الخلافة الذين كانوا

من المولدين والصقالبة، ومن البربر الذي جلبهم من إفريقية أن يوقف كل تقدم للطامعين، وتمكن من الاستيلاء على مدن مهمة من بينها برشلونة، وقهر الأندلسيين على الطاعة لحكومة عسكرية مما أدى إلى اشتعال نيران الفتنة التي قصمت ظهر الأندلس بعيد وفاته وإلى تعثر الحضارة الأندلسية في سيرها على أيامه فلم يتميز عصره بأية شخصية علمية بارزة في أي من العلوم والفنون. فقد ثارت قرطبة على أولاده من بعده وحلت الفتنة التي قضت على الخلافة في الأندلس وتتابع على دقة الحكم خلال هذه الفتنة طوائف شتى وقامت عقب سقوط الخلافة حكومة في قرطبة عام (٤٣١هـ) وكان الحال شبيهاً بهذا في مدن الأندلس الأخرى كالمرية وأشبيلية وطليطلة حتى منتصف القرن السادس حيث حكم المرية الأمير المعتصم بن حماد (٥٤٦-٥٨٧هـ) ونشر بنو ذي النون سلطانهم على المدن الأخرى، واستمر الحكم بيد ملوك الطوائف حتى تم عزلهم بمجيء دولة المرابطين التي كانت تحكم شمالي إفريقية بعد أن استتجد بهم أهل الأندلس واختلف المؤرخون في حكم يوسف بن تاشفين وابنه على فوصفه بعضهم بالقوة والعدل، ووصفه آخرون بالاستبداد الذي ظلت عليه الحال حتى احتل الموحدون ما بقي في أيدي المسلمين من بلاد الأندلس. ثم خلف الموحدين قيام المماليك النصرانية متعاقبة فيها.^١

لقد دخل الشعب الإسباني في الدين الجديد بدخول الجيش العربي المحرر لهم من حكم القوط، ولم يكن هؤلاء أول أمرهم بحاجة إلى شيء كثير من العربية، واحتاجوا إلى تعلم العربية بعد اختلاطهم بالعرب الذين استقروا في بلادهم عن طريق المعاملات أو عن طريق التزاوج الذي كثر بينهم لحاجة المحاربين من العرب الذين

^١ - ينظر ما جاء في هذه المقدمة التاريخية ف ينفح الطيب ج ١ وتاريخ الفكر الأندلسي ٣-٢٤. والحركة اللغوية في الأندلس ١٧-٤٦ والدراسات اللغوية في الأندلس ١١ وما بعدها.

نزلوا الأندلس إلى حياة عائلية مستقرة فنشدوا الزواج من أهل هذه البلاد الذين أنعم الله عليهم بالإسلام، فأخذوا في تعلم لغة القرآن الكريم بعد أن أصبح المصدر الأول للتشريع في هذه البلاد وقويت به اللغة العربية التي صارت لغة الدين والدولة.

وتطورت العناية بها وبنشرها ودرسها والتأليف في علومها المختلفة دينية كانت أو لغوية، وساعدت على انتشارها أمور أخرى كان من أبرزها الرحلات التي كان يقوم بها المسلمون إلى الحجاز لأداء فريضة الحج فكانوا يطلعون خلال رحلاتهم هذه على ما نشأ في البلاد الإسلامية المشرقية من علوم وثقافات ودراسات، وكان الكثير من الأندلسيين يرحلون إلى المشرق لغرض غير الحج وذلك للاطلاع على ثقافات هذه البلدان وعلومهم ويعودون محملين بها إلى أرض الأندلس، ويقابل ذلك رحلة عدد من المشاركة ولا سيما العلماء باللغة والنحو وعلوم الدين إلى الأندلس، وصحبت هؤلاء وأولئك كتب مختلفة ألّفت في الثقافة العربية ومدونات قام بها هؤلاء الرابطون من الأندلس والقادمون إليها أثبتوا فيها مسموعاتهم في اللغة والنحو والقراءات وما إليها.

وقد تضافرت هذه الجهود جميعاً على تطوير الحياة الثقافية ولا سيما اللغة، وأدى اختلاط العرب بأهل البلاد عن طريق التزاوج إلى نشوء جيل جديد من أبناء هذه البلاد احتاج إلى تعلم اللغة العربية ونشأ عن هذه الحاجة ظهور طبقة من المثقفين باللغة العربية وعلوم الدين سميت بطبقة المؤدبين، وساعد على ظهورها الرحلات التي كان يقوم بها الأندلسيون والمشاركة من الأندلس إلى مراكز الثقافة الإسلامية في الحجاز والعراق، أو من مراكز الثقافة في المشرق إلى أرض لأندلس،

وكان لتشجيع الحكام والخلفاء على هذه الرحلات أثر كبير في ظهور هذه الطبقة^١. وقد أخذت هذه الطبقة من المؤدبين على عاتقها مهمة تدريس اللغة العربية ونحوها وعلوم القرآن لأبنائها في مدن الأندلس ولا سيما قرطبة عاصمة الدولة ومقر العرب من المحاربين والولاء والمتنفذين، ولم يكن يقتصر علم هؤلاء على تأديب أولاد الخاصة بل قام المؤدبون في الأندلس بتعليم أبناء الخاصة والعامة، فمنهم من كان يؤدب أولاد الخاصة في القصور وبلاط الدولة، ومن هؤلاء المؤدبين عثمان بن سعيد المعروف بـوَرش قارئ مصر المشهور استأدبه الأمير الحكم بن هشام لبنيه، وصالح بن معافى الذي كان يؤدب عند بني فطيس، وطاهر الذي كان يؤدب بني هشام وبني جدير، ومحمد بن محمد بن أرقم الذي كان يؤدب أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر^٢، ومنهم من كان مؤدباً لأولاد العامة في المساجد. وكانت مهمة هؤلاء تعليم القرآن وقراءاته وعلومه، ثم تطور إلى الاهتمام بلغته وتلاوته وأصبح اهتمام المتأخرين منهم بالدراسات اللغوية أكثر وضوحاً من السابقين حيث بدأ عدد منهم يرحلون إلى مراكز الثقافة القرآنية واللغوية في الحجاز والبصرة والكوفة ودمشق فيسمعون القرآن وقراءاته ويسجلون أصول هذه القراءات وما يحدث فيها من مد أو إدغام أو همز أو تليين أو تفخيم أو امالة أو اعلال أو ابدال أو نحوها مع ما جدّ من دراسات لغوية ونحوية متفرقة يحملونها معهم عائدين إلى الأندلس ويعلمونها تلاميذهم، ولهذا فقد كان منهم من عني بالتأليف في القراءات والتفسير مثل أبي موسى الهواري الذي كان من أهل الفقه والدين وأول من جمع الفقه في الدين وعلم

^١ - ينظر الحركة اللغوية في الأندلس ٤٧ وما بعدها.

^٢ - طبقات النحويين واللغويين ٢٩٣ و ٢٩٩ و ٣٠٦ وتنتظر ٢١٧، والحركة اللغوية في الأندلس ٤٨.

العرب بالأندلس رحل في أول خلافة عبد الرحمن بن معاوية (١٣٨-١٧٢هـ) إلى المدينة فلقى مالكا ونظراءه الأئمة ولقى الأصمعي وأبا زيد الأنصري وداخل الأعراب في محالها. واستصحب معه عند عودته ما حصل عليه من الكتب وما دونه من مدونات سجل فيها سماعه عن لقيهم في هذه البلدان، ذهبت منه لعطبٍ أصابها، إلا أنه استطاع أن يؤلف كتاباً في القراءات وآخر في علم التفسير. أما ما سمعه عن الأعراب الذين لقيهم وعن الأصمعي وأبي زيد من مسائل لغوية فلم يؤلف فيها ولا ترك أثراً يدل على ما أخذه وسمعه ودونه^١. وكان الغازي بن قيس المتوفى (سنة ١٩٩هـ) من المؤدبين بقرطبة أيام دخول عبد الرحمن بن معاوية الأندلس، ومن الذي رحلوا إلى المشرق، شهد تأليف الإمام مالك للموطأ وأدرك نافع بن أبي نعيم وأخذ عنه قراءته وكان أول من أدخلها الأندلس. وأدرك في البصرة الأصمعي ونظراءه وعاد إلى الأندلس وعمل على تأديب أولاد هشام والحكم وكان هذان العالمان أول من رحل إلى المشرق من المؤدبين الأندلسيين.

أوائل النحاة:

كان أول نحوي عرفته الأندلس بالمعنى الدقيق لكلمة نحوي جودي بن عثمان المتوفى سنة ١٩٨هـ، وقد رحل إلى المشرق كسابقه ولقى الكسائي وتلميذه القراء شيخي المدرسة النحوية الكوفية، فكان أول من أدخل كتاب الكسائي إلى الأندلس، وترك مؤلفاً في النحو من الواضح أن يكون صدق لما أخذه عن الكسائي والقراء، وفي زمانه عرفت الأندلس نقداً نحوياً للشعر واهتماماً بتقويم ما خرج على الأقيسة

^١ - طبقات النحويين واللغويين ٢٧٤-٢٧٦.

منه وبدت ظاهرة تخطئة القراء، وفي حلقة أنكر على الشاعر عباس ابن ناصح قوله:

يشهد بالاخلاص نوتيتها لله فيها وهو نصراني

وُلِحَّ لأنه لم يشدد "ياء النسب" في "نصراني" فلما وصل خبر هذا إلى الشاعر ارسل إليهم قائلاً : فلا سمعتم بيت عمران بن حطان:

يوماً يمان إذا لاقيت ذا يمين وإن لقيت مَعدياً فعدناني^١

هذه الرواية وغيرها تدل على اهتمام نحاة الأندلس مما سمعوه من قواعد ومحاولة تطبيقه على ما ظهر في بلدهم من مخالقات، فإذا نُبِّهوا إلى وجود مثلها في الشعر القديم سكنوا عنها. واشتهر من تلاميذ جودي، أبو حرش عبدالله بن رافع مولى رسول الله ﷺ، وكان عالماً باللغة والعربية أخذها عن جودي، وضرب به المثل في فصاحته فقليل فيمن استفصحوه "ما هذا إلا أبو حرش"، وأصبح من هؤلاء العلماء في العربية واللغة من يرحل إليهم الناس يستفتونهم في مسائل اللغة والنحو منهم "خصيب الكلبي" الذي كان الخليفة يبعث إليه يستفتيه في الكلمة من اللغة أو المسألة من العربية، وترك مصنفاً في اللغة شُيِّعَ بمصنف أبي عبيد^٢، واشتهر بعدهم عدد من النحاة واللغويين منهم عبدالله بن الغازي (٢٣٠هـ) و هرون بن أبي غزالة السبائي، وعبد الملك بن حبيب السلمي (-٢٣٨هـ) الذي تميز من بينهم بأنه قد جمع إلى اللغة والإعراب والتصرف في فنون الأدب علم الفقه الحديث، وصنف كتاباً في اعراب القرآن وآخر في شرح الحديث^٣.

١ - طبقات النحويين واللغويين ٢٧٨-٢٧٩.

٢ - طبقات النحويين واللغويين ٢٨١.

٣ - طبقات النحويين واللغويين ٢٧١-٢٨٣ وينظر بغية الوعاة ٥١/٢ و ٣٢٠.

وتتابع على الظهور في الأندلس عدد من اللغويين والنحاة الذين لم يتركوا أثراً مهماً في النحو منهم: عباس بن ناصح الجزيري، وحرش بن أبي حرش وأحمد بن نعيم، وأحمد بن بكري الذي فقيهاً ونحويّاً ولغويّاً، وجابر بن غيث (-٢٩٩هـ) وأخوه عبد الرحمن بن غيث، ومحمد بن عبدالله الغازي^١ واشتهر منهم محمد بن عبد السلام الخشني (-٢٨٦هـ) الذي رحل وحج ودخل البصرة وسمع الحديث ولقي أبا حاتم السجستاني، والعباس بن الفرّج والرياشي، والزيادي الذي دخل بغداد وسمع بها من غير واحد^٢. وصحب مجيء عبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ) إلى الأندلس وازدهار الثقافة فيها تبعاً لازدهار الحضارة وظهور عدد من النحاة المشهورين كان منهم من أُلّف في النحو في هذه الفترة الزمنية كأبي بكر بن حاطب المكفوف الذي صنف تأليفاً في النحو، وأبي الحسن مفرج بن مالك النحوي الشهير بـ "البقل" وله كتاب في شرح كتاب الكسائي^٣.

ويتضح مما جاء في أخبار هؤلاء المؤدبين والنحاة الأندلسيين أنهم كانوا يعنون بالنحو الكوفي الذي كان من حمله إليهم إلى الأندلس جودي بن عثمان الذي رحل إلى المشرق ولقي الكسائي والفراء، وإن كتب هذين الشيخين كانت موضع اهتمام نحاة هذه المرحلة فدرسوها وشرحوها وألفوا في نحوها، ويبدو أن هؤلاء النحاة كانوا يرحلون إلى بغداد عاصمة الدولة العباسية في العراق ويلتقون بنحاتها الذين كانوا من الكوفيين، ولهذا انتشر هذا النحو في ذلك العهد بالأندلس. وتبدأ بعد هذا مرحلة جديدة ظهر فيها كتاب سيبويه في مجالس درس النحوي في الأندلس، وكان محمد بن موسى بن هاشم المشهور بـ "الأفشنيق" قد رحل إلى المشرق فلقي أبا جعفر

١ - تنظر أخبارهم في طبقات الزبيدي ٢٨٤-٢٨٦ و ٢٨٧ و ٢٨٩-٢٩٠.

٢ - طبقات النحويين واللغويين ٢٩٠ وبغية الوعاة ١/١٦٠.

٣ - ينظر طبقات النحويين واللغويين ٢٩٧.

الدينوري وانتسخ كتاب سيبويه من نسخته وأخذه منه رواية وأخذه الدينوري عن المازني، وروى الأفشنيق عن الدينوري كتب ابن قتيبة بمصر وتوفي سنة (٣٠٧هـ)^١ واشتهر بعده أبو الحكم المنذر بن عبد الرحمن ابن الإمام عبد الرحمن بن معاوية الشهير بـ "المذاكرة" كان مهتماً بالنحو ومسائله، وكان إذا لقي أحداً من أصحابه قال له: هل لك في مذاكرة باب من النحو؟ فلهج بهذه العبارة وأكثر منها حتى لقب بها. روى الزبيدي في علمه باللغة وحفظه لها وتوسعه فيها وفي مسائل التصريف ومناضرتة فيها علماء عصره^٢ بعض الروايات التي تدل على ما بلغه علم العربية بفروعه من اشتها، وتظهر اهتمام العلماء به، وقد ظهرت بعد الافشنيق مجموعة من النحاة وجهوا اهتمامهم إلى كتاب سيبويه فدرسوه واهتموا بالنظر فيه، ومن أشهرهم أبو وهب عبد الوهاب بن محمد بن عبد الرؤوف الذي حذق كتاب سيبويه ومسائله وكان يسأل أصحابه في مسائل من عويص النحو عندما كان وزيراً فاستغفوه لبرمهم به. وأحمد بن يوسف بن حجاج الذي كان أعلم الناس بالنحو أحفظهم لمسائله، وكان كتاب سيبويه بين يديه لا يني عن مطالعته في حال فراغه وشغله وصحته وسقمه، توفي سنة ٣٣٦هـ^٣. وظلت العناية بكتاب سيبويه مستمرة وبلغت العناية به أقصاها عند أبي عبد الله محمد ابن يحيى بن عبد السلام الأزدي الرياحي الذي كان حاذقاً بعلم العربية دقيق النظر فيها، لطيف المسلك في معانيها، غاية في الابداع والاستنباط، ولم يكن ظاهره ينبئ عن كثير علم، فإذا نوقش ونوظر لم يصطلّ بناره ولم يشق آخر غباره^٤. رحل إلى الشرق فلقي أبا جعفر النحاس أكبر

^١ - طبقات النحويين واللغويين ٣٠٥.

^٢ - ينظر طبقات النحويين واللغويين ٣١٠ و ٣١١.

^٣ - طبقات النحويين واللغويين ٣٢١-٣٢٢ و ٢٣٤.

^٤ - طبقات النحويين واللغويين ٣٣٥-٣٣٦.

نحاة مصر في زمانه ومن المهتمين بكتاب سيبويه الذي كان محور الدرس النحوي في مصر. فحمل الرياحي عنه هذا الكتاب رواية، ولازم علانَ وناظره وكان دقيق النظر جيد القياس. حمل الرياحي الكتاب وعاد إلى قرطبة ولزم التأديب بنحو البصرة المتمثل بكتاب سيبويه في داره، فتوارد الناس إليه، ثم انتقل إلى أحد الحديرين فمكث عنده مدة، وقرئ عليه كتاب سيبويه وأخذ عنه رواية، وعقد مجلساً كل جمعة للمناظرة في أصوله ومسائله، ولم يكن عند مؤدبي العربية ولا عند غيرهم ممن عني بالنحو كبير علم حتى ورد عليهم محمد بن يحيى الرياحي، وذلك أن المؤدبين أنما كانوا يعانون إقامة الصناعة في تلقين تلاميذهم العوامب وما شاكلها، وتقريب المعاني لهم في ذلك، ولم يأخذوا أنفسهم بعلم دقائق العربية وغوامضها والاعتلال لمسائلها، ثم كانوا لا ينظرون في امالة ولا ادغام ولا تصريف ولا بنية، ولا يجيبون في شيء منها حتى نهج لهم الرياحي سبيل النظر، واعلمهم بما عليه أهل هذا الشأن في المشرق من استقصاء الفن بوجوهه واستيفائه على حدوده، وأنهم بذلك استحقوا اسم الرياسة، وتوفي الرياحي سنة ٣٨٥هـ^١ بعد أن عزّف الأندلسيين بنحو البصريين وبما بلغه من التعمق في مسائل النحو التصريف والأصوات وغيرها من الدراسات، وبين لهم كيف ينظرون فيه ويستفيدون منه فخدم بذلك الكتاب ومؤلفه ومدرسته النحوية الأصلية وأشاعه هو وتلاميذه من بعده في مجال سالدروس النحوي، بعد أن كان الدرس في الأندلس يسير على مناهج الدرس الكوفي الذي كان يهتم بالرواية والعوامل وحفظها وتقريب المعاني للطلبة ويعتمد على الرواية والاهتمام بها وتوسيعها، فبعث الرياحي ونحوه البصري ومن قبله الافشنيق حامل كتاب سيبويه عن الدينوري لحياة والنشاط في الدرس النحوي وأوجداً روحاً جديدة مبنية على تعليم الأندلسيين التعمق في فهم

^١ - طبقات النحويين واللغويين ٣٣٥-٣٤٠ و ١٠٠، بغية الوعاة ٣٦٢/١ وإنباه الرواة ٢٢٩/٣-٢٣٠.

الظواهر ومناقشتها وإيراد الفصيح الوارد فيها وتعليل هذه الظواهر واستنباط الحكم منها وبناء الأقيسة عليها، فحببا إليهم النحو ودفعاهم إلى الاهتمام بهذا العلم العربي الأصل، وخلف الرياحي في العناية بكتاب سيبويه في الأندلس خلق كثير تتابعوا على تثبيت أركانه بين المارسين الأندلسيين كان من أشهرهم أبو علي اسماعيل ابن القالي البغدادي (٣٥٦هـ)، دخل لأندلس سنة ٣٣٠هـ حاملاً كتاب سيبويه الذي قرأه على ابن درستويه، وناظره فيه واستفسره عن مسائله ودقق النظر فيه وكتب عنه تفسيره وعلل العلة وأقام عليها الحجة وأظهر فضل مذهب البصريين على مذهب الكوفيين، ونصر مذهب سيبويه على من خالفه من البصريين أيضاً، وأقام الحجة له، فكان عمله في نشر كتاب سيبويه ونحو البصريين في الأندلس مكماً لعمل الرياحي فقام فيها نهضة لغوية نحوية خصبة كان معولها فيها بعد كتاب سيبويه ذخائر اللغة والشعر والنحو التي حملها من المشرق معه. وقد أخذ عن القالي نفسه أبو جعفر أحمد بن محمد بن درستويه، قرأ عليه تعليماً ورواية الكتاب أجمع^١. وظهر بعد القالي والرياحي جيل من تلاميذهما انصرف إلى النحو البصري وانكب على كتاب سيبويه وغيره من كتب البصريين والكوفيين درساً وتديساً كان من أبرزهم تلميذ القالي محمد بن عمر بن عبد العزيز المعروف بابن القوطية المتوفى سنة ٣٦٧هـ وهو أمام في العربية واللغة، كان حافظاً لهما مقدماً فيهما واشتهر من مصنفاته "تصريف الأفعال" وصنف "المقصود والممدود" و "شرح رسالة أدب الكتاب". ومحمد بن الحسن الزبيدي المتوفى ٣٧٩هـ، صاحب طبقات النحويين واللغويين الذي كان جل اعتمادنا عليه في أخبار أوائل النحاة الأندلسيين، وله في النحو كتاب "الواضح"^٢ وأبو عبد الله محمد

١ - طبقات النحويين ١٣٢ و ٢٠٢-٢٠٤ و انباه الرواة ٢٠٤/١-٢٠٩.

٢ - بغية الوعاة ١٩٨/١، وانباه الرواة ١٨٧/٣ و ١٩٧/٣.

بن عاصم العاصمي المتوفى سنة ٣٨٢هـ ، تلميذ الرياحي وحامل روايته لكتاب سيبويه وكان لا يقل عن أصحاب المبرد بصرًا بالعربية ودقائقتها الخفية. وأحمد بن ابان المتوفى ٣٨٢هـ وله شرحان على كتابي الكسائي والأخفش، وله كتاب "العالم والمتعلم في النحو"^١. ويبدو من هذا أن النحاة الأندلسيين مع انصراف معظمهم إلى النحو البصري وكتاب سيبويه درساً وتدریساً وشرحاً وتعليقاً لا يزال بينهم من يعني بالنحو الكوفي ويهتم بكتب شيوخه. واستمر الحال على هذا في العناية بالنحويين معاً مع ميل إلى النحو البصري الذي تمثل عند هرون بن موسى القرطبي (-٤٠١هـ) الذي ألف "تفسير عيون كتاب سيبويه" وابن الأقليلي (-٤٤١هـ) الذي تصدر بقرطبة لاقراء كتاب سيبويه^٢. وجاء بعدهما من قيل فيه أنه لم يكن في زمانه أعلم منه بالنحو واللغة.. هو الإمام ابن سيده الضرير (-٤٤٨هـ) الذي اهتم في معجمه "المخصص" بمسائل النحو والصرف حتى اصطبغ الكتاب بهما، وقد عُدَّ ابن سيده بما خلطه في مؤلفاته من علم البصريين والكوفيين بداية اتجاه الأندلسيين إلى النحو البغدادي إلى جانب النحويين البصري والكوفي، وسار النحاة الذي جاءوا بعدهم على العناية بالمذاهب الثلاثة وأصبح النحو خليطاً منها. وإن كان البغدادي في الأصل أيضاً.

**خصائص منهج التحليل النحوي في الأندلس من وجهة نظر ابن مضاء
الأندلسي في رده على النحاة بشكل عام والبصريين والكوفيين بشكل خاص**

^١ - انباه الرواة ١٩٧/٣ و ٣٠/١ وبغية الوعاة ١٢٣/١ و ٢٩١.

^٢ - انباه الرواة ٣٦٢/٣ و ١٨٣/١.

١- إلغاء نظرية العامل: فقد وضع النحاة الأوائل جميعاً بصريين كانوا أم كوفيّين أصولهم النحوية على القول بالعامل في النحو، وعلقوا كل أحكام الرفع والنصب والخفض والجزم بهذا العامل، وحددوا ما يقع في الكلام من تقديم أو تأخير وما يضبطها من أصول تجوز أو تمنع ثم جعلوا الأساس الذي يبعث على كل هذه الأحكام "العامل النحوي" فثار ابن مضاء ورأى أن النحاة يبالغون في اعطاء العامل قوة التصرف في العبارة العربية، وإن العمل في الحقيقة أنما هو للمتكلم فهو الذي يرفع أو ينصب أو يخفض بحسب المعاني التي يريدّها "وأما العوامل النحوية فلم يقل بعملها عاقل ولا ألفاظها ولا معانيها لأنها لا تعقل بارادة ولا بطبع. وأنكر ما تجره نظرية العامل من تقدير عوامل محذوفة في مثل "أزیداً ضربته؟" مما لا يحتاج إليه الكلام. وأكثره منافاة للواقع تقدير عامل محذوف في "يا عبد الله" وتقديرهم إياه بـ "ادعو" يغيّر الكلام عن حقيقته. وتقدير "أن" محذوفة بعد "الواو" و "الفاء" وما ينصب بعده الفعل في مثل "ما تأتينا فتحدثنا" يقدرون المعنى "ما يكون منك اتیان فحديث" وليس هذا التقدير صحيحاً، لأن المعنى المقصود أحد اثنين أما: "ما تأتينا فكيف تحدثنا؟" أي أن الحديث لا يكون إلا مع الاتيان، وإذا لم يكن الاتيان لم يكن الحديث، والوجه الآخر "ما تأتينا محدثاً" أي أنك تأتي ولا تحدث. ومما أنكره من تقدير عوامل محذوفة تقديرهم للجار والمجرور الواقع خبراً أو صفة أو صلة أو حالاً، عاملاً محذوفاً هو "كائن" أو "مستقر" أو "كان" أو "استقر" مما لا يحتاج إليه الكلام. وتقديرهم الضمائر المستترة في أسماء الفاعلين والمفعولين أو أمثلة المبالغة أو

الصفات المشبهة الواقعة خبراً في مثل "زيد ضار عمراً" ، حيث يقدرّون في "ضارب" ضميراً مستتراً هو الفاعل، وهذا لا حاجة تدعو إليه ومثله تقدير مزنون لا دليل عليه وهو الضمير في "قام" من قولنا "زيد قام" ومعناه مفهوم بلا تقدير، لأن الفعل دل على فاعله ببناؤه^١. ويرى أن "الألف" و "الواو" و "النون" في قولنا: "الزیدان قاما" و "الزیدون قاموا" و "الهندات فمن" إنما هي علامات على التثنية والجمع لا فواعل، وشدد حملته على ما جره تقدير النحاة من العوامل المحذوفة من التعقيد ولا سيما في الأفعال المتعدية إلى مفعولين من مثل قولهم: "اعطيت وأعطانيه زيدا درهماً" و "ظننت وطنيه زيدا شاخصاً" و "ظننت وظناني شاخصاً الزیدین شاخصین" والمتعدية إلى ثلاثة أكثر تعقيداً في مثل: "أعلمت وأعلمنيه زيدا عمراً منطلقاً" و "أعلمت وأعلامانيهما إياهما الزییین العَمَرین مُنْطَلِقین" و "أعلمت وأعلمونيهم إياهم الزیدین العَمَرین مُنْطَلِقین" فكل هذه الأمثلة لم يقل بها العرب وإنما قاسها النحويون على الصورة الواردة عن العرب بأسهل أساليبهم وهي "قام وقعدا الزیدان" عند الكوفيين و "قاما وقعد الزیدان" عند البصريين. ولم يكن التعقيد لكون الفعل متعدياً إلى اثنين أو ثلاثة وقياس النحويين ذلك، وإنما زاد في تعقيدها أنها في تقديرات الكوفيين الذين يعملون الفعل الأول مع بعده مما يضطرهم إلى تقدير معمولات كاملة لما في الجملة من عوامل هي ضمائر ثم يأتون للأول بمعمولاته الظاهرة، ويجعل البصريون الثاني عاملاً في الظاهر ولا يجعلون إلى تقدير ضمائر في الأول إلا ما احتاج إليه المعنى

^١ - ينظر الرد على النحاة ١٠٠-١٠٥.

ومنع الالباس كضمائر الرفع ولذا قال: "ومذهب البصريين أظهر لأنه أسهل، فإنه ليس إلا حذف ما تكرر في الثاني أو اضماره على مذهبهم إن كان فاعلاً والتعليق بالأول فيه إضمار كل ما تكرر من متعلقات الأول في الثاني وتأخير المتعلقات بالأول بعد الثاني"^١. وباب الاشتغال" عند ابن مضاء مما عقد الكلام لأن النحاة تتنازعوا في الأوجه الجائزة في المشغول عنه من وجوب الرفع ووجوب النصب وجواز الأمرين ومتى يرجح الرفع مع الجواز وأوردوا العلل لكل وجه مما لا حاجة إليه ولا دافع، وقد حل ابن مضاء هذا الاشكال في حكم الاسم المشغول عنه بأنه يحمل على الضمير الذي يعود إليه من الفعل المتأخر "فإن كان العائد على الاسم المقدم قبل الفعل ضمير رفع فإن الاسم يرتفع به كما أن ضميره في موضوع رفع كما في قولنا "أزيد قام؟" وإن عاد إليه ضمير نصب كقولنا "أعبد الله أكرمه؟" انتصب وإن عاد عليه ضميران أحدهما مرفوع والآخر منصوب جاز مراعاة أي منهما كان في قولنا: "أعبد الله ضرب أخوه غلامه" مما اتصل بضميره شيئان مرفوع ومنصوب لذلك يجوز في "عبد الله" مراعاة "أخوه" وهو الرفع فيرفع وإن روعي فيه "غلامه" المنصوب نصب.^٢

٢- إلغاء المسائل الخلافية النظرية التي تجري بين النحاة مما لا يفيد نطقاً كخلافهم في أيُّهما الأصل المصدر أم الفعل؟ وفي علامة رفع المثني وجمع المذكر السالم والأسماء الستة، وفي الرفع للمبتدأ، والرفع للفعل المضارع،

^١ - الرد على النحاة ١١٦-١١٧.

^٢ - الرد على النحاة ١٢١-١٢٢.

وما إلى هذه الخلافات التي تعقد النحو لا تفيد المتعلم نطقاً، ومثله خلافهم في ناصب المفعول أبالفعل أم بالفاعل أم بها؟.

٣- **إلغاء الأمثلة غير العملية** من مثل ما رأيناه من أمثلة باب التنازع في الأفعال المتعدية إلى فعلين أو إلا ثلاثة ولا سيما على تقديرات الكوفيين في مثل "اعلمت واعلمانيهما إياهما الزيدَينِ العَمَرَيْنِ مُنْطَلِقَيْنِ" وكذا ما يقع في باب التصريف من نحو قولهم "ابن لي من "البيع" مثال "فُعل" فيقول قائل "بوع" أصله "بيع" فيبدل من "الياء" و"الواو" لانضمام ما قبلها لأن النطق بها ثقيل... ومن قال: "بيع" بالكسر كسر "الباء" لتصح "الياء" كما قال العرب في "بُيُض": "بُيُض" ويرى أن عبارات التنازع وأمثلة التصريف يحتاج فيها إلى البحث عن علل لكل وجه وترجيح لهذه العلل فتشابه المسائل ولا تزيد النحو إلا تعقيداً والمتعلم إلا مَلَلًا. ويرى أنها تقيد نطقاً، وهي أفضل من الاطالة في مسائل خلافية لا تقيد نطقاً إلا أنه لا ينبغي أن ينشغل فيها المتعلم إلا بعد أن يأخذ ما تمس الحاجة إليه. وإن كان حذف أمثال هذه من صناعة النحو مقوياً لها ومسهلاً.^١

٤- **إلغاء العلل الثواني والثالث:** تحدث الزجاجي في علل النحو التي استخدمها النحاة في تحليل مسائل النحو والتصريف وغيرها فقسمها إلى

ثلاثة أنواع:

١- **العلة التعليمية:**

^١ - الرد على النحاة ١٦١ وينظر فيما قبله ١٢٧ و ١٠٩-١١٣ و ١٥٦-١٥٩ و ١٤١.

وهي التي يتوصل بها إلى تعلم كلام العرب مثل قولنا "إن زيدا قائم" فإن سئلا: بم نصبتم "زيداً"؟ قلنا بـ "إن" لأنها تنصب الاسم وترفع الخبر لأننا كذلك علمناه ونعمله. فهذه علة أولى. فهذا وما أشبهه من نوع التعليم وبه ضبط كلام العرب.

ب- والعلة القياسية:

وهي التي يستفهم عنها بعد معرفة الأولى بأن يسأل بعد ذلك: ولم وجب أن تنصب "إن" الاسم؟ فالجواب في ذلك أن يقال لأنها وأخواتها ضارعت الفعل المتعدي إلى مفعول فحملت عليه فاعملت أعماله لما ضارعت فبالمنسوب بها مشبه بالمفعول لفظاً والمرفوع بها مشبه بالفاعل فهي تشد من الأفعال ما قدم مفعوله على فاعله نحو: "ضرب أخاك محمد".

ج- والعلة الجدلية النظرية:

وهي كل ما قيل بعد ذلك في باب "إن" مثل: فمن أي جهة شابحت هذه الحروف الأفعال وبأي الأفعال شبهتموها...؟^١ وقد وقف ابن مضاء من أمثال العلتين الثانية والثالثة موقف المنكر ورأى أنه لا يجاب عن السؤال عن أية علة في مثل قولنا: "قام زيد" إلا عن العلة الأولى وهي: لم رفع "زيد".

وذلك بأن نجيب فنقول: لأنه مرفوع وكل فاعل مرفوع. أما ما يأتي بعدها من مثل أن يقال ولم رُفِعَ الفاعل؟ فالصواب أن يقال فيه: كذا نطق به العرب، ثم يقول إنك "لو أجبت السائل فقلت للفرق بين الفاعل والمفعول، فلم يقنعه وقال: فلم لم تعكس القضية بنصب الفاعل ورفع المفعول؟ قلنا له: لأن الفاعل قليل لأنه لا يكون للفعل إلا فاعل واحد والمفعولات كثيرة فأعطي الأثقل الذي هو الرفع للفاعل وأعطي

^١ - ينظر الايضاح في علل النحو ٦٤-٦٧.

الأخفُ الذي هو النصب للمفعول، لأن الفاعل واحد والمفعولات كثيرة ليقَلَّ في كلامهم ما يستثقلون ويكثر في كلامهم ما يستخفون، فلا يزيدنا ذلك علماً بأن الفاعل مرفوع، ولو جهلنا ذلك لم يضرنا جلّه إذ قد صح عندنا رفع الفاعل الذي هو مطلوبنا باستقراء المتواتر الذي يوقع العلم".^١

هذه أهم الأمور والمسائل التي تضمنها كتاب "الرد على النحاة" وهي التي كان قد شدد فيها النكير على النحاة للقول بها وبأمثالها من تقدير لعوامل أخرى محذوفة في أبواب كثيرة من النحو جرت إلى التأويل البعيد وتقدير ما لا يحتاج إليه الكلام ورأى "أن اضممار ما لا يحتاج الكلام إليه إنما هو زيادة في كلام القائلين ما لم يلفظوا به ولا دلنا عليه إلا ادعاء أن كل منصوب فلا بد له من ناصب لفظي، وادعاء الزيادة في كلام المتكلمين من غير دليل عليها خطأ بيّن، ولكنه لا يتعلق بذلك عقاب، وأما طرد ذلك في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وادعاء زيادة معانٍ فيه من غير حُجّة ولا دليل إلا القول بأن كل ما يُنصب إنما يُنصب بناصب، والناصب لا يكون إلا لفظاً يدل على معنى أما منطوقاً به وأما محذوفاً مراداً ومعناه قائم بالنفس فالقول بذلك حرام على من تبين له ذلك... ومن بنى الزيادة في القرآن بلفظ أو معنى على ظنٍّ باطلٍ قد تبين بطلانه فقد قال في القرآن بغير علم، ومن قال فيه بغير علم فقد تبوأ مقعده من النار كما قال الرسول العظيم ﷺ، ومما يدل على أنه حرام، الاجماع على أنه لا يزداد في القرآن لفظ غير المجمع على إثباته، وزيادة المعنى كزيادة اللفظ، بل هي أخرى لأن المعاني هي المقصودة والألفاظ دلالات عليها ومن أجلها"^٢. ثم يبين للقارئ أنه لم يُقَلَّ بما قال،

^١ - الرد على النحاة ١٥١-١٥٢.

^٢ - الرد على النحاة ٩٢-٩٣.

ولم يرد ما رده على النحاة المشاركة أو ينكر ما أنكره بغير علم أو اطلاع فقد اطلع على من رد آراءهم أو وافقها كسيبويه والأخفش والمازني والكسائي وابن جني. فيقول: "قد أتيت في هذا الباب على ما يُحتاج إليه ويُستغنى به، وزدت توجيه الأقوال والاحتجاج على سيبويه وله. ليعلم القارئ أنني قد وقفت على أقوالهم، وعرفت ما أثبت، ولم احتج في اضمار ما الكلام تام دونه واطهاره على مخالف لغرض القائل، هذا في كلام الناس. فأما في كتاب الله فحرام".^١

والخلاصة أن مقصد ابن مضاء في كل ما ذهب إليه من الغاء هذه الأبواب التي لا تقيد الخلو ولا تزيد المتكلم علماً بكلام العرب إنما هو التخفيف عن المتعلمين كي لا يتبهيوا في هذه التفريعات والتعليقات والتقديرية والتأويلات التي لا تجوز في كلام الناس ويحرم القول بها في كلام الله. والأفضل حمل العبارات الواردة على الظاهر الذي تدل عليه ولا يقدر فيها محذوف ولا مستتر، يتجنب التكلم في النحو بموضوعات لم ترد عن العرب ولم يتكلموا بها وإنما قاسوا قياساً نظرياً. ومن هنا يبدو تأثره بآراء داود وابن حزم من بعده في الأخذ بظاهر النصوص، وإنه لا حكم إلا بنص، وفي إلغاء القياس النظري والابتعاد عن تعليل ما لم يرد عن الله سبحانه أو عن النبي ﷺ للقول بعلته أو تبين سببه.

النحو في بلاد الحجاز:

جاء الإسلام فكان لمدينتي الحجاز العظيمتين "مكة" و "المدينة" شأن علمي كبير، وكان العلم فيهما دينياً صرفاً. ففي مكة كان التشريع السماوي الذي لم يكن ليفهم فهماً صحيحاً ما لم يفهم ما كان يحيط به من ظروف. أما المدينة فهي مهاجر النبي ﷺ وأصحابه، وبها كان أكثر التشريع الإسلامي فكات متبعاً لأكثر الأحداث

^١ - الرد على النحاة ١٤١.

التاريخية في صدر الإسلام، وبها حدث النبي ﷺ أصحابه أكثر حديثه، وهو لا يفهم تمام الفهم إلا بمعرفة ما أحاط بهذه الأحاديث من ظروف تفسرها وتوضحها مما حدث في المدينة، آنذاك. وكانت المدينة كذلك مقر الخلافة الراشدية وفيها كثير من الصحابة الذين شاهدوا ما فعل النبي وسمعوا ما قال، وكانوا شركاء له في كثير من الأحداث كالغزوات والفتوح ولهذا فقد اشتهرت مكة بمدرسة اقراء القرآن والتثقف فيه، وقد كان فيها معاذ بن جبل الذي خلفه النبي عليه السلام فيها يثقف أهلها ويفقههم في الحلال والحرام ويقرئهم القرآن، وكان من الذين شهدوا المشاهد كلها مع رسول الله ويُعدّ من أعلم الصحابة بالحلال والحرام، وعلم بمكة عبد الله بن عباس أيضاً في أخريات أيامه وكان قد علم بالبصرة والمدينة، وكان يجلس في البيت الحرام ويعلم التفسير والحديث والفقه والأدب، وإلى عبد الله وأصحابه يرجع الفضل فيما كان لمكة من شهرة علمية. وقد تخرج بهذه المدرسة ثلاثة من الموالى وهم: مجاهد الذي اشتهر برواية أقوال ابن عباس في تفسير القرآن وروى عنه أنه قال: "عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات أفقه ع كل آية، أسأله فيم نزلت، وكيف كانت" ^١ وعطاء، وهو من جلة فقهاء مكة وزهادها وكان يعد من أعلم الناس بمناسك الحج، وكان يجلس في المسجد الحرام ويجتمع الناس حوله فيفتيهم ويعلمهم ويحدّهم. والثالث: هو طاؤس وكان من اليمن أدرك كثيراً من الصحابة وأخذ منهم ثم انقطع إلى ابن عباس فكان من فقهاء مكة ومفتيها. وواصل تلاميذ هؤلاء تلقّي هذا العلم طبقة عن طبقة وفيها تعلّم الإمام الشافعي وأخذ الحديث والفقه عن كان فيها ثم تحوّل إلى المدينة ليكمل تعليمه بعد أن قارب العشرين.

^١ - ينظر فجر الإسلام ٢١٤/١ وضحى الإسلام ٧٣/٢ وما بعدها.

أما المدينة فقد كانت أوفر حظاً وأكثر علماً وشهرة بمن كان فيها من الخلفاء والصحابة لعلماء ثم من التابعين، فكان فيها عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب، وكان زيد بن ثابت أكثر لصحابة شهرة في العلم هو وعبد الله بن عمر. فزيد بن ثابت أنصاري صحب النبي عليه السلام منذ صباه وتضلع من فهم تعاليم الإسلام، وكانت له قدرة فائقة على استخراج الأحكام من الكتاب والسنة، ومن الرأي فيما لم يكن من أمور فيهما، ولهذا كان مترسلاً بالمدينة في القضاء والفتوى والقراءة والفرائض قادراً على استنباط المعاني، ذا رأي فيما لم يرد فيه أثر. أما عبد الله بن عمر فكان عالماً فقط يجمع الأحاديث ويرويه ويكتبها ويتخرج من القول وابداء الرأي. وقد تخرج على علماء المدينة من أمثال هؤلاء كثير من علماء التابعين كسعيد بن المسيب الذي حفظ عن زيد قضاياه وفتاويه وفضل قوله على قول غيره. وتخرج عروة بن الزبير بزيد وابن عمر فحفظ فقه علماء المدينة، وكان من أعلمهم وكذا كان ابن شهاب الزهري الذي حفظ فقه علماء المدينة وحديثهم، وكان من أسبق العلماء إلى تدوين العلم، وقد أنجبت هذه المدرسة الفقهية الإمام مالك بن أنس.^١

أما الدراسة النحوية واللغوية فلم يصل إلينا أن علماء الحجاز بمدينتيه قد اهتموا بها أو نشأت عندهم لانشغالهم بالعلوم الدينية عن كل ما عداها وإنما كانت البصرة هي البلد المعلي بها في العالم الإسلامي منذ بداية نشأتها كما عنيت بالقرآن وقرأه وتفسيره واهتمت بشرحه وتوضيح معانيه والاستدلال على لغته وما جاء فيها من ظواهر إعرابية وتركيبية وصوتية بما جاء في كلام العرب فاحتاجوا إلى جمع اللغة وتصنيفها ودراستها والاستنباط منها ووضع الأقيسة عليها. فنشأ عن كل هذا نقط أبي الأسود للمصحف أولاً ثم وضع قواعد النحو والصرف وغيرهما من علوم

^١ - فجر الإسلام ٢١٥/١. وينظر ضحى الإسلام ٧٥/٢.

العربية. وتابعتهما مدرسة الكوفة في مواصلة هذه الجهود حتى استقر النحو بجهود شيوخ هاتين المدرستين. وكان لا بد لعلم النحو ودراسته وآراء شيوخه ولا سيما في الموضوعات التي تمس القراءات القرآنية والتوجيهات النحوية التي تنبني عليها أحكام مستنبطة من أن تنتقل بفعل للقادمين إلى العراق وللتجارة والمسافرين منها إلى مكة والمدينة لأداء فريضة الحج، ولهذا وجد فيها بعض من اشتغل بالنحو، وكان بعضهم ممن جاء مع الجيش الإسلامي المحرّر وبقي في البصرة وسمع من شيوخها أو ممن نشأوا من أولاد هؤلاء المدنيين والمكيين ثم عادوا إلى الحجاز وهم يحملون ما سمعوه. فأخذوا يعلمون به أبناءها ويؤدّبونهم مطورين ذلك إن استطاعوا. ولهذا فلم تكوّن أخبار هؤلاء دراسة كاملة عن النحو في هذه البيئة لأنها كانت نتقاً تعرض خلال تراجم بعض النحويين أو كتب التاريخ والنحو وغيرها.

لقد كان أبو الطيب اللغوي المتوفى عام ٣٥١هـ أول من أشار إلى النحو فيها، وعرض لمكة والمدينة بعد أن ختم الكلام على مدرسة البصرة والكوفة وشيوخهما وقال "ولا علم العرب إلا في هاتين المدينتين" أما المدينة: "فقد ذكر من رجالها ابن دأب ولم يكن نحويّاً وأنما كان رواية أخبارياً. ومثله الشرقي ابن القطامي.^١ وكان فيها أيضاً عليّ الملقب بالجمال وكان وضع في النحو كتاباً لم يكن شيئاً، وقال أبو حاتم: ومع ذلك فإنني أظن الأخفش وضع كتاباً من كتبه من كتاب عليّ الجمل، فلذلك قال: "الزيت رطلان" والزيت لا يذكر عندنا لأنه ليس بادام أهل البصرة" ونقل الزبيدي هذا الخبر نفس ولم يزد عليه.^٢ ولم نستطع الحصول على معلومات أخرى عنه في أي من كتب الطبقات التي راجعناها.

^١ - مراتب النحويين ٩٨ و ٩٩ و ١٠٠ والفهرست ١٠٢ ونور القبس ٣١٠ و ٢٧٥-٢٧٦.

^٢ - مراتب النحويين ١٠٠، وطبقات النحويين ٧٥.

وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج المقرئ المدني المشهور، من أهل المدينة، عاصر في البصرة أبا الأسود الدؤلي وسمع منه ما ظهر عنده من مسائل نحوية أو لغوية، وأخذ عنه نقط المصحف وما يمكن أن يكون قد قيل في مناقشته والتعليق على مواقعه ونوعه مما لا حصر عندنا لشيء من مسائله وإنما المهم في ذلك أنه كان من أوائل الذين نسب إليه وضع النحو من طبقة أبي الأسود، وأنه رحل إلى المدينة واستقر بها يقرئ الناس النحو وغيره من العلوم، فقد أقرأ الإمام مالك بن أنس عدة سنين في علم أصول الدين وما يردُّ مقالة أهل الزيغ والضلالة".^١

وأما مكة فكان بها رجل من الموالي يقال له ابن قسطنطين يشدوا شيئاً من النحو، قال أبو حاتم السجستاني: "وضع ابن قسطنطين بمكة شيئاً من النحو، ثم قد البصرة فسمع النحو فطرح جميع ما كان عمل ووضع شيئاً آخر لا يساوي شيئاً"^٢ ولم أعر على أخبار له مع طول البحث.

وابن محيصن ذكره أبو الطيب اللغوي عرضاً بعد كلامه على عاصم القارئ فقال: محمد بن محيصن، كان يحسن شيئاً يسيراً من جليل النحو فسقط، وكان من أهل مكة، واسمه محمد، وأهل الكوفة يعظمون من شأنه ويزعمون أن كثيراً من علمهم وقراءتهم مأخوذ عنه"^٣، ويبدو أنه من الذين صاحبوا الجيش الإسلامي الذي استقر في الكوفة، أو من أولادهم لم نعثر على أخباره ولا بد من أن يكون علم النحو ورجاله قد انتشروا وكثروا في المدينة ولاسيما في زمن الخليل وتلاميذه، وقد كان الخليل يحج سنة ويغزو أخرى، ومعنى هذا أنه اتصل في أثناء رحلاته إلى مكة والمدينة برجال

^١ - طبقات النحويين واللغويين ٢٠، وأخبار النحويين البصريين ١٦ و ١٠. والفهرست ٤٥.

^٢ - مراتب النحويين ١٠٠-١٠١.

^٣ - مراتب النحويين ٢٥.

سمعوا منه وحدثوه وأخذوا عنه ما أخذوا، ولم يكن الخليل وحده الذي فعل هذا، فقد كان الفراء دائم الرحلة إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، ولا أظن أن هناك من يشك في وجود نحويين في مكة والمدينة في العصور التي تلت زمن الخليل وتلاميذه مع كثرة الراحلين إليهما من أقطار العالم الإسلامي كافة من العلماء في مختلف العلوم ممن كانوا يدخلون العراق ويقابلون علماء اللغة فيها ونُحّاتها ويأخذون عنهم ثم يؤدون فريضة الحج ويعودون إلى بلدانهم، أو قد يحجون ثم يذهبون إلى مراكز الدرس النحوي في العراق، وقد اشتهر بذلك كما قدمنا في دراستنا لبيئتي مصر والأندلس النحويتين أن الرحلة كانت مستمرة بين هذه الأمصار الإسلامية والأخذ عن علمائها دائم ومتواصل، إلا أن الدارسين وكُتّاب الطبقات لم يهتموا برصد أخبار من دخل الحجاز من النحاة من مختلف البيئات، ولا ترجموا لمن استقر فيها أو وجد فيها من النحاة ومدى النشاط الذي قاموا به وذلك لأن اهتمامهم كان منحصراً في كونهما مدينتي قراءة وفقه وتشريع وإفتاء. ودليل هذا ما نجده في ترجمة المصري ولاد المصادري التميمي من أخبار أخذه بالمدينة النحو عن رجل من أهلها لم يكن من الحذاق وأنه اتضح للزبيدي كونه من تلاميذه الخليل.^١

النحو في بلاد اليمن:

ليس لدينا معلومات وافية شافية عن وجود مدرسة نحوية في اليمن، وكل ما عرف من أخبار بيئتها العلمية أنه وجدت فيها مدرسة لاقراء القرآن شأنها شأن أية مدينة إسلامية، وإن النبي ﷺ قد ارسل معاذ بن جبل (-١٨هـ) إلى اليمن حاكماً، وكان قارئاً فقيهاً ومفتياً وقاضياً نال قالة النبي عليه السلام. إنه كانت له قراءة

^١ - طبقات النحويين واللغويين ٢٣٥.

خاصة تزاحم قراءة أبي وابن مسعود وأنه رحل إلى الشام حيث مات فيها قرب الأردن^١. وترجم ابن النديم لقارئ هو ابن السميع - محمد - وأصله من اليمن سكن البصرة في آخر أيامه وله قراءة، أما أشهر من عرف منهم واقترن ذكر اليمن باسمه فأبو موسى الأشعري الذي قدم مكة من اليمن وأسلم وهاجر إلى الحبشة مع من هاجر، وكان يُعدُّ من أعلم الصحابة، قدِمَ البصرة في أول عهدها بالإسلام واستقر بها بعد تمصيرها وعلم بها، سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنس بن مالك الذي استقر معه في البصرة كيف تركت الأشعري؟ فقال: تركته يعلم الناس القرآن، فقال: إنه كبير لا تسمعها إياه. ويدل ما روى عنه من قضاء بين الناس وفصل في الخصومات على أنه كان فقيهاً فوق معرفته القرآن والحديث^٢. ويقال في اليمن ما قبل في غيرها من أنه قد كان فيها من العلماء والقراء من رحل إلى البصرة أو الكوفة أو الحجاز أو مصر أو الشام، وإنه لا بد من أن يكون علماءها قد اتصلوا بغيرهم ونقلوا عنهم ما عندهم إلى بلدهم سواء أكان الاتصال عن طريق الحج أم التجارة أم للعلم نفسه.

وقد حاول المستشرق كارل بروكلمان البحث عن ذلك فقال وهو يتحدث عن علم العربية في مصر واليمن والأندلس "ليس عندنا من تاريخ العلوم في هذه البلدان إلا أخبار جده سنيطة، وإن تبين من هذه الأخبار - إلى حد الكفاية أن المدارس التي نشأت فيها كانت قائمة على أساس مدارس العراق". ولم يورد تعريفاً بأحد من رجالها إلا ترجمة لأحدهم قال فيها: "أبو عبد الله محمد بن الحسين بن عمير اليمني، كان مقيماً بمصر وتوفي بها سنة ٤٠٠هـ" وقال عنه السيوطي محمد بن الحسن بن عمير

^١ - تنتظر أخبار معاذ بن جبل في القرآن وعلومه في مصر، والدراسات اللغوية والنحوية في مصر.

^٢ - الفهرست ٣٤، وفجر الإسلام ١/٢٢٧.

اليمني أبو عبدالله النحوي الأديب كان مقيماً بمصر "صنف أخبار النحويين" و "مضاهاة كليلة ودمنة"^١. وليس في في كلام بروكلمان أو السيوطي عن هذه الشخصية ما زادنا علماً ببيئة اليمن العلمية لأنه لا ينكر أن يوجد في اليمن أو في غيرها من الأمصار رجال حملوا اسمها ودرسوا وتعلموا وعلموا، وقد لاحظنا كثرة من رحل من العراق إلى مصر ومنها إلى الأندلس في أول أيام الدولة الإسلامية ومن بغداد والأندلس إلى مصر في القرن السابع بعد نكبة بغداد والأندلس، ولا عبرة بتسمية الرجل أو تلقيبه باسم باسم بلد في أن يعد ممثلاً لمدرسة هذه في ذلك العلم وإلا لاستطعنا أن نجد في كتب التراجم عشرات الرجال في مختلف العلوم يحملون لقباً بأصل يمني أو بصري أو مصري أو شامي أو مدني إلا أنهم لا يمثلون بيئات بلدانهم في العلوم التي يحملونها.

النحو في بلاد الشام:

كان الشام مبعثاً لعدد من الأنبياء الذين نشروا تعاليمهم السماوية، وتعاقبت عليه المدنات المختلفة فأورثته حضارتها وعلمها كالفينيقيين والكلدانيين والمصريين واليونانيين والرومانيين. وكان لكل من هؤلاء مدينة خاصة ومركزاً خاصاً في إحدى مدنه فتعددت مراكز الثقافية فيها مثل صور وانطاكية وصيدا وبيروت وحمص ودمشق. وشارك أهله في هذه الثقافات فكان لذلك أثره في عالية الشاميين، وقد عرف العرب في جاهليتهم هذه البلاد فهاجروا إليها وأنشأوا لهم فيها ولايات، واعتنقوا ديانات أهلها بعد استقرارهم فيها وأخذوا يتسمون بالسوريين رابطين أنفسهم بها أكثر مما كانوا

^١ - ينظر : تاريخ الأدب العربي ٢/٢٧٤ و ٢٧٧ وبغية الوعاة ١/٩٣، وينظر في مثله ١/٩١.

يرتبطون بمساكنهم في جزيرة العرب. ولما حررها المسلمون ونشروا فيها تعاليمهم ولغتهم وكتابهم العظيم بدأ الشاميون من جديد بتعلم لغة قريش كما أخذ أهلها يتعلمونها أيضاً ويتكلمون بها أيضاً مع لغتهم الآرامية أو اليونانية، إلا أن الإسلام العظيم ولغته الخالدة استطاعا أن يزيحا تلك اللغات والديانات بدخول أكثر أبنائها في الدين الجديد، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد بعث إليهم من الصحابة من يعلمهم الدين الجديد كما كان يفعل هو والخلفاء الراشدون عامة مع الأمصار المحررة الأخرى، فأرسل إليهم معاذ بن جبل وعبادة وأبا الدرداء الذين تكونت منهم المدرسة الدينية بالشام وأخذوا على عاتقهم تعليم السكان العربية والقرآن وعلومه والفقه والافتاء، وعُيِّن أبو الدرداء قاضياً فيها، وأرسل عمر رضي الله عنه بعدهم عبد الرحمن بن عُثْمٍ، فتخرج بهم عدد كبير من التابعين، كان أشهرهم قاطبة إمام أهل الشام عبد الرحمن الأوزاعي الذي يقرن مذهب به مذهب مالك وأبي حنيفة.^١ وقد وصل إلى الشام عدد كبير من العلماء من كل قطر ومركز ثقافي، بعد أن أصبحت مركزاً للخلافة الأموية، وتكونت فيها ثلاث حركات علمية: تُعْنَى أحداها بالقرآن وقراءاته وتفسيره وعلومه والحديث وما يتبعهما من فقه وتشريع محتدٍ عليهما، وحركة تاريخية تُعْنَى بالتاريخ وقصص الشعوب والسير، وحركة فلسفية تُعْنَى بالجدل ولا سيما ما يقع منه بين النصارى والمسلمين، ثم أحدثت حركة رابعة هي الحركة الأدبية، وقد أزرّت بعض هذه الحركات بعضاً واستفادت منها وأفادتها، واعتمد بعضها على بعض كاعتماد المؤرخين على قصص القرآن واللغويين على شواهدهم، ولهذا لم يكن فيها ما

^١ - فجر الإسلام ٢٣١/١-٢٣٢.

يسمى بالتخصص الدقيق في مجالس الدرس ولا في العلماء، وإنما كانت الدروس والعلماء خليطاً من التفسير والحديث والفقه والتشريع واللغة والأدب والفلسفة والجدل.^١ ولعل أكبر حركة أدبية ولغوية ونحوية ظهرت في الشام تلك التي قامت على يد سيف الدولة الحمداني بحلب حيث شجع العلماء والمتقنين ولا سيما الأدباء والشعراء ونال تشجيعه المغويون والنحاة أيضاً، وبرز في بلاطه نحاة مشهورون منهم:

أبو علي النحوي (الفارسي):

كان أكبر نحوي عالم بالعربية في زمنه، عاش في حلب مدة وفي العراق مدة، وتنقل في غيرهما، ويعد هو وتلميذه ابن جني مُمثلي مدرسة النحو والصرف التي كانت تستخدم القياس إلى أقصى حد ولا تقف عند النص^٢. وهو أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الفغار بن محمد بن سليمان بن إبان النحوي، ولد بمدينة "قسا" واشتغل ببغداد ودخلها سنة ٣٠٧هـ، كان إمام وقته في علم النحو، دار البلاد وترك بغداد إلى حلب ومنها إلى شيراز، وتدل كتبه التي تحمل أسماء البلدان على أنه زار البصرة، وقصر ابن هبيرة قرب مدينة الكوفة، وهيت وهي مدينة على الفرات غربي بغداد. إلا أنه استقر في بلد سيف الدولة "حلب". كان يميل إلى مذهب البصريين في النحو كما يتضح في أغلب آرائه ويتبع منهجهم في شواهد فيحتج بما كانوا يحتجون به، من شعر جاهلي ومخضرم وإسلامي حتى زمن ابن هرمة ويحرص في روايته له على نسبته لقائليه، وبما احتجوا به من لغات القبائل العربية الفصيحة وبالشروط المعروفة عنهم، توفي سنة ٣٧٧هـ في بغداد. صنف كتباً في اللغة والنحو والقراءات

^١ - فجر الإسلام ١٧٢/١-٢٠١ و ٢٠٢ وينظر ٢٣٢/١-٢٣٣ وضحى الإسلام ١٠٢/٢.

^٢ - ضحى الإسلام ١٨٥/٢. وتنتظر أخبار سيف الدولة وتشجيعه للشعراء والأدباء واللغويين ١٧٧/١-١٨٥.

وغيرها، أشهرها: "الايضاح" و "التكملة في النحو" و "الحجة في القراءات" و "التذكرة" و "المقصود والممدود" و "الأغفال" هو فيما أغفله الزجاج من المعاني، و "العوامل المائة" و "المسائل الحلبيات" و "البغداديات" و "الشيرازيات" و "البصريات" و "الهيئات" و "القصريات" و "العسكريات". وكان لاقامته عند سيف الدولة وفي بلاطه وتشجيعه له وصحبته الدائمة إياه أكبر الأثر في الانصراف إلى التأليف والاجادة فيه، فقد كان مبدأ اتصاله به عند قدومه إلى حلب سنة ٣٤١هـ، وجرت بينه وبين أبي الطيب مجالس ومناظرات في بلاطيف الدولة، ثم انتقل إلى بلاد فارس فصحب عضد الدولة بن بويه وتقدم عنده وعلت منزلته حتى قال عضد الدولة "أنا غلام أبي علي الفسوي في النحو" وله صنف كتابيه "الايضاح" و "التكملة" في النحو. له آراء كثيرة في النحو والتصريف مبنية على منهج البصريين الذين مال إليهم وجارية في الأغلب على اكثير المسموع من كلام العرب الفصيح، ولم يكن يقيس على ما قلّ من المسموع وإن كان مما ورد عن العرب الفصحاء. ومن آرائه: إنه لم يكن يجيز صياغة فعلي التعجب من السواد والبياض مباشرة، وتجويزه الفصل بين "كم" ومميزها في الكلام نحو "كم في الدار رجلاً" ولا يجوز ذلك في "عشرين" ونحوه إلا في الشعر، وذهابه إلى أن العامل في المجرور بعد "الواو" "رب" محذوفة كما يرى البصريون لا "الواو" كما يقول الكوفيون، وذهابه إلى أن اسم الفاعل لدال على المضي لا يعمل عمل الفعل، وقله بأن الحال لا تقع معرفة، وبأن "عليك" و "دونك" و "بك" اسما، لا حروف.^١

^١ - ينظر الإيضاح ٩٥ و ٧١ و ٤ و ٦٣ و ٨٠ وغيرها.

ابن جني:

وهو أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي^١، ولد بالموصل ونشأ فيها وبها تلقى مبادئ العلم، وأخذ النحو عن أحمد بن محمد الموصلي الشافعي المعروف بالأخفش وأخيراً اختص بأبي علي النحوي الفسوي فلازمه وأخذ عنه كل ما عنده، فلما مات أبو علي تصدر ابن جني مكانه في بغداد، قيل: أنه "ليس لأحد من أئمة الأدب في فتح المقفلات وشرح المشكلات ماله سيما في علم الاعراب". وكان ابن جني قد لازم أبا علي النحوي وصاحبه وتابعه في أسفاره ولم يفارقه، صحبه من الموصل التي كانت في ذلك الوقت في يد الحمدانيين وتابعه إلى حلب حيث عرف في بلاط سيف الدولة الحمداني واتصل بالحمدانيين فقربوه وخالطهم وصاحب شعراء بلاطهم ومن أشهرهم المتنبي، فقد كان ابن جني يحضر عن المتنبي وينظره في شيء من النحو من غير أن يقرأ عليه شيئاً من شعره أنفة وإكباراً لنفسه، إلا ابن جني شرح يدوان المتنبي شرحاً قال فيه ابن خلكان أنه سماه: "الصبر" وكان قد قرأ الديوان على صاحبه، ورأيت في شرحه قال: سألت شخص أبا الطيب المتنبي عن قوله:

بادِ هواك صَبَرْتُ أم لم تصبراً

فقال: كيف أثبت "الالف" مع وجود "لم" الجازمة؟ وكان من حقك أن تقول: "لم تصبر"؟ فقال المتنبي: لو كان أبو الفتح هنا لأجابك. يعني، وهذه "الألف" هي بدل من "نون التأكيد" الخفيفة، كان في الأصل "لم تصبرن" ونون التأكيد الخفيفة إذا وقف الإنسان عليها أبدل منها "ألفاً". قال الأعشى:

ولا تعبد الشيطان والله فاعبدوا

^١ - تنتظر أخباره في الفهرست ٩٥ و نزهة الالباء ٢٢٨-٢٣٠، ووفيات الأعيان ٢/٤١٠-٤١٢ وانباء الرواة ٢/٣٣٥ وبغية الوعاة ٢/١٣٢ وكتاب (ابن جني النحوي للدكتور فاضل صالح السامرائي) ومقدمة الخصائص.

وكان الأصل "فاعبدن" فلما وقف أتى بالألف بدلاً.

وقال القفطي في قيمة شرح ابن جني هذا: "قوربي أنه كشف الغطاء عن شعر المتنبي". ولم تقتصر علاقة ابن جني بأبي علي وصحبته إياه على هذه البلدان وإنما صحبه في رحلته إلى شيراز واتصاله بعضد الدولة البويهى. فقد تعرف ابن جني عليهم أيضاً. قال القفطي: "وخدم أبو الفتح بن حني البيت البويهى عضد الدولة وولده شرف الدولة وولده بهاء الدولة وفي زمنه مات"^١.

وكان المتنبي يقول في ابن جني: "هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس" توفي سنة ٣٨٢هـ، صنف كتباً مهمة شاهدة بعلمه ودقيق نظره وتعمقه في مسائل النحو والصرف ومن أشهرها "الخصائص" و "سر صناعة الاعراب" و "المنصف في شرح تصريف المازني" و "اللمع في النحو" و "شرح المقصور والممدود" و "شرح مستغلق الحماسة" و "التمام في تفسير أشعار هذيل والمذكر والمؤنث" و "محاسن العربية" و "المحتسب" و "التصريف الملوكي" وغيرها. وكان ابن جني مثل شيخه أبي علي النحوي بصري المذهب في النحو والصرف، يجري على مذهبهم في أغلب آرائه وأصوله، وهو كثيراً ما يدافع عنه في كتبه ويرد على الكوفيين. ومن هذه الآراء ذهابه إلى أن "أن" لا تهمل تشبيهاً بـ "ما" كما يقول الكوفيون، في قول الشاعر:

أن تهبطين بلاد قو م يرتعون من الطلاح

ورأى أنها مخففة من الثقيلة – كما يرى البصريون، وخففها الشاعر ضرورة اراد: أنك تهبطين". وقوله بأن الخبر إن كان غير مشتق لا يتحمل ضميراً يقول: "إذا قلت: أنت كزيد" فلا ضمير في "مثل" كما لا ضمير في "الاخ" ولا "الابن" إذا

^١ - وفيات الأعيان ٤١٢/٢ وينظر انباه الرواة ٣٣٨/٢ و ٣٤٠، وقد طبع من شرح ابن جني لديوان المتنبي جزءان باسم "الفسر" ببغداد.

قلت: "أنت أخو زيد" و "أنت ابن زيد" هذا قول أصحابنا، وإن كان قد أجاز بعض البغداديين أن يكون في هذا النحو الذي هو غير متعلق من الفعل ضمير كما يكون من المشتق^١. ف "أصحابنا" هم البصريون. وقد أثبت الشيخ محمد علي النجار أن ابن جني بصري، وأن من عده من البغداديين لأنه سكن في بغداد واستقر فيها مخطئاً، لأنه إنما كان مقامه في بغداد بعد أن نضج واستقرت اقامته وتأصل عدّه في البصريين، وله آراء خاصة لم يتابع فيها البصريين ولا غيرهم منها: إظهار متعلق الظرف أو الجار والمجرور خبراً في الكون العام، نحو "زيد عندك" وتجويزه العطف على محل المجرور بالنصب، فأجاز مقال: مررت بزيد وعمراً" بنصب "عمراً" عطفاً على وحل "زيد" المجرور بالحرف وهذا مما لم يقل به من سبقه من النحويين. وكان ابن جني يرى أن العلل المانعة للصرف تسعة، واحد منها لفظي هو شبه بالفعل لفظاً نحو: "أحمد" و "يرمع" و "تنضب" والثمانية الباقية معنوية كالتعريف والوصف والعدل، والتأنيث والعلمية، والعجمة، والجمع وغير ذلك وكان النحاة يرون أنها كلها لفظية عدا لتعريف والوصف فيهما معنويان^٢.

وخلاصة القول في آرائه ما قاله فيه الأستاذ أحمد أمين: "ابن جني تلميذ أبي علي الفارسي وموسع مبادئه النحوية والصرفية، وإذا عبرنا في النحو والصرف تعبيرنا في الفقه قلنا: إنه مجتهد فيهما له آراء مبتكرة واتجاهات انفرد بها"^٣.

^١ - تنظر مقدمة الخصائص ٤٥/١.

^٢ - الخصائص ١٠٩/١ وتنظر مقدمته ٤٨/١ وكتاب (ابن جني النحوي).

^٣ - ظهر الإسلام ١٨٥/١.

ابن خالويه:

هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه بن حمدان الهمداني النحوي^١ إمام العربية واللغة وغيرها من العلوم الأدبية، عالم بالقراءات وأنواعها. دخل بغداد طالباً للعلم سنة ٣١٤هـ، وقرأ القرآن على ابن مجاهد والنحو والأدب على ابن دريد ونفطويه وأبي بكر بن الأنباري وأبي سعيد السرافي وأبي عمر الزاهد، ثم انتقل إلى الشام واستوطن حلب واختص بسيف الدولة من حمدان وأولاده، وهناك انتشر علمه وروايته، وصار بها أحد أفراد الدهر في كل قسم من أقسام العلم والأدب. قال السيوطي: "وكانت الرحلة إليه من الآفاق، وقال له رجل: أريد أن أتعلم من العربية ما أقيم به لساني، فقال: أنا منذ خمسين سنة أتعلم النحو ما تعلمت ما أقيم به لساني، توفي بحلب سنة ٣٧٠هـ، قال الداوي في طبقاته: عالم بالعربية، حافظ للغة بصير بالقراءة روى عنه غير واحد من شيوخنا" قال ابن خلكان: "وآل حمدان يكرمونه ويدرسون عليه ويقتبسون منه، وهو القائل: دخلت يوماً على سيف الدولة بن حمدان فلما مثلت بين يديه قال لي: "اقعد" و لم يقل "اجلس"، فتبينت بذلك اعتلاقه بأهداب الأدب واطلاعه على أسرار كلام العرب، وإنما قال ابن خالويه هذا لأن المختار عند أهل الأدب أن يقال للقائم: "اقعد"، وللنائم والساجد "اجلس". ولابن خالويه في حلب مناظرات مع المتنبي شاعر بلاط سيف الدولة. تنقل في بلاد متعددة، فقد دخل اليمن ونزل ديارها قبل سفره إلى حلب واستقراره فيها، تصدر بحلب وميافارقين وحمص للاستفادة والتصنيف، وعاش بعد سيف الدولة في صحبة ولده شريف وغيره من آل حمدان. كان ابن خالويه ترك مؤلفا كثيرة من أهمها "الجمال في النحو" و "الاشتقاق"

^١ - ترجمته في الفهرست ٩٢ ونزهة اللبء ٢١٤ ووفيات الأعيان ٤٣٣/١-٤٣٤، وبغية الوعاة ٥٢٩/١-٥٣٠.

و "اعراب ثلاثين سورة من القرآن" و "ليس في كلام العرب" و "المذكر والمؤنث" و "اشتقاق خالويه" و "الحجة في القراءات السبع". وله آراء نحوية خلط فيها المذهبين البصري والكوفي، وتدل مصطلحاته الكوفية على هذا، منها مصطلح "الصفة" لحرف الجر و "النعته" للصفة. ومن آرائه عدّه فعل الأمر فعلاً قائماً بذاته وقسماً للمضارع والماضي، ولم يعد مقتطعاً من المضارع. وذلك أنه تحدث عن المضارع وذكر أحكامه ثم الماضي وقال بعدهما: "والأمر" "عذ" للمذكر و "عوذي" للمؤنث و "عوذا" للاثنتين و "عوذوا" للرجال و "عذن" للنسوة و "وهو في هذا متابع البصريين. وقد يعرض رأييهما ولا يعلق عليهما بترجيح احدهما كما في قوله: "بسم" جر بباء الصفة وهي زائدة فان قيل: ما موضع "الباء" من "بسم الله"؟ ففي ذلك ثلاثة أجوبة، قال الكسائي: لا موضع "الباء" من "بسم الله". وقال البصريون موضع "الباء" رفع بالابتداء أو بخبر الابتداء فكأن التقدير: "أول كلامي بسم الله" أو "بسم الله أول كلامي". وتابع سيبويه والبصريين في عدم جواز إدغام "الراء" في "اللام". قال: "فهل يجوز إدغام "الراء" في "اللام"؟ فقل: لا، وذلك أن سيبويه وغيره من البصريين لا يجيزون إدغام "الراء" في "السلام" نحو "اختر ليطة" لأن "الراء" حرف فيه تكرير فكأنه إذا أدغمه فقد أدغم حرفاً مشدداً... وإدغام المشدد فيما بعده خطأ بإجماع^١.

هؤلاء هم النحاة الثلاثة الذين اشتهر بهم بلاط سيف الدولة في الشام واشتهروا فيه ويمكن أن يعدوا أول مجموعة تدخل حلب وتستقر فيها وتنتشر علم اللغة والنحو في حلب وغير ما من مدن الشام. حيث أجروا فيه مجالسهم ومناظراتهم اللغوية والنحوية. وظل تلاميذ أبي علي وابن جني وابن خالويه يواصلون البحث والاطلاع ويروون علم شيوخهم في اللغة والنحو والصرف كما بقي بلاط سيف الدولة

^١ - تنظر هذه الآراء في اعراب ثلاثين سورة ٤، ٩، ١٢ وينظر في مثلها من آرائه الحجة ١٢٨ و ٣١.

مصدر أشعاع لهذه العلوم وغيرها^١. وجاءت بعد الدولة الحمدانية الدولة الفاطمية فبسطت سلطانها على مصر والشام، وبعدها الدولة الأيوبية التي استمر فيها توحيد مصر والشام. ونشأت فيها حركة علمية نشيطة صاحبها تنقل علماء اللغة والنحو وغيرهم بين هذين القطرين وبينها وبين غيرهما من الأقطار انتجت وحدة في الدرس النحوي وفي النحاة والآراء بوجه عام. ولم يعرف أن للشام مدرسة نحوية خاصة نشأت من بيئتها مدرستها الدينية، وكما نشأت مدارس النحو في الأمصار الإسلامية الأخرى، وإنما كان للنحاة الذين عرفوا فيها ممن رحلوا عن بلدانهم وتنقلوا في البلاد الأخرى واستقروا في كل بلاد زما يسمعون ويفيدون ويستفيدون مثل هؤلاء الثلاثة، ومثل نحاة آخرين عرفوا بالرحلة والتطواف في البلدان كابن مالك وأبي حيان وابن هشام وغيرهم من أعلام النحو. ألا أن هناك بعض جاء في تراجم حياتهم أنهم استقروا زماً في الشام ودرسوا فيه في العصور التالية منهم:

١ - ملك النحاة:

وهو الحسن بن صافي بن نزار المتوفى بدمشق سنة ٥٦٨هـ. درس النحو على أبي الحسن الاسترابادي الفصيح، ودرّسه في جامع بغداد وسكن واسط مدة أخذ عنه فيها جماعة من أهلها ومنها اتجه إلى الشام فنزل دمشق وقام بتدريس ما تتقف فيه ولا سيما النحو، وبها مات^٢.

٢ - تاج الدين الكندي:

زيد بن الحسن زيد الإمام تاج الدين أبو اليمن الكندي المتوفى ٦١٣هـ، ولد ببغداد سنة ٥٢٠هـ وقرأ العربية على ابن الشجري وابن الخشاب والجواليقي أبي

^١ - ينظر ظهر الإسلام ١٨٦/١-١٨٧.

^٢ - ينظر وفيات الأعيان ١٣٤/١ ومعجم الأدباء ٧٤/٣-٨١ وبغية الوعاة ٥٠٤-٥٠٥.

موهوب، قدم دمشق بعد أن استوطن حلب مدة، وفي دمشق استقر وأفتى ودرّس وصنف^١.

٣- ابن معط:

يحي بن عبد النور أبو الحسين زين الدين الزواوي من "بجاية" بشمال إفريقيا من مدن الجزائر. ولد بالمغرب سنة ٥٦٤ هـ وتوفي بمصر ٦٣٨ هـ. قرأ بالمغرب النحو على أبي موسى الجزولي صاحب المقدمة الجزولية في النحو، ثم رحل إلى المشرق ومكث مدة في دمشق اقرأ بها النحو. صنف "العقود والقوانين" في النحو ونظم شرحاً لأبيات سيبويه، وسبق ابن مالك إلى نظم النحو في ألفيته المشهورة باسمه جمع فيها قواعد النحو والصرف^٢.

٤- ابن الحاجب:

هو أبو عمرو عثمان جمال الدين بن عمر المشهور بابن الحاجب ولد بـ "أسنا" من مدن مصر، اشتغل في صغره بالقرآن الكريم ثم بالفقه على مذهب الإمام مالك وبرع في العربية والقراءات ثم انتقل إلى دمشق ودرّس بجامعة في زاوية المالكية. وكان الأغلب عليه علم العربية، صنّف "الكافية" في النحو "والشافعية" في

^١ - ينظر انباه الرواة ١٠/٢-١٤. وبغية الوعاة ١/٥٧٠-٥٧٣ والحياة العقلية في عصر الحروب

الصليبية ٢٠١-٢٠٣.

^٢ - ينظر انباه الرواة ٣٨/٤. وبغية الوعاة ٢/٣٤٤ والحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية ٢٠٤-

٢٠٥. ونشأة النحو ١٦٧.

التصريف وله "الامالي" في موضوعات شتى. ثم عاد إلى القاهرة واشتغل بها ثم رحل إلى الاسكندرية وبها مات سنة ٦٤٥هـ.^١

٥- ابن يعيش:

هو يعيش بن علي بن يعيش بن يحي النحوي الحلبي موفق الدين أبو البقاء، موصللي لأصل ولد سنة ٥٥٣هـ بحلب وبها نشأ وقرأ النحو على فتیان الحلبي، وكان فاضلاً ماهراً في النحو والتصريف، رحل من حلب في صدر حياته قاصداً بغداد ليدرك أبا البركات بن الأنباري فبلغه خبر وفاته بالموصل. قدم دمشق وتصدر بحلب للآقراء زماناً وشاع ذكره فيها، وغالب فضلاء حلب تلامذته كان حسن الفهم، صنف "شرح المفصل" للزمخشري، "وشرح تصريف ابن جني"، مات بحلب سنة ٦٤٣هـ.^٢

٦- ابن مالك:

محمد بن عبد الله بن مالك ولد بالآندلس ف يمدينة "جيان" سنة ٦٠٠هـ وسمع بدمشق من السخاوي والحسن بن الصباح وجماعته، وأخذ العربية عن غير واحد وجالس بحلب ابن عمرو وغيره، وتصدر بها لآقراء العربية وصرف همته إلى إتقان لسان العرب حتى بلغ الغاية فيه وأربى على المتقدمين، كان إماماً في القراءات وعِللها وكان إليه المنتهى في اللغة والأكثر من نقل غريبها والاطلاع على وحشيها،

^١ - ينظر وفيات الأعيان ٤١٣/٢-٤١٤ وبغية الوعاة ١٣٤/٢. ونشأة النحو ١٦٨-١٦٩ وابن الحاجب النحوي. آثاره ومذهبه. طارق بن عون الجنابي.

^٢ - ينظر وفيات الأعيان ٤٥/٦-٥١ وبغية الوعاة ٣٥١/٢-٣٥٢.

وأما النحو والتصريف فكان فيهما بحرّاً لا يجارى وحَبْراً الايباري، وما أشعار العرب التي كان يستشهد بها في اللغة والنحو فكان الأئمة الأعلام يتحIRON فيه ويتعجبون من أين يأتي بها.

أقام بدمشق مدة يصنف ويشغل وتصدّر بالتربة العادلية وبالجامع المعمور، وأخرج به جماعة كثيرة، وصنف تصانيف مشهورة. روى عنه ابن الإمام بدر الدين والبدر بن جماعة. قال أبو حيان: بحثت عن شيوخه فلم أجد له شيخاً مشهوراً يعتمد عليه ويرجع في حل المشكلات إليه إلا أن بعض تلاميذه ذكر أنه قال: قرأت على ثابت بن حيان بجيان، وجلست في حلقة أبي علي الشلوبين نحواً من ثلاثة عشر يوماً، ولم يكن ثابت بن حيان من الأئمة النحويين وإنما كان من أئمة المقرئين. قال السيوطي. له شيخ جليل هو ابن يعيش الحلبي الذي أخذ عنه. ألف كثيراً من الكتب النحوية التي اشتهرت وذاع صيتها وعُني بها وكانت وما زالت عماد الدرس النحوي في الأفطار العربية، ومن أشهرها وأكثرها ذيوماً "الألفية" أو "الخلاصة" كما تسمى، ألفها في حلب واختصر فيها أرجوزة أخرى في ثلاثة آلاف بيت سماها "الكافية الشافية"، ألفها في حلب أيضاً، كتاب "الفوائد" ولخص منه "تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد"، وله "عمدة الحافظ وعدة اللافظ" و "شرح مقدمة الجزولي في النحو" ونظم "المفصل" للزمخشري. وله في الصرف كتاب "التصريف" وشرحه، وكتاب "لامية الأفعال". وألف كتاب "شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح" اهتم فيه بتخريج الأحاديث الواردة في صحيح البخاري التي خالفت القياس في العربية. توفي سنة ٦٧٢هـ. وكان مطلعاً على الحديث اطلاعاً واسعاً لاشتغاله بتحقيق "صحيح البخاري" مع الحافظ اليونيني وألف على الأحاديث المشكلة كتابه "شواهد التوضيح" ولهذا كان يكثر الاحتجاج بالحديث في إثبات قواعد وأقيسة جديدة في

النحو والصرف مبنية على ما جاء في هذه الأحاديث حتى لامه أبو حيان وغيره ممن تحدثوا عن الاحتجاج بالحديث.^١

٧- بهاء الدين بن النحاس:

هو محمد بن إبراهيم بن محمد بن أبي نصر الإمام أبو عبد الله بهاء الدين ابن النحاس الحلبي النحوي. ولد سنة ٦١٧هـ بجلب، وأخذ العربية عن الجمالي ابن عمرو والقراءات عن الكمال الضرير، وسمع الحديث عن ابن اللتي وابن يعيش وأبي القاسم ابن رواحة وغيرهم. دخل مصر وأخذ عن فيها من الشيوخ، ثم جلس للإفادة، وتخرج به جماعة من الأئمة وفضلاء الأدب وكان من الأذكياء مشهوراً بالصدق والعدالة له ظُرفُ النحاة وانبساطهم، كان معروفاً بجل المشكلات النحوية الصعبة وإليه ترجع صدارة النحو في زمانه.

^١ - ينظر في الاحتجاج بالحديث: الاقتراح للسيوطي والشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه (بحث الحديث في القسمين) وأبو حيان النحوي (موضوع أبو حيان النحوي وابن مالك) وكتاب (موقف النجاح من الاحتجاج بالحديث النبوي الشريف).

قائمة المصادر والمراجع

(Sources & References)

- ١- القرآن الكريم
- ٢- ابو زكريا الفراء
- ٣- معاني القرآن للفراء
- ٤- **معاني القرآن للاخفش**، أبو الحسن المجاشعي بالولاء، البلخي ثم البصري، المعروف بالأخفش الأوسط
- ٥- طبقات فحول الشعراء لابن سلام
- ٦- علل النحو للزجاجي (عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي أبو القاسم)
- ٧- البيان والتبيين وكتاب الحيوان للجاحظ
- ٨- فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم
- ٩- تاويل مشكل القرآن لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة
- ١٠- فتوح البلدان للبلاذري
- ١١- الاصول في النحو لابن السراج
- ١٢- كتاب السبعة في القرات لابن مجاهد
- ١٣- العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي
- ١٤- الطبقات الكبرى لابن سعد
- ١٥- اعرب القرآن لابو جعفر النحاس
- ١٦- معاني القرآن لابو جعفر النحاس
- ١٧- كتاب القطع والائتلاف / للنحاس
- ١٨- مروج الذهب للمسعودي
- ١٩- / مراتب النحويين ، عبد الواحد بن علي الحلبي، أبو الطيب اللغوي
- ٢٠- الاغاني لابو فرج الاصفهاني
- ٢١- شرح كتاب سيبويه للسيرافي، الحسن بن عبد الله بن المرزبان السيرافي، أبو سعيد
- ٢٢- اخبار النحويين البصريين ،الحسن بن عبد الله بن المرزبان السيرافي، أبو سعيد

- ٢٣- مقدمة التهذيب للزهري
- ٢٤- اعراب القراءات السبع وعللها لابن خالويه
- ٢٥- المسائل البصريات ، أبو علي الفارسي
- ٢٦- المسائل المنثورة، أبو علي الفارسي
- ٢٧- المسائل المشككة المعروفة بالبغداديات ،أبو علي الفارسي
- ٢٨- اعراب ثلاثين سورة من القرآن لابن خالويه
- ٢٩- علل النحو لابن الوراق تحقيق محمود جاسم الدرويش الجامعة المستنصرية كلية الاداب
- ٣٠- نور القبس للمرزباني
- ٣١- شرح كتاب سيبويه للرماني
- ٣٢- طبقات النحويين واللغويين للزبيدي
- ٣٣- كتاب الاستكمال في التقخير والامالة، عبد المنعم بن عبد الله بن غلبون أبو الطيب
- ٣٤- الخصائص لابن جني
- ٣٥- المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي
- ٣٦- سر صناعة الاعراب، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي
- ٣٧- المزهر في علوم اللغة لابن فارس
- ٣٨- ألصاحبي وفقه اللغة لابن فارس
- ٣٩- التذكرة في القرات الثماني للإمام أبي الحسن طاهر بن عبد المنعم بن غلبون المقرئ الحلبي
- ٤٠- حجة القرات ، عبد الرحمن بن محمد، أبو زرعة ابن زنجلة
- ٤١- شرح ديوان الحماسة لابي تمام لابي علي المرزوقي دار الكتب العلمية بيروت لبنان
- ٤٢- كتاب الانتصار الشريف المرتضى
- ٤٣- الكشف عن وجوه القرات، أبو محمد مكي بن أبي طالب حمّوش القيسي
- ٤٤- الفهرست لابن النديم
- ٤٥- تاريخ بغداد للخطيب البغدادي

- ٤٦ - الكشف للزمخشري
- ٤٧ - أمالي ابن الشجري هبة الله بن علي الحسني العلوي
- ٤٨ - كشف المشكلات للامام الباقر
- ٤٩ - نزهة الالباء، أبو البركات، كمال الدين، عبد الرحمن بن محمد الأنباري
- ٥٠ - أبو البركات، كمال الدين، عبد الرحمن بن محمد الأنباري الانصاف في مسائل الخلاف لابوبكر الانباري
- ٥١ - الاغراب في جدل الاعراب ، أبو البركات، كمال الدين، عبد الرحمن بن محمد الأنباري
- ٥٢ - الرد على النحاة لابن مضاء الاندلسي
- ٥٣ - تنقيح الالباب في شرح غوامض الكتاب المؤلف: علي بن محمد بن علي الحضرمي الاشبيلي أبو الحسن ابن خروف؛ المحقق: خليفة محمد خليفة...
- ٥٤ - اعراب القرات الشواذ لابي البقاء العكبري
- ٥٥ - معجم البلدان لياقوت الحموي
- ٥٦ - مفتاح العلوم، يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب
- ٥٧ - الكامل لابن الاثير الجزري
- ٥٨ - شرح المفصل لابن يعيش
- ٥٩ - إنباه الرواة على أنباه النحاة المؤلف: جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي
- ٦٠ - الكليات في المصطلحات والفروق اللغوية ،أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي ابو البقاء الكفوي
- ٦١ - عيون الانباء في طبقات الاطباء لابن أبي أصيبعة
- ٦٢ - تفسير القرطبي
- ٦٣ - شرح عيون كتاب سيبويه لأبي نصر هارون بن موسى القرطبي
- ٦٤ - تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد المؤلف: محمد بن عبد الله، ابن مالك الطائي الجباني، أبو عبد الله، جمال الدين

- ٦٥- شرح الرضي لكافية ابن الحاجب محمد بن الحسن الإستراباذي السمنائي النجفي الرضي
- ٦٦- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ،ابن خلكان؛ المحقق: إحسان عباس
- ٦٧- البسيط في شرح الجمل ،ابن أبي الربيع عبيد الله بن أحمد القرشي الإشبيلي السبتي
- ٦٨- تفسير النسفي
- ٦٩- لسان العرب لابن منظور
- ٧٠- التسهيل لعلوم التنزيل، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي
- ٧١- البحر المحيط في التفسير، ابو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي
- ٧٢- معرفة القراء الكبار على الطبقات والامصار ، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي شمس الدين أبو عبد الله
- ٧٣- توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك لأبي محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن علي المرادي المصري المالكي
- ٧٤- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون المؤلف: أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي
- ٧٥- اوضح المسالك الى الفية بن مالك ، ابن هشام الانصاري
- ٧٦- مرآة الجنان لليافعي
- ٧٧- شرح الفية بن مالك الاندلسي لابن عقيل
- ٧٨- شفاء العليل في إيضاح التسهيل المؤلف: محمد بن عيسى السلسيلي
- ٧٩- تفسير القران العظيم لابن كثير
- ٨٠- مقدمة بن خلدون لابن خلدون
- ٨١- خزانة الأدب وغاية الأرب المؤلف :ابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله الحموي الأزاري
- ٨٢- النشر في القرات العشر لابن الجزري
- ٨٣- المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار لتقي الدين أحمد بن علي المقرئ،
- ٨٤- صبح الأعشى في كتابة الإنشا للشقنندي

- ٨٥- غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري
- ٨٦- النشر في القراءات العشر ، محمد بن محمد الدمشقي ابن الجزري أبو محمد
- ٨٧- الاقتراح للسيوطي
- ٨٨- بغية الوعاة للسيوطي
- ٨٩- حسن المحاضر في اخبار مصر والقاهرة للسيوطي
- ٩٠- همع الهوامع شرح جمع الجوامع للسيوطي
- ٩١- الاقناع، محمد بن محمد الخطيب الشربيني شمس الدين
- ٩٢- شرح التصريح على التوضيح أو التصريح بمضمون التوضيح في النحو المؤلف: خالد بن عبد الله بن أبي بكر بن محمد الجرجاني الأزهري، زين الدين المصري، وكان يعرف بالوقاد
- ٩٣- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة
- ٩٤- فيض نشر الانشراح من روض طي الاقتراح ج ١، دار البحوث للدراسات الإسلامية واحياء التراث دبي الامارات، محمد بن طيب الفاسي
- ٩٥- شرح التسهيل للمراي
- ٩٦- تاريخ اداب اللغة العربية لجرجي زيدان
- ٩٧- تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ، شيخ الازهر مصطفى عبدالرزاق
- ٩٨- سيبويه امام النحاة، علي النجدي ناصف
- ٩٩- ضحى الاسلام، احمد امين
- ١٠٠- فجر الاسلام ، لاحمد امين
- ١٠١- نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة ، محمد طنطاوي
- ١٠٢- الموفي في النحو الكوفي، السيد صدر الدين الكنغراوي الاستانبولي
- ١٠٣- الشعر في بغداد، الدكتور احمد عبد الستار الجواي
- ١٠٤- التيسير في النحو، الدكتور احمد عبد الستار الجواي
- ١٠٥- القرآن وعلومه في مصر، عبدالله خورشيد البري
- ١٠٦- تاريخ الفكر الاندلسي ، أنخل بالنتيا تعريب : حسين مؤنس
- ١٠٧- علم الدلالة، احمد مختار عمر دارالكتاب القاهرة ط ٥

- ١٠٨- بدائع الزهور في وقائع الدهور، زين العابدين محمد بن أحمد بن إياس الحنفى
الناصرى القاهري لقب بـ " أبو البركات
- ١٠٩- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ،المقري التلمساني،
- ١١٠- عبقرى من البصرة، لمهدي المخزومي
- ١١١- الخليل بن احمد، سعود محمود عبدالجابر
- ١١٢- تاريخ اداب العرب للرافعي
- الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، لاحمد بدوي دار
نهضة مصر
- ١١٣- مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو لمهدي المخزومي
- ١١٤- الدرس النحوي في بغداد لمهدي المخزومي
- ١١٥- الخليل بن احمد اعماله ومنهجه مهدي المخزومي ط٢ دار الرائد العربي بيروت
لبنان
- ١١٦- المفصل في تاريخ النحو العربي لمحمد خير الحلواني
- ١١٧- في اصول النحو لسعيد الافغاني
- ١١٨- نظرات في اللغة والنحو لطفه الراوي
- ١١٩- التعليل اللغوي في كتاب سيبويه د.شعبان عوض محمد العبيدي دار الكتب الوطنية
بنغازي ط١٩٩٩
- ١٢٠- علم اللغة علي عبد الواحد دار نهضة مصر للطباعة والنشر ط١
- ١٢١- اصول تراثية في اللسانيات الحديثة كريم زكي حسام الدين ط٣
- ١٢٢- فقه اللغة العربية وخصائصها د.اميل بديع يعقوب، ط١، دار العلم للملايين بيروت
- ١٢٣- دراسات في اللغة والنحو د.عدنان محمد سلمان الدليمي ط١
- ١٢٤- دراسات في فقه اللغة صبحي الصالح ط٥ بيروت
- ١٢٥- المنهج الوصفي في كتاب سيبويه د. نوزاد حسن احمد منشورات جامعة قار يونس
ط١
- ١٢٦- النحو العربي والدرس الحديث عبده الراجحي دار المعرفة الجامعية الاسكندرية
- ١٢٧- وضع الخليل بن احمد لاصول النحو البصري وفروعه رسالة ماجستير جعفر
نايف عباينه كلية الاداب، جامعة القاهرة ١٩٧٠

- ١٢٨- مجلة الضاد تطور البحث الدلالي د.احمد مطلوب
- ١٢٩- علم الدلالة احمد مختار عمر القاهرة ط ٥
- ١٣٠- معاصر دراسات لسانية تطبيقية د.مازن الوعر ط ١ دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر
- ١٣١- اصول النحو العربي محمد عيد عالم دارالكتاب القاهرة الطبعة الاولى
- ١٣٢- المنهج اللغوي في كتاب سيبويه د.عبدالصبور شاهين حوليات الجامعة التونسية العدد ١١، ١٩٧٤
- ١٣٣- منهج سيبويه في التقويم النحوي د.محمد كاظم البكاء دار الشؤون الثقافية العامة ط ١ بغداد ١٩٨٩
- ١٣٤- التعليل اللغوي عند الكوفيين مع مقارنته بنظيره عند البصريين دراسة ايستومولوجية د.جلال شمس الدين ط ١ توزيع مؤسسة الثقافة الجامعية الاسكندرية ١٩٩٤
- ١٣٥- طرق تنمية الالفاظ في اللغة د. ابراهيم انيس
- ١٣٦- اصول التفكير النحوي، علي ابو المكارم مطابع دار القلم بيروت لبنان ط ١
- ١٣٧- دار البشائر الاسلامية بيروت لبنان مارس ١٩٩٩ الدكتور محمود محمد الطناحي مقالات العلامة الدكتور محمود محمد الطناحي صفحات في التراث والتراجم واللغة والادب
- ١٣٨- المدارس النحوية شوقي ضيف دار المعارف بمصر ط ٢
- ١٣٩- الايضاح في علل النحو د.شوقي ضيف
- ١٤٠- النحو والدلالة، محمد حماسة عبداللطيف دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة ط ٢
- ١٤١- مسالك الثقافة الإغريقية الى العرب تأليف دي لاسي أوليري الكتاب من ترجمة تمام حسان
- ١٤٢- الدراسات اللغوية والنحوية في مصر المرحوم العلامة احمد نصيف الجنابي
- ١٤٣- النحو العربي والدرس الحديث عبده الراجحي

النتائج والتوصيات

Conclusions and recommendations

١- ان موضوع التحليل النحوي لهو موضوع عظيم تناولته بحوث الدارسين له على مختلف العصور والحقب الزمنية سواء بالاشارة الصريحة له كتخصيص باب او فرع او تأليف كتاب خاص به او تناولته بالاشارة البسيطة عبر طيات الكتب والبحوث المنشورة سواء ما جاء في كتب المتقدمين او المتأخرين منهم وحتى يومنا هذا .

٢- لقد تناولنا في بحثنا هذا والموسوم ب (مناهج التحليل النحوي منذ عصر الخليل بن احمد الفراهيدي وحتى نهاية العصر العباسي) مادة التحليل النحوي بكافة فرعها وفصولها النظرية والتطبيقية وايضا تناولناها من عدة جوانب كان ابرازها اما كوجودها كمادة خام ان صح التعبير أي انها مادة متناثرة في طيات المذاهب النحوية التي اعتمدتها المدارس النحوية ضمن الحقبة الزمنية مناط البحث لم تاخذ الحيز المطلوب من الاهتمام من قبل النحاة او انها مادة علمية اصيلة بلغت مرحلة من النضج والتطور جعلها تستقل بذاتها كعلم مستقل من علوم النحوي العربي ومن امثلة على ذلك كتاب فخر الدين قباوة الذي تناول فيه علم التحليل النحوي بالبحث والتمحيص والتعديد والتاصيل

٣- حاولنا في بحثنا هذا قدر المستطاع شمول مادة التحليل النحوي ومذاهب النحاة فيها على مختلف العصور الزمنية بكل ما اوتينا من علم الا ان هذه المادة هي

مادة واسعة جدا لا يكفي بحث بسيط كبحتنا ان يغطي كل مفرداتها فما كان من صواب فمن الله تعالى وحده وما كان من نقص وخطأ وتقصير فمن انفسنا والشيطان والمعتزف بالذنب كمن لاذنب له لذا فإننا ارتأينا ان تكون اعمالنا المستقبلية بعون الله وتوفيقه هو عمل موسوعة التحليل النحوي لتشمل كل ماكتب في هذا الباب منذ النشأة الاولى لهذا العلم وحتى يومنا هذا وستكون على مرحلتين الاولى: المرحلة الكتابية على الورق واما المرحلة الثانية: فهي تحويل الموسوعة الورقية الى موسوعة الكترونية تنشر على الشبكة العنكبوتية (internet) وصولا الى نشرها كاحدى تطبيقات اجهزة (smart phon) تسهила على طلبة العلم ولتكون في متناول الجميع وهذا العمل يتطلب جهدا ووقتا كبيرا نسال الله سبحانه ان يعيننا عليه .

٤- نوصي بالاهتمام بعلم التحليل النحوي كونه علم أصيل أصبح له قواعد وأصول أصلاً له النحاة على مر العصور المختلفة كما شاهدنا ذلك في طيات البحث وندعو الى قيام دراسات اخرى من قبل المهتمين بالعلوم النحوية تتطرق الى جوانب لم نستطع ان نغطيها في بحثنا الضئيل هذا.

٥- نوصي بنشر هذا البحث وتعميمه على كافة الطلبة والمهتمين لتعم الفائدة كونه مصدرا مهما من مصادر مناهج التحليل النحوي الحديث .

٦- ندعو الى تشكيل لجان لغوية تقوم بدورها بتطوير أداء الطلبة في مادة النحو ومراقبة أدائهم الدراسي في كافة المراحل الدراسية المختلفة وبالذات مادة النحو العربي التي وجدنا فيها قصورا كبيرا بل إهمالا من قبل الأساتذة والدارسين كونها أصل اللغة العربية وبها يقوم اللسان فهي الطريق الى فهم اللغة العربية واصولها المختلفة .

٧- مصادر البحث التي استعنا بها كانت مصادر متعددة ومتشعبة وقد بذلنا فيها جهدا كبيرا لاستخلاص الفائدة المرجوة بأسلوب علمي واضح وسهل ورصين يصل بنا إلى استنتاجات بينة واضحة تجلو الغبش والوهم والإلتباس عن انظار طلبة العلم ومن اهم تلك المصادر التي عولنا عليها في طيات البحث كتاب الاستاذ فخر الدين قباوة في التحليل النحوي(اصوله وادلته) وكتاب الدكتور خديجة الحديثي في المدارس النحوية وكتاب الأستاذ شوقي ضيف المدارس النحوية ورسالة متعددة منها على سبيل الذكر لالحصر منهج التحليل النحوي عند قباوة من خلال كتابه التحليل النحوي اصوله وادلته بين النظرية والتطبيق اعداد الطالب كرموش محمد خير الدين وغيرها من مصادر البحث المتشعبة فجزى الله عنا من سبقنا في العلم وما انا الا كلاعب بالحصى على شواطئ علومهم الغزيرة.

٨- حاولنا التوسع في مادة التحليل النحوي لتشمل الكثير من الاراء النحوية والمذاهب التحليلية التي اتبعتها مدارس النحو المختلفة في فهم القاعدة النحوية او التاصيل لهذه القواعد فتارة نرجح رايًا على اخر وتارة نترك التعليق لفهم القارئ ليكون هو الحكم في بعض الاراء المطروحة في طيات البحث وتارة نلخص فكرة المبحث ليتنسى للقارئ الكريم فهم مايجري في عجالة تلملم الفكرة المطروحة بمنهجية علمية وتطرحها بأسلوب واضح مبسط.

٩- ان الخليل بن احمد الفراهيدي لهو بحق عبقرى اللغة واديبها بلا منازع وكل من جاء بعده هم عيال عليه ومن علمه نهلوا وخير دليل على ذلك طالبه الفذ علامّة اللغة ومهذبها سبويه هذا في مدرسة البصرة اما في مدرسة الكوفة فكان الكسائي والفراء شيخا هذه المدرسة واستاذيها لذلك ارتأينا في طيات البحث ان

نذكر بعض الآراء النحوية التحليلية وليس كلها واجلنا تناول ذلك في الأعمال
المستقبلية كما ذكرنا أنفا .



الخاتمة

لا يخفى على احد الجهد الذي بذل في جمع شتات علم التحليل النحوي والتأصيل لمذاهبه ومناهجه المختلفة والتي تحتاج الي جهود ضخمة وتكاتف طلبة العلم النحوي التحليلي للكشف عن مبهمات هذا العلم وتأصيلاته وتقعيداته ولم شتاته من امهات الكتب ولباب المصادر النحوية وبالرغم من ذلك فقد عملنا دأبين عاقدين العزم بعد التوكل على الله سبحانه ان نقوم بهذا العبيء ونسال الله ان قد وفقنا لذلك في تبين شئ يسير من نكات هذا العلم وطرائفه المختلفة والشكر والعرفان موصول لكل من أعاننا لاستكمال جوانب البحث من الاخوة الاعزاء والاساتذة الفضلاء في قسم اللغة العربية والفارسية في جامعة الله اباد واخص منهم بالذكر البرفسور الدكتور المشرف على الاطروحة عبدالقادر الجعفري رئيس قسم اللغة العربية والفارسية والاستاذ الدكتور حسنين اختر والدكتور حبيب احمد والدكتورة صالحة رشيد والدكتور محمود مرزا وجميع الاساتذة في القسم فجزاهم الله عني وعن كل طلبة القسم خير الجزاء وسدد خطاهم لكل ما يحبه ويرضاه .

التحليل النحوي هو علم يتطلب من الدارس له تركيزا وتمحيصا وإلمام بالقواعد النحوية ومذاهب النحو المختلفة وبحثنا هذا والموسوم (مناهج التحليل النحوي من عصر الخليل بن احمد الفراهيدي وحتى نهاية العصر العباسي) والذي اعتمدنا فيه اسلوب البحث الاستقرائي الوصفي والمقارنة والاستدلال والتحليل الموضوعي والذي قد تبين من خلاله دور الخليل الكبير في التأصيل للقواعد النحوية في كتابه الجمل ومعجم العين ان صحت نسبته اليه والتي كانت سببا لتكوين مناهج وراء تطورت على اثرها الافكار النحوية والتي توسعت لتكوين مدارس ومذاهب نحوية شتى شملت بقاع شتى وحقب زمنية متعددة غطتها طيات البحث ضمن الحقبة المراد دراستها

والتي ادت الى ظهور علم التحليل النحوي ومن ثم مناهج تحليلية نحوية متعددة تناولت المفردة اللغوية بالفحص والتمحيص لتنتج لنا اراء وطروحات اغنت كثيرا من الدراسين واشبعت كثيرا من الدراسات اللغوية بالمصادر المهمة في العلوم النحوية المختلفة

وفي الختام نسال الله سبحانه وتعالى ان يجعل عملنا هذا خالصا لوجه الكريم انه ولي ذلك والقادر عليه والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته...

الباحث محمد عبدالكريم ياسين

قسم اللغة العربية والفارسية

جامعة الله اباد - الهند

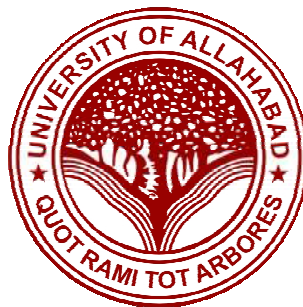
***GRAMMAR ANALYSIS METHODS SINCE
THE TIME OF KHALIL BIN AHMED TO
THE END OF THE ABBASID PERIOD
(FROM 132-556 A.H)***

Thesis submitted for the degree of

Doctor of Philosophy
in
ARABIC

By
MOHAMMAD ABDAL KAREEM YASSEN

UNDER THE SUPERVISION OF
Professor, ABDUL QADIR JAFARI
HEAD OF Deptt. Arabic & Persian
University of Allahabad



**DEPARTMENT OF ARABIC & PERSIAN
UNIVERSITY OF ALLAHABAD
ALLAHABAD (INDIA)**

2015